بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الإسم : هيله بنت سعد بن محمد السليمي. كليـــة : الشريعة والدراسات الإسلامية
قســـم : الدراسات العليا التاريخية والحضارية
الأطروحة مقدمة لنيل درجة : الماجستير . تخصص: التاريخ الحديث
عنوان الأطروحة : « دور اليهود في إسقاط الدولة العثمانية » .

****

الحمد للّـه رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فبناءً على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة أعلاه والتي تمت مناقشتها بتاريخ ١٤٢٢/٨/٢٩ هـ بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة، وحيث قد تم عمل اللازم؛ فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه.

واللّـه الموفق،،،

أعضاء اللجنة

المشرف	المناقش	المناقش
الاسم : أ.د/يوسف بن علي الثقفي	الاسم : أ.د/ عبداللطيف بن عبدالله بن دهيش	الاسم : د/ عايض بن خزّام الروقي
التوقيع :	التوقيع :	التوقيع :

يعتمد :

رئيس قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية

أ.د. يوسف بن علي الثقفي



المملكـة العربيـة السعوديـة
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية
مكة الكرمـة



دور اليهــود في إسقاط الدولة العثمانية

رسالة مقدمة للحصول على درجة الماجستير في التاريخ الحديث

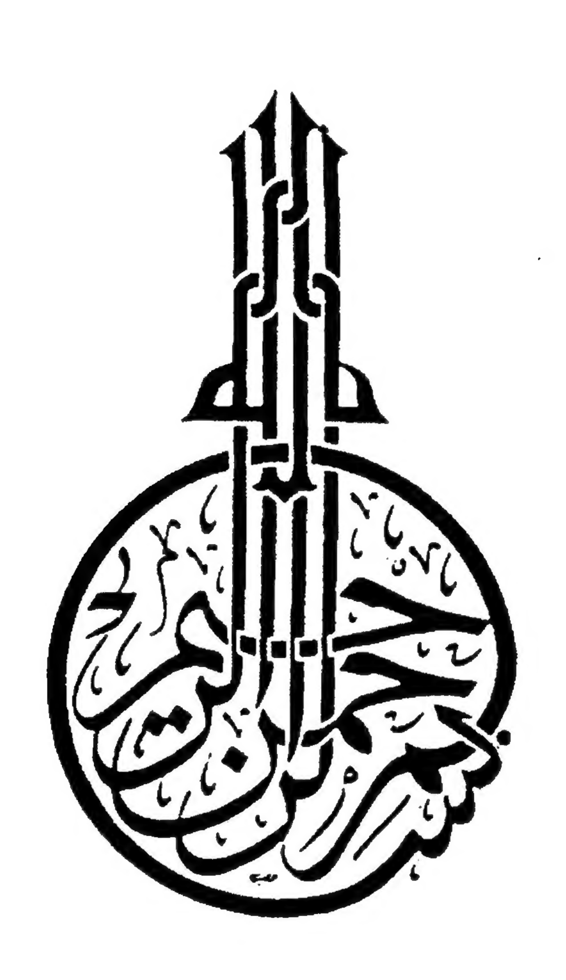
إعداد الطالبة

هيلة بنت سعد بن محمد السليمي

إشراف

الأستاذ الدكتور يوسف بن علي بن رابع الثقفي

١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م



ملخص البحث

عنوان البحث : دور اليهود في إسقاط الدولة العثمانية .

هدف البحث : تهدف هذه الدراسة إلى إبراز دور اليهود في إسقاط الدولة العثمانية من خلال التنبيه إلى أهم الوسائل والأساليب التي انتهجوها للقضاء عليها .

محتويات البحث : اشتملت الدراسة بعد المقدمة والتمهيد على خمسة فصول إضافة إلى الخاتمة .

في **الفصل الأول** وعنوانه : النشاط الصهيوني وموقف الدولة العثمانية منه : تحدث البحث عن السماحة التي تمتع بها اليهود في ظل الدولة العثمانية ، ثم تطرق البحث إلى ظهور طائفة الدونمة اليهودية في الدولة العثمانية موضحًا كيف ربطت وحدة الهدف نحو القضاء على الدولة العثمانية بين هذه الطائفة اليهودية التي تظاهرت بالإسلام وبين الصهيونية العالمية ، سيما بعد فشل الزعيم الصهيوني هرتزل Herzel في إقناع السلطان عبد الحميد الثاني بالسماح بإقامة وطن لليهود في فلسطين .

أما **الفصل الثاني** وعنوانه : أساليب التآمر التي نهجتها الصهيونية ضد الدولة العثمانيّة ، فقد تضمن دراسة لثلاثة من أهم الأساليب التي استخدمتها الصهيونية لإضعاف الدولة العثمانية وهي : ضغط الدول الاستعمارية ذات المصالح المشتركة مع الصهيونية ، وتشويه سمعة السلطان عبد الحميد الثاني ، وإرباك اقتصاد الدولة وإيقاعها تحت طائلة الديون .

وفي **الفصل الثالث** وعنوانه : تنفيذ المخططات الصهيونية ، سلطت الدراسة الضوء على الوسائل التي كان لها دور كبير في تنفيذ المخططات الصهيورنية وهي : الماسونية ، وسياسة إثارة العصبيات العرقية داخل الدولة العثمانية ، وجمعية الاتحاد والترقي .

أما **الفصل الرابع** وعنوانه : تزايد النفوذ اليهودي إبان الحرب العالمية الأولى فقد أظهرت الدراسة فيه تصاعد النفوذ اليهودي في تلك الفترة من خلال ابراز دور اليهود في إقحام الدولة العثمانية في تلك الحرب الأوروبية ومن ثم دورهم في توجيه الحرب .

وفي **الفصل الخامس** وعنوانه : المرحلة الحاسمة في إسقاط الدولة العثمانية ، تناولت الدراسة نشأة حركة مصطفى كمال وصولاً إلى إعلان ذلك الدونمة إلغاء الخلافة العثمانية وقيام الجمهورية التركية العلمانية .

أما **الخاتمة** فقد اشتملت على إبراز ما توصل إليه البحث من نتائج ومنها : أولاً : ان السماحة التي لقيها اليهود في الدولة العثمانية لم تنجح في اجتثاث ما تكنه نفوسهم من عداوة للمسلمين . ثانيًا : إن طائفة الدونمة اليهودية قد تمكنت من خلال تغلغلها في المجتمع العثماني من القيام بدور ضليع في خدمة مخططات الصهيونية والدول الاستعمارية . ثالثًا : ان اليهود والدول الاستعمارية – من واقع المصالح المشتركة – كانوا وراء الكثير من الأزمات الاقتصادية التي وقعت فيها الدولة العثمانية . رابعًا : إن وسائل الإعلام التي يسيطر عليها اليهود ولا سيما الصحافة كانت وراء ترويج الكثير من الافتراءات التي ألصقت بشخصية السلطان عبد الحميد الثاني وذلك للتأثير على الرأي العام في الدولة العثمانية بهدف إزاحته عن السلطة . خامسًا : إن الماسونية وهي إحدى المؤسسات اليهودية التي أنشأت لخدمة أهداف الصهيونية كان لها دور بارز في احتضان أخطر المنظمات الثورية المناوئة للحكومة العثمانية ومن ذلك دورها في توفير المُناخ المناسب لنشأة جمعية الاتحاد والترقي حتى برزت كقوة مؤثرة في المحيط العثماني وإتاحة الفرصة لليهود للتسلل إلى صفوفها . سادسًا : إن اليهود قد نجحوا من خلال تبنيهم لسياسة إثارة العصبيات العرقية داخل الدولة العثمانية في إحداث الفرقة والخصومة بين عناصر الشعب العثماني . سابعًا : إن اليهود بعد أن نجحوا في إقحام الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى بذلوا جهودًا كبيرة في توجيه دفة تلك الحرب إلى الاتجاه الذي يؤمن هزيمتها . ثامنًا : إن تستر الدونمة مصطفى كمال بالإسلام ودعم الدول الأوربية له مكنه من خداع الشعوب الإسلامية والإجهاز على الرمق المتبقي من الدولة العثمانية بإعلانه إلغاء الخلافة العثمانية وقيام الجمهورية التركية العلمانية .

الطالبة	المشرف	عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
هيلة بنت سعد بن محمد السليمي	أ.د. يوسف بن علي الثقفي	أ.د. محمد بن علي العقلا

المقدمـــة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا إلى طريق الخير والصلاح ونسأله دوام التوفيق والنجاح والصلاة والسلام على رسوله المصطفى الذي دعا إلى طلب العلم .

وبعد :

فغني عن القول أن موضوعات التاريخ الحديث تتميز بالحيوية والفاعلية ومن هذا المنطلق وقع اختيار الباحثة على موضوع جوهري يؤرق الضمير الإسلامي ويمس حياتنا وواقعنا المعاصر ، بل ربما أمكن القول بأن معظم ما تعاني منه أمتنا الإسلامية اليوم من أزمات هي من نتائجه ومتمماته .

أعني بذلك الدور الذي قام به اليهود في إسقاط الدولة العثمانية ، فقد أدرك اليهود الذين ما انفكوا منذ بزوغ شمس الإسلام يناصبونه العداء أن أقصر الطرق للنيل من الإسلام والمسلمين هو القضاء على الخلافة الإسلامية وهي العقد الذي ينتظم الشعوب الإسلامية ويقف كالطود حائلاً دون تحقيق أطماعهم .

لقد وصل اليهود إلى تلك القناعة لا سيما بعد أن باء ت بالفشل كل المحاولات التي بذلوها في سبيل إقناع السلطان عبدالحميد الثاني بالسماح لهم في تحويل فلسطين إلى وطن قومي لليهود تمهيداً لإعادة دولة بني إسرائيل لسابق مجدها - كما يدّعون - فكان من نتائج ذلك أن نهض اليهود ومن والاهم من الدول الإستعماريةللعمل على الإطاحة بالسلطان عبدالحميد والقضاء على الدولة العثمانية ولم تبق حيلة ولا وسيلة إلا لجأوا إليها لتحقيق هدفهم ونجحوا في فتح العديد من الجبهات داخل الدولة وخارجها بغرض تفتيت تماسكها وتلغيم صمودها، وبثوا بذور الفتن، وزوروا الحقائق، ونشروا الدعايات المغرضة والمضلّلة ، وحاكوا المؤامرات ، وأثاروا النعرات الإقليمية والدعوات القومية، وتغلغلوا في كافة المجالات والأوساط واستغلوا السذج وذوي الغايات .

وبتضافرهذه العوامل تمكنت القوى المتآمرة صاحبة المصلحة من الوصول

إلى بغيتها في زعزعة أركان الدولة الإسلامية العثمانية ، ثم زجوا بها في خضم الحرب العالمية الأولى لتتنوق مرارة الهزيمة وتُقسم أملاكها على الدول الأوروبية المنتصرة .

كما استغلت تلك القوى تداعيات هذه الحرب لإبراز شخصية اليهودي الدونمة مصطفى كمال الذي تكفل بتنفيذ الجزء الأخير من المخطط اليهودي الاستعماري حيث ألغى الخلافة الإسلامية وطرد الخليفة العثماني عبد المجيد الثاني وجميع آل عثمان خارج البلاد .

وأفاق المسلمون الذين كانوا قد خُدعوا بذلك الدونمة الذي تلبّس لباس الإسلام على هذا الكابوس الرهيب الذي انطوى على أعظم فاجعة أصيبوا بها وأكبر مصيبة نزلت بهم منذ ظهور الإسلام ، إذ رأوا بنيان دولة الخلافة ينهار أمام أعينهم . ولم يعد هناك ما يجمعهم ويلم شتاتهم وأصبحت أرضهم موطنًا لأعدائهم حيث تنفس الزمان لليهودية العالمية وأعوانها لتحقيق مآربهم والتنفيس عن أحقادهم .

ومما هو جدير بالذكر أنه على الرغم من أن المكتبة الاسلامية تحوي العديد من الدراسات الخاصة بأسباب سقوط الدولة العثمانية فإن معظمها مغرقة في التركيز على الأسباب التي تكاد تتكرر في سقوط كل الدول دون رصد تاريخي دقيق للأسباب العميقة لمظاهر الضعف التي أدت إلى تدهور الدولة العثمانية وسقوطها ، لذا فهي لم تتطرق لدور اليهود في هذا المجال ، فيما كان القلة من المؤرخين الذين تعرضوا لدور اليهود ضمن دراساتهم الخاصة بأسباب سقوط الدولة العثمانية قد تناولوا ذلك بصورة عابرة .

ومن هنا تأتي أهمية هذه الدراسة التي توضح أبعاد العداوة التي كان اليهود يكنونها للدولة العثمانية ، وتنبه إلى الوسائل والأساليب التي انتهجوها للقضاء عليها وهي الوسائل والأساليب ذاتها التي تحدق أخطارها بكثير من بلدان العالم الاسلامي اليوم .

وقد حرصت على استقاء مادة هذا البحث من مظانها الأصلية فتمكنت بفضل من الله وتوفيقه من الحصول على بعض الوثائق من أرشيف السجلات البريطانية العام Foreign Office Papers " Public Record Office London ".

كما حرصت على الرجوع إلى العديد من المصادر التي كتبها أفراد شاركوا بدرجات متفاوتة في صنع الأحداث التاريخية التي تمثل موضوع هذا البحث أو عاصروها . مع الأخذ بعين الاعتبار بأنها ليست مما لا يرقى إليه الشك فهي ربما تمثل وجهة نظر معينة إلا أنها على أي حال أقرب إلى الحدث وتحمل في طياتها معلومات على جانب كبير من الأهمية ، لذا فقد كان لا بد من تحليلها واستنتاج الأفكار المتزنة منها . كما استأنس البحث بمجموعة من المراجع الحديثة ذات الصلة المباشرة بموضوع البحث .

هذا وقد بذلت قصارى جهدي في سبيل إخراج هذا البحث في صورة مرضية فإن كنت قد وفقت فذلك من الله وله الحمد والشكر على فضله ، وإن كنت قد قصرت فتلك طبيعة البشر .

وفيما يتعلق بالخطة التي سار عليها البحث فهي تتضمن تمهيداً وخمسة فصول إضافة إلى الخاتمة وقائمة المصادر والمراجع .

ويعالج البحث في التمهيد نوعية العلاقة بين المسلمين واليهود منذ بزوغ فجر الإسلام إلى العهد العثماني .

ويتضمن الفصل الأول الحديث عن موقف الدولة العثمانية من اليهود والنشاط الصهيوني وكيف أنّ اليهود تمتعوا في ظل الدولة العثمانية بسماحة قل نظيرها في تاريخهم الطويل سيما حين استضافت اليهود اللاجئين الذين طردتهم محاكم التفتيش الأسبانية في أواخر القرن التاسع الهجري الموافق لأواخر القرن الخامس عشر الميلادي ووفرت لهم الحرية الدينية وسبل الحياة الكريمة ، ثم يتطرق البحث إلى ظهور طائفة الدونمة اليهودية في الدولة

العثمانية موضحاً كيف ربطت وحدة الهدف نحو القضاء على الدولة العثمانية بين هذه الطائفة اليهودية التي تظاهرت بالإسلام وبين الصهيونية العالمية سيما بعد أن فشلت جميع الجهود التي بذلها الزعيم الصهيوني هرتزل Herzel في سبيل إقناع السلطان عبد الحميد الثاني بالسماح لليهود بإقامة وطن قومي لهم في فلسطين .

أما الفصل الثاني فقد خُصص لمعالجة أساليب التآمر التي نهجتها الصهيونية ضد الدولة العثمانية حيث تضمن هذا الفصل دراسة لثلاثة من أهم الأساليب التي استخدمتها الصهيونية لإضعاف الدولة العثمانية وصولاً إلى إسقاطها لكي تتمكن من تنفيذ مشروعها في فلسطين . كان أولها ضغط الدول الاستعمارية التي ربطتها المصالح المشتركة بالصهيونية العالمية . ثم أوضح البحث كيف كان أسلوب تشويه سمعة السلطان عبد الحميد الثاني من أهم الأساليب التي استخدمتها الصهيونية وحلفاؤها للتأثير على الرأي العام في الدولة العثمانية بهدف إزاحته عن السلطة ليخلو الطريق أمامهم من أي عقبة تمنع تحقيق أطماعهم ، وأخيراً تعرض البحث للطرق التي استخدمها اليهود لإرباك اقتصاد الدولة العثمانية وإيقاعها تحت طائلة الديون لبيوت المال التي يسيطرون عليها اعتقاداً منهم بأن ذلك سيخضع الحكام العثمانيين لرغباتهم .

أما الفصل الثالث فيشتمل على بعض الوسائل التي كان لها دور كبير في تنفيذ أهداف الصهيونية في القضاء على الدولة العثمانية ، ومن هذه الوسائل الماسونية حيث وضحت الدراسة دور محافل هذه المؤسسة اليهودية في احتضان أخطر المنظمات السرية المناوئة للحكومة العثمانية ونجاحها في اجتذاب كبار موظفي الدولة وأصحاب النفوذ في المجتمع العثماني واستغلالهم في خدمة الأهداف الصهيونية . كما تعرضت الدراسة للنجاح الذي حققته سياسة إثارة العصبيات العرقية داخل الدولة العثمانية في إحداث الفرقة والخصومة بين عناصر الشعب العثماني ولا سيما بين العرب والترك اللذين

يمثلان أكبر عناصر الشعب العثماني آنذاك وأكثره فاعلية مما كان له أبلغ الأثر في تمزيق وحدة الدولة وإضعافها . ثم تحدث البحث عن جمعية الاتحاد والترقي موضحًا مدى سيطرة اليهود عليها ودورها في تنفيذ المخططات الصهيونية .

وفي الفصل الرابع ركزت الدراسة على تزايد النفوذ اليهودي إبّان الحرب العالمية الأولى والذي تمثل في نجاح جهود اليهود في داخل الدولة العثمانية وخارجها في إقحامها في تلك الحرب ومن ثم في دورهم في توجيه دفة الحرب بالشكل الذي يؤمن هزيمتها .

أما الفصل الخامس والأخير فعنوانه : المرحلة الحاسمة في إسقاط الدولة العثمانية ، وفيه يعالج البحث حركة مصطفى كمال ذلك اليهودي الذي تمكن من خلال تقمصه لدور البطل المناضل من خداع الشعوب الإسلامية العثمانية واستغلال ثقتها به للإجهاز على الرمق المتبقي من الدولة العثمانية حيث قام بإلغاء الخلافة الإسلامية وأعلن عن قيام الجمهورية التركية العلمانية وطرد الخليفة العثماني وجميع آل عثمان خارج البلاد .

وفي الخاتمة تعالج الدراسة أبرز ما توصل إليه البحث من نتائج وحقائق تاريخية تثبت دور اليهود في إسقاط الدولة العثمانية .

* * *

وختامًا لا يسعني إلا أن أتقدم بالشكر لكل من مدّ يد العون لي لإظهار هذا الجهد العلمي المتواضع إلى حيز الوجود فأتوجه بدايةً بخالص الشكر والتقدير لوالديّ أمد الله في عمرهما ، ومتعهما بالصحة والعافية فقد كانا خير سندٍ ومعينٍ لي في مواصلة دراستي . كما أتقدم بالشكر أوفاه وأجزله لزوجي

الفاضل الذي كان له أطيب الأثر في ترسيخ العزم نحو استكمال دراستي العليا ، ولأبنائي على مشاعرهم الصادقة معي ، ولا يفوتني تقديم وافر شكري لإخواني على تعاونهم معي .

والشكر موصول لجامعة أم القرى وكلية الشريعة والدراسات الإسلامية وقسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية لاتاحتهم لي فرصة البحث والتحصيل . وأخص بخالص شكري وتقديري أستاذي المشرف سعادة الأستاذ الدكتور يوسف بن علي الثقفي رئيس قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية الذي قدم لي كل الدعم وخصني بعلمه ووقته وكانت ملاحظاته القيمة وتوجيهاته السديدة خير معين لي في إخراج هذا البحث فأسأل اللّه عز وجل أن يجزيه عني خير الجزاء وأن يثيبه نعم الثواب .

كما أتوجه بالشكر إلى الاستاذين الفاضلين عضوي لجنة الفحص والمناقشة سعادة الأستاذ الدكتور عبداللطيف بن دهيش وسعادة الدكتور عايض بن خَزَّام الروقي حيث تكرما بقبول مناقشة هذا البحث . راجية من اللّه تعالى أن يكون هذا العمل المتواضع لبنة صالحة في صرح تاريخ أمتنا الاسلامية .

وآخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين وسلام على عباده الذين اصطفى .

التمهيد

نبذة عن العلاقة بين المسلمين واليهود

٢

إذا بحثنا في وثائق التاريخ وإذا استعرضنا علاقات الأمم فإننا نكاد لا نجد عداوة تماثل في شراستها وأبديتها ذلك النوع من العداوة الذي تكنه طوائف اليهود للأمة الإسلامية ، فقد امتد دخان هذه العداوة وتلونت أبعادها على امتداد التاريخ ، مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ [1] وقد ارتبط ظهور هذه العداوة ببزوغ شمس الإسلام التي كشفت عن معاني كثيرة وقضت على آثار الماضي البغيض ولأن الإسلام بسمو مبادئه الدينية والدنيوية قد نسخ الأديان السماوية السابقة التي حُرفت أشكالها وتغيرت أوضاعها الإلهية في ذلك الحين فجاءت دعوة محمد صلى الله عليه وسلم للبشرية عامة لعقيدة التوحيد والاعتراف بإله واحد لا شريك له ، قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [2] .

وقد تغلغلت هذه العداوة في نفوس اليهود لما وجد الإسلام قبولاً وذيوعًا وانتشارًا وأنصارًا حيث تحقق اليهود أن هذا الدين الذي يوافق الفطرة السليمة سيكتسح عقائدهم الزائفة الباطلة[3] ، وسيقضي على كيانهم المزعزع وطموحهم الظالم ، فاتحدوا فيما بينهم وصمّموا على الوقوف في وجهه معلنين عداءهم السافر له[4] .

---

(١) سورة المائدة : الآية (٨٢) .

(٢) سورة الأعراف : الآية (١٥٨) .

(٣) أوجس اليهود الخيفة من الإسلام بعد إسلام طائفة من أحبار اليهود الذين رأوا الحق فاتبعوه ، أمثال عبدالله بن سلام ومخيريق . عبد الملك بن هشام الحميري : السيرة النبوية ، تعليق عمر عبد السلام تدمري ، ٤ أجزاء، الطبعة الأولى (القاهرة : دار الريان للتراث ، ١٤٠٨هـ /١٩٨٧م) ج٢ ص ١٥٩.

(٤) جواد رفعت آتاخان : الإسلام وبنو إسرائيل ، تعريب : يوسف وليشاه أور الكيراي (الرياض : مطبعة سفير ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م) ص ١٧٤ .

٣

نعم هذا هو الموقف الذي وقفه اليهود من الإسلام وأتباعه وهو لا يزال في مهده ، في حين نجد رسول الإسلام والسلام محمد صلى الله عليه وسلم يضع في أولويات الأسس التي اعتمدها لبناء الدولة الإسلامية التي نشأت بعد هجرته للمدينة أساسًا يتعلق بالقيمة الدستورية للدولة الجديدة تضمن كتابة وثيقة بين المهاجرين والأنصار وادع فيها اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم[١] وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم [٢].

والمتفحص لبنود هذه الوثيقة كما وردت في كتب السيرة النبوية يستدل على مدى العدالة التي اتسمت بها سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم مع اليهود . ولقد كان بالإمكان أن تؤتي هذه السياسة العادلة ثمارها فيما بين المسلمين واليهود لو لم تتغلب على اليهود طبيعتهم من حب للمكر والغدر ونقض للمواثيق فما هي إلا فترة وجيزة حتى ضاقوا ذرعًا بما تضمنته بنود هذه الوثيقة ، فخرجوا على الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين بألوان من الغدر والخيانة .

وقد تمثلت المقاومة اليهودية للإسلام في بادئ أمرها بمواقف التشكيك وإثارة الشبهات التي ابتدأ رجال الدين اليهود يعمدون إليها[٣] . ليضعفوا الإيمان في نفوس المسلمين وليزعزعوا ثقتهم في الإسلام [٤]، وفي هذا نزل

---

(١) انطلاقًا من القاعدة الشرعية في قوله تعالى : ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ من الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا واللَّـهُ سميع عَلِيمٌ ﴾

– سورة البقرة : الآية (٢٥٦) .

(٢) ابن هشام : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ١٤٣ .

(٣) من ذلك قول زيد بن اللصيت وهو من أحبار يهود بني قينقاع حين ضلت ناقة رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: «يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء ، ولا يدري أين ناقته» . المصدر نفسه:ج٢، ص١٦٨.

(٤) أحمد عبدالله الزغيبي : العنصرية اليهودية وآثارها في المجتمع الإسلامي والموقف منها ، ٤ أجزاء ، الطبعة الأولى (الرياض : مكتبة العبيكان ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م) ج٢ ، ص ص ٣٥٠ – ٣٦٤ .

٤

قوله تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ (١) .

ثم تلى ذلك المرحلة التي ابتدأ اليهود فيها يمثلون الخطر المحقق على المسلمين وأمنهم ولا سيما بعد أن حقق المسلمون ذلك النصر المبين في بدر في السنة الثانية للهجرة على مشركي مكة فزادت بذلك شوكتهم صلابة مما أوغر صدور اليهود عليهم فراحوا يمارسون أساليب شتى في الكيد للمسلمين(٢) ، فتارة تراهم يعملون على هتك أعراض المسلمين كما فعل يهود بني قينقاع(٣) ، وتارة تبلغ بهم الجرأة واللؤم أن يحاولوا قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم غدراً على جبلتهم كما فعل يهود بني النضير(٤) ولكن الله تعالى نجى رسوله ورد كيدهم في نحورهم(٥) . وأخرى تراهم يثيرون أعداء الإسلام ويؤلبونهم عليه ويجمعون الجموع والأحزاب كما فعل بنو النضير أيضاً واستجاب لغدرهم بنو قريظة لضرب المسلمين من الخلف وإيقاعهم بين شقي الرحى كما حدث في غزوة الخندق ولكن الله تعالى نصر المسلمين ورد الذين كفروا على أعقابهم (٦).

---

(١) سورة البقرة : الآية (١٠٩) .

(٢) محمد سيد طنطاوي : بنو إسرائيل في القرآن والسنة ، الطبعة الأولى (القاهرة : دار الشروق ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م) ص ٢٦٤ .

(٣) ابن هشام : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٩ .

(٤) محمد سعيد البوطي : فقه السيرة ، الطبعة الثامنة (دمشق : دار الفكر ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م) ص٢٥٩ .

(٥) هناك محاولة فاشلة أخرى قامت بها زينب بنت الحارث اليهودية حينما دست للرسول صلى الله عليه وسلم السم في شاة مصلية . قدمتها له أثناء غزوه عليه السلام ليهود خيبر . ولكن الله أبطل كيدها .
– المرجع نفسه : ص ٣٣١ .

(٦) هذه المؤامرة حدثت بعد إخراج يهود بني النضير من المدينة لنقضهم للعهد عندما حاولوا قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم في حين كان بنو قريظة لا يزالون في المدينة فأغراهم بنو النضير بنقض العهد ففعلوا . وقد غزا رسول الله بني قريظة في أعقاب غزوة الخندق فكان حكم الله فيهم أن =

وبإقدام اليهود على هذه الأفعال المشينة وإصرارهم على نقض المواثيق أصبح الرسول صلى الله عليه وسلم وكذا المسلمون في حلٍّ مما التزموا به تجاههم في تلك المعاهدة ، فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى بإجلائهم وتطهير مدينته من شرورهم فاستقر بعضهم في خيبر[١] حيث صالحهم الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك على السماح لهم بالإقامة فيها وزراعتها على أن يكون للمسلمين نصف نتاجها[٢]. فمكثوا على هذه الحال إلى أن ألحت عليهم طبيعة الغدر المتأصلة فيهم فقاموا بعد ارتحال الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى بمعاودة العدوان على المسلمين ، وكان ذلك في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأمر بإخراجهم من كافة أراضي الجزيرة العربية بعد أن ذكرهم بشرط رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي اشترطه عليهم عند مصالحته لهم في خيبر في قوله عليه السلام : على أنا إن شئنا أن نخرجكم أخرجناكم [٣] . كما استند رضي الله عنه في عمله هذا على أنه قد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو في مرض وفاته : « لأُخْرِجنَّ اليهُود والنصارى مِنْ جَزيرةِ الْعَرَبَ حتى لاَ أَدَعَ إلاَّ مُسْلمًا »[٤] .

= يقتل رجالهم وتقسم أموالهم وتسبى نساؤهم وذراريهم . – ابن هشام : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ص ١٧٢ – ١٩٠ .

(١) خيبر : تقع على بعد مائة ميل شمال المدينة المنورة في طريق الشام . ويقال انها قد سميت بهذا الاسم لأن معنى كلمة خيبر بالعبرية الحصن . ولكون هذا المكان يشتمل على عدد كبير من الحصون أطلق عليها هذا الاسم . وهي مشهورة بكثرة نخيلها . شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموي : معجم البلدان ، ٥ أجزاء ، الطبعة الثانية (بيروت : دار صادر ، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م) ج ٢ ، ص ٤٠٩ .

(٢) محمد سعيد البوطي : المرجع السابق ، ص ٣٣١ .

(٣) محمد بن جرير الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ٦ أجزاء ، الطبعة الثانية (بيروت : دار الكتب العلمية، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م) ج ٢ ، ص ٥١٦ .

(٤) مسلم بن الحجاج القشيري : صحيح مسلم . تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ٥ أجزاء ، الطبعة الأولى (بيروت : دار إحياء التراث العربي ، ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م) ج٣ ، كتاب الجهاد والسير ، باب إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب ، حديث رقم (١٧٦٧) ص ١٣٨٨ .

وهكذا تم إخراج اليهود من الجزيرة العربية [١]. ولولا بغيهم وعدوانهم واستكبارهم على الحق لما أخرجوا ، ولكن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده .

إلا ان اليهود كانوا مصرين على اقتحام دار الإسلام للنيل من أهله فسلكوا طرقًا ملتوية للتمكن من ذلك فادعى بعضهم الإسلام ، حيث خدمتهم هذه الوسيلة أعظم خدمة لتنفيذ ما يخططون له ويبيتون ، ومن أبرز من سلك هذا المسلك ابن سبأ[٢] ذلك اليهودي اللئيم الذي دق في دار الإسلام أكبر إسفين حين راح ينتهز صورًا من النقد وجهت لسياسة عثمان بن عفان رضي الله عنه ليشعل تلك الفتنة التي أودت بحياة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم بطريقة نكراء بشعة ، ثارت بسببها مناقشات حادة انتهت إلى قيام حروب أهلية وأراقت دماء ذكية ولم ينته الأمر عند هذا الحد بل ذهب ذلك المغرض يدس أفكارًا غريبة على الإسلام والمسلمين متخذًا التشيع

---

(١) اختلف العلماء في المقصود بـ (الجزيرة العربية) في الحديث الشريف ورجحوا أن المقصود هو (الحجاز) لأن عمر رضي الله عنه لما أجلى يهود خيبر استوطن بعضهم في (تيماء) وهي من الجزيرة العربية ، كما انه رضي الله عنه لم يجل اليهود الذين كانوا يقيمون خارج الحجاز مثل يهود البحرين واليمن .

- سليمان بن الأشعث السجستاني : سنن أبي داود ، تعليق : عزت عبيد الدعاس ، ٥ أجزاء (حمص : دار الحديث) ج ٣ ، كتاب الخراج والامارة والفيء ، باب إخراج اليهود من جزيرة العرب ، ص٤٢٥ .

(٢) ابن سبأ : اسمه عبدالله بن سبأ ويكنى بابن السوداء لأن أمه سوداء وهو يهودي من أهل صنعاء ادعى الإسلام في خلافة عثمان رضي الله عنه وتنقل بين الأمصار الإسلامية ينشر أفكارًا ضالة فادعى عودة محمد صلى الله عليه وسلم وأن عليًا رضي الله عنه وصي محمد عليه السلام وأن عثمان بن عفان رضي الله عنه قد أخذ الخلافة بغير حق ، ثم كثر أتباعه وأخذ الثوار يوجهون التهم للخليفة حتى انتهى أمر هذه الفتنة بقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه .

- الطبري : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦٤٧ .

لآل بيت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ستاراً ينسج خلفه ألوانًا من الترهات والأباطيل بقصد الكيد للإسلام وتمزيق وحدة المسلمين[١] . فتعددت المذاهب والفرق واشتد الجدل والخصومة وقامت سلسلة من الحركات الهدامة التي كانت قذاة في عين الأمة الإسلامية عبر تاريخها الطويل ، وما القرامطة والباطنية والراوندية والخرمية والزنادقة والدرزية والبهائية إلا من إفرازات تلك الأفكار التي ألقى بنورها ذلك اليهودي وتعهدها بالرعاية اتباعه ، حيث كانت تلك الحركات تحمل في طياتها خطراً يهدد المسلمين وهرطقة تهدد الفكر الإسلامي فراحت تستنفذ جهد ووقت أبناء الإسلام المخلصين في الدفاع عنه ، هذا عدا الخسائر في الأرواح والأموال في وقت كان المسلمون في أمس الحاجة لتلك الطاقات [٢].

ولم يكتف اليهود بجهودهم الذاتية للنيل من الإسلام والمسلمين بل كانوا يشدون من عضد كل عدو مناوءٍ لهما . فالمتمعن في أحداث الحروب التي شنها الصليبيون على العالم الإسلامي في أواخر القرن الخامس الهجري الموافق لأواخر القرن الحادي عشر للميلاد يجد أنه كان لليهود دور ضليع فيها حيث كانوا يملكون أغنى بيوت الأموال في غرب أوربا مما مكنهم من تقديم الدعم المادي الذي يستلزم لإعداد تلك الحملات على أمل أن ينتصر الصليبيون فيكون في ذلك متنفس لأحقادهم على المسلمين وكذا فتح طريق يمكنهم من العودة للأراضي المقدسة [٣].

---

(١) المصدر نفسه : ج٢ ، ص ٦٤٧ .

(٢) أحمد شلبي : مقارنة الأديان (١) اليهودية ، الطبعة العاشرة (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م) ص ٣٥٧ .

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، جزءان ، الطبعة الثانية (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م) ج١ ، ص ١٣٧ .

في حين نجد أن صلاح الدين الأيوبي بعد تحرير بيت المقدس لا يتبع سياسة المعاملة بالمثلِ لأن الإسلام يحثنا على أن نصفح عمن أساء إلينا ، وامتثالاً لذلك نجد صلاح الدين يحسن إلى اليهود في البلاد الإسلامية التي يحكمها إلا أن ذلك لم ينههم عن أن يعودوا لممارسة ديدنهم في الغدر والخيانة ، فقد اكتشف صلاح الدين مؤامرة للقضاء على حكمه في مصر عن طريق الاتصال بالصليبيين كان لليهود دور فيها[١] ، وليس عجيبًا أن يقابل اليهود المسلمين بنكران الجميل فقد طُبع اليهود على الغدر وجحود كل فضل .

ولما كانت صفحات التاريخ الإسلامي ملأى بوقائع مؤلمة ، وحوادث منكرة تُدين اليهود وتقدم براهين دامغة على عدوانهم على الإسلام وغدرهم بالمسلمين ، لذا فلم تكن الدولة العثمانية وهي صفحة ناصعة في التاريخ الإسلامي بمنأى عن ذلك العدوان لا سيما وأن اليهود قد رأوا فيها العقبة الكؤود التي حالت بينهم وبين تحقيق أطماعهم لذلك فقد وجهوا سهامهم إليها وتسللوا إلى عقر دارها وراحوا يحيكون لها في الظلام – كعادتهم – المؤامرات ويثيرون الفتن والأحقاد والاضطرابات . وعلى سبيل المثال ما حصل في عهد السلطان محمد جلبي الأول (٨١٦ – ٨٢٤هـ / ١٤١٣ – ١٤٢١م) حيث استغل اليهود اضطراب الدولة في أعقاب الغزو المغولي لها وموت السلطان بايزيد الأول في الأسر وما أعقب ذلك من صراع بين أبنائه حول تولي الحكم فذهبوا ينشرون بين المسلمين آراء هدامة تقوم على الفكر الإشتراكي روج لها شخص يُدعى (بدر الدين) كان يشغل منصب قاضي عسكر وآخر يُدعى (طورلاق كمال) وهو من أصل يهودي فتسترا بالإسلام لتحقيق أهدافهما فكثر

---

(١) تقي الدين أحمد بن علي المقريزي : الموعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ٣ أجزاء (القاهرة : دار التحرير للطبع والنشر ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م) ج٢ ، ص ٢٢ .

أتباعهما وبات الأمر يشكل خطراً على كيان الدولة فتنبه السلطان محمد لذلك وأمر بتعقب رؤوس الفتنة والقضاء عليهم[١] .

ولكن اليهود لم يستكينوا فقد ظلت دسائسهم ومؤامراتهم لا تنقطع ، فها هو السلطان محمد الثاني (٨٥٥ - ٨٨٦هـ / ١٤٥١ - ١٤٨١م) فاتح القسطنطينية ورافع لواء الإسلام الذي مزق الأساطيل والجيوش الصليبية يلقى حتفه نتيجة مؤامرة دنيئة خططت لها الدوائر الصليبية ونفذها العميل اليهودي البندقي المدعو (ميسترو لا كوبو Mestro Lacopo) الذي ادعى الإسلام وتسمى باسم (يعقوب باشا) واستغل الثقة التي منحه إياها السلطان والمكانة التي تبوأها لديه أسوأ استغلال حيث كان الطبيب الخاص بالسلطان فدس له السم بصورة تدريجية أودت بحياته[٢] .

ولم تتوقف دسائس اليهود عند هذا الحد بل ذهبت إلى أبعد من ذلك فقد تسللت إلى داخل قصور السلاطين للإيقاع بين سكانها كما فعلت (روكسلانا Roxelane) تلك الفتاة اليهودية الروسية التي أهداها تتار القرم للسلطان سليمان الأول القانوني (٩٢٦ - ٩٧٤ هـ / ١٥٢٠ - ١٥٦٦ م) فراحت تفتن السلطان بجمالها فاتخذها زوجة له [٣]وأنجبت له الأبناء والبنات وازداد نفوذها

---

(١) إسماعيل سرهنك : تاريخ الدولة العثمانية (بيروت : دار الفكر الحديث ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م) ص٣٠
- محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق : إحسان حقي ، الطبعة الخامسة (بيروت : دار النفائس ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م) ص ١٥٠ .

(٢) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، تعريب : عدنان محمود سليمان ، جزءان ، الطبعة الأولى (استانبول : منشورات مؤسسة فيصل للتمويل ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م) ج١ ، ص ١٧٧ .

(٣) يجيز الإسلام للمسلم أن يتزوج الكتابية . قال تعالى : (الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ . وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ)
- سورة المائدة : الآية (٥) .

فمضت في تنفيذ مخططها ليصبح ابنها سليم الثاني وليًا للعهد[١] وبحثت عن شخص يعينها على تحقيق ذلك ، فوقع اختيارها على شخص يدعى (رستم باشا)[٢] ، فزوجته من إحدى بناتها ثم طلبت من السلطان سليمان أن يُعينه صدراً أعظم (رئيس للوزراء) فحقق لها رغبتها . وعندما اشتعلت الحرب بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية عام ٩٦٠هـ / ١٥٥٣م سنحت الفرصة لروكسلانا لتنفيذ مآربها حيث انتهزت وجود ولي العهد الأمير مصطفى ابن السلطان سليمان من زوجته الأولى ضمن قواد الجيش على جبهة القتال واتفقت مع صهرها الصدر الأعظم رستم باشا على إيغار صدر السلطان على ابنه وولي عهده الأمير مصطفى[٣] . فأدخل رستم باشا في روع السلطان أن ولي العهد يحرض فيالق الإنكشارية على المطالبة بعزل السلطان وتنصيبه بدلاً عنه . ففعلت هذه الوشاية فعلها ، فقرر السلطان ضرورة التخلص من ابنه وولي عهده بقتله ، ونفذ ذلك القرار[٤] .

وهكذا تمكنت الدسيسة اليهودية من تنفيذ مخططها وكان لذلك نتائج سيئة من أهمها الإساءة لسيرة السلطان سليمان القانوني في آخر سني عمره وهو الذي اشتهر قبل ذلك بعظيم الخصال والأفعال ، هذا عدا ما ترتب على

---

(١) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، الطبعة الثالثة (بيروت : المكتب الإسلامي ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م) ص ٥٣ .

(٢) رستم باشا : كرواتي الأصل كان واليًا على ديار بكر ثم عينه السلطان سليمان القانوني صدرًا أعظم للدولة بعد إحالة الوزير سليمان باشا إلى التقاعد في عام ٩٥٠هـ / ١٥٤٣م واستمر في هذا المنصب خمس عشرة سنة ، وهو أخو القبطان البحري سنان باشا .

– حسين مجيب المصري : معجم الدولة العثمانية (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م) ص ٩٤ .

(٣) إسماعيل سرهنك : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٠١ .

(٤) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٢٤٦ .

ذلك من قيام حرب أهلية بين أبناء السلطان سليمان القانوني حيث حدث نزا ع بين الأمير سليم الثاني الذي أصبح وليًا للعهد وبين شقيقه بايزيد ، الذي شجعه عدم ترحيب الجيش بتولي سليم لولاية العهد على مناهضة أخيه ومحاربته ، لينتهي الأمر بأن يشي سليم بأخيه بايزيد عند والدهما فيكون مصيره وأبنائه كمصير أخيه مصطفى[١] ، كما كان من أسوأ نتائج ذلك المخطط اليهودي حرمان الدولة من سلطان منتظر هو الأمير مصطفى الذي شهد له معاصروه بمؤهلات تجعله جديراً بتولي الحكم خلفًا لسلطان عظيم مثل سليمان القانوني[٢] حيث انتقلت ولاية العهد ظلماً وغدراً إلى شخص غير مؤهل هو الأمير سليم الثاني الذي تولى الحكم بعد وفاة والده فكانت فترة حكمه (٩٧٤ - ٩٨٢هـ/ ١٥٦٦ - ١٥٧٤م) وصمة في تاريخ الدولة العثمانية ، كما أجمع المؤرخون على ان حكم ذلك السلطان - الذي جرت في عروقه الدماء اليهودية فأفسدت عقله وخلقه[٣] - كان البداية الفعلية لاضمحلال الدولة العثمانية [٤].

فقد وجد اليهود في سبطهم هذا المطية التي توصلهم إلى مقصدهم ، فنجح في التسلل إلى حاشيته يهودي برتغالي يسمى (جوزيف نانسي

---

(١) المصدر نفسه : ص ص ٢٤٦ - ٢٤٨ .

(٢) اسماعيل سرهنك : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٠١ .

(٣) في هذا مصداقًا لقوله صلى الله عليه وسلم : « تخيروا لنطفكم فانكحوا الأكفاءَ وانكحوا إليهم » .
- محمد ناصر الدين الألباني : صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) جزءان ، الطبعة الثانية (بيروت : المكتب الإسلامي ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م) حرف التاء الحديث رقم (٢٩٢٨) ج١ ، ص٥٦٤ .

(٤) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، أربعة أجزاء (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٤٠٠، ١٤٠٣، ١٤٠٦هـ/١٩٨٠، ١٩٨٣، ١٩٨٦م) ج١ ، ص ٦٢٣ .

Joseph Nansi) أتاح له الانحراف الخلقي الذي تردى فيه سليم الثاني أن يتمتع بحظوة لديه حتى أنه أقطعه جزيرة (ناكسوس Naxos) إحدى جزر الأرخبيل[١] .

وإن من أهم العوامل التي أدت إلى تفاقم خطر اليهود في الدولة العثمانية أنه على اثر طردهم من اسبانيا في عام ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢م رحبت بهم الدولة العثمانية ووجدوا فيها ملاذاً آمنا ورعاية وتسامحًا دينيًا لم يجدوه من قبل في أوروبا كما تمتعوا بكامل الحرية في الإقامة والتنقل والعمل التجاري والصناعي[٢] ، إلا ان هذه الحفاوة التي قوبل بها اليهود والمعاملة الكريمة التي ظفروا بها في الدولة العثمانية لم تمنعهم من التآمر على تقويض أركانها والبطش بحكامها فقد أوعز المجلس الأعلى لليهود إلى أتباعه الذين احتضنتهم الدولة العثمانية بأن يتظاهروا باعتناق الإسلام ليسهل عليهم التغلغل إلى المراكز الحساسة في الدولة وبالتالي العمل على تحقيق أهداف اليهودية العالمية[٣] ، فاستجاب اليهود في الدولة العثمانية لهذا الطلب وبادروا إلى التظاهر بالإسلام وبدلوا أسماءهم بأسماء إسلامية واندمجوا في جميع مجالات الأنشطة السياسية والفكرية والاقتصادية والتربوية وراحوا يعملون في الخفاء لتحقيق أهدافهم القومية [٤].

---

(١) المرجع نفسه : ج١ ، ص ٦٢١ .

(٢) أحمد نوري النعيمي : اليهود والدولة العثمانية ، الطبعة الأولى (بيروت : مؤسسة الرسالة ، عمان : دار البشير ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م) ص ص ٢٢ – ٢٨ .

(٣) س . ناجي : المفسدون في الأرض ... جرائم اليهود السياسية والاجتماعية عبر التاريخ ، الطبعة الثانية (دمشق : العربي للاعلان والنشر ، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٣م) ، ص ص ٣١١ – ٣١٢ .

(٤) أحمد نوري النعيمي : يهود الدونمة ، الطبعة الأولى (بيروت : مؤسسة الرسالة ، عمان : دار البشير ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م) ص ٧ .

وظلت تلك الطوائف اليهودية المتسترة بالإسلام على أهبة الاستعداد للتعاون مع كافة القوى المناوئة للدولة العثمانية ، لذا فعندما ظهرت الصهيونية كحركة عنصرية ترمي إلى إيجاد وطن قومي لليهود في فلسطين وإيقاظ الفكر اليهودي في كل مكان[١] ، كان يهود الدولة العثمانية المتظاهرون بالإسلام من أبرز الطوائف اليهودية التي استجابت لتلك الحركة كما رأى الصهاينة بدورهم ان هذه الطائفة من اليهود هي أقدر الطوائف اليهودية على خدمة أهداف الحركة الصهيونية وذلك بحكم قربها من فلسطين وبحكم تغلغلهم في المجتمع العثماني وتمكن بعض أفرادها من الوصول إلى مواقع صنع القرار في الدولة العثمانية[٢] .

ومن جانبٍ آخر فقد وجدت الحركة الصهيونية رعاية خاصة من الدول الأوربية الاستعمارية حيث رأت هذه الدول انه يمكن استغلال تلك الحركة العنصرية لخدمة مصالحها الاستعمارية في الدولة العثمانية[٣] .

ومن هنا فقد ارتبطت خيوط اليهود المتسترين بالإسلام في الدولة العثمانية بشبكة الصهيونية العالمية التي توجهها القوى الاستعمارية الأوربية حيث التقت أهداف القوى الثلاث على أمر واحد وهو القضاء على الدولة

---

(١) سنفرد دراسة خاصة بالصهيونية في المبحث الثاني من الفصل الأول من هذا البحث .

(٢) موفق بني المرجة : صحوة الرجل المريض ، الطبعة الأولى (بيروت : دار البيارق ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م) ص ٢٤٢ ، ٢٥٦ .

(٣) حسن صبري الخولي : سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين ، جزءان (القاهرة : دار المعارف للطباعة والنشر ، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٣م) ج ١ ، ص ٨ .

العثمانية وإلغاء الخلافة الإسلامية التي هي القلب النابض للنظام الإسلامي بأكمله ، وتحركت القوى الثلاث وفق تخطيط دقيق لتحقيق هدفها المشترك على النحو الذي سنتناوله في ثنايا هذا البحث - إن شاء الله - الذي يدور محوره حول الوسائل التي اتبعتها هذه القوى وآثارها على الدولة العثمانية .

الفصل الأول
النشاط الصهيوني
وموقف الدولة العثمانية منه

المبحث الأول : يهود الدونـمـة .

المبحث الثاني : جهود الساسة اليهود قُبيل مؤتمر بازل عام ١٣١٥هـ / ١٨٩٧م .

المبحث الثالث : موقف السلطان عبد الحميد الثاني من التسلل اليهودي إلى فلسطين .

المبحث الرابع : تيودور هرتزل والنشاط الصهيوني الدولـي .

المبحث الأول
يهـــود الدونمـــة

يعتقد الكثيرون خطأً أنَّ تآمر اليهود على إسقاط الدولة العثمانية قد بدأ في عهد هرتزل Herzel [(١)] لكن القرائن التاريخية تثبت أن تلك المؤامرة قد سبقت هرتزل بزمن طويل ، فالحركة اليهودية التي استهدفت إلغاء الخلافة الإسلامية واسقاط الدولة العثمانية مرت بمراحل عِدّة سلمت كل منها الراية للأخرى بعد أن قدمت لها أقصى ما بوسعها من دعم، كما ان لكل مرحلة منها من الوسائل ما يكفي مقتضياتها وحاجاتها ، ولعلّ ما قام به يهود الدونمة في هذا الصدد يُعد أولى مراحل تلك الحركة اليهودية .

فمن هم الدونمة ؟ وما هو الدور الذي قاموا به ؟

(الدونمة) هي كلمة تستعمل كصفة مشتقة من المصدر التركي (دونمك Donmek) بمعنى الرجوع أو العودة أو الارتداد[(٢)] . وقد أطلق الأتراك هذه الصفة على اليهود الذين هاجروا من أسبانيا إلى تركيا وتظاهروا بالإسلام[(٣)].

ففي أواخر القرن التاسع الهجري الموافق لأواخر القرن الخامس عشر الميلادي وصلت إلى تركيا أعداد كبيرة جداً من اليهود قادمة من اسبانيا على

---

(١) تيودور هرتزل : صحافي يهودي ولد في مدينة بودابست عاصمة المجر في عام ١٢٧٦هـ / ١٨٦٠م من أبوين يهوديين وكان جده لأمه حاخاماً يهودياً انتقل بعد أن أنهى دراسته الثانوية إلى النمسا ودرس القانون في جامعة فينا وبعد تخرجه اشتغل بالصحافة والأدب . وفي عام ١٣١٣هـ / ١٨٩٦م نشر كتابه الذي أطلق عليه (الدولة اليهودية) وضمنه الحل الأمثل في رأيه للمشكلة اليهودية وهي إقامة دولة يهودية تجمع شتات اليهود في العالم ، ولتحويل الفكرة التي ضمنها كتابه إلى حقيقة راح هرتزل يتصل بالعديد من الساسة الأوربيين للحصول على الدعم والتأييد الدولي ، كما بذل جهوداً كبيرة في محاولة لإقناع السلطان عبد الحميد الثاني بالموافقة على إقامة دولة يهودية في فلسطين ولكن جهوده باءت بالفشل ، ولإقامة الأساس التنظيمي للحركة الصهيونية عقد هرتزل المؤتمر الصهيوني الأول عام ١٣١٥هـ / ١٨٩٧م الذي كان له أهمية كبيرة في مسيرة الحركة الصهيونية السياسية الحديثة ، وسوف نفرد دراسة خاصة عن دوره في المبحث الرابع من الفصل الثاني من هذا البحث .

– ديزموند ستيوارت : تيودور هرتزل مؤسس الحركة الصهيونية ، تعريب : فوزي وفاء وإبراهيم منصور ، الطبعة الثانية (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م) ص ١٧ ، ٣٩ ، ٦٣ .

– حسن صبري الخولي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٧٦ .

(٢) أحمد نوري النعيمي : يهود الدونمة ، ص ٨ .

(٣) محمد عمر : يهود الدّنمة ، الطبعة الثالثة (الكويت : دار الوثائق ، ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م) ص ١٢، ٢٨.

اثر ما لقوه من اضطهاد على يد المسيحيين الأسبان الذين تولوا حكم البلاد بعد أن أفل نجم المسلمين من سماء الأندلس بعد أن أضاءها ثمانية قرون ، لقي خلالها اليهود في الأندلس – كغيرهم من أهل الكتاب – في ظل الحكم الإسلامي كل رعاية وحرية وإحسان . فتضاعفت أعدادهم وربت ثرواتهم[١] . ولكن هذه النعمة التي لم يقدرها اليهود حق قدرها زالت بزوال الحكم الإسلامي عن الأندلس على أثر التحالف الصليبي الذي تحقق لاسبانيا النصرانية بزواج فرديناند ابن يوحنا ملك أراغوان من ابنة عمه ايزابيلا أخت هنري الرابع ملك قشتاله ومن ثم اعلانهما ملكين لقشتالة في عام ٨٨٢هـ / ١٤٧٩م [٢]، وكان أهم الأسس التي قام عليها هذا التحالف هو العمل المشترك من أجل الإجهاز على الكيان الإسلامي في الأندلس ، الذي كان متهالكًا آنذاك من جراء التمزق والتناحر الذي أصاب الإمارات الإسلامية[٣] .

وقد جنا الصليبيان الحاقدان ثمار تحالفهما حين تمكنا من القضاء على آخر مملكة إسلامية في الأندلس وهي مملكة بني الأحمر ، وحين سقط آخر معقل من معاقل المسلمين في الأندلس وهي غرناطة في قبضتهما في ربيع الأول من عام ٨٩٧هـ الموافق يناير ١٤٩٢م [٤].

وعلى الرغم من أن حاكم غرناطة[٥] لم يسلمها إلا بعد أن أخذ منهما

---

(١) أحمد نوري النعيمي : اليهود والدولة العثمانية ، ص ص ٢٢ – ٢٣ .

– إيلان هاليفي : المسألة اليهودية ، تعريب : فؤاد جديد الطبعة الأولى (دمشق : مكتب الخدمات الطباعية : ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م) ص ص ٩٧ – ١٠٤ .

(٢) جلال يحى : المغرب الكبير ، ٤ أجزاء (بيروت : دار النهضة العربية ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م) ج٣ ، ص ص ١٠ – ١١ .

(٣) يوسف بن علي الثقفي : موقف أوربا من الدولة العثمانية ، الطبعة الأولى (الطائف : دار الحارثي للطباعة والنشر ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م) ص ٤٢ .

(٤) أحمد بن محمد المقري التلمساني : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق : إحسان عباس، ٨ أجزاء (بيروت : دار صادر ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م) ج ٤ ، ص ٥٢٥ .

(٥) الحاكم المسلم الذي سقطت في عهده غرناطة بيد الأسبان هو أبو عبدالله محمد ابن السلطان أبي الحسن علي بن سعد النصري الغالبي الأحمري ، آخر ملوك بني الأحمر في الأندلس .

– المصدر نفسه : ج ٤ ، ص ٥٢٨ .

عهداً وكتب عليهما وثيقة مكونة من سبع وستين بنداً ، كان أهم ما تضمنته هو ضمان سلامة سكان البلاد ، الصغير منهم والكبير في النفس والأهل والمال ، وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ، وحرية إقامة شعائرهم على ما كانت[١] إلا أن النصارى نكثوا العهد فبعد مضي عدة أشهر على تسليم غرناطة ذهبت تلك المعاهدة أدراج الرياح[٢]. حتى آل الحال إلى أن أجبر أولئك الحاقدون المسلمين واليهود على التنصر[٣] ، وأقيمت محاكم التفتيش[٤] بأمر من البابا لهذا الغرض ، وكان الطرد من البلاد هو جزاء من يرفض اعتناق النصرانية[٥] .

---

(١) يلاحظ هنا أن حاكم غرناطة المسلم لم يتوثق بشروطه لسلامة حرمات المسلمين فقط بل لجميع السكان دون تمييز والذي يشكل اليهود عدداً كبيراً منهم ، وفي ذلك دلالة على حرص الحكام المسلمين على رعاياهم الكتابيين حتى في أسوأ الظروف .

(٢) يبدو أن فرديناند وزوجته قد أمضيا على هذه الوثيقة وهما ينويان نقضها وغرضهما من ذلك تسهيل الفتح وكسب الوقت ، حيث يقصر بإبرام الصلح أجل المقاومة ، لا سيما وأن نقض العهد في عرفهما ليس بالأمر العسير .

(٣) المصدر نفسه : ج ٤ ، ص ص ٥٢٥ – ٥٢٧ ، جلال يحى : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ١١ .

(٤) محاكم التفتيش : هي محاكم أنشأها (البابا) لأول مرة سنة ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣م للتحقيق في ممارسة الطائفة (الالبيجنسية) في جنوب فرنسا واستمرت تعمل حتى القرن ١٩ الميلادي ، والمحاكم المقصودة هنا هي المحاكم التي عقدت في عهد فرديناند وزوجته ابتداء من عام ٨٨١هـ / ١٤٧٨م للتجسس على اليهود والمسلمين في أسبانيا حيث مارست بحقهم اضطهادات قاسية من قتل أو تنصير أو طرد أو تعذيب، وقد ألغيت في أسبانيا عام ١٢٣٥هـ / ١٨٢٠م وتحولت اختصاصاتها إلى إدارة حكومية تدعى (المكتب المقدس) ولا يزال لهذا المكتب الحق في إصدار الأحكام بشأن قضايا الإيمان والشؤون الخلقية .

– محمد شفيق غربال وآخرون : الموسوعة العربية الميسرة ، جزءان (بيروت : دار نهضة لبنان ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م) ج ٢ ، ص ١٦٥٤ .

(٥) لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامي ، تعريب : عجاج نويهض ، تعليق : شكيب أرسلان ، ٤ أجزاء ، الطبعة الرابعة (بيروت : دار الفكر ، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٣م) ج ٢ ، ص ٥٧ .

– إيلان هاليفي : المرجع السابق ، ص ١٨٢ .

ويبدو أن الأسبان قد وجدوا في ذلك الموقف فرصة للانتقام من اليهود حيث كانت موجة غضب الأسبان عليهم قد بلغت أقصاها آنذاك من جراء تغلغلهم في المجتمع الأسباني وتحكمهم باقتصاد البلاد عن طريق الربا الفاحش ، فاستولوا على الأملاك والعقارات ، كما عمدوا إلى اشعال نار الخلافات بين الطوائف الدينية المختلفة في البلاد[١] .

لذا فقد أصدر الملك فرديناند في ٢١ من جمادى الأولى عام ٨٩٧ هـ الموافق ٣١ مارس ١٤٩٢م المرسوم التالي : « يعيش في مملكتنا عدد غير قليل من اليهود ولقد أنشأنا محاكم التفتيش منذ اثنتى عشرة سنة ، وهي تعمل دائمًا على توقيع العقوبة على المذنبين ، وبناء على التقارير التي رفعتها لنا محاكم التفتيش ثبت بأن الصِّدام الذي يقع بين المسيحيين واليهود يؤدي إلى ضرر عظيم ، ويؤدي بالتالي إلى القضاء على المذهب الكاثوليكي ، ولذا قررنا نفي اليهود ذكورًا وإناثًا خارج حدود مملكتنا وإلى الأبد ، وعلى اليهود جميعًا الذين يعيشون في بلادنا وممتلكاتنا – ومن غير تمييز في الجنس أو الأعمار – أن يغادروا البلاد في غضون فترة أقصاها نهاية يوليو من نفس العام وعليهم ألا يحاولوا العودة تحت أي ظرف أو أي سبب . ومن أجل أن يتدبر اليهود أمورهم استعدادًا للرحيل منحناهم حمايتنا الملكية ، أرواحهم وأملاكهم لغاية آخر يوليو . ونسمح لهم كذلك بأن ينقلوا معهم برًا وبحرًا ما يملكون باستثناء الذهب والفضة والعملة الذهبية والأشياء الأخرى[٢] التي يشملها قانون المنع العام »[٣] .

---

(١) س . ناجي : المرجع السابق ، ص ص ٢٨٥ – ٢٨٧ .

– محمد سيد طنطاوي : المرجع السابق ، ص ص ٦٤٥ – ٦٤٦ .

(٢) يبدو التناقض واضحًا في هذا المرسوم الملكي ففي الوقت الذي يمنح فرديناند اليهود حمايته لاملاكهم ويسمح لهم بنقل ما يملكون معهم ، يستثني الذهب والفضة والعملة وأشياء أخرى لم يصرح بها .

(٣) عبدالله التل : خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية ، الطبعة الأولى (دمشق : دار القلم ، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م) ص ص ١١٧ – ١١٨ .

ويمقتضى هذا القرار طُرِدَ اليهود من أسبانيا شرّ طردة وأصبح نصف مليون يهودي[١] مشردين بلا مأوى على شواطيء البحر الأبيض[٢] ، عرضة لأن يلقوا حتفهم بعد أن يفتك بهم الجوع والمرض لكن شاء ت إرادة الله أن تنجيهم من هذا المصير المحتوم ، فهيأ لهم أسباب النجاة حيث فتحت الدولة العثمانية أبوابها على مصاريعها لاستقبالهم حين لبى السلطان بايزيد الثاني (٨٨٦ – ٩١٨ هـــ / ١٤٨١ – ١٥١٢م)[٣] الطلب الذي تقدم به إليه مجموعة من حاخامي اليهود ليسمح لأولئك اليهود الذين أخرجوا من أسبانيا بالهجرة إلى الدولة العثمانية وأصدر أوامره إلى حكام الأقاليم في الدولة العثمانية بعدم رفض اليهود أو وضع العقبات أمامهم[٤] ، فبدأ اليهود يتدفقون على أراضي الدولة العثمانية واستقروا في العديد من المدن الرئيسة مثل استانبول وأدرنه

---

(١) بعض المصادر ذكرت بأن عدد اليهود أكثر من ذلك ، فعلى سبيل المثال ذكر لوثروب ستودارد ان عددهم ثمانمائة ألف .

– لوثروب ستودارد : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢١ .

(٢) بالنسبة للمسلمين الذين خرجوا من أسبانيا فرارًا بدينهم كان أغلبهم قد استقر في مراكش وتونس والجزائر ومصر .

– المقري : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٥٢٨ .

(٣) تذكر بعض المصادر أنَّ السلطان العثماني الذي رحّب بهجرة اليهود إلى أراضي الدولة العثمانية ، هو السلطان مراد الثاني (٨٢٤ – ٨٥٥ هـ / ١٤٢١ – ١٤٥١م) وممن قال بذلك الجنرال جواد رفعت آتلخان ، وقد يكون المقصود بذلك هجرة يهودية سابقة لموضوع حديثنا هنا لأن فترة حكم السلطان مراد سابقة لتاريخ هذه الهجرة .

– جواد رفعت آتلخان : الإسلام وبنو إسرائيل ، ص ٢٠٣ .

(٤) أحمد نوري النعيمي : اليهود والدولة العثمانية ، ص ص ٢٧ – ٢٨ .

– أحمد بن عبدالله الزغيبي : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٦١٤ .

– إيلان هاليفي : المرجع السابق ، ص ١٠٧ .

وإزمير[١] ، ولا سيما في سلانيك[٢] .

وهكذا وجد اليهود في أراضي الدولة العثمانية الملاذ الآمن ، فعاشوا في ربوعها آمنين في كافة شؤون حياتهم [٣] .

ولم يكتف العثمانيون بالسّماح لليهود بالإقامة في بلادهم ، بل ومنحوهم الحرية الدينية[٤] في ظل نظام الملل[٥] الذي كانت الدولة تعمل به ، كما أتاحوا

---

(١) لوثروب ستودارد : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٧ .

(٢) سلانيك : ميناء في اليونان يبعد عن استانبول بنحو ٥٢٠ كلم ويربط بينهما خط حديدي ، وقد فتحها العثمانيون في عهد السلطان مراد الثاني عام ٨٥٣ هـ / ١٤٣١م وتعد أهم ثغر تجاري بالدولة العثمانية في أوربا بعد استانبول ، وتشتهر بتجارة الحرير والقطن والتبغ ، وبعد هجرة اليهود من أسبانيا صاروا يشكلون معظم سكانها وأصبحت بؤرة الحركات المعادية للدولة العثمانية .

- إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، جزءان ، الطبعة الأولى (القاهرة : المطبعة الأميرية ، ١٣١٢هـ / ١٨٩٥م) ج ١ ، ص ٤٦٦ .

(٣) مصطفى صبري : النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة ، تقديم ودراسة : مصطفى حلمي ، الطبعة الأولى (الإسكندرية : دار الدعوة ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م) ص ٨٩ .

(٤) إبراهيم بك حليم : تاريخ الدولة العثمانية العلية ، المعروف بالتحفة الحليمية ، الطبعة الأولى (بيروت : مؤسسة الكتب الثقافية ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م) ص ٢١ .

(٥) نظام الملل : هو نظام يقوم على تصنيف رعايا الدولة غير المسلمين تصنيفًا لا يقوم على أساس الجنس أو القومية أو اللغة ، بل على أساس المذهب الديني الذي يدين به هؤلاء الرعايا . وكان يطلق على كل مذهب ديني ملة ، وكان لكل ملة رئيس ديني ينظر في المسائل الدينية كما يقوم بالحكم في قضايا الأحوال الشخصية الخاصة باتباع ملته دون تدخل من جانب الدولة العثمانية ، وقد وُضع هذا النظام في زمن السلطان محمد الفاتح بعد فتح القسطنطينية ، وكان له دور كبير في منح الرعايا غير المسلمين كيانًا مستقلاً .

- عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج ١ ، ص ٦٨ . =

لهم المشاركة في جميع جوانب الحياة الإقتصادية والثقافية[١] والسياسية والإجتماعية فتقلدوا أعلى المناصب[٢] فكان منهم المستشارون والأطباء والأدباء والتجار[٣] .

وبهذا فإنه يمكن القول بأنّ يهود أسبانيا لم يجدوا في الدولة العثمانية المأوى فحسب بل وجدوا أيضًا الحرية والرفاهية ، وقد شهد بذلك أبناء ملتهم حيث يقول الزعيم الصهيوني (حاييم وايزمان Chaim Weizmann) [٤] : « إنني أفضل عدم اقتراف الظلم لأن العالم الإسلامي يعامل اليهود بقدر كبير من التسامح ، فقد فتحت الإمبراطورية العثمانية أبوابها لليهود عندما طردتهم أسبانيا ، ويجب على اليهود ألا ينسوا ذلك » [٥] كما شهد بذلك بعض

== – زياد أبو غنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، الطبعة الثانية (عمان : دار الفرقان، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م) ص ٨٥ .

(١) في عام ٨٩٨هـ / ١٤٩٣م أي بعد سنة واحدة من طرد اليهود من أسبانيا أنشأ اليهود في استانبول أول مطبعة عبرية .

– أحمد نوري النعيمي : اليهود والدولة العثمانية ، ص ٣٥ .

(٢) سبقت الإشارة إلى أن السلطان سليم الثاني قد عين جوزيف نانسي المصرفي اليهود دوقًا لجزيرة ناكسوس . انظر التمهيد ، ص ١٢ .

(٣) طاهر شاش : التطرف الإسرائيلي جذوره وحصاده ، الطبعة الأولى (القاهرة : دار الشروق ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م) ص ٢٨ .

(٤) حاييم وايزمان : زعيم صهيوني ولد في روسيا وحصل على درجة الدكتوراه من ألمانيا ثم هاجر إلى بريطانيا في عام ١٣٢١هـ / ١٩٠٣م حيث عمل مدرسًا للكيمياء في جامعة مانشستر ثم تولى منصب وزارة البحرية البريطانية ، وقد كان له دور كبير في استصدار وعد بلفور عام ١٣٣٦هـ / ١٩١٧م كما ساهم في تأسيس الجامعة العبرية في القدس عام ١٣٤٤هـ / ١٩٢٥م وفي عام ١٣٦٨هـ / ١٩٤٩م انتخب أول رئيس لدولة إسرائيل واستمر في هذا المنصب حتى وفاته في عام ١٣٧١هـ / ١٩٥٢م وله العديد من المؤلفات أهمها (التجربة والخطأ) ومذكرات بعنوان (مذكرات وايزمان) .

– أحمد الزغيبي : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٥٢ .

(٥) المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ٦١٥ .

المؤرخين الغربيين ومنهم برنارد لويس في كتابه (استانبول وحضارة الخلافة الإسلامية) حيث يقول : « ... وقد ازداد عدد اليهود أيضًا ... وازداد هؤلاء في استانبول منذ نهاية القرن الخامس عشر الميلادي بصورة خاصة إذ جاء الكثيرون منهم من اسبانيا والبرتغال والبلاد الأوربية الأخرى باحثين عن مكان اللجوء إزاء اضطهاد المسيحيين لهم إلى حكم السلاطين العثمانيين المتسامح وتمتع اليهود والمسيحيون على السواء بحرية العبادة في استانبول في ظل واقع التاريخ الإسلامي والعثماني بهذا الخصوص ، ومنحوا قدرًا كبيرًا من الحرية القومية »[١] .

والتساؤل المطروح هو : هل حفظ اليهود للمسلمين عامة ولدولة الخلافة خاصة هذا الجميل الذي شهد به العدو قبل الصديق ؟

الحقيقة ان التاريخ والواقع يثبت أن اليهود لم يتنكروا للمسلمين ودولتهم فحسب بل خانوهما خيانة عظمى ، فلم تكن الحفاوة التي قوبلوا بها في دولة الخلافة الإسلامية ، والمعاملة الكريمة التي حظوا بها كافية للتغلب على ما طبعوا عليه من ذميم الخصال ، فسرعان ما تناسى اليهود الذين كانوا بالأمس القريب مشردين معدمين ليس لهم مأوى ولا هوية ، كل ما قدمت الدولة العثمانية لهم وراحوا يعملون في الخفاء على تخريب ديارها وتشويه سمعة رجالها والسيطرة على أموالها ، ومن ثم تقويض أركانها[٢] ، والأسوأ من ذلك أنهم أقدموا على فعل كل هذا وهم يتلبسون لباس الإسلام ويظهرون غير ما يبطنون ، وذلك إنفاذًا لما أوصاهم به مسيحهم الدجال سباتاي زفي الزعيم الروحي لطائفة الدونمة[٣] .

---

(١) برنارد لويس : استانبول وحضارة الخلافة الإسلامية ، تعريب : سيد رضوان علي الطبعة الثانية (الرياض : الدار السعودية للنشر ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م) ص ١٣٥ .

(٢) جواد رفعت آتلخان : الإسلام وبنو إسرائيل ، ص ٢٠٣ .

(٣) محمد عمر : المرجع السابق ، ص ٢٨ .

مؤسس طائفة الدونمة :

يعتبر سباتاي زفي[١] هو مؤسس طائفة الدونمة وهو يهودي من أصل اسباني ولد في أزمير عام ١٠٣٥هـ / ١٦٢٦م وكان أبوه الذي يدعى مردخاي زفي من أكبر تجار أزمير[٢] .

وكانت علامات الذكاء والنجابة قد بدت على سباتاي منذ سنواته الأولى فأدخله والده مدرسة يهودية تعلم فيها العلوم الدينية اليهودية وما أن بلغ الخامسة عشرة حتى رخص له بمزاولة التدريس واستمر في نفس الوقت في دراسة (الكابالا)[٣] ، كما كان يتميز بطلاقة اللسان وجمال المحيا والقدرة على التأثير في محدثيه[٤] .

وفي تلك الفترة راجت في المجتمع اليهودي شائعة مفادها أن المسيح[٥]

---

(١) تكتب في بعض المراجع (سباتاي صبي) أو (شبتاي زفي) .

(٢) مصطفى طوران : يهود الدونمة ، تعريب : كمال خوجة ، الطبعة الأولى (بيروت : دار السلام للطباعة والنشر ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م) ص ٧ .

(٣) الكابالا أو القبالة : هي مصطلح عبري يعني التلقي أو الاستلام ، والكابالا تعاليم مستلمة متنقلة من جيل إلى آخر عند اليهود منذ أقدم العصور وهي مزيج من الفلسفة والتأويلات الباطنية ، وتقوم على الشعوذة والسحر والتنجيم .

– محمد عبدالله عنان : تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة ، الطبعة الثالثة (القاهرة : مؤسسة المختار ، ١٤١١هـ / ١٩٩١م) ص ١١٥ .

(٤) حسن ظاظا : الفكر الديني اليهودي ، الطبعة الثالثة (دمشق : دار القلم ، بيروت : الدار الشامية ، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م) ص ١٢٠ .

(٥) المسيح : الصِّديق وبه سمي عيسى بن مريم عليه السلام لصدقه ، وقيل سُمي به لأنه كان سائحًا في الأرض لا يستقر ، وقيل لأنه كان يمسح بيده على العليل والأكمه والأبرص فيبرئه بإذن الله وقد ذكرت في القرآن (المسيح) وهي معربة عن (المشيح) في التوراة كالفرق بين موسى وموشى .

– جمال الدين محمد ابن منظور : لسان العرب ، ١٥ جزء ، الطبعة الأولى (بيروت : دار صادر) ج٢ ، ص ٥٩٤ . =

المنتظر سوف يظهر في عام ١٠٥٨هـ / ١٦٤٨م ليقود اليهود إلى السيادة على العالم وإلى السعادة والرفاهية[١] .

وقرر سباتاي أن يستغل هذه الشائعة ، وبدأ يُعد نفسه لانتحال شخصية ذلك المسيح اليهودي المزعوم ، فأخذ يواصل الصيام ، ويكثر من التطهر والتعطر والعزلة ، وكأنه يريد إضفاء القدسية على نفسه ، وعندما حل العام المرتقب (١٠٥٨هـ / ١٦٤٨م) أعلن بين تلاميذه وأتباعه أنَّه المسيح المنتظر[٢]، ولم يجد صعوبة في إقناعهم بصحة ادعائه لأنه كان قد مهّد لذلك ، كما أيّده كثير من اليهود المتنورين لأغراض سياسية[٣]، لكن عندما شاع الخبر في أنحاء أزمير تغير الوضع حيث وجد معارضة شديدة من حاخامات اليهود الكبار[٤]، وحكم عليه حاخام أزمير الأكبر (جوزيف ايسكايا Ghossef Eskaya) بالإعدام، فما كان من سباتاي إلا أن فرّ إلى استانبول[٥] .

وفي استانبول قابل سباتاي يهوديًا يدعى (ابراهام واسيني

= والمشيح في العبرية تعني الرجل الذي طهره يهوه ، وتأخذ في التوراة معاني عامة فتطلق على الملوك والأنبياء وكل الرجال الذين يقومون بعمل ديني مقدس أما المعنى الخاص فهو النبي أو المخلص الذي يرسله يهوه لإنقاذ بني إسرائيل .

- أحمد نوري النعيمي : يهود الدونمة ، ص ١٥ .

(١) مصطفى طوران : يهود الدونمة ، ص ٨ .

- جواد رفعت أتلخان : الإسلام وبنو إسرائيل ، ص ١٠٠ حاشية رقم (١) .

(٢) يوسف بك آصاف : تاريخ سلاطين بني عثمان من أول نشأتهم حتى الآن ، الطبعة الأولى (القاهرة : مكتبة مدبولي ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م) ، ص ٩٢ .

- محمد عمر : المرجع السابق ، ص ١٥ ، ١٨ .

(٣) سيتضح في جزء لاحق من هذا المبحث أن معظم أعضاء الأحزاب السياسية التي قامت لمناهضة الدولة العثمانية وكانت سبب في سقوط الخلافة الإسلامية كانوا من يهود الدونمة .

(٤) محمد عبدالله عنان : المرجع السابق ، ص ١١٧ .

(٥) مصطفى طوران : يهود الدونمة ، ص ١٠ .

Abraham Uasini) كان يعمل في تزييف الأوراق ، فقام هذا اليهودي بتزوير وثيقة لسباتاي جعلها على هيئة رسالة قديمة تحمل عنوان (تفسير مزامير سليمان) جاء فيها أن مسيحًا سيبعث اسمه سباتاي زفي ، وقد استغل سباتاي هذه الوثيقة في اثبات انه المسيح المنتظر ، فكثر أتباعه وزاد نفوذه في استانبول ، ولكن حاخام أزمير أرسل إلى يهود استانبول يحذرهم منه(١) .

وعندما أحس سباتاي بالخطر فرّ إلى سلانيك التي كانت بمثابة مركز يهودي لدراسة علم الكابالا ، وكانت شهرته في هذا المجال قد سبقته إلى تلك المدينة ، لذا فقد استقبله يهود سلانيك استقبالاً حافلاً، وأقام فيها فترة طويلة ، ولكن لمعاودته الاعلان بانه المسيح المنتظر عام ١٠٦٨هـ / ١٦٥٨م أنكر عليه حاخامات سلانيك ذلك ، واستصدروا حكمًا بكفره ، واستحقاقه للقتل ، فما كان من سباتاي إلا أن غادر سلانيك خشية تطبيق هذا الحكم عليه وأخذ يتنقل من مكان إلى آخر . حيث ذهب في البداية إلى أثينا ثم عاد إلى أزمير ومنها إلى استانبول ثم عاد مرة أخرى إلى أزمير(٢) ، وكان يُردِّدُ بين أتباعه أن النجوم والطوالع قد أعلنت عن اقتراب موعد الخلاص وقيام دولة اليهود في فلسطين(٣) .

---

(١) محمد عمر : المرجع السابق ، ص ص ١٩ – ٢٠ .

(٢) حسن ظاظا : المرجع السابق ، ص ص ١٢١ – ١٢٢ .

(٣) أن توجه سباتاي زفي للعمل على عودة اليهود إلى فلسطين يعد البداية الفعلية لعمل اليهود في هذا الصدد والذي تبنته الصهيونية العالمية بعد ذلك بزمن طويل ، ومما يثبت ذلك ان تيودور هرتزل كان معجبًا للغاية بشخصية سباتاي زفي وكان يفكر في كتابة (أوبرا) عنه لتمثيلها في الدولة اليهودية بعد إنشائها .

– عبد الوهاب المسيري : اليد الخفية دراسة في الحركات اليهودية الهدامة والسرية ، الطبعة الأولى (القاهرة : دار الشروق ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م) ص ١٠٠ .

ويبدو ان سباتاي كان يحاول من خلال ترحاله أن يجمع أكبر عدد من الأنصار . وقد تحققت مقاصده ففي عام ١٠٧٣هـ / ١٦٦٣م توجه سباتاي إلى مصر وهناك تعرف على رجل من وجهاء اليهود في القاهرة اسمه (رفائيل جوزيف جلبي Rofael Ghossef) كان يعمل رئيسًا للصيارفة[١] ، وقد صدّق هذا اليهودي ما يدعيه سباتاي من كونه المسيح المنتظر ، لذا راح يغدق عليه الأموال الطائلة ، وقام سباتاي بدوره بتوزيع هذه الأموال على فقراء اليهود ولا سيما جماعة منهم التقى بهم في فلسطين بعد رحيله من مصر ، كما طلب من صديقه (رفائيل جلبي) أن يساعدهم ، وكان لهذا العمل دور كبير في تدعيم مركز سباتاي الديني[٢] .

وفي هذه الفترة كانت فتاة يهودية بولندية تسكن في امستردام[٣] اسمها (ساره) قد سمعت بأن شابًا وسيمًا ادعى أنه المسيح ففكرت بأن تستغله لتكسب الشّهرة ، فادعت أنها رأت في منامها رؤيا بأن نور سيسطع عليها عام ١٠٧٦هـ / ١٦٦٦م وأنها ستتزوج من المسيح ، ووصل خبر ساره إلى سباتاي فاختلق هو بدوره رؤيا تدعوه للزواج من فتاة بولندية ، وبعث من يجلب له ساره وتزوّج بها في عام ١٠٧٦هـ / ١٦٦٦م بالقاهرة[٤] .

---

(١) محمد عمر : المرجع السابق ، ص ٢١ .

(٢) المرجع نفسه : ص ٢٢ .

(٣) امستردام : عاصمة هولندا وأكبر مدنها يقع معظمها على الضفة الجنوبية لنهر اج وتربطها قنوات ببحر الشمال ، وهي ميناء كبير ومركز تجاري وثقافي عظيم وتعد من أهم الأسواق المالية في العالم وهي مركز مهم لاستخراج الماس ، وترجع نشأتها إلى القرن ١٣ م ويعيش فيها عدد كبير من اليهود الذين طردوا من أسبانيا والبرتغال .

- الموسوعة العربية الميسرة : ج١ ، ص ٢٢٥ .

(٤) موفق بني المرجه : المرجع السابق ، ص ٣٤٣ .

- عبد الوهاب المسيري : المرجع السابق ، ص ٩٧ .

ومما يدل على مدى السذاجة التي كان عليها أتباع سباتاي أنهم اعتبروا هذه الأسطورة معجزة من معجزاته .

ثم عاد سباتاي إلى أزمير مسقط رأسه مرة أخرى ، واستطاع أن ينشر فيها ادعاءاته مجدداً ، وكثر أتباعه وصار اليهود يشُدون إليه الرحال من داخل الدولة العثمانية وخارجها . وعاود حاخاما اليهود في أزمير إعلان فتواهم بإهدار دمه ولكنهم لم يجرؤوا على المساس به لكثرة أتباعه[١] .

وهكذا استفحل أمر سباتاي وقلده اليهود تاج ملك الملوك حيث كان يقول: (أنا سليل سليمان بن داود حاكم البشر والقدس قصراً لي) وقسم العالم إلى ثمانية وثلاثين منطقة وعين لكل منطقة منها ملكاً على اعتبار انه هو الذي سيحكم العالم كله ، وأصبحت مقابلته لا تتم إلا بمواعيد ومراسيم دقيقة[٢] ، واستطار شر سباتاي وتمادى في جرأته حتى أصبح يوقع رسائله ومراسيمه بلقب (سباتاي زفي الإبن الوحيد والأول لله) - والعياذ بالله -[٣] .

ولأن خطر سباتاي قد تجاوز خداع اليهود والعبث بعقولهم إلى خطر يتهدد الدولة برمتها . لذا فقد أبلغ قاضي أزمير الصدر الأعظم بأمره ، فصدرت الأوامر بالقبض عليه وإحضاره إلى استانبول[٤] .

ويجدر التساؤل هنا عن سبب تأخر السلطات العثمانية لوضع حد لهذا اليهودي المدعي حتى استفحل شره وأصبح يمثل خطراً يهدد كيان الدولة ؟

ونرى انه يمكن تفسير ذلك بأن سياسة التسامح الديني وحرية المعتقد

---

(١) حسن ظاظا : المرجع السابق ، ص ١٢٤ .

(٢) أحمد نوري النعيمي : يهود الدونمة ، ص ٢٧ .

(٣) مصطفى طوران : يهود الدونمة ، ص ١٤ .

(٤) إبراهيم بك حليم : المصدر السابق ، ص ١٤٤ .

- يوسف بك آصاف : المصدر السابق ، ص ٩٢ .

والاستقلالية بالأمور الدينية التي عملت بها الدولة العثمانية مع رعاياها من غير المسلمين قد جعلت السلطات العثمانية تنظر إلى حركة سباتاي زفي في باديء أمرها على انها ظاهرة دينية يهودية ليس من شأنها التدخل فيها ، ولكن عندما استفحل أمر تلك الحركة رأت ضرورة التدخل .

وهنـاك من يبرر ذلـك بانشغال الدولـة العثمانيـة آنذاك بحـرب جزيـرة كريـت[١].

وعندما مثل سباتاي أمام الجهة المسؤولة أنكر كل التهم التي وجهت إليه ، ولكن لكثرة الأدلة التي تدينه فقد صدرت الأوامر بسجنه فأودع سجن جناق قلعة (الدردنيل)[٢] .

وفـي هـذه الفترة ظـهر حاخام يـهودي بولندي اسمه (ناحيم كوهين Naheem Kohein) زار سـبـاتـاي في سجنه ، وادعى بأنه هو أيضًـا المسـيح المنتظر وان ذلك لا يتـعـارض مع كون سبـاتاي مـسيحًـا لأن الكتب اليـهودية المقدسة تبشر – حسب ادعائه – بمسيحين وليس بواحد[٣] .

وقد نتج عن ظهور هذا المنافس لسباتاي زفي حدوث نزاع شديد بينهما مما حدا بناحيم كوهين إلى تقديم شكوى للسلطات العثمانية يدعي فيها بأن سباتاي يخطط لإنشاء دولة يهودية داخل الدولة العثمانية[٤] ، وعلى أثر ذلك قُدم سباتاي زفي للمحاكمة بأمر من السلطان محمد الرابع (١٠٥٨ – ١٠٩٩هـ / ١٦٤٨ – ١٦٨٧م) وشكلت هيئة علمية لمحاكمته برئاسة نائب الصدر الأعظم

---

(١) مصطفى طوران : يهود الدونمة ، ص ١٤ .

(٢) موفق بني المرجة : المرجع السابق ، ص ٢٤٤ .

(٣) محمد عمر : المرجع السابق ، ص ٢٥ .

(٤) عبد الوهاب المسيري : المرجع السابق ، ص ٩٩ .

وعضوية كل من شيخ الإسلام [١] وواحد من كبار العلماء وهو إمام القصر السلطاني[٢] . وبحضور السلطان بدأت المحاكمة وقيل لسباتاي أنت تدعي بأنك المسيح ونريد أن تثبت لنا صدق ادعائك ، لذلك سنجردك من ثيابك ونجعلك هدفًا لأمهر رماتنا ، فإن لم تصبك سهامهم أو لم تؤثر في جسدك فسنقر بما تدعي[٣] ، وعندما أحس سباتاي بالخطر أنكر ادعاءه بأنه المسيح وراح بمكر اليهود يظهر رغبته في اعتناق الإسلام عندما عرض عليه ذلك[٤] وتسمى باسم (محمد أفندي) وطلب من السلطان والهيئة العلمية السماح له بدعوة اليهود لاعتناق الإسلام ، فسمح له بذلك كما عين رئيسًا للحجاب في القصر السلطاني[٥] .

ونرى هنا انه كان من المفترض أن تتنبه السلطات العثمانية من خلال الشكوى التي قدمها ناحيم كوهين إلى خطورة حركة سباتاي زفي وان لها أطماعًا ومرامي بعيدة ، إلا أن ما يؤسف له أن السلطات العثمانية لم تتنبه

---

(١) شيخ الإسلام : هو اللقب الذي كان يطلق على مفتي العاصمة وذلك تميزًا له عن سائر زملائه رجال الإفتاء الذين يعملون في الأقاليم والمدن الكبرى في أنحاء الدولة ، وهو الرئيس الفعلي للهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة وإن ظل السلطان هو الرئيس لهذه الهيئة من الناحية النظرية ، وكان يتمتع بمركز مرموق للغاية ، وكانت تُعرض عليه القضايا القانونية والجنائية الهامة جدًا .

- عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج ١ ، ص ص ٣٩٨-٣٩٩.

(٢) مصطفى طوران : يهود الدونمة ، ص ١٧ .

(٣) من البديهي أن السلطان والهيئة الدينية لم يكن لديها شك في أن سباتاي مدعٍ دجال ولكن كان ذلك العرض من قبيل إقامة الحجة عليه وتشويه صورته وإظهار كذبه أمام أتباعه . ولكن الشيء الذي يبدو أن تلك الهيئة العلمية لم تتنبه له هو أبعاد هذا الادعاء .

(٤) يوسف بك آصاف : المصدر السابق ، ص ٩٢ .

- محمد عبدالله عنان : المرجع السابق ، ص ١١٨ .

(٥) الندوة العالمية للشباب الإسلامي : الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ، الطبعة الثانية (الرياض : مطبعة سفير ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م) ص ٥٥٩ .

لذلك وكان غايتها من محاكمته إثبات بطلان ادعائه .

وعلى أي حال فبتظاهر سباتاي باعتناق الإسلام أنقذ نفسه ووجد الفرصة للعمل بحرية ، فأرسل إلى أتباعه تعميمًا يقول فيه : « كيان سباتاي القديم صعد إلى السماء وبأمر من الله ترك ملكًا مستمرًا في كونه المسيح ولكن تحت جبة وعمامة »[١] .

ويبدو واضحًا أن سباتاي قد أعلن لأتباعه من خلال هذا التعميم بأنه سيستمر على عقيدته السابقة ولكن مع التكيف مع ما استجد من الظروف .

ثم انطلق سباتاي يخالط اليهود بكل حرية ويواصل دعوته لهم للإيمان بانه المسيح كما كان يحثهم على أن يتظاهروا بالإسلام ويبطنوا عقيدتهم اليهودية السباتائية[٢] .

واستجاب اليهود لتوجيهات سباتاي فلبسوا العمائم والجبب واستبدلوا أسماء هم اليهودية بأسماء إسلامية ، وصاروا يترددون على المساجد ويتظاهرون بالحج إلى بيت الله الحرام وبالصيام والاحتفال بأعياد المسلمين وقراءة القرآن ، فيما كانوا في أوكارهم يمارسون في الخفاء طقوسهم الدينية ويحتفلون بأعيادهم ويتسمون بأسمائهم العبرية اليهودية[٣] .

---

(١) محمد عمر : المرجع السابق ، ص ٢٨ .

(٢) ظاهرة الازدواجية الدينية عند اليهود ليست بأمر استجد عليهم بل تكرر عبر التاريخ ففي تاريخنا الإسلامي يقوم الدور الذي لعبه عبدالله بن أبي وعبدالله بن سبأ خير دليل على ذلك ، كما فعل ذلك اليهود مع المسيحيين فقد ظهر اليهود (المارانوس) في البرتغال على أثر محاكم التفتيش الكاثوليكية، فكانوا فرقة يهودية الجوهر كاثوليكية في المظهر فكانوا يبنون معابدهم على شكل الكنائس ويظهرون في الحياة اليومية بمظهر الكاثوليك بينما هم في الخفاء يهود متعصبون .

– حسن ظاظا : المرجع السابق ، ص ١٢٧ .

(٣) محمد علي الزعبي : الماسونية في العراء (بيروت : دار الجيل) ص ٢١٨ .

وتشير بعض المصادر التاريخية إلى أن سباتاي قد أقدم على هذه الخطوة بإيعاز من المجلس الأعلى لليهود ليكسب اليهود ثقة الأتراك وليتمكنوا من الوصول إلى مراكز السلطة في الدولة مما سيسهل عليهم تحقيق أهدافهم العدوانية[١] .

وقد أطلق العثمانيون على هذه الطائفة اسم الدونمة أي العائدون اعتقاداً منهم بأن هؤلاء اليهود قد هداهم الله فعادوا كما فطرهم مسلمين[٢] ولم يخطر ببالهم أنهم إزاء قيام فرقة يهودية خطيرة سيكون لها دور ضليع في إضعاف دولتهم وتقويض أركانها .

وبعد مضي عدة سنوات على تظاهر سباتاي زفي وأتباعه بالإسلام قُدمت للسلطات العثمانية شكوى ضده مفادها انه ما زال يقيم الطقوس الدينية اليهودية ، وبالفعل تم ضبطه مع مجموعة من أتباعه في معبد يهودي وهم يرتدون الزي اليهودي وينشدون الأناشيد اليهودية ، فحُكِمَ عليه بالنفي إلى ألبانيا وذلك في عام ١٠٨٤هـ / ١٦٧٣م ، ومن هناك كان يتصل باليهود الذين يقيمون في داخل تركيا عن طريق الرسائل والمندوبين إلى أن مات في عام ١٠٨٦هـ / ١٦٧٥م [٣].

وقد كانت وفاة سباتاي بداية لمرحلة جديدة في تاريخ طائفة الدونمة حيث انقسم أتباعه بعد وفاته إلى ثلاث فرق هي :

---

(١) س . ناجي : المرجع السابق ، ص ص ٣١١ – ٣١٢ .

(٢) بعض المصادر ذكرت رأيًا معاكسًا لإطلاق هذا الاسم عليهم وهو أن العثمانيين أطلقوا عليهم هذه التسمية عندما اكتشفوا أنهم ما زالوا على عقيدتهم اليهودية وأنهم يتظاهرون بالإسلام .

– أحمد الزغيبي : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٦١٦ .

(٣) موفق بني المرجه : المرجع السابق ، ص ٢٤٧ .

١ - اليعاقبة : وهم أتباع يعقوب جلبي أخو زوجة سباتاي الذي ادعى أن سباتاي استخلفه لزعامة الدونمة وأهم ما يميز هذه الفرقة انهم يظهرون عناية كبيرة بالتقيد بالتعاليم الإسلامية الظاهرة للعيان .

٢ - القاراقاشية : أي (ذوي الحواجب السوداء) ويعرفون أيضًا بجماعة عثمان بابا وعثمان هذا هو شخص كانت هذه الفرقة من الدونمة تعتقد بأن روح سباتاي قد حلت بجسده .

٣ - القابانجية : وهم أتباع إبراهيم آغا ، وأهم ما يميز هذه الفرقة أن معظم أتباعها من المثقفين[١] .

وعلى الرغم من اختلاف هذه الفرق الدونمية فيما بينها على أمور كثيرة فيما يتعلق بشؤونها الاعتقادية والتشريعية فإن لها هدفًا لا تختلف عليه وهو القضاء على الدولة الإسلامية التي يرون أنها حجر عثرة في طريق تحقيق حلمهم بإنشاء الدولة اليهودية في فلسطين - كما وعدهم سباتاي -[٢] .

وفي سبيل تحقيق هذا الهدف راح الدونمة يتغلغلون في شعاب البنية السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والثقافية للدولة العثمانية حتى تمكنوا من إحكام قبضتهم عليها بعد زمن طويل من العمل الجاد ، فكانوا بعد ذلك على أُهبة الإستعداد لتقديم كل العون لكافة القوى الداخلية والخارجية المعادية للدولة العثمانية[٣] .

---

(١) أحمد نوري النعيمي : يهود الدونمة ، ص ص ٥٢ - ٦٢ .

- عبد الوهاب المسيري : المرجع السابق ، ص ص ١٠٢ - ١٠٣ .

(٢) عبدالله التل : الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام ، الطبعة الثانية (بيروت : المكتب الإسلامي) ص ص ٧٥ - ٧٦ .

(٣) محمد علي الزعبي : الماسونية في العراء ، ص ص ٢١٩ - ٢٢٠ .

وإن كانت الدولة العثمانية إبان قوتها قد استطاعت بعون من اللّه أن تتصدّى لعبث يهود الدونمة وكيدهم رغم محاولاتهم المتلاحقة للنيل منها ، فانهم قد وجدوا فرصتهم عندما أخذ الخلل يتسرب إليها وظهرت عليها مظاهر التدهور ، لا سيما وأن هذه الفترة الحرجة من تاريخ الدولة العثمانية قد واكبت مولد الحركة الصهيونية كمنظمة سياسية ترمي لإيجاد وطن قومي لليهود في فلسطين والتي وجدت كل عون من القوى الغربية على اعتبار أنه يمكن استغلالها لتحقيق مآربها الاستعمارية . ومن هنا ارتبطت الخيوط التي كان يحيكها يهود الدونمة في داخل الدولة العثمانية بشبكة الصهيونية العالمية التي توجهها القوى الاستعمارية . كما أن هاتين القوتين العالميتين وجدتا ضالتهما في يهود الدونمة ، على اعتبار أنهم أقرب طوائف اليهود لفلسطين ، كما وأنّه بحكم وضعهم في الدولة العثمانية يمكن أن يختصروا عليهما الطريق لتحقيق أهدافهما[1] .

وقد أثبتت الوثائق التاريخية أن يهود الدونمة كانوا عند حسن ظن تلك القوى بهم ، إذ جدت في هذه الحقبة أمور عديدة في الدولة العثمانية كان لطائفة الدونمة اليهودية دور ضليع في ظهورها ، فهناك الفتن الداخلية التي راحت تشعلها داخل النظام الحاكم آنذاك ، وكذا تحالفها مع القوى الخارجية لإثارة القوميات والنعرات الطائفية ، وإحداث الأزمات السياسية والإقتصادية[2] بالإضافة إلى استغلال نفوذها الإعلامي في تركيا[3] في ترويج الإشاعات

---

(١) أحمد الزغيبي : المرجع السابق ، ص ص ٦٢٣ – ٦٢٤ .

(٢) إسماعيل الكيلاني : فصل الدين عن الدولة ، الطبعة الأولى (بيروت : المكتب الإسلامي ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م) ص ص ١٨٨ – ١٨٩ .

– حسان حلاق : موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ، الطبعة الثانية (بيروت : الدار الجامعية للطباعة والنشر ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م) ص ص ٢٨٥ – ٢٨٦ .

(٣) كان ليهود الدونمة سيطرة شبه تامة على كافة وسائل الإعلام ولا سيما الصحافة حيث يمتلكون كبريات الصحف التركية وأكثرها انتشاراً مثل (حريت) و (طنين) و (الجديدة) وما تزال ==

وإطلاق الأكاذيب لتشويه سمعة السلاطين العثمانيين والحط من قدرهم [١] ، كما استغلت ذلك النفوذ الإعلامي في الدعوة لتغريب النظام الاجتماعي للمجتمع العثماني المسلم[٢] .

ومن جانبٍ آخر فقد كانت العناصر الدونمية التي تمكنت من الوصول إلى مواقع صنع القرار في الدولة تمثل طابوراً خامساً يعمل لخدمة الدول الاستعمارية المتربصة بالدولة العثمانية ولعل خير مثال على ذلك الدونمة مدحت باشا[٣] الذي وصل إلى منصب الصدرة العظمى – رئاسة الوزراء – في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٢٩٣ – ١٣٢٧ هـ / ١٨٧٦ – ١٩٠٩م) فجند نفسه لخدمة الدول الاستعمارية وفي هذا الصدد يقول السلطان عبد الحميد في

= طائفة الدونمة تتمتع بهذا النفوذ الإعلامي إلى يومنا هذا في تركيا .

– أحمد الزغيبي : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٦٢٥ .

– أحمد نوري النعيمي : يهود الدونمة ، ص ٦٩ .

(١) جواد أتلخان : الإسلام وبنو إسرائيل ، ص ٢٠٤ ، ٢٠٩ .

(٢) مصطفى طوران : يهود الدونمة ، ص ٤٦ .

(٣) مدحت باشا : اسمه أحمد شفيق ومدحت مخلصه الذي اشتهر به سياسي تركي من يهود الدونمة ، ولد في استانبول عام ١٢٣٨هـ / ١٨٢٢م تعلم العربية والفارسية ، وكان متأثراً بالأفكار الغربية ، تولى العديد من الوظائف إلى أن أصبح وهو في الأربعين من عمره والياً على بلغاريا ثم عين والياً على بغداد وفي عام ١٢٨٩هـ / ١٨٧٢م عين صدراً أعظم في الدولة (رئيس الوزراء) في عهد السلطان عبد العزيز وفي عام ١٢٩٣هـ / ١٨٧٦م تمكن من الإطاحة بالسلطان عبد العزيز بالاتفاق مع إنجلترا وفرنسا ، وفي عهد السلطان عبد الحميد الثاني عينه صدراً أعظم للمرة الثانية ولكنه أقاله من هذا المنصب عندما تبين له أنه على اتصال بالانجليز ، ثم حوكم بتهمة المشاركة في قتل السلطان عبد العزيز وحكم عليه بالإعدام ولكن السلطان اكتفى بنفيه إلى (الطائف) حيث توفي هناك .

– جورج انطونيوس : يقظة العرب ، تعريب : ناصر الدين الأسد وإحسان عباس ، الطبعة الثالثة (بيروت : دار العلم للملايين ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م) ص ١٢٩ .

– أحمد نوري النعيمي : اليهود والدولة العثمانية ، ص ١٠٣ .

مذكراته : « لم يهزني شيء في حياتي هزًا ضخمًا قدر شخص يرتفع إلى مقام قيادة الجيش أو إلى مقام الصدارة العظمى ويقبل نقودًا من دولة أجنبية ... لم يكتف مدحت باشا بإثارة ما أثار من مشاكل فهو من ناحية يريد خلق أزمة في السراي ومن ناحية أخرى يريد الزج بالبلاد في أتون الحرب ... كنت أرى الصدر الأعظم يؤيد الإنجليز ويتعاون معهم ، سواء بدافع من ماسونيته أو بدافع من أسباب أخرى »[1] .

كما عمد يهود الدونمة إلى تأسيس العديد من الأحزاب والجمعيات السياسية السرية واستقطبوا إليها العناصر الثائرة والمناهضة للحكومة العثمانية وكان من أبرز تلك الجمعيات وأشدها خطورة وتأثيرًا على الأوضاع السياسية في الدولة العثمانية جمعية الاتحاد والترقي التي قادت الانقلاب الدستوري عام ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م وازاحة السلطان عبد الحميد عن الحكم عام ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩ م [2]. ومما يستدل به على ان يهود الدونمة كانوا وراء قيام هذه الجمعية وانهم العقل المدبر لكل ما قامت به ما جاء في الرسالة المطولة التي رفعها السفير البريطاني في استانبول جيرارد لوثر Sir, Gerard Lowther في ٧ جمادى الأولى عام ١٣٢٨هـ / ٢٩ مايو عام ١٩١٠م إلى وزارة خارجية بلاده مبينًا فيها سيطرة اليهود على جمعية الاتحاد والترقي في قوله : « ... ويظهر أن المخططين لحركة تركيا الفتاة في سلانيك كانوا بالدرجة الأولى من اليهود ... لقد أصبح كل يهودي كما عبر عن ذلك أحد الأتراك جاسوسًا للجمعية الخفية وبدأ الناس يقولون : إن الحركة إنما هي حركة يهودية أكثر مما هي ثورة تركية »[3] كما قدم كاتبان فرنسيان في كتاب لهما بعنوان (جغرافيا التاريخ) معلومات عن الدونمة نشرتها صحيفة (محراب) التركية في عددها الخامس

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد : تعريب وتقديم : محمد حرب ، الطبعة الثالثة (دمشق : دار القلم ، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م) ص ص ١٠٢ - ١٠٧ .

(٢) حسان حلاق : المرجع السابق ، ص ص ٢٩٨ - ٣٠٠ .

(٣) F.O.800/193.A .

عام ١٣٤٢هـ / ١٩٢٤م جاء فيها : « الدونمة القابانجية هم أكثر مجموعات أهل سلانيك ذكاء [١]، فقد اندسوا في خلايا حزب الاتحاد والترقي بشكل كبير وملحوظ ونستطيع القول بأنهم قد أداروا الجزء الأعظم من انقلاب تركيا الفتاة الذي أسقط السلطان عبدَ الحميد الثاني وهذا الانقلاب قام به يهود الدونمة وهم مسلمون شكلاً وفي الحقيقة معادون للإسلام وكل صلتهم بالإسلام انحصرت في الأفعال الظاهرة فقط »[٢] .

وبعد عزل السلطان عبد الحميد الثاني وهيمنة الاتحاديين على مقاليد الحكم في البلاد أخذت النكبات تتوالى على الدولة العثمانية من جراء السياسة الرعناء التي انتهجوها على الصعيد الداخلي والخارجي بسبب افتقاد الكثير منهم للخبرة والحنكة السياسية[٣] وتعاون الزعامات الدونمية التي انحصرت في أيديهم السلطة الفعلية في هذه الجمعية مع الدوائر الصهيونية والاستعمارية[٤]، وكان أكبر جرم اقترفه الدونمة الاتحاديون في حق الدولة العثمانية هو الزج بها في أتون الحرب العالمية الأولى عام ١٣٣٢ - ١٣٣٦هـ / ١٩١٤ - ١٩١٨م التي انتهت بهزيمة الدولة العثمانية وسلخ معظم ولاياتها[٥] .

وفي أعقاب الحرب العالمية الأولى تسلم الراية اليهودية الدونمة مصطفى كمال الذي تكفل بتنفيذ الجزء الأخير من المخطط اليهودي الاستعماري حيث ألغى الخلافة الإسلامية وطرد الخليفة وجميع آل عثمان إلى خارج البلاد ،

---

(١) سبقت الإشارة إلى ان أهم ما يميز فرقة القابانجية الدونمية أن معظم أتباعها من مثقفي اليهود .

(٢) محمد عمر : المرجع السابق ، ص ٤٢ .

(٣) أورخان محمد علي : السلطان عبد الحميد الثاني حياته وأحداث عهده ، الطبعة الأولى (الكويت : دار الوثائق ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م) ص ٣٢٠ .

(٤) س . ناجي : المرجع السابق ، ص ص ٣١٦ - ٣١٧ .

(٥) يلماز اوزتونا : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٣٥ ، ٢٣٩ .

وحول تركيا إلى جمهورية علمانية[١] .

وهكذا فقد تبين لنا من خلال هذا العرض السريع كيف تنكرت هذه الطائفة اليهودية لفضل الدولة العثمانية وتمكنت من خلال تغلغلها في المجتمع التركي من القيام بدور ضليع في خدمة مخططات الصهيونية العالمية والدول الاستعمارية الرامية إلى القضاء على الدولة العثمانية .

ولتشعب هذا الدور وتداخل ممارستهم له مع الجهود المبذولة من قبل العديد من القوى الداخلية والخارجية المناوئة للدولة العثمانية فإن إلقاء الضوء عليه سيتم بصورة أوضح في مواضع متفرقة من هذا البحث إن شاء الله .

---

(١) عبدالله التل : الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام ، ص ص ٨٩ - ٩٠ .

المبحث الثاني

جهود الساسة اليهود قبيل مؤتمر بازل عام ١٣١٥هـ / ١٨٩٧م

كانت فكرة العودة إلى فلسطين جزءًا من المعتقدات الدينية اليهودية ذات الطابع الإعجازي حيث ارتبطت في أذهان اليهود بظهور المسيح المنتظر الذي سيعود للمّ شتات الشعب اليهودي من منفاه وإعادته إلى أرض فلسطين التي ستكون قاعدة لدولة يهودية عالمية[١] . لذا فقد كانت هذه المعتقدات عبر التاريخ اليهودي مناخًا خصبًا لكتّاب الأساطير وذوي الأطماع السياسية[٢] ومهووسي العظمة منهم ، إلا انه مع مرور الزمن غلب على هذه الفكرة الطابع السياسي، وعُرفت في العصر الحديث **بالصهيونية** Zionism نسبة إلى صهيون وهو جبل يقع على مشارف مدينة القدس القديمة (أورشليم)[٣] ، وقد تكرر ورود لفظة صهيون في كتب اليهود الدينية ، فقد جاء في العهد القديم[٤] « رنمو للرب الساكن صهيون »[٥] « أما أنا فقد مسحت ملكي على صهيون جبل قدسي »[٦]

---

(١) روجيه غارودي : إسرائيل بين اليهودية والصهيونية ، تعريب : حسين حيدر ، الطبعة الأولى (بيروت : دار التضامن ، ١٤١١هـ / ١٩٩٠م) ص ١١ .

(٢) سبقت الإشارة إلى أن سباتاي زفي زعيم طائفة الدونمة ادّعى أنه المسيح المنتظر الذي سيعيد اليهود إلى فلسطين ويقيم الدولة اليهودية . انظر المبحث الأول من هذا الفصل ص ٢٥ .

(٣) المعجم الوسيط : إعداد مجمع اللغة العربية بمصر ، جزءان ، الطبعة الثانية (استانبول : دار الدعوة للطباعة والنشر ، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م) ج ١ ، ص ٥٢٧ .

(٤) العهد القديم : هو التسمية العلمية لأسفار اليهود ، وليست التوراة إلا جزءًا من العهد القديم وقد تطلق التوراة على الجميع من باب إطلاق الجزء على الكل أو لأهمية التوراة ونسبتها إلى موسى عليه السلام وعدد أسفار اليهود تسع وثلاثون سفرًا والمزامير (الزبور) هي إحدى هذه الأسفار .

- أحمد شلبي : المرجع السابق ، ص ٢٣٨ .

(٥) مزامير : ٩ .

(٦) مزامير : ٢ .

« لأن الرب قد اختار صهيون اشتهاها مسكنًا له »[١] .

والصهيونية بمفهومها الحديث هي حركة سياسية استعمارية ظهرت في أوروبا في أوائل القرن الرابع عشر الهجري الموافق أواخر القرن التاسع عشر الميلادي ، قامت على مزج الدين بالقومية محولة اليهودية من مجرد ديانة سماوية إلى رابطة سياسية ، وهي تهدف إلى جمع يهود العالم فوق أرض فلسطين[٢] ، بدعوى أن لهم فيها حقوقًا تاريخية وسياسية[٣] .

---

(١) مزامير : ١٣٢ .

(٢) مؤسسة الدراسات الفلسطينية : فلسطين تاريخها وقضيتها ، الطبعة الأولى (قبرص : شركة الخدمات النشرية المستقلة ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م) ص ١٩ .

(٣) يحاول اليهود تزييف تاريخ يخولهم تحقيق أهدافهم في فلسطين ويتمثل هذا التزييف بما يعرف بالحق التاريخي وان فلسطين هي موطن اليهود الأصلي في حين يشهد التاريخ بأن الكنعانيين العرب هم أول من سكن أرض فلسطين وذلك حوالي عام ٢٥٠٠ ق . م وقد شهدت بذلك توراة اليهود حيث تحدثت عن هجرة إبراهيم من العراق وسكناه في أرض كنعان في فلسطين في حوالي عام ١٨٠٠ ق . م ثم كانت هجرة اليهود الثانية إلى فلسطين حين خرجوا من مصر مع موسى عليه السلام عام ١٢٩٠ ق . م ولكنهم لم يدخلوها حيث نزل عليهم حكم الله بالتيه في صحراء سيناء ، وبعد وفاة موسى عليه السلام دخل اليهود فلسطين بقيادة يوشع بن نون عليه السلام في عام ١١٨٦ ق . م ، وقد مر اليهود بعد دخولهم أرض كنعان بأطوار سياسية مختلفة ولم يتمكنوا من تأسيس مملكة إسرائيل إلا في عهد داود عليه السلام عام ١٠٠٠ ق . م حيث سقطت آخر حصون الكنعانيين في أورشليم ، ولكن هذه المملكة لم تدم أكثر من خمسة وستين عامًا حيث انهارت بموت سليمان عليه السلام عام ٩٣٥ ق . م وانقسمت إلى مملكتين مليئتين بالفتن وهما مملكة إسرائيل ومملكة يهوذا ، ثم خضعت هاتان المملكتان لسيطرة الآشوريين في عام ٧٢٢ ق . م ومن ثم تعرضت فلسطين لغزو الملك البابلي نبوخذ نصر في عام ٥٨٤ ق . م الذي ساق الشعب اليهودي إلى بابل (السبي البابلي) وبذلك لم يعد هناك وجود لليهود في فلسطين التي عادت بعد ذلك لتكون أرضًا عربية من جديد .

– صالح مسعود أبو بصير : جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن ، الطبعة الثالثة (بيروت : دار الفتح للطباعة والنشر ، ١٣٨٩هـ / ١٩٧٠م) ص ص ١٩ – ٢٠ .

– صابر طعيمة : التاريخ اليهودي العام ، جزءان ، الطبعة الثالثة (بيروت : دار الجيل ، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م) ج ١ ، ص ٦ ، ٤٣ ، ١١٠ .

وهكذا يتضح لنا ان الصهيونية الحديثة ما هي إلا حركة سياسية يهودية قامت على استغلال مفاهيم اليهود الدينيـة المستقاة من مصادرهم الوضعية وما فيها مـن توجيهات استعمارية صهيونية ، ونزعات استعلائية ، لتحقيق هـدفها في الاستيلاء على فلسطين ، تمهيداً للسيطرة على العالم كله على المدى البعيـد .

فمن الثابت ان اليهود قـد قامـوا بتحريف التـوراة التي أنزلها اللّـه علـى موسى (عليه السلام) بالزيـادة والنقصان والتبديل فيها بما يوافـق طبائعهـم وأخلاقهـم ويكون سبيلاً لتحقـيق مقاصدهم قال اللّـه تعالى :
﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ (١) .

ولم يكتف اليهود بتحريف شريعة موسى (عليه السلام) بل راحوا يدونون ما استجد بعد ذلك من تعاليم حاخاماتهم التي تناقلوها مشافهةً جيلاً بعد جيل ، في كتاب آخر أطلقوا عليه التلمود(٢) .

ويعد التلمود كتاب السياسة الإرهابية اليهودية ، لأنه يتضمن الوسائل

---

(١) سورة المائدة : الآية رقم (١٣) .

(٢) التلمود : كلمة عبرية تعني المعرفة أو التعاليم . وفي الاصطلاح هو الكتاب الذي يحوي مجموعة تعاليم الديانة اليهودية وينقسم التلمود إلى قسمين : المشنا وهي الروايات الشفوية التي تناقلها حاخامات اليهود جيلاً بعد جيل والتي يزعمون أنها منقولة مشافهة عن موسى عليه السلام عبر أربعين جيلاً ثم دونوها خوفًا عليها من الضيـاع ، والقسم الثاني يطلق عليه الجمارا وهي مجموعة الشروح والحواشي التي أدخلها أحبار اليهود على المشنا .

- أحمد شلبي : المرجع السابق ، ص ٢٧٠ .
- أحمد الزغيبي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٠١ .

السياسية التي اختطها زعماء اليهود وحاخاماتهم من أجل السيطرة على العالم ، ولأنه غرس في اليهود الروح الاستعلائية ، والنزعة العنصرية ، لضمان تحقيق آمالهم الاستعمارية[1] . فمما ورد في التلمود في هذا الصدد : « يجب على كل إسرائيلي أن يبذل جهده لمنع تملك باقي الأمم في الأرض حتى تبقى السلطة لليهود وحدهم ، لأنه يجب أن تكون لهم السلطة أينما حلوا ، فإذا لم يتيسر لهم ذلك اعتبروا منفيين وأسرى ... وقبل أن تحكم إسرائيل نهائيًا على باقي الأمم يلزم أن تقوم الحرب على قدم وساق .. ويهلك ثلث العالم »[2].

ويعتبر اليهود التلمود كتابًا منزلاً ، وهو عندهم أسمى منزلة من التوراة ، فقد أدخل الحاخامات في روعهم أن من يخالف التوراة يغفر له ، أما من يخالف التلمود فلن يغفر له[3] .

وقد ندد القرآن الكريم بفعلهم هذا في قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾[4] .

وخلاصة ذلك أن الصهيونية وهي التعبير الرمزي عن أطماع اليهود السياسية في السيطرة على العالم ، قد عمدت قديمًا وحديثًا إلى استغلال الناحية العقائدية في نفوس اليهود ، إلهابًا لعواطفهم وشحذًا لعزائمهم ، وكسبًا لمزيد من الأنصار منهم .

---

(١) عبد السميع سالم الهراوي : الصهيونية بين الدين والسياسة (القاهرة : مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م) ص ١٣٨ .

(٢) أوغست روهلنج : الكنز المرصود في قواعد التلمود ، تعريب : يوسف نصر الله ، الطبعة الأولى (دمشق: دار القلم للطباعة والنشر ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م) ص ص ٧٠ – ٧١ .

(٣) أحمد شلبي : المرجع السابق ، ص ٢٧١ .

(٤) سورة البقرة : الآية رقم (٧٩) .

هذا وقد استندت الحركة الصهيونية الحديثة في نشأتها وتطورها على ركيزتين اثنتين هما :

أولاً : الادعاء باضطهاد اليهود :

فقد عاش اليهود أوضاعًا سيئة وعانوا من الاضطهاد الشديد في بعض الدول الأوروبية وكذلك في روسيا القيصرية بسبب عوامل عديدة منها النفور الديني المتوارث[١] الناتج عن اعتقادهم بأن اليهود هم المسؤولون عن صلب المسيح عليه السلام[٢] ، وكذا تضارب المصالح الاقتصادية والاجتماعية بحكم الموقع الطبقي الذي وصل إليه اليهود نتيجة تعاملاتهم الربوية وما نتج عن ذلك من اثارة سخط المجتمعات الأوربية باعتبار أن تسلط اليهود التجاري وجشعهم المالي هما سبب ما تعانيه الطبقات الكادحة من فاقة وبؤس ، فأصبحوا موضع كراهية وحقد شديدين في المجتمعات التي عاشوا فيها[٣] . وبرز الاضطهاد الذي أصاب اليهود في مظاهر عديدة فقد فرضت عليهم قيودًا اجتماعية واقتصادية وسياسية ، حيث عوملوا معاملة حذرة مشوبة بالاحتقار كما حُرِّم عليهم امتلاك الأراضي وتقلد الوظائف العامة ، فضلاً عن حرمانهم من الإقامة في بعض المدن ، مما ترتب عليه انعزال اليهود عن الحياة العامة في أقاليم خاصة بهم ، بل وقامت بعض الدول الأوربية بطرد اليهود من بلدانهم[٤] .

---

(١) إسماعيل أحمد ياغي : الجذور التاريخية للقضية الفلسطينية (الرياض : دار المريخ ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م) ص ص ١٨ - ١٩ .

(٢) قال تعالى : ﴿ وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا ﴾ سورة النساء : الآية رقم (١٥٧) .

(٣) عبدالله التل : خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية ، ص ص ١٠٦ - ١١٩ .

(٤) إيلان هاليفي : المرجع السابق ، ص ص ١١٨ - ١١٩ .

- داود عبد الغفور سنقرط : جذور الفكر اليهودي ، الطبعة الأولى (عمان : دار الفرقان ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م) ص ص ١٣٢ - ١٣٣ .

ومما هو جدير بالذكر أنه في الوقت الذي عومل فيه اليهود بهذه الطريقة في أوروبا كان اليهود الذين عاشوا في ظل الدولة الإسلامية ، قد وفرت لهم مبادىء التسامح الإسلامي التي حفلت بها الشريعة الإسلامية ، الحرية الدينية واحترام الحقوق فكانت البلاد الإسلامية الملاذ الآمن لهم[١] .

وقد استمرت الروح المعادية لليهود سائدة في أوروبا حتى أوائل القرن الثالث عشر الهجري الموافق لأواخر القرن الثامن عشر الميلادي حيث انتشرت مبادىء الحرية والمساواة في أعقاب الثورة الفرنسية التي قامت في عام ١٢٠٣هـ / ١٧٨٩ م والتي اتخذت من هذه المبادىء شعاراً لها . فهيأت تلك الأجواء التي ما لبثت أن انتشرت في معظم الدول الأوروبية الفرصة لليهود للتحرر من أوضاعهم السابقة ، فأُلغيت القوانين المقيدة لحرياتهم وتحسّنت أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية ، وتمكن اليهود من التفاعل والانصهار في المجتمع الأوربي[٢] .

إلا أنه يبدو أن ذلك التحسن في أوضاع اليهود قد أغرى غلاة اليهود لمزيد من التطلعات السياسية فعملوا على إبقاء وتضخيم أسطورة الاضطهاد الذي لاقاه اليهود واستغلوا وسائل الإعلام التي يسيطرون عليها للترويج لذلك ، حتى بدا وكأنه لم يكن في تاريخ البشرية ما هو أفظع وأشنع من الاضطهاد الذي حل بهم [٣].

والغريب أنّ اليهود لم يسألوا أنفسهم عن سبب ما يلقونه من معاملة ، أو لعلهم يدركون السبب ويتجاهلونه .

---

(١) صابر طعيمة : التاريخ اليهودي العام ، ج ٢ ، ص ١٩٠ .

(٢) س . ناجي : المرجع السابق ، ص ص ١٤٦ – ١٥٦ .

– السيد رجب حراز : صفحات من تاريخ الصهيونية وإسرائيل (القاهرة : ١٣٩٥هـ / ١٩٧٤م) ص١٧.

(٣) حسن صبري الخولي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٣ .

هذا وقد كان اليهود يتخذون من الأحداث الفردية أو الاقليمية حجة لهم ، لذا فقد استغلوا موجة الاضطهاد التي تعرض لها اليهود في روسيا عقب اغتيال القيصر اسكندر الثاني عام ١٢٩٨هـ / ١٨٨١م الذي حمّلت السلطات الروسية اليهود مسئولية اغتياله فرصة للادعاء أمام الرأي العام العالمي بأنّ الروح المعادية لليهود لن تخبو وأنّ دمج اليهود في المجتمعات التي يعيشون فيها ليس حلاً لما أسموه (المشكلة اليهودية) وهنا قُدمت الصهيونية كحل جذري للمشكلة اليهودية المدعاة عن طريق تحويل الديانة اليهودية إلى رابطة قومية تتجسد في إنشاء دولة يهودية في فلسطين يعيش فيها اليهود بعيداً عن الاضطهاد[١] .

وهكذا اتخذ الصهاينة من أسطورة اضطهاد اليهود ذريعة للترويج لحركتهم ، وراحوا يحاربون المساعي الجادة لإدماج اليهود في المجتمعات التي يعيشون فيها ، وفي المقابل أخذوا يعملون لنشر فكرة القومية اليهودية[٢] .

ونظراً إلى افتقار اليهود لعناصر الوحدة القومية أي وحدة اللغة والتاريخ والأرض بحكم انتماءاتهم إلى مجتمعات وبيئات متعددة ، راحت الصهيونية تنمي نزعة التعصب اليهودي العرقي العنصري[٣] .

وهنا نلاحظ أن الصهيونية التي تدعي بأنها وُجدت لوضع حد لمشكلة التمييز الاجتماعي ضد اليهود في بعض المجتمعات ، كانت وما زالت هي أكبر قوة تغذي روح التعصب العنصري والعرقي بين اليهود .

---

(١) المرجع نفسه : ج ١ ، ص ٢٠ .

(٢) صابر طعيمة : التاريخ اليهودي العام ، ج٢ ، ص ١٩٢ .

(٣) السيد رجب حراز : المرجع السابق ، ص ص ٣٧ – ٣٨ .

– روجيه غارودي : المرجع السابق ، ص ص ٢٩ – ٣٠ .

هذا ولم تترك الصهيونية وسيلة للترويج لحركتها وتدعيمها إلا وسلكتها ، حيث استغلت في هذا المجال الكثير من المؤسسات اليهودية الثقافية والدينية والاجتماعية والاقتصادية المنتشرة في أنحاء العالم والتي تتمتع بنفوذ واسع ، وقد رحبت تلك المؤسسات بذلك التعاون بدافع المصلحة المشتركة[١] .

ثانيًا : الالتحام بحركة الاستعمار العالمي :

فلم يكن من قبيل المصادفة أن تنشأ الصهيونية الحديثة في أوروبا ، وأن يكون زمن ظهورها في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي وأن تصوغ سياستها على الوجه الذي صاغته ، بل كانت الأوضاع السياسية والاقتصادية ، الزمانية والمكانية ، مناخًا مناسبًا لمولد تلك الحركة ، فقد شهد القرن الثالث عشر الهجري ، التاسع عشر الميلادي تصاعد حركة الاستعمار الأوربي العالمي ، التي أفرزتها الثورة الصناعية التي شهدتها أوربا في ذلك العصر وما نتج عنها من سباقٍ محموم للاستيلاء على أراضي آسيا وافريقيا ، طمعًا في ثرواتها وأسواقها ، وما رافقه من تنافس استعماري شديد بين الدول الأوربية الكبرى لإيجاد قوى حليفة تستخدمها في تحقيق مآربها الاستعمارية[٢] . ومن هذا المنطلق وجد الاستعمار في الصهيونية أداة لتدعيم نفوذه وتحقيق مخططاته الحيوية في المشرق الإسلامي الذي يتمتع بأهمية استراتيجية واقتصادية بالغة ، وفي المقابل وجدت الصهيونية في الاستعمار السند الدولي القوي الذي تحتاج إليه لتحقيق مشروعها في استيطان فلسطين وإقامة الدولة اليهودية[٣] .

وفي هذا الإطار السياسي حققت الفكرة الصهيونية نقلة كبيرة ومهمة

(١) حسن صبري الخولي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢١ .

(٢) حسان علي حلاق : المرجع السابق ، ص ١٢٩ .

(٣) رفيق النتشة : الاستعمار وفلسطين اسرائيل مشروع استعماري (عمان : دار الجليل للنشر ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م) ص ٥٥ .

تمثلت بانخراط المنظمة الصهيونية العالمية في صميم المخطط الاستعماري الأوربي[١] ، وقد كان لهذا العامل أثره البالغ في التقدم المطرد الذي حققته الحركة الصهيونية في المجال السياسي والاقتصادي على الساحة الأوروبيـــة .

وقبل ظهور الحركة الصهيونية الحديثة في إطارها السياسي المحدد كان هناك العديد من المحاولات التي مهدت لظهورها تمثلت في جهود فردية لشخصيات يهودية بارزة ، أو جمعيات ومنظمات يهودية متناثرة في شتى أنحاء العالم كان لها دور ضليع في رسم ملامح الطريق لها ، وتهيئة الأذهان لتقبلها عن طريق كتابة العديد من المؤلفات واصطناع الكثير من الشعارات المؤثرة ، التي تصف حالة اليهود التعسة وتعرض الحلول لها ، وكذا عن طريق بذل الأموال الطائلة في سبيل الوصول إلى تطبيق تلك الحلول المقترحة [٢]. ومن هذه المحاولات على سبيل المثال :

جمعية محبي القدس الشريف (تامبل Tampel) :

أسس هذه الجمعية مجموعة من يهود ألمانيا الذين كانوا يسعون للهجرة إلى فلسطين وذلك في عام ١٢٧٦هـ / ١٨٦٠م ، وكان رئيس الجمعية يدعى (هوفمان Hoffman) من مدينة ورتنبرغ بألمانيا . وقد أضفت هذه الجمعية على نشاطها الطابع الديني ، وفي عام ١٢٨٥هـ / ١٨٦٨م قام هوفمان بالسفر إلى الدولة العثمانية وتقدم بطلب إلى السلطان عبد العزيز (١٢٧٧ - ١٢٩٣هـ/ ١٨٦١ - ١٨٧٦م) ليسمح لهم بتأسيس مستعمرة يهودية ألمانية في فلسطين

---

(١) إسماعيل ياغي : الجذور التاريخية للقضية الفلسطينية ، ص ٥٣ .

(٢) جميل عبدالله المصري : حاضر العالم الإسلامي وقضاياه المعاصرة ، جزءان ، الطبعة الثانية (عَمان: دار أم القرى ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م) ج ٢ ، ص ٣٠٨ .

يسكنها المهاجرون اليهود . وبالفعل حصلوا على الإذن بذلك[١] .

وقد أكد ذلك المؤرخ التركي إسماعيل سرهنك في كتابه (حقائق الأخبار عن دول البحار) حيث يقول في توثيقه لأحداث عام ١٢٨٥هـ / ١٨٦٨م : « جاء قوم من مملكة ورتنبرغ الألمانية وأنشأوا في الجهة الغربية على مقربة من موقع حيفا القديمة مستعمرة متقنة البناء ، كثرت فيها الصناعة والزراعة ، فأحيوا كثيراً من الأرض ، وأوجدوا مركبات مخصوصة تسير بين حيفا وعكا والناصرة . وقد تساهلت الدولة العثمانية لرغبتها في إصلاح تلك الجهات »[٢] .

ويمكن ارجاع موقف السلطان عبد العزيز من مطالب هؤلاء اليهود لواحد من سببين اثنين : إما لأنّه كان من قصر النظر لدرجة انه لم يكن يدرك أبعاد هذه المطالب وانه توهم أن إقامة تلك المستوطنات لا يشكل خطراً على أمن الدولة ، وأنها وسيلة لتحسين الأوضاع الاقتصادية في جزء من دولته . أو لتأثير يهود الدونمة عليه ، سيما وقد تمكن عدد كبير منهم في تلك الفترة من الوصول إلى مناصب قيادية في الدولة كما سبق أن ذكرنا ولعل هذا هو السبب الأرجح .

جمعية (محبي صهيون Chibbath Zion) :

تأسست هذه الجمعية من قبل مجموعة من اليهود الروس، في مدينة أوديسا Odessa الروسية، ثم انتشرت فروعها في سائر المدن الروسية بل وفي شرق أوربا وفي فرنسا وانجلترا[٣] ، ومن أهم أعضائها (ليون بنسكر

---

(١) رفيق شاكر النتشة : السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين ، السلطان الذي خسر عرشه من أجل فلسطين ، الطبعة الخامسة (القاهرة : مكتبة مدبولي ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م) ص ١٠٠ .

(٢) إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٨١ .

(٣) ميم كامل أوكي : السلطان عبد الحميد بين الصهيونية العالمية والمشكلة الفلسطينية ، تعريب : إسماعيل صادق ، الطبعة الأولى (القاهرة : الزهراء للإعلام العربي ، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م) ص ٢٠ .

Leon Pinsker) و (آحـد ها عـام Achad Ha-am) ، وكـان هدف هـذه الجمـعية هو تشجيع اليهود على الهجـرة إلى فلسطين ونشـر التاريخ والأدب اليهودي وتعليم اللغة العبرية وجعلها لغة حية ، وعلى أثر موجة الاضطهاد التي تعرض لها اليـهود في روسيا بعد حادث اغتيال قيصرهـا اسكندر الثاني عام ١٢٩٨هـ /١٨٨١م حيث اعتبرت السلطات الروسية اليهود مسئولين عن تدبيره، تركز نشاط هذه الجمعية في البحث عن الوسـائل العملية لإيصال اليهود إلى فلسطين ، والعمل على إنشاء المستعمرات الزراعية اليهودية فيها[١] .

وفي خطوة على طريق العمل الجاد لتحقيق ذلك ، عقدت جمعية محبي صهيون مؤتمر (كاتوويتز Kattowitz) في روسـيـا برئاسـة ليـون بنسكر وعضوية عدد كبير من مندوبي فروع الجمعية[٢] ، وكان من أهم قرارات هذا المؤتمر دعم الاستيطان الصهيوني في فلسطين ، وتشجيع أصحـاب رؤوس الأموال من اليهود للتبرع لصالح المستعمرات اليهودية ، وكذلك إيفاد مندوبين إلى الدولة العثمانية لأخذ تصاريح للعمل في إنشاء المستعمرات في فلسطين دون مواجهة عقبات من السلطات الحاكمة فيها[٣] .

وإنفاذاً لهذه القرارات تقدمت الجمعية في عام ١٢٩٩هـ / ١٨٨٢م بطلب إلى القنصل العثماني في أوديسا للحصول على إذن بالهجرة إلى فلسطين والإستيطان فيها ، ولكن السلطان عبد الحميد الثاني الذي كان على رأس السلطة آنذاك (١٢٩٣ - ١٣٢٧هـ/ ١٨٧٦ - ١٩٠٩م) كان أكثر من سابقيه، من سلاطين آل عثمان توخيًا للحذر من اليهود ، وشكًا في نواياهم ، لذا فقد

---

(١) حسن صبري الخولي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٣ .

(٢) إيلان هاليفي : المرجع السابق ، ص ١٩٤ .

(٣) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج ٢ ، ص ٩٧٦ .

أوعز إلى القنصل العثماني برفض هذا الطلب[١] .

وإمعانًا في تأكيد هذا الموقف أصدر السلطان عبد الحميد فرمانًا[٢] في عام ١٢٩٩هـ / ١٨٨٢م نص فيه على ضرورة إشعار جميع اليهود الراغبين في الهجرة إلى الدولة العثمانية بأنّه لن يسمح لهم بالاستقرار في فلسطين ، على أنّ ذلك لا يعني السماح لهم بالهجرة إلى المناطق الأُخرى من الدولة العثمانية والإستقرار فيها كيفما شاؤوا ، بل سيصبحون رعايا عثمانيين وستُطبق عليهم القوانين المعمول بها في الدولة ، وعلى الرغم من هذا الموقف الحاسم الذي وقفه السلطان عبد الحميد تجاه أطماع اليهود ، فقد استمروا في بذل محاولات لاقناعه بمطالبهم ولكن جهودهم لم تنجح في تغيير موقف السلطان[٣] .

إلا أن هناك حقيقة لا يمكن تجاهلها وهي أنّ بعض اليهود قد تمكنوا بالفعل في تلك الفترة من التسلل إلى فلسطين والاستيطان فيها؛ وذلك باتباعهم الأساليب الملتوية المعهودة عنهم ، وسوف نتعرض لهذا الموضوع في جزءٍ لاحق من هذا المبحث إن شاء اللّه .

- بنسكر Pinsker والتحرر الذاتي Auto - Emancipation:

أضاف النداء الذي صدر عن ليون بنسكر Leon Pinsker عبر كتابه (التحرر الذاتي) في عام ١٢٩٩هـ / ١٨٨٢م لبنة جديدة في صرح الفكرة

---

(١) رفيق النتشة : السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين ، ص ١٠٢ .

(٢) الفرمان : كلمة فارسية الأصل ، وهو القرار الذي يعده الصدر الأعظم بعد عرضه على الديوان الإمبراطوري ثم يعرضه على السلطان فإذا وافق عليه وضع عليه الصدر الأعظم خاتم السلطان ، والفرمانات السلطانية منها ما هو خاص بولاية معينة ومنها ما هو عام لجميع الولايات .

- حسين مجيب المصري : المرجع السابق ، ص ١٤٤ .

- عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج ٢ ، ص ٩٦٨ .

(٣) حسان حلاق : المرجع السابق ، ص ٩٥ .

الصهيونية فقد صور مؤلف هذا الكتاب وهو طبيب روسي – سبقت الإشارة إلى أنّه كان من مؤسسي جمعية أحباء صهيون – في كتابه حياة البؤس والإذلال التي يعيشها اليهود ولا سيما في روسيا وأوروبا الشرقية بطريقة مبالغ فيها[١] ، وهاجم الفكرة التي تدعو إلى حل المشكلة اليهودية عن طريق انصهار اليهود في المجتمعات التي يعيشون فيها ، وتوصل في نهاية الأمر إلى أن الحل الأمثل يكون في تحرر اليهود ذاتيًا عن طريق إنشاء وطن قومي يهودي يعيش فيه اليهود كشعب له كيان مستقل[٢] .

ويلاحظ أنّ بنسكر لم يصر على أن تكون أرض فلسطين بالضرورة هي المكان الذي يقام عليه ذلك الوطن ، ولكنه أشار ضمنًا إلى أفضلية ذلك ، ولتنفيذ هذا المشروع دعا بنسكر إلى تأسيس شركة يهودية يضم مجلس إدارتها أثرياء اليهود في العالم ليتولوا شراء رقعة الأرض المطلوبة[٣] .

وبعد أن انتهى بنسكر من شرح الوسائل العملية لإنشاء ذلك الوطن راح يشير إلى أهمية توفير الحصانة السياسية له عن طريق الحصول على موافقة الحكومات الأوربية وتقديمها الدعم بشتى أنواعه لليهود لكي يتمكنوا من إقامته وليضمنوا استمراره[٤] .

هذا وقد أصبح كتاب «التحرر الذاتي» لبنسكر بمثابة خطة عمل لكثير من

---

(١) بشير موسى نافع : الامبريالية والصهيونية والقضية الفلسطينية ، الطبعة الأولى (القاهرة : دار الشروق ، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م) ص ٨٣ .

(٢) إيلان هاليفي : المرجع السابق ، ص ص ١٩٤ – ١٩٥ .

(٣) اتحاد الجامعات العربية : القضية الفلسطينية والصراع العربي الصهيوني ، جزءان (الموصل : الأمانة العامة لاتحاد الجامعات العربية ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م) ج ١ ، ص ص ٢١٨ – ٢١٩ .

(٤) حسن صبري الخولي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٧ .

اليهود المتحمسين ، فعلى أثر صدوره أُلِّفت العديد من الجمعيات اليهودية التي تبنت تنفيذ سياسة التحرر الذاتي[١] .

- البـارون إدمـوند دي روتشلد Edmond De Rotschild والدعم المادي للمشاريع الاستيطانية :

كانت المشاريع الاستعمارية اليهودية التي اقترحها المفكرون والساسة اليهود في حاجة ماسة إلى التمويل ، لذا فقد قام مجموعة من كبار رجال المال اليهود بهذا الدور حيث بذلوا الأموال الطائلة في هذا المجال . ويأتي في مقدمة هؤلاء البـارون (إدمـوند دي روتشلد) الذي ينحـدر من أسـرة آل روتشلد اليهودية الألمانيـة الأصل ذات الثراء الفاحش ، فقد كان أجداده من قبله يمتلكون عدداً كبيراً من البنوك موزعة في عواصم ومدن أوروبا واميركا[٢] .

وقد قامت هذه الأسرة اليهودية بتمويل الكثير من الثورات والحروب التي دبّرها اليهود وعلى رأسها الثورة الفرنسية[٣] .

وفي مجال النشاط الصهيوني قام البارون إدموند دي روتشلد الذي كان يقيم في فرنسا بتقديم المنح السخية لتأسيس المستعمرات الزراعية في فلسطين، وفي عام ١٢٨٧هـ / ١٨٧٠م أنشيء أول معهد زراعي صهيوني قرب يافا على نفقته ، كما قام في عام ١٣٠١هـ / ١٨٨٤م بشراء بعض الأراضي

(١) إسماعيل ياغي : الجذور التاريخية للقضية الفلسطينية ، ص ٤٠ .

(٢) وليام غاي كار : أحجار على رقعة الشطرنج ، تعريب : سعيد جزائرلي ، الطبعة الثالثة (بيروت : دار النفائس ، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م) ص ٧٦ .

(٣) غازي محمد فريج : النشاط السري اليهودي في الفكر والممارسة ، الطبعة الأولى (بيروت : دار النفائس ، ١٤١١هـ / ١٩٩٠م) ص ١٦٧ ، ١٧١ ، ١٨٦ .

الفلسطينية[١] وأقام عليها مستوطنات زراعية وجلب خبراء فرنسيين لتدريب اليهود على أصول الزراعة لقلة خبرتهم بها . وقد بلغ به اهتمامه بتشجيع استيطان اليهود في فلسطين أنّه عندما وجد أن الملل واليأس أخذ يسيطر على اليهود من جراء فشلهم في الزراعة أغراهم بالبقاء بمنحهم رواتب شهرية ثابتة[٢] .

ولم يكن الدعم المالي الذي كان يقدمه البارون روتشلد مقتصراً على تشجيع الإستيطان بل شمل العناية بأحوال اليهود الإجتماعية والصحية عن طريق بناء المدارس والمستشفيات[٣] .

وعلى العموم فقد كان لهذا النشاط الصهيوني المبكر أهمية بالغة في تهيئة المُناخ المناسب لمولد الحركة الصهيونية السياسية الدولية الحديثة في أوائل القرن الرابع عشر الهجري الموافق أواخر القرن التاسع عشر الميلادي على يد الزعيم الصهيوني تيودور هرتزل Theodor Herzel الذي يُعد بحق مؤسس الحركة الصهيونية الحديثة . كما كان لهذا النشاط أهمية كبيرة في جذب أنظار دول العالم إلى الصهيونية باعتبارها حركة يمكن استغلالها لتنفيذ المصالح الاستعمارية ، وكذا كان له دور رائد في إيقاظ الفكر اليهودي وجذبه نحو فلسطين[٤] .

---

(١) كان لسوء النظام الإداري دور كبير في تسهيل حصول اليهود على الأراضي الفلسطينية فقد كان تراكم الضرائب على الفلاحين قد عرض أراضيهم للبيع لاستيفاء الديون التي تراكمت عليها وفي الغالب يكون المشترون من الأجانب . وسوف نتعرض لتفاصيل ذلك في جزء لاحق من هذا المبحث .

(٢) حسان حلاق : المرجع السابق ، ص ٨٥ ، ١٠٠ .

(٣) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج ٢ ، ص ٩٨٢ .

(٤) حسن صبري الخولي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣٢ .

المبحث الثالث
موقف السلطان عبد الحميد الثاني
من التسلل اليهودي إلى فلسطين

لم تكن الدولة العثمانية منذ أن أصبحت صاحبة السيادة على أرض فلسطين – بعد أن تمكن السلطان سليم الأول (٩١٨ – ٩٢٦ هـ / ١٥١٢ – ١٥٢٠م) من القضاء على دولة المماليك عام ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م [١]– جاهلة بأطماع اليهود في تلك الأراضي فقد أصدر السلطان سليم الأول في عام ٩٢٣هـ / ١٥١٧م فرمانًا يمنع اليهود من الهجرة إلى سيناء وهي المعبر إلى فلسطين ، واستمرت تلك السياسة الحذرة تجاه أطماع اليهود ديدن من خلفه على السلطة من آل عثمان[٢] .

إلاّ أنّ العبء الأكبر في سياسة التصدي لأطماع اليهود قد وقع على عاتق السلطان عبد الحميد الثاني (١٢٩٣–١٣٢٧هـ / ١٨٧٦ – ١٩٠٩م) ففي عهده كشر اليهود عن أنيابهم واستشرت أطماعهم ، وأصبحوا أكثر جرأة على التصريح عن آمالهم في استيطان تلك الأراضي المقدسة ، لذلك فإنّ تقييم موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية يتصل اتصالاً وثيقًا بفترة حكم هذا السلطان الواعي الشديد المراس ، الذي تصدى للأطماع اليهودية بكل ما أوتي من عزيمة ودبلوماسية ، ولم يثنه عن ذلك ما كان يثقل كاهله من أعباء الحكم الداخلية وكذا مواجهة الزحف الإستعماري الأوربي على أجزاء دولته[٣] .

---

(١) إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٥٣٠ .

(٢) يستثنى من ذلك حالات شاذة مثل موقف السلطان سليم الثاني والسلطان عبد العزيز ، وقد سبقت الإشارة إلى موقف كلٍّ منهما في مواضع سابقة .

(٣) جواد رفعت آتلخان : الإسلام وبنو إسرائيل ، ص ٢٠٥ .

فمنذ أنْ اعتلى السلطان عبد الحميد عرش الدولة العثمانية وهو حريص كل الحرص على اتخاذ كافة التدابير للتصدي لتسلل اليهود إلى الأراضي الفلسطينية والحيلولة دون تنفيذ مخططاتهم فيها ، ومن ذلك على سبيل المثال أنه توخيًا للحيطة والحذر في هذا الشأن أدخل تغييراً على الوضع الإداري لبيت المقدس بإصداره فرمانًا في عام ١٣٠٤هـ / ١٨٨٧م يقضي بتحويلها من صنجقية[١] تتبع باشا دمشق الذي يطلق عليه باشا الشام إلى متصرفية[٢] خاصة تتبع استانبول مباشرة ، وقد اتخذ السلطان عبد الحميد هذا الإجراء لإحكام الرقابة على هذه المنطقة من قبل الدوائر الحكومية في العاصمة لمنع الهجرة اليهودية إليها[٣] .

ومما يدل على أن السلطان عبد الحميد كان يرصد التيارات الفكرية والسياسية اليهودية ويدرك المرامي البعيدة لرغبة اليهود في الهجرة إلى فلسطين أنه أصدر في عام ١٣٠٨هـ / ١٨٩١م ثلاث فرمانات متلاحقة لجهات حكومية مختلفة تتضمن الرفض البات لجميع محاولات اليهود للوصول إلى فلسطين بغرض استيطانها[٤] ، وقد سبقت الإشارة إلى أنَّه كان قد رفض الطلب الذي تقدمت به جمعية محبي صهيون عام ١٢٩٩هـ / ١٨٨٢م للقنصل العثماني في مدينة أوديسا الروسية ، والمتضمن رغبة اليهود الروس بالحصول على إذن من السلطان العثماني للهجرة إلى فلسطين والاستيطان فيها .

---

(١) صنجقيه : وحدة إدارية أصغر من الولاية تقابل المحافظة ، ويطلق على حاكمها صنجق وتتبع الولاية .

– حسن صبري الخولي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤٧ .

(٢) المتصرفية : وحدة إدارية تلي الولاية مباشرة في الأهمية والمساحة ، يكون لها وضع خاص متميز عند الدولة فتجعلها قسمًا إداريًا قائمًا بذاته تابعًا للباب العالي رأسًا : المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ٤٨ .

(٣) محمد كرد علي : خطط الشام ، ٦ أجزاء ، الطبعة الثانية (بيروت : دار القلم ، ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م) ج٣ ، ص ٢٢٨ .

(٤) أورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ص ٢٥٧ – ٢٥٨ .

وعلى الرغم من وضوح الموقف العثماني تجاه طلب اليهود . إلاّ أنّه جريًا على عادتهم في اتباع سياسة التحدي للرأي العام والخاص ، فإن ذلك لم يمنع جماعة منهم من التسلل إلى فلسطين ، وإزاء ذلك التصرف بعث السلطان عبد الحميد إلى والي القدس يأمره بأن لا يسمح لأي يهودي قادم من روسيا أو رومانيا أو بلغاريا بأن يدخل فلسطين[١] .

ونتيجة لضغط الدول الأوربية على السلطات العثمانية بخصوص السماح لرعاياهم اليهود بدخول فلسطين أصدر السلطان عبد الحميد في عام١٣٠١هـ/ ١٨٨٤م ، فرمانًا يقضي بالسماح لليهود بدخول فلسطين إذا كان بغرض زيارة الأماكن المقدسة ، بشرط ألا تتجاوز مدة إقامتهم ثلاثين يومًا[٢] ، ثم نتيجة لمزيد من الضغط مُددت الفترة المسموح بها إلى ثلاثة أشهر في عام ١٣١٨هـ / ١٩٠٠م [٣].

وإنفاذًا لذلك أوعزت الحكومة العثمانية إلى قناصلها في جميع الدول بعدم التأشير على جوازات سفر اليهود إلاّ بغرض الزيارة الدينية ولفترة محدودة[٤].

وإمعانًا في التصدي لتحايل اليهود على القوانين ، ومنعًا لاستقرارهم في فلسطين تحت ذريعة الزيارة للأماكن المقدسة ، استُحدث في عهد السلطان عبد الحميد نظام (الشارة الحمراء) حيث كان على الزائر اليهودي منذ وصوله إلى فلسطين أن يسلم جواز سفره إلى السلطات العثمانية هناك ويستبدله مؤقتًا ببطاقة حمراء اللون يسمح لحاملها بالإقامة في الأراضي المقدسة لمدة

---

(١) حسان حلاق : المرجع السابق ، ص ص ٩٥ – ٩٧ .

(٢) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج٢ ، ص ٩٧٦ .

(٣) محمد كرد علي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٠٢ .

(٤) أحمد نوري النعيمي : اليهود والدولة العثمانية ، ص ٨٤ .

لا تتجاوز الثلاثة أشهر[١] .

وإزاء المحاولات المتزايدة لشراء الأراضي الفلسطينية من قبل بعض الجمعيات اليهودية ، أصدر السلطان عبد الحميد الثاني في عام ١٣٠٩هـ / ١٨٩٢م فرمانًا يُحرم بيع الأراضي الفلسطينية لليهود حتى ولو كانوا رعايا عثمانيين[٢].

ولأن السلطان عبد الحميد كان على علم بمدى الفساد الذي تفشى في الدوائر الحكومية والنتائج السيئة التي ترتبت على انتشار الرشوة بين الموظفين رغم سعيه لمحاربة ذلك[٣] ، لذا فقد كان يحرص عند اختياره الشخص الذي سيعينه متصرفًا للقدس على أن يكون من الرجال الأكفاء الذين يثق في إخلاصهم حتى لا يقع فريسة لإغراءات قناصل الدول الأجنبية فيغض النظر عن دخول المهاجرين اليهود إلى فلسطين أو شرائهم أراضيها ، ومن أولئك المتصرفين الأكفاء المخلصين على سبيل المثال رؤوف باشا[٤](١٢٩٣-١٣٠٥هـ/ ١٨٧٦-١٨٨٨م) فقد كان رجلاً حازمًا نزيهًا نظيف اليد حريصًا على تعقب اليهود الذين يقيمون بطريقة غير قانونية ولذا فكثيرًا ما كان يتنازع مع القناصل الأجانب في فلسطين لاعتراضهم على ملاحقاته للمهاجرين اليهود وتصديه لمراوغاتهم في التحايل على القوانين التي تُحرِّم شراءهم الأراضي الفلسطينية[٥] .

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٨٥ .

(٢) رفيق النتشة : السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين ، ص ١٧٢ .

(٣) أورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ٢٦٠ .

(٤) رؤوف باشا : ينتمي إلى عائلة تركية قديمة ، وكان قد تلقى تعليمه في باريس ، تولى متصرفية القدس اثنتي عشرة سنة وكان من الموالين للعرب كما عُرف عنه كرهه لليهود والأوربيين .

– أحمد نوري النعيمي : اليهود والدولة العثمانية ، ص ٨٠ .

(٥) صبري جريس : تاريخ الصهيونية . جزءان (بيروت : مركز الأبحاث الفلسطينية ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م) ج ١ ، ص ١٠٩ .

ولكن رغم الحرص الشديد الذي أبدته الحكومة العثمانية ممثلة في السلطان عبد الحميد الثاني والإجراءات الصارمة التي اتخذتها تجاه الهجرة اليهودية إلى فلسطين فإنّ الهجرة استمرت في التدفق ، ويمكن أن نرجع ذلك إلى ثلاثة أسباب رئيسة :

أولاً : تفشي الفساد في الجهاز الإداري في فلسطين :

فخلافًا للموقف العثماني الرسمي الحازم تجاه الهجرة اليهودية إلى فلسطين فإنّ موظفي الإدارة العثمانية المحلية في فلسطين كثيرًا ما كانوا يخضعون لشهوة المال الذي كان اليهود يمنحونه بسخاء لهم نظير غض النظر عن إقامتهم وتسهيل دخولهم إلى فلسطين دون تسجيل أسمائهم على اللائحة الخاصة بالزوار[١] ، وقد اعترف اليهود أنفسهم باعتمادهم على هذه الوسيلة في الوصول إلى فلسطين ، ففي هذا المعنى يقول الزعيم الصهيوني وايزمان Weizmann في مذكراته : « كنا نعلم بأنّ أبواب فلسطين مغلقة أمامنا وكنا نعرف بأن أي يهودي يروم دخول فلسطين كان عليه أن يحمل شارة حمراء وإلا كان يطرد من قبل السلطات التركية . وكنا نعرف بأن القانون التركي يحظر على اليهود شراء الأراضي ولربما لو اعتبرنا هذا الموضوع مغلقًا أو حاولنا أن نكون نظاميين لرعبنا ، ولكننا استطعنا العبور إلى فلسطين وبصورة منتظمة ومستمرة في جنح الظلام ، وعليه نرى بأن اليهود قد استقروا في فلسطين ولم يطردوا حيث قاموا بشراء أراض عن طريق أشخاص وهميين وفي بعض الأحيان عن طريق الرشوة ، لأن طبقة الموظفين كانت فاسدة ... وقد بنيت البيوت بعيداً عن القانون كما بنيت في ظل تلك الأوضاع المستعمرات

---

(١) رفيق النتشة : السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين ، ص ١٠٥ .

الصهيونية الأولى »[١] .

وقد جاء في الموسوعة اليهودية أيضًا ما يثبت خيانة الجهاز الإداري حيث تذكر الموسوعة بأن قانون عام ١٣٠٩هـ / ١٨٩١م الذي منع اليهود من الهجرة إلى فلسطين كان من الناحية العملية قانونًا على الورق ، إذ لم تكن له قوة دائمة ، وكانت الإدارة التركية تتغاضى عن هذا القانون ، إلاّ أنّ السلطان العثماني كان حذرًا ومرتابًا من الأهداف الصهيونية وأنّه لم يكن مساعدًا لها على الاطلاق[٢] .

وبذلك نرى أنّ القرائن قد تواترت لتثبت أنّ الحكومة العثمانية ممثلة في السلطان عبد الحميد كانت حريصة على الأخذ بكل ما من شأنه أن يضع حدًا لتسلل اليهود إلى فلسطين ولتحايلهم على القوانين التي تمنع استقرارهم فيها ، وأنّ نجاح اليهود في تحقيق ذلك لا يمكن إرجاعه لتقصير من الحكومة في هذا الصدد ، بل إلى خللٍ وفساد في الإدارات الحكومية في فلسطين .

هذا وقد كانت الحكومة العثمانية تحاول التصدي لهذا الفساد ، فعلى سبيل المثال حصل ان اكتشفت في عام ١٣٠٤هـ / ١٨٨٧م أن موظفي ميناء يافا كانوا يرسلون كل شهر إلى المتصرف بيانات كاذبة تفيد أنّ كل اليهود الذين دخلوا البلاد خلال الشهر السابق قد عادوا من حيث أتوا ، فقامت باستبعاد هذه العناصر الفاسدة ، وعززت قوات الشرطة في ذلك الميناء[٣] .

ولأنّ وجود مثل هذه العناصر من ضعاف النفوس كان يسهل على اليهود التسلل إلى فلسطين فقد كان وجود أناس مخلصين أمثال رؤوف باشا السابق

---

(١) أحمد نوري النعيمي : اليهود والدولة العثمانية ، ص ص ٨٤ – ٨٦ ، نقلاً عن مذكرات حاييم وايزمان ، ص ٤١ .

(٢) حسان حلاق : المرجع السابق ، ص ١٠٤ ، نقلاً عن الموسوعة اليهودية ، ص ٧٥ .

(٣) صبري جريس : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١١٠ .

ذكره أمرًا مزعجًا لليهود حيث كانت مواقفه الحازمة تجاههم قد أدت إلى تجميد النشاط الاستيطاني الصهيوني خلال فترة ولايته . لذا عملوا بطرقهم الملتوية للخلاص منه ، ومن ذلك ممارستهم الضغط على السلطات العثمانية عن طريق الدول الأجنبية حتى حملوا السلطات العثمانية على عزله من منصبه[١] .

ورغم حرص الحكومة العثمانية على تعقب هؤلاء المرتشين واستبعادهم ، فإنها لم تستطع أن تقضي على تلك الظاهرة[٢] .

ونرى هنا أنّه كان من الأجدر بالحكومة العثمانية أن تكون أبعد نظر في البحث عن أسباب تفشي هذه الظاهرة ، كأن تكون رواتب هؤلاء الموظفين قليلة لا تفي باحتياجاتهم ممّا يدفع بضعاف النفوس منهم إلى أخذ الرشوة لسد حاجاتهم . أو أن تكون العقوبات التي تطبق على من يُكتشف أمره من هؤلاء المرتشين غير رادعة بقدرٍ كافٍ لمنع الموظفين من الإقدام على هذه الأفعال المشينة .

ثانيًا : سوء النظام الإداري :

كان لطبيعة النظام الإداري العثماني في فلسطين دور كبير في تردي الأوضاع الاقتصادية للسكان لا سيما الفلاحين ، وإحداث فروقات اجتماعية شاسعة بين فئات المجتمع الفلسطيني ، فقد فُرضت على الفلاحين ضرائب ورسوم إضافة إلى العُشر الذي كان يُمثّل الزكاة التي تُستوفى عينًا ، هذا غير ما يرافق تحصيل تلك الأموال من ابتزاز المحصلين[٣] .

ونتيجة لعجز بعض الفلاحين عن دفع هذه الضرائب وتراكمها عليهم كانت

---

(١) المرجع نفسه : ج ١ ، ص ١١٠ .

(٢) أورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ٢٦٠ .

(٣) محمد كرد علي : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ص ٩٣ – ٩٤ .

الإدارة تعمد إلى استيفاء الضرائب المترتبة عليهم بعرض أراضيهم للبيع في المزاد ، وعند ذلك يكون المشترون في الغالب من الرأسماليين اللبنانيين والسوريين المسيحيين ، وبأسعار متدنية ، ويكون غرضهم من شرائها المتاجرة ببيعها وليس زراعتها(١) .

وهذه الفئة الإقطاعية هي التي باعت الأراضي الفلسطينية لليهود بأسعار مغرية حيث لا يهمهم إلا الكسب ، فقد ثبت أنّ معظم الأراضي التي حصل عليها اليهود في تلك الفترة كانت ملك لعائلات لبنانية مسيحية مثل عائلة متى وفرح وسليم الخوري وتويني ولا سيما أسرة سرسق التي كانت تمتلك قرى كاملة(٢) .

أمّا الفلاح الفلسطيني فبالرغم من المعاناة والضيق والفقر وتراكم الديون والفوائد عليه فقد ظل متمسكًا بأرضه ومرتبطًا بها ارتباطًا وثيقًا(٣) .

ثالثًا : إستغلال الدول الأجنبية معاهدات الإمتيازات :

كانت الدولة العثمانية خلال القرن العاشر الهجري الموافق السادس عشر الميلادي قد عقدت مع العديد من الدول الأوربية مثل فرنسا وانجلترا وهولندا معاهدات تضمنت القوانين التي تنظم إقامة المتسأمنين من رعايا تلك الدول في أراضي الدولة العثمانية وممارستهم النشاط التجاري فيها(٤) ، ومثيلات تلك

---

(١) حسان حلاق : المرجع السابق ، ص ٧٨ .

(٢) أشار هرتزل في مذكراته إلى دور هذه الأسرة في امتلاك اليهود لكثير من المستوطنات في فلسطين .
- يوميات هرتزل : تعريب : هلدا صايغ ، الطبعة الأولى (بيروت : مركز الأبحاث . منظمة التحرير الفلسطينية ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م) ص ٧٥ .

(٣) رفيق النتشة : السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين ، ص ٧٢ .

(٤) تقوم تلك المعاهدات على أساس ثابت في الفقه الإسلامي . فقد قسم الفقهاء المسلمون العالم إلى قسمين : دار الإسلام ودار الحرب ، دار الإسلام هي البلاد التي يكون للمسلمين ولاية عليها ==

القوانين بالنسبة لرعايا الدولة العثمانية المقيمين في أراضي تلك الدول[١] .

والمطّلع على بنود هذه المعاهدات يعتقد أنّ من أهم أسباب إبرامها تنظيم النشاط الاقتصادي المتبادل بين الدولة العثمانية والدول الأجنبية التي مُنحت لها ، إلا أنّ المتمعن في الأحوال السياسية لكل من الدولة العثمانية والدول الأجنبية التي مُنحت لها تلك المعاهدة في ذلك الوقت يُدرك بأنّ تلك المعاهدات أُبرمت لأغراض سياسية بالدرجة الأولى[٢] .

وعلى الرغم من أن الدولة العثمانية منحت هذه المعاهدات وهي في أوج قوتها ، فقد جاءت معظم بنودها لصالح الدول الأجنبية ، فبالإضافة إلى الإعفاءات الضريبية التي تمتع بها رعاياهم في ظل تلك المعاهدات ، فقد منحتهم حصانة شديدة تجاه السلطة القضائية والسلطة التنفيذية في الدولة العثمانية[٣] .

ولم تظهر مساوئ تلك الامتيازات بشكل جلي إلاّ حين بدت بوادر اضمحلال الدولة العثمانية تظهر في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين الموافق

= وتقام فيها شعائر الإسلام ، ودار الحرب هي التي ليس للمسلمين ولاية عليها ولا تقام فيها شعائر الإسلام ، وحين يعبر أراضي الدولة الإسلامية أناس من دار الحرب ويقيمون فيها فترة محدودة لاغراض سلمية يطلق عليهم المتسأمنون أي الذين منحوا الأمان ، حيث تكفل لهم الشريعة الإسلامية سلامة حياتهم وأملاكهم ليتمكنوا من ممارسة نشاطهم السلمي .

– عبد العزيز المحمد السلمان : الأسئلة والأجوبة الفقهية ، سبعة أجزاء ، الطبعة : الحادية عشر (الرياض : ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م) ج ٣ ، ص ١٨٧ .

(١) محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي (القاهرة : مكتبة سعيد رأفت ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م) ص١٩٣ .

(٢) يوسف بن علي الثقفي : دراسات متميزة في العلاقات بين الشرق والغرب على مر العصور ، الطبعة الثانية (مكة المكرمة : دار الثقة للنشر والتوزيع ، ١٤١١هـ / ١٩٩٠م) ص ٩١ .

(٣) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج ٢ ، ص ٧٢٨ .

للثامن والتاسع عشر الميلاديين ، فقد أصبحت تلك المعاهدات الأجنبية بمثابة مواثيق مذلة للعثمانيين ، وكانت الذريعة التي تشبثت بها تلك الدول للتدخل في شؤون الدولة العثمانية بحجة الحفاظ على حقوق رعاياها المقيمين في الدولة العثمانية ، في حين كانت تعمل لخدمة مصالحها الاستعمارية[(١)] .

كما قدمت هذه المعاهدات خدمات جليلة للحركة الصهيونية ، فكثيراً ما تدخلت تلك الدول بوقاحة استعمارية متناهية لتعطل الإجراءات التي كانت الدولة العثمانية تتخذها للحد من الهجرة اليهودية ، وذلك بحجة رعاية مصالح رعاياها اليهود – وفق ما تخوله لها معاهدات الامتياز –[(٢)] .

وكذلك قام القناصل الأجانب استناداً إلى هذا النظام بدور مهم للغاية في تسهيل عمليات الاستيطان الصهيوني في فلسطين وذلك بتسهيل دخول اليهود من مواطني دولهم إلى فلسطين ، أو بمساعدتهم على امتلاك الأراضي فيها ، وقد اعترف اليهود أنفسهم بذلك ففي هذا الصدد يقول المؤرخ اليهودي (بولاك) : « أنَّ هؤلاء اليهود تمكنوا من البقاء في البلاد بفضل الرشوة ، كما تمكن كثيرون من الإفلات من قبضة الحكم بسبب كونهم رعايا أجانب ، خاصة وقد حُظر على السلطات التركية في حينه التدخل في شؤون رعايا الدول الأخرى أو اعتقالهم أو مُحاكمتهم دون تدخل القناصل »[(٣)] .

وهكذا نرى أن تلك المعاهدات كانت بمثابة حبل طوقت به الدولة العثمانية عنقها وسلمته لعدوها ، فظل عائقًا لها وهي تؤدي واجبها في حماية جزء مهم من أملاكها ، في حين كانت تلك المعاهدات الورقة الرابحة بالنسبة للدول الاستعمارية فلعبت بها لخدمة مصالحها المشتركة مع الصهيونية .

---

(١) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٢٣٠ .

– صبري جريس : المرجع السابق ، ص ١٠٧ .

(٢) أحمد نوري النعيمي : اليهود والدولة العثمانية ، ص ٧٠ .

(٣) بولاك : إسرائيل أمة وتاريخها ، تعريب : رسمي بيادسة (تل أبيب : ١٣٩١هـ/١٩٧١م) ص ١٥٠ .

المبحث الرابع

تيودور هرتزل والنشاط الصهيوني الدولي

في أوائل القرن الرابع عشر الهجري الموافق أواخر القرن التاسع عشر الميلادي وُفِقت الفكرة الصهيونية المبتدئة المتعثرة بشخصية استطاعت أنْ تحقق لها نقلة كبيرة وتخطو بها خطىً واسعة في طريق تحقيق أهدافها ، وهي شخصية تيودور هرتزل Theodor Herzel الذي يُعد المؤسس الحقيقي للحركة الصهيونية السياسية الحديثة[١] .

وتيودور هرتزل صحافي يهودي ولد في مدينة بودابست عاصمة المجر في عام ١٢٧٦هـ / ١٨٦٠م ، من أبوين يهوديين ، وكان جده لأمه حاخامًا يهوديًا ، وقد نشأ بين تيارين من المؤثرات هما التقاليد الدينية اليهودية والثقافة الألمانية العصرية ، وقد كان لوالدته (جانيت) تأثير كبير في حياته فقد غرست في نفسه منذ صغره أنّه سيؤدي رسالة هامة في حياته[٢] .

وفي عام ١٢٩٥هـ / ١٨٧٨م كان هرتزل قد أنهى دراسته الثانوية فانتقل مع أسرته إلى النمسا[٣] ودرس القانون في جامعة فينا ، وبعد تخرجه اشتغل بالصحافة والأدب[٤] فعمل مراسلاً في باريس للصحيفة الجديدة

---

(١) رُوجيه غَارودي : المرجع السابق ، ص ١٢ .

(٢) ديزموند ستيوارت : المرجع السابق ، ص ١٧ ، ٣٩.

(٣) كانت أخته الوحيدة (بولين) قد توفيت في هذه الفترة فقررت أسرته الهجرة إلى فيينا أملاً في أنْ يخفف الإنتقال من أحزانها .

- المرجع نفسه : ص ٦٣ .

(٤) كانت ميول هرتزل الأدبية قد ظهرت منذ وقت مبكر في حياته ، وكان مصممًا على دراسة الأدب والمسرح ولكن والديه تجاهلا رغبته وأملوا عليه دراسة القانون .

- المرجع نفسه : ص ٦٢ .

الحـرة Neue Freie Presse التي تصدر في فينا ، ثم أصبح محرراً للقسم الأدبي في تلك الجريدة ، كما واصل دراساته حتى حصل على درجة الدكتوراه في الحقوق(١) .

وكانت إقامة هرتزل في فرنسا لعدة سنوات (١٣٠٨ - ١٣١٣هـ / ١٨٩١ - ١٨٩٦م) بحكم عمله كمراسل للصحيفة الجديدة الحرة قد جعلته يهتم بقضية (دريفوس Dreyfus) الضابط الفرنسي اليهودي الذي اتهم بالخيانة لنقله أسراراً عسكرية فرنسية لدولة معادية هي ألمانيا(٢) ، فحكم عليه في عام ١٣١١ هـ / ١٨٩٤م بتجريده من جميع رتبه العسكرية وسجنه مدى الحياة في إحدى المستعمرات الفرنسية النائية ، وكان هرتزل قد حضر المحاكمة بنفسه بصفته مراسلاً صحفياً وتم تجريد دريفوس من رتبه العسكرية في مشهد عسكري كبير أقيم في أحد الميادين الكبرى في باريس(٣) .

وعلى الرغم من أن قضية دريفوس قضية عسكرية سياسية بحتة فقد هُوجم اليهود في فرنسا على أثرها بشكل كبير لأن المجتمع الفرنسي كان مشحوناً مسبقاً ضد اليهود لأنهم كانوا وراء الكثير من الأزمات التي تعرضت لها المؤسسات المالية والاقتصادية الفرنسية(٤) .

وتعد هذه القضية من الأحداث المهمة في تاريخ فرنسا فقد كانت حديث الرأي العام الفرنسي الذي اختلفت آراؤه حيالها ، والشغل الشاغل للصحافة

---

(١) صبري جريس : المرجع السابق ، ج١ ، ص ١٤٣ .

(٢) ج . ل . ن . جفريز : فلسطين إليكم الحقيقة ، تعريب : أحمد خليل الحاج ، ٤ أجزاء (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٣٩٠ هـ / ١٩٧١م) ج ١ ، ص ٨١ .

(٣) عبدالله التل : خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية ، ص ١٦٣ .

(٤) س . ناجي : المرجع السابق ، ص ص ١٨٢ - ١٨٣ .

الفرنسية لعدة سنوات[١] .

هذا وقد قام اليهود كرد فعل لهذه القضية بدور بارز في تصعيد الأزمات السياسية الفرنسية وذلك بما توافر لهم من إمكانيات مادية وإعلامية هائلة ، كما استغلوا تلك الإمكانيات لإقناع الرأي العام بأن قضية دريفوس والتهمة التي وُجِهت إليه ملفقة من أساسها . وأنَّ منبعها الروح المعادية للسامية[٢] ، بل وطعنوا في إجراءات التحقيق ، وكان نتيجة ذلك أن وقف بعض أعلام الفكر وأصحاب المناصب القيادية من الفرنسيين الذين استطاع اليهود شراء أصواتهم وأقلامهم يطالبون بإعادة محاكمة دريفوس ، وأمام هذا الضغط اليهودي ، أعادت الحكومة الفرنسية محاكمة ذلك الضابط من جديد ، وصدر الحكم ببراءته وأعيد إلى الخدمة العسكرية ، بل ومُنح وسام شرف ، مما دفع بوزير الحربية الفرنسي وبعض أعوانه إلى تقديم استقالتهم احتجاجًا على ذلك[٣].

ويتضح لنا من خلال قضية دريفوس أثر الإعلام والمال اليهودي في قلب الموازين وكسب اليهود لقضاياهم بغير حق .

وتيودور هرتزل كيهودي عاش خضم أحداث هذه القضية وتأثر بها أيما

---

(١) داود عبد الغفور سنقرط : أبناء يهود في الخفاء . اليهود في الوطن العربي ، الطبعة الأولى (عمان : دار الفرقان ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م) ص ص ١٦ – ١٧ .

(٢) السامية : كلمة مشتقة من سام وهو اسم أحد أبناء نوح عليه السلام الذي ينحدر منه اليهود ، ويقصد بهذا المصطلح عداء الشعوب الآرية لليهود ومقاومتهم لهم ، وكان اليهود قد اخترعوا هذه الفكرة عندما كثرت جرائمهم وانكشفت مؤامراتهم لبعض القادة الأوربيين والأمريكان فأصبحوا يتهمون كل من يحاول فضحهم وكشف مؤامراتهم بأنه عدو للسامية ، وعلى أي حال فهو تعبير خاطيء لأن اليهود ليسوا وحدهم بالساميين بل يدخل معهم العرب وغيرهم من قبائل سام الاثنى عشر

– محمد عبدالله عنان : المرجع السابق ، ص ١١٦ .

(٣) حسن صبري الخولي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ص ٥٩ – ٦١ .

تأثر راح يبحث عن حل لمشكلة العداء لليهود التي يدعي معظم اليهود انها السبب في تعرضهم للاضطهاد ، وإقحامهم في كثير من القضايا[١] .

ومن هذا المنطلق قام هرتزل بنشر كتابه الذي أطلق عليه مسمى (الدولة اليهودية) في عام ١٣١٣هـ / ١٨٩٦م باللغة الألمانية وضمنه الحل الأمثل في رأيه للمشكلة اليهودية ، وهو إقامة دولة يهودية قومية مستقلة تجمع شتات اليهود في العالم وتضع حداً لمتاعبهم، وعلى الرغم من أن هرتزل لم يحدد مكاناً معيناً لإقامة تلك الدولة ، بل دعا زعماء اليهود في أنحاء العالم للاجتماع لاختيار ذلك الموقع، إلاَّ أنَّه لم يستطع أن يخفي ميوله لأن تكون أرض فلسطين هي المكان الذي تقام عليه تلك الدولة المزمع انشاؤها[٢] ، فقد أشار إليها في أكثر من موضع في كتابه ، ومن ذلك على سبيل المثال قوله : « ... فإنّ فلسطين هي وطننا التاريخي الذي لا يمكن أن يُنسى ، ومجرد اسمها سيكون عاملاً مهمًا فعالاً شديد الفعالية »[٣] .

هذا وقد وضع هرتزل في كتابه سالف الذكر خطة منظمة لإقامة الدولة اليهودية وتحويل الحلم إلى حقيقة ، فاقترح تكوين هيئتين هما جمعية يهودية تتولى القيام بالخطوات الأساسية للعمل السياسي ، وشركة يهودية على غرار الشركات التجارية الأوربية الكبرى التي لعبت دوراً كبيراً في الاستعمار الأوربي الحديث[٤] ، مثل شركة الهند الشرقية الإنجليزية

---

(١) إيلان هاليفي : المرجع السابق ، ص ٢٠٠ .

(٢) ج . م . ن . جفريز : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٨٢ .

(٣) ديزموند ستيوارت : المرجع السابق ، ص ٢٥٩ ، نقلاً عن تيودور هرتزل : الدولة اليهودية ، ص ٦٦ .

(٤) محمد كرد علي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٠٠ .

– روجيه غارودي : المرجع السابق ، ص ١٤ .

وشركة الهند الشرقية الهولندية[١] .

وقد أثار كتاب هرتزل ضجة كبيرة في الأوساط اليهودية وانقسموا بشأن ما جاء به إلى قسمين : قسم يؤيده ويرى فيه نهاية لمعاناة اليهود ، والقسم الآخر يعارضه ويرى أنه سوف يجلب الشقاء لليهود[٢] .

والواقع أن دور هرتزل لم يكن لينتهي عند حد تأليف هذا الكتاب ومن ثم نشره وطرح تلك الفكرة الجريئة على يهود العالم ، ولو كان قد فعل ذلك لكان شأنه شأن الكثير من مفكري اليهود الذين ناقشوا القضية اليهودية ، ولكن هرتزل لم يكتف بذلك بل راح يجند نفسه لتحويل تلك الفكرة إلى واقعٍ ملموس ، وبدأ تحركه الدبلوماسي المكثف للحصول على الدعم والتأييد الدولي بشأن تحقيق مشروعه ، فسافر في عام ١٣١٤هـ / ١٨٩٦م إلى ألمانيا حيث قابل دوق بادن الكبير[٣] وعرض عليه فكرته وطلب منه أنْ يمهد له لمقابلة القيصر الألماني، وقد أشار هرتزل إلى تلك المقابلة في مذكراته في قوله : « لقد اهتم دوق بادن الكبير باقتراحي بأن تقوم دولة منذ البدء وكان الشيء الوحيد الذي يخشاه من مساندة القضية هو أن يساء فهم هذه المساندة وينظر إليها كعمل لا سامي . فطمأنته أنّ الذين سيذهبون من اليهود هم فقط الفئة التي تريد الذهاب»[٤] .

---

(١) يلاحظ أن هذه الاقتراحات التي ضمّنها تيودور هرتزل كتابه تحولت إلى واقع فالجمعية اليهودية التي أشار بأن تتولى الشؤون السياسية تحققت في تلك المؤتمرات اليهودية التي أصبحت تعقد بصورة دورية ويحضرها زعماء اليهود في أنحاء العالم ، والشركة اليهودية تحققت في إنشاء البنك اليهودي الذي كان يمول مشاريع الاستيطان اليهودية وكافة النفقات من أجل إقامة الدولة اليهودية .

(٢) ديزموند ستيوارت : المرجع السابق ، ص ٢٥٤ .

– محمد علي خرم آبادي : الصهيونية وواجب المسلمين تجاهها ، الطبعة الأولى (بغداد : منشورات المكتبة العلمية ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م) ص ٤٧ .

(٣) دوق بادن : هو فريدريك الأول أمير ولاية بادن الألمانية ، كان صديقًا لهرتزل .

– أحمد الزغيبي : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٢٩ .

(٤) يوميات هرتزل : ص ٢٣ .

وفي الوقت نفسه كان هرتزل يبذل جهداً كبيراً للاتصال بالمسؤولين في الحكومة البريطانية ، وبعد مساعٍ طويلة نجح في الحصول على تقييم لمشروعه من (جلادستون Gladstone)[١] الرئيس السابق للحكومة البريطانية جاء في رسالة بعث بها إلى (صموئيل منتاجو Samuel Montague) اليهودي عضو مجلس العموم البريطاني الذي أهداه كتاب هرتزل ، حيث يقول جلادستون في رسالته: « إنّ موضوع الكتيب الذي تفضلت بإرساله إليّ شيق للغاية ، ومن الصعب على الغريب عن الموضوع بأن يتوصل إلى حكم بخصوصه، وأن يتمكن من إبداء أي حكم . ولكن دهشت جداً لمدى الكدر الذي استولى على اليهود وأنا بالطبع أعارض اللاسامية معارضة شديدة »[٢] .

ونلاحظ هنا انه على الرغم من كون فلسطين التي يخطط هرتزل لإقامة الدولة اليهودية على أرضها جزءاً من أملاك الدولة العثمانية فإنه قد بدأ مساعيه لتحقيق مشروعه الصهيوني من أوروبا قبل أن يتصل بالسلطات العثمانية ويعرف موقفها حيال طلبه[٣] ، وذلك لأنه كان يدرك بأنه لن يتمكن من الحصول على فلسطين إلاّ إذا حصل على تأييد وضمانة دولية ومن ثم ضغط سياسي على السلطان العثماني لإقناعه بالمشروع الصهيوني .

وقد رأى هرتزل أنّ هذه المواقف الأوربية المبدئية تجاه مشروعه تعطيه

---

(١) جلادستون : سياسي بريطاني كان خطيباً مفوهاً وحجة في الشؤون المالية ودخل مجلس العموم البريطاني عام ١٢٤٩هـ / ١٨٣٣م وفي عام ١٢٥٩هـ / ١٨٤٣م أصبح وزيراً للتجارة ، وفي عام ١٢٦١هـ / ١٨٤٥م عين وزيراً للمستعمرات وفيما بين عامي ١٢٨٥ - ١٣١١هـ / ١٨٦٨ - ١٨٩٤م عين أربع مرات رئيساً للوزراء ، وفي عهده احتلت بريطانيا مصر عام ١٢٩٩هـ / ١٨٨٢م ، وعُرف عنه تعصبه للمسيحية والتعمق في الدراسات الإنجيلية وقد ألف العديد من الكتب في الشؤون الدينية، ومن أشهر مؤلفاته كتاب (الأهوال البلغارية والمسألة الشرقية) الذي هاجم فيه الدولة العثمانية واتهم السلطان عبد الحميد الثاني بالوحشية في مواجهته للثوار البلغار .

- الموسوعة العربية الميسرة : ج ١ ، ص ص ٦٣٥ - ٦٣٦ .
- عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج ٢ ، ص ص ٨٤٩-٨٥٦ .

(٢) يوميات هرتزل : ص ٢٧ .

(٣) كان موقف السلطان عبد الحميد من أطماع اليهود في فلسطين قد اتضح منذ بداية فترة حكمه متمثلاً في قوانين الهجرة اليهودية القاضية بمنع الاستيطان اليهودي في فلسطين .

الضوء الأخضر لمواصلة جهوده ، لا سيما مع السلطان عبد الحميد ، فراح يستعين ببعض الشخصيات التي أبدت استعدادها لتقديم العون له ومن أولئك (ديونس روز نفيلد Diounis Rosenfeld) الصحافي اليهودي الذي كان يعمل رئيساً لتحرير جريدة (البريد العثماني الحر) التي كانت تصدر في استانبول ، والذي وعده بأن يهيء له الفرصة لمقابلة السلطان ، وفي هذا الصدد يقول هرتزل في مذكراته : « زارني ديونس روز نفيلد رئيس تحرير (البريد العثماني) في القسطنطينية ، وقد عرض عليّ خدماته بالتوسط . يقول إنّه على علاقة طيبة مع عزت بك[1] الرجل المقرب من السلطان . أخبرته بكلمات قليلة عن القضية وقلت له إننا سندفع لتركية كثيراً وسنقدم عطايا كبيرة لمن يتوسط لنا ، إن نحن حصلنا على فلسطين ... ويؤكد لي أنّ باستطاعته أن يؤمن لي موعداً مع السلطان في آخر آيار »[2] .

ويتضح من خلال تلك الاتصالات التي أجراها هرتزل المبدأ الذي آمن به زعيم الصهيونية وهو مبدأ الرشوة ومنطق المال الذي اعتمده في جميع اتصالاته .

وكذلك استعان هرتزل بالصحافي النمساوي (نيولنسكي Neolinski)[3]

---

(١) أحمد عزت بن محي الدين العابد ولد بدمشق عام ١٢٧٢هـ / ١٨٥٥م وتلقى تعليمه في بيروت وكان يجيد اللغة التركية والفرنسية ، عين مفتشاً للعدلية في سوريا ، وأصدر جريدة اسبوعية بالعربية والتركية سماها (دمشق) ثم انتقل إلى استانبول ونال حظوة عند السلطان عبد الحميد الثاني فعينه سكرتيراً خاصاً له ومستشاراً في الشؤون العربية ثم كلفه بالإشراف على إنشاء سكة حديد الحجاز وبعد الانقلاب الدستوري عام ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م غادر استانبول واستقر في مصر إلى أن توفي بها عام ١٣٤٢هـ / ١٩٢٤م .

– خير الدين الزركلي : الأعلام ، ٨ أجزاء ، الطبعة السابعة (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م) ج ١ ، ص ١٦٩ .

(٢) يوميات هرتزل : ص ٢٨ .

(٣) فليب مايكل نيولنسكي : صحافي وعميل سياسي نمساوي من أصل بولوني . عمل مسؤولاً في الإدارة السياسية في السفارة النمساوية في استانبول وأصبح صديقاً للسلطان عبد الحميد ، وقد ترك العمل الدبلوماسي عام ١٢٩٦هـ / ١٨٧٩م وأقام في باريس كصحفي وفي عام ١٣٠٤هـ / ١٨٨٧م أسس وكالة أنباء في فينا وأصدر نشرة (بريد الشرق) اليومية ، وقد انتدبه السلطان عدة مرات لحل بعض المشكلات السياسية ، كالقضية الأرمينية ، وكان صديقاً لهرتزل لذا لعب دوراً مهماً في =

الذي كان صديقًا للسلطان عبد الحميد ، وأشار هرتزل إلى ذلك في مذكراته حيث يقول : « جاء نيولسكي ليزورني وكنت قد اتصلت به تليفونيًا وأطلعْته باختصار على تطورات القضية ، أخبرني أنّه قرأ كراسي قبل ذهابه إلى القسطنطينية وتحدث مع السلطان ، وأنّ السلطان قال إنه لن يتخلى أبدًا عن القدس »(١) .

وكان فشل مساعي نيولنسكي وغيره من الوسطاء إزاء صلابة موقف السلطان الذي صرح برفضه القاطع للتفريط بجزء مهم من أملاك دولته : « ... جاؤوا إليّ بعد فترة وطلبوا مني أرضًا لتوطين اليهود في فلسطين مقابل أموال طائلة وبالطبع رفضت » (٢) قد جعل هرتزل يشعر بعقم هذا الأسلوب في المفاوضات ، فقرر السفر بنفسه إلى استانبول وقد ذهب إليها بالفعل في عام ١٣١٣هـ / ١٨٩٦م – وكانت تلك أول زياراته لها – . وهناك أجرى اتصالات مباشرة مع بعض المسؤولين في الحكومة العثمانية إلاّ أنّ نتائج تلك الاتصالات لم تكن مشجعة ، فقد أوحى إليه الجميع بأنّ السلطان لن يقبل بمشروعه ، كما فشلت محاولاته العديدة لمقابلة السلطان ، الأمر الذي جعله يقرر مغادرة استانبول بعد أن قضى فيها عشرة أيام(٣) .

ورغم هذا الفشل الذريع الذي مني به الزعيم الصهيوني في رحلته الأولى إلى استانبول ، إلا أن ذلك لم يقض على الأمل في نفسه ، وظل يمارس نشاطه الصهيوني ويسعى جاهدًا من جديد لمقابلة السلطان .

= الاتصالات الدائرة بين زعيم الصهيونية والدولة العثمانية .

– أحمد الزغيبي : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ١٥ حاشية رقم (٢) .

(١) يوميات هرتزل : ص ٢٩ .

(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ١٤١ .

(٣) أحمد نوري النعيمي : اليهود والدولة العثمانية ، ص ١١٨ .

وكانت زيارته الثانية لاستانبول في عام ١٣١٦هـ / ١٨٩٨م في أعقاب انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول ١٣١٥هـ / ١٨٩٧م ، حيث حاول استغلال زيارة امبراطور ألمانيا (ولهلم الثاني)[١] للدولة العثمانية والصداقة التي تربط بينه وبين السلطان عبد الحميد[٢] ليتوسط له عند السلطان، إلاّ أنّ آماله في تلك الوساطة ذهبت أدراج الرياح نتيجة الموقف الفاتر الذي وجده من الامبراطور الألماني،الذي كان شديد الحرص على أن لا يتصرف تصرفًا يعكر صفو العلاقة بينه وبين الدولة العثمانية ، رغم إظهار تعاطفه مع المشروع الصهيوني[٣].

وأخيرًا وبعد وساطات وشفاعات عديدة[٤] ، تكللت مساعي هرتزل بالنجاح

---

(١) ولهلم الثاني : هو امبراطور ألمانيا وملك بروسيا فيما بين عامي ١٣٠٥ - ١٣٣٦هـ / ١٨٨٨ - ١٩١٨م أكمل دراسته في جامعة بون وكان محبًا للمظاهر العسكرية ويعتبر البعض ان برنامجه الضخم في التسلح مسؤول إلى درجة كبيرة عن نشوب الحرب العالمية الأولى وفي أعقاب تلك الحرب أعلن الرئيس الأمريكي ولسن أن نزول ولهلم الثاني عن عرش ألمانيا شرط ضروري لإجراء مفاوضات الصلح فقامت فتن في ألمانيا أكرهت ولهلم على النزول عن العرش وذهب إلى هولندا حيث أقام في عزلة بقية حياته.

- الموسوعة العربية الميسرة : ج ٢ ، ص ١٩٦٧ .

(٢) تقرب ألمانيا من الدولة العثمانية يرجع إلى اعتبارات اقتصادية ذلك أن ألمانيا كانت تبحث عن أسواق في الشرق لتصريف بضائعها واستثمار رؤوس أموالها ، وقد أصبحت السياسة الخارجية الألمانية واضحة تجاه الشرق منذ مؤتمر برلين ١٢٩٥هـ / ١٨٧٨م عندما توسطت بين الدولة العثمانية والقوي الأوربية ، ونتيجة لتعزيز العلاقات الألمانية العثمانية رفع التمثيل الدبلوماسي بينهما من مفوضية إلى سفارة وأصبح هناك اهتمام واضح من قبل ألمانيا نحو مستقبل الدولة العثمانية ، وقد جوبهت هذه السياسة الألمانية بمعارضة شديدة من قبل الدول الاستعمارية الأوربية في حين رحبت الدولة العثمانية بهذه السياسة لأنها رأت أن من مصلحتها أن تدخل ألمانيا ميدان التنافس مع بقية الدول الأوربية .

- جورج انطونيوس : المرجع السابق ، ص ١٤٤ .

- حسن صبري الخولي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٧٧ .

(٣) غازي محمد فريج : المرجع السابق ص ص ٢١٦ - ٢١٧ .

(٤) كان من أبرز الأشخاص الذين بذلوا جهدًا لإقناع السلطان عبد الحميد بمقابلة هرتزل شخص يدعى (أرمينيوس فامبري) وهو مستشرق مجري يهودي الأصل تزوج من أميرة عثمانية ووطّد ==

واستطاع أن يحظى بموافقة السلطان عبد الحميد الثاني على مقابلته وذلك في عام ١٣١٩هـ / ١٩٠١م ، ولكن ليس كزعيم صهيوني بل كيهودي وصحافي نافذ ، وبالفعل حضر هرتزل إلى استانبول وكانت هذه هي زيارته الثالثة لها ، وبعد عدة أيام من وصوله تمت المقابلة بينهما وحضر المقابلة حاخام اليهود في تركيا (موسى ليفي Moshe Levy) ومترجم القصر ، وقبل أن يتقدم هرتزل بطلبه للسلطان مهّد لذلك بمقدمة كلها استعطاف وتملق ، مفيداً أنّ الدولة العثمانية ذات فضلٍ سالف على اليهود[١] ، وأنّ اليهود مدينون للعثمانيين بالعرفان لحسن معاملتهم لهم منذ القديم ، ثم راح يتجاسر ويطلب من السلطان السماح لليهود باستيطان فلسطين ، فردّ عليه السلطان مظهراً استغرابه لهذا الطلب ، بأن اليهود يعيشون في جميع ممالك الدولة ويتمتعون بالعدالة والمساواة ، ثم تساءل إن كان هناك لهم أي شكاية لا يعرفها هو . فأجاب هرتزل بالنفي واستشهد برأي الحاخام بأنّ اليهود يعيشون في ظل الدولة العثمانية بكامل حريتهم[٢] .

ثم راح هرتزل يوضح للسلطان بأنّ غرضهم من هذا الطلب هو جمع شتات اليهود في أنحاء العالم في وطن خاص بهم ، مشيراً إلى أنّه في مقابل تحقيقه رغبتهم هذه سوف يكون هو وسائر اليهود على استعدادٍ تام لتقديم

= علاقته مع السلطان عبد الحميد ، وكان يعمل جاسوساً لمصلحة الدولة العثمانية .

- صبري جريس : المرجع السابق ، ص ١٦٥ .

(١) أشار هرتزل إلى ما كان من موقف الدولة العثمانية من اليهود الذين هاجروا من اسبانيا في القرن التاسع الهجري الموافق الخامس عشر الميلادي . وقد سبقت الإشارة إلى ذلك الموقف في المبحث الأول من هذا الفصل .

(٢) يلماز أوزتونا : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٥٧ .

كافة الخدمات للدولة العثمانية ، وقد أشار هرتزل في مذكراته إلى عرضه هذا في قوله : « ... قلت له ، بواسطة إبراهيم[١] إنني أكرس نفسي لخدمته لأنه يحسن إلى اليهود ، واليهود في العالم كله يدينون له بذلك وإني بشكل خاص مستعد لتأدية أية خدمة له ، وخاصة الخدمات الكبيرة » [٢] . وأضاف مشيراً إلى الفوائد التي سوف تعود على الدولة العثمانية إذا ما حُققت لليهود مطالبهم « أنّ حل المسألة اليهودية إنما يتضمن تقوية تركية . إنّ نشاط اليهود وأهميتهم تجاريًا وماليًا معروفًا جدًا ، إنه نهر من الذهب ، والتقدم ، والحيوية يحوله السلطان نحو تركيا حينما يسمح بدخول اليهود الذين هم أصدقاء تركيا منذ القرون الوسطى »[٣] .

وبينما كان هرتزل في أثناء هـذه المقابلـة مسترسلاً في عروضه تلك، راح السلطان عبد الحميد يستمع إلى حديث هذا الصحافي الذي تجاسر على تغليف تقديم الرشوة له بمهارة ، وأخذ يرخي له في حبال الكلام ليدفعه إلى التصريح بكل ما في جعبته من مشاريع وآراء[٤] ، متظاهرًا بمسايرته ليستشف من ذلك ما يخطط له هذا اليهودي[٥] .

وفي نهاية مطاف هذا اللقاء تلقى هرتزل رد السلطان على مطلبه وهو كما

---

(١) إبراهيم بيك : هو الموظف المسؤول عن المراسلات الرسمية الخارجية في بلاط السلطان عبد الحميد الثاني ، وقد قام بدور المترجم في هذه المقابلة .

– أحمد الزغيبي : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٢٢ .

(٢) يوميات هرتزل : ص ١٧٣ . .

(٣) المصدر نفسه : ص ٥٧ .

(٤) يقول الشيخ جمال الدين الأفغاني في تقيمه لشخصية السلطان عبد الحميد : « إنّ السلطان عبدالحميد لو وزن بأربعة من نوابغ رجال العصر لرجحهم ذكاء ودهاءً وسياسة ، خصوصًا في تسخير جليسه ».

– أحمد أمين : زعماء الإصلاح في العصر الحديث (بيروت : دار الكتاب العربي) ص ١١٧ .

(٥) حسن صبري الخولي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٧٦ .

جاء في مذكراته على لسان السلطان عبد الحميد : « يمكن للإسرائيليين أن يُقبلوا ويستقروا في الامبراطورية العثمانية شرط أن لا يكونوا جميعًا في مكان واحد بل يفرقوا في أماكن تعينها لهم الحكومة ، وشرط أن يُقرر عددهم مسبقًا من قبل الحكومة . وسيعطون الجنسية العثمانية ويُسألون عن جميع الضرائب المدنية بما فيها الخدمة العسكرية[١] ، كما سيكونون خاضعين لجميع قوانين البلاد كالأتراك تمامًا »[٢] .

ويتضح من موقف السلطان عبد الحميد من مطلب اليهود والشروط التي أملاها عليهم إدراكه لأبعاد مخططاتهم ، كما يتضح من مطالبته لهم بأن يكونوا رعايا عثمانيين إذا ما رغبوا بالإقامة في جزء من دولته ، إنّه كان يعي الأخطار التي يمكن أن تنجم عن استيطان اليهود في فلسطين أو غيرها من أراضي دولته ، مع استمرارهم على جنسياتهم الأوربية لأنّ ذلك يعني استفحال خطر الامتيازات الأجنبية ومن ثم تدخل الحكومات الأجنبية في شؤون دولته .

وعلى الرغم من هذا الموقف الرافض بحزم الذي لمسه هرتزل منذ اليوم الأول لسنوات قضاها في محاولات فاشلة متوالية لإقناع السلطان عبد الحميد الثاني بالموافقة على مطلبه ، فقد ظلّ خلال هذه المدة يتشبث بالأمل ويبحث عن وسائل يستميل بها السلطان علّه يتراجع عن موقفه ، فهداه تفكيره إلى عدة وسائل راح يتبع الواحدة تلو الأخرى معتقداً في كل مرة أن هذه الوسيلة كفيلة باقناع السلطان بضرورة تغيير موقفه ولكن دون جدوى .

---

(١) يُلاحظ بأنّ هذا الشرط هو من قبيل الشروط التعجيزية لليهود ، ذلك لأنّ القوانين العثمانية المنبثقة من الشريعة الإسلامية لا تسمح لغير المسلمين بالخدمة العسكرية .

(٢) يوميات هرتزل : ص ٢٣٦ .

أهم الوسائل التي اتبعها هرتزل لاستمالة السلطان عبد الحميد الثاني للموافقة على المشروع الصهيوني :

أولاً : الإغراء المادي حيث اعتقد هرتزل أنّ الأزمة المالية الخانقة التي تمر بها الدولة العثمانية هي الورقة الرابحة التي يمكن أن يلعب بها ، إذ كانت الأحوال الاقتصادية في البلاد قد بلغت من السوء أن أصبحت الدولة مكبلة بالديون للدول الأوربية ، التي وجدت في ذلك ذريعة للتدخل في شؤون البلاد الداخلية ، ففرضت على الدولة العثمانية وجود بعثة مالية أوربية للإشراف على الأوضاع الاقتصادية ضمانًا لديونها[١] .

لهذا وجد هرتزل -الذي غلب على طريقة تفكيره الأسلوب اليهودي القح- أن هذه الثغرة هي السبيل الموصل لاقناع السلطان بتحقيق مطلبه وفي هذا الصدد يقول هرتزل في مذكراته : « يجب أن يُقترح على السلطان أن يتولى هو أمر الحركة الصهيونية ويعلن لليهود بأنه سيقدم لهم فلسطين كولاية تحت سيادته التامة بحيث يكون لها قوانينها الخاصة وجيشها .. الخ[٢] .. ومقابل هذا يترتب على اليهود أن يدفعوا جزية تساوي حوالي مليون جنيه سنويًا »[٣] كما أشار في موضع آخر من مذكراته إلى استعداد اليهود لسداد الديون المترتبة على الدولة العثمانية إذا وافق السلطان أن يبيعهم فلسطين ! « ... نصرف عشرين مليون ليرة تركية لنصلح الأوضاع المالية في تركية ، **ندفع من هذا المبلغ مليونين بدل فلسطين** ... وبالثمانية عشر مليونًا تحرر تركية من

---

(١) أحمد نوري النعيمي : اليهود والدولة العثمانية ، ص ١١٦ .

(٢) يُلاحظ مدى جرأة هرتزل على التلاعب بالألفاظ ففي الوقت الذي يقترح بأن يقدم السلطان فلسطين لليهود كولاية تحت سيادته التامة ، يطالب بأن يكون لها قوانينها الخاصة وجيشها وغير ذلك من أغراض الاستقلالية .

(٣) يوميات هرتزل : ص ٣٨ .

بعثـة الحماية الأوربية » [١].

ومضى هرتزل يلوح للسلطان بالمكاسب المادية التي سوف يجنيها إذا ما وافق على استعمارهم لفلسطين ، ومن ذلك اقتراحه بإنشاء بنك يهودي إسلامي يعمل لإصلاح الوضع الاقتصادي في الدولة العثمانية وينظم حساباتها حيث يقول هرتزل : « إذا سُمح لنا بالإستعمار بلا قيود أقنعت أصحابي بتأسيس بنك تركي عظيم يكون مقره في القسطنطينية وفروعه في كل المدن المهمة في الامبراطورية وسوف يُعهد لهذا البنك ، الذي سيقتصر أعضاء مجلس إدارته على المسلمين واليهود ، بتنظيم حسابات الدولة العثمانية تنظيمًا حديثًا . وهكذا نبرهن للجميع بأنّ مجيء اليهود هو في صالح الدولة ومن قبيل حسن طالعها »[٢] .

ورغم أنّ السلطان عبد الحميد كان في أمس الحاجة لتلك الأموال التي كان الزعيم الصهيوني يلوح بها ، لإصلاح أوضاع دولته وسداد ديونها ، إلا أنه ما وهن وما استكان ، ولم تكن أموال اليهود لتغير مبادئه فليس المسلمون – وهو خليفتهم وقدوتهم – بالذين يبيعون أراضيهم ويسمحون لأعدائهم بانتهاك حرمة مقدساتهم وإن كان ولا بد فليكن ذلك بعد أن تراق دماؤهم في الذود عنها .

وقد حفظ التاريخ هذا الموقف المشرف للسلطان عبد الحميد في مقولته لنيولنسكي التي نقلها لهرتزل ، فدونها الأخير في مذكراته ، لتكون شهادة من عدوه له ، تقطع الطريق على المغرضين المشككين في موقف السلطان .

« قال السلطان لي : « **إذا كان هرتزل صديقك بقدر ما أنت صديقي فانصحه أن لا يسير أبدًا في**

---

(١) المصدر نفسه : ص ٣٣ .

(٢) المصدر نفسه : ص ٢٠١ .

هذا الأمر . لا أقدر أن أبيع ولو قدماً واحداً من البلاد لأنها ليست لي بل لشعبي . لقد حصل شعبي على هذه الأمبراطورية بإراقة دمائهم وقد غذوها فيما بعد بدمائهم وسوف نغطيها بدمائنا قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منا . لقد حاربت كتيبتان من جيشنا في سورية وفلسطين وقتل رجالنا الواحد بعد الآخر في بلفنه[١] لأن أحداً منهم لم يرض بالتسليم وفضلوا أن يموتوا في ساحة القتال . الإمبراطورية التركية ليست لي وإنما للشعب التركي . لا أستطيع أبداً أن أعطي أحداً أي جزء منها . ليحتفظ اليهود ببلايينهم . فإذا قسمت الإمبراطورية فقد يحصل اليهود على فلسطين بدون مقابل . إنما لن تقسم إلا جثثنا ولن أقبل بتشريحنا لأي غرض كان »[٢] .

ثانيًا : إظهار مساندة اليهود للدولة العثمانية في قضية خلافها مع العناصر الأرمنية :

في محاولة من هرتزل لنيل رضا السلطان وإظهار أثر اليهود في السياسة الدولية والمحلية ، راح يقحم نفسه في قضية الخلاف بين الحكومة العثمانية والعناصر الأرمنية[٣] معتقداً أنّه لو وفق في إقناع زعماء الأرمن

---

(١) بلفنه : مدينة ذات موقع استراتيجي مهم تقع على ملتقى الطرق الرئيسة بين مضائق جبال البلقان وبلغارية الغربية والطونة . وقعت فيها موقعة عسكرية بين العثمانيين والروس في عام ١٢٩٤هـ / ١٨٧٧م ، وقد أبلى العثمانيون فيها بلاء حسنًا .

– محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ص ٦٢٩ – ٦٣٠ .

(٢) يوميات هرتزل : ص ٣٥ .

(٣) تتمحور القضية الأرمنية في مطالبة الأرمن بإقامة دولة مستقلة عن الدولة العثمانية ، وتدخل الدول الأوربية لصالح الأرمن ومطالبتها بإصلاحات في الولايات التي يقطنها الأرمن ، كما قام الأرمن بتشكيل لجان ثورية ضد السلطان عبد الحميد . وترجع كثير من المصادر أسباب قيام النزاع بين الأرمن والدولة العثمانية إلى أعمال الجاسوسية اليهودية التي كان لها دور في إطلاق الإشاعات المسيئة للأرمن واختلاق كثير من المواقف وإلصاقها بالأرمن ، وكذلك العمل على تزويد الحكومة العثمانية بمعلومات مضللة بغية نشر الشقاق وزرع بذور الفرقة بين الدولة والطوائف التابعة لها .

– س . ناجي : المرجع السابق ، ص ص ٣١٤ – ٣١٥ .

بالتوقف عن الثورة ضد السلطان ، فإنّ ذلك سوف يؤثر على موقف السلطان من مطلبه ، لذا فقد نشطت الأجهزة الصهيونية بتوجيه منه لإقناع الأرمن بالتخلي عن ثوراتهم ومظاهراتهم ضد السلطان ، كما سعى للاتصال برئيس حركة الأرمن في لندن (أفتيس نزار بك) في محاولة للتخفيف من حدة الثورة الأرمنية ، وقد أثبت هرتزل هذا الدور في مذكراته حيث يقول : « كانت اللجان الأرمنية قد قررت القيام بإضراب في تموز ، يجب أن نقنعهم بالإنتظار شهراً وخلال هذه المدة نقوم بمفاوضات مع السلطان »[١] .

وكذلك اتصل هرتزل ببعض المسؤولين الإنجليز للحصول على مساعدتهم في الضغط على الأرمن ، إلا أنّ هذا الجهد الدبلوماسي الصهيوني قد أخفق لأنّ الحكومة البريطانية كانت ترى أنّه من مصلحتها قيام القلاقل في أنحاء الدولة العثمانية[٢] .

ثالثاً : عرضه على السلطان تكريس الصحافة اليهودية لخدمة قضايا الدولة العثمانية :

رأى هرتزل أنّه قد يتمكن من استمالة السلطان عبد الحميد إذا ما عرض عليه أن يحشد جهود الصحافة اليهودية ذات الباع الطويل لخدمة قضايا الدولة العثمانية ، فبعث إلى صديقه (سيدني ويتمان Sydney Whitman)[٣]

(١) يوميات هرتزل : ص ٢٩ .

(٢) حسان حلاق : المرجع السابق ، ص ١٢٠ .

(٣) سيدني ويتمان : صحافي انجليزي كان مراسل (نيويورك ورلد New York World) في لندن ، أقام في تركيا في الفترة (١٣١٥ - ١٣١٦هـ / ١٨٩٧ - ١٨٩٨م) وصادق السلطان عبد الحميد ، وكتب كثيراً عن أوضاع الدولة العثمانية .

- المرجع نفسه : ص ١٣٢ ، حاشية رقم (٢) .

يطلب منه إبلاغ (أحمد مدحت أفندي)[١] المقرب من السلطان عبد الحميد بهذا العرض ، حيث يقول في رسالته : « أكتب إليك على ورق مراسلات جريدة جديدة أسبوعية ذات مستوى رفيع ، سنصدرها لسد حاجات القضية ستصدر (دي ولت) في الرابع من حزيران ١٨٩٧م نريد أن نقدم فيها ، إلى تركية ، أصدق مشاعرنا العميقة . بإمكانك أنْ تبلغ أحمد مدحت أفندي أنّنا سننشر فيها ، بسرور وبحياد أكيد ، المراسلات والأنباء التي قد تكون في صالح حكومة السلطان، وهذا الحل هو خطوة نحو تكريس الصحافة اليهودية لمصلحة تركية ، إننا سوف نتبعها بخطوات أخرى إن شجعتم جهودنا بمشاعركم نحو القضية اليهودية »[٢] .

وبعد صدور صحيفة دي ولت Die Welt التي وعد بأن يخصصها لخدمة مصالح الدولة العثمانية بعث إلى أحمد مدحت أفندي يخبره بذلك مرفقًا رسالته بنسخة من تلك الجريدة كشاهد على أقواله وقد طلب من مدحت أفندي أن يخبر السلطان عبد الحميد عن أمر تلك الصحيفة وأهدافها . وهذا جزء من نص تلك الرسالة : « ... إني مقتنع تمامًا أنّ العمل اليهودي سيسهم في معالجة تركية ، وتحريرها ماليًا وفي استعادتها لقواها الحيوية ، وإني أسمح لنفسي بإرسال جريدة (دي ولت) لك وهي الجريدة التي نريد أن نخدمكم بواسطتها ، إني أضع هذه المؤسسة تحت تصرفكم ، وبالطبع في شكل متحرر من أي مصلحة خاصة . وإني لأرجو أن يعلم جلالة السلطان بذلك »[٣] .

---

(١) أحمد مدحت : كاتب ومفكر تركي نال حظوة عند السلطان عبد الحميد فعينه مديرًا للجريدة الرسمية والمطبعة الحكومية ، ثم أصدر جريدة لمدح السلطان عبد الحميد وألّف عدة كتب ، وبعد سقوط السلطان عبد الحميد انصرف إلى الحياة الجامعية .

- يوميات هرتزل : ص ٥٤٠ .

(٢) المصدر نفسه : ص ٥٥ .

(٣) المصدر نفسه : ص ٥٨ .

رابعًا : اقتراح تعهد اليهود ببناء سكة حديد الحجاز :

لما كان هرتزل يبحث بإمعان عن القضايا التي تشغل بال السلطان عبد الحميد الثاني ، علّه يجد فرصة للتقرب إليه عن طريق الإسهام في حلها ، فقد عرف أن من تلك الأمور ، مشروع إنشاء سكة حديد الحجاز[١] ، التي رأى السلطان عبد الحميد أنها سوف تعمل على تقوية الرابطة الإسلامية بين أبناء شعبه ، في وقت كانوا هم في أمس الحاجة إليها ، وتعزز مكانته كخليفة للمسلمين في كافة أنحاء العالم الإسلامي[٢] .

ولما كان هذا المشروع من المشاريع الضخمة ذي التكاليف الباهظة ، التي قد يجد السلطان صعوبة في توفيرها ، فقد وجد هرتزل في ذلك فرصة لعرض خدماته في هذا المجال مقابل تحقيق مطالبه ، فكتب إلى أحد أعوانه في استانبول – ليتولى تقديم هذا العرض – رسالة يقول فيها : « إني أسمع من القسطنطينية أنّ مسألة خط الحجاز هي الموضوع السائد ، لو نُعطى ميثاق الإستعمار الذي نطلبه لكنا نتعهد ببناء سكة حديد الحجاز أو بتأمين الأموال الضرورية ، إذا كنت على صلة بمن يفيدوننا في ذلك ممن لهم منفعة فيها يمكنك نقل هذا الاقتراح إلى الأشخاص المناسبين ، وسوف أقدم كل الشروطات والضمانات للسلطان إذا دعاني » [٣].

---

(١) سكة حديد الحجاز من أبرز أعمال السلطان عبد الحميد ، أسدى به خدمة جليلة لحجاج بيت الله الحرام ، يبدأ من دمشق وينتهي في المدينة المنورة ، ويقدر طوله بنحو ١٢٠٠ ميل تم بناؤه على أيدي مهندسين ألمان في الفترة ما بين (١٣١٨ – ١٣٢٦ هـ / ١٩٠٠ – ١٩٠٨ م) وقد قدرت تكاليفه بثلاثة ملايين ليرة تركية ، وقد تبرع المسلمون في مختلف أقطار العالم بثلث نفقات التكلفة .

– كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، تعريب : نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي ، الطبعة الثانية عشر (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م) ص ٥٩٤ .

(٢) جورج انطونيوس : المرجع السابق ، ص ص ١٤٢ – ١٤٣ .

(٣) يوميات هرتزل : ص ١٦٥ .

وبموازاة هذا الخط الدبلوماسي الذي سلكه زعيم الصهيونية ، كان هناك خط آخر من الجهود سار فيه في الوقت نفسه لإقامة الأساس التنظيمي للحركة الصهيونية ، وتمحورت جهوده في هذا الصدد في الدعوة لعقد مؤتمر يهودي عالمي لوضع أسس المشروع الصهيوني وخطواته التنفيذية ، وقد تكللت مساعيه في هذا الاتجاه بالنجاح .

المؤتمر الصهيوني الأول عام ١٣١٥هـ / ١٨٩٧ م :

عُقد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بازل بسويسرا في الفترة من ٣٠ ربيع الأول إلى ٢ ربيع الآخر عام ١٣١٥هـ / ٢٩ إلى ٣١ أغسطس عام ١٨٩٧م ، وقد حضره مائتا مندوب عن اليهود في أنحاء العالم تلبية لدعوة هرتزل ، لمناقشة الوسائل التي يجب أن يُعمل بها للنهوض بالصهيونية وإنشاء الدولة اليهودية . ولم يكن المؤتمر اجتماعًا سريًا ، بل عقد بعد أكبر قدر ممكن من الدعاية ، كما حضر جلسته الافتتاحية مراسلون عن اثنتى عشرة صحيفة من مختلف أنحاء العالم(١) .

وبعد ثلاثة أيام من الإثارة الكلامية اتخذ المؤتمرون عدة قرارات مهمة ، وهي التي أُطلق عليها فيما بعد (برنامج بازل) وهو تعبير عن برنامج السياسة الصهيونية لإنشاء الدولة اليهودية في فلسطين(٢) .

برنامج بازل :

١ - تشجيع الاستعمار الاستيطاني في فلسطين على أسس مناسبة من قبل العمال الزراعيين والصناعيين اليهود .

---

(١) روجيه غارودي : المرجع السابق ، ص ١٢ .

ديزموند ستيوارت : المرجع السابق ، ص ٢٩٦ .

(٢) إسماعيل ياغي : الجذور التاريخية للقضية الفلسطينية ، ص ٤٥ .

٢ – إنشاء منظمة تربط يهود العالم ، وذلك عن طريق منظمات محلية تابعة لها في كل بلد يتواجد فيه اليهود .

٣ – تقوية وتعزيز الشعور القومي لدى اليهود ، ونشر اللغة العبرية .

٤ – اتخاذ خطوات تمهيدية من أجل الحصول على موافقة حكومية دولية لتحقيق أهداف الصهيونية[١] .

ومن الناحية التنفيذية أسّس المؤتمر المنظمة الصهيونية العالمية Z.W.O.[٢]، وأقرّ هيكلها التنظيمي وشروط عضويتها ، فمنح حق العضوية لكل يهودي في العالم يلتزم ببرنامج بال ويدفع اشتراكًا سنويًا مبلغ شيكل[٣] ، وانتخب هرتزل رئيسًا لها .

كما أقرّ المؤتمر شكل العلم الرسمي للدولة اليهودية المرتقبة ونشيدها القومي[٤] .

وللدلالة على أهمية هذا المؤتمر في مسيرة الحركة الصهيونية نورد كلمات تفيض بالتفاؤل والثقة دونها هرتزل في مذكراته في أعقاب انعقاده : « لو طلب مني تلخيص مؤتمر بازل في كلمة –وعلى أن أحرص عدم تلفظها بصوت عال– لكانت هي : في بازل أُسست الدولة اليهودية ، لو قلت ذلك بصوت عال لضحك

---

(١) محمد علي خرم آبادي : المرجع السابق ، ص ٤٨ .

– ديزموند ستيوارت : المرجع السابق ، ص ٢٩٧ .

(٢) تستخدم هذه الحروف الثلاثة اختصارًا لعبارة : (Zionist World Organization)

– حسن صبري الخولي : المرجع السابق ، ج ١ ص ٧٢ .

(٣) الشيكل Shekel : عملة يهودية قديمة تعادل شلنين وستة بنسات .

– المرجع نفسه : ج ١ ، ص ٦٩ .

(٤) صابر طعيمة : التاريخ اليهودي العام ، ج ٢ ، ص ص ١٩٦ – ١٩٧ .

الجميع مني ، ولكن ربما في خمس سنوات ، وبالتأكيد في خمسين سنة ، سيعلم كل واحد بالأمر »[١] .

ومن المفارقات العجيبة أنْ يتحقق تنبوء هرتزل بطريقة ملفتة للنظر حيث صدر قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين وانشاء دولة إسرائيل في عام ١٣٦٦هـ / ١٩٤٧م أي بعد مضي خمسين عامًا بالتحديد على انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول في عام ١٣١٥هـ / ١٨٩٧م مما يدل دلالة واضحة لا تدع مجالاً للشك بأنّه قد كان لهذا المؤتمر برنامج استراتيجي سري يضمن قيام الدولة اليهودية وفق ترتيب سياسي وزمني معين ، وبالتالي يُثبت نسبة ما يُعرف بـ (بروتوكولات حكماء صهيون) إلى زعماء المنظمة اليهودية .

بروتوكولات حكماء صهيون :

يتصل بالمؤتمر الصهيوني الأول عام ١٣١٥هـ / ١٨٩٧م تلك القرارات السرية التي يطلق عليها (بروتوكولات حكماء صهيون) وهي عبارة عن وثائق لمجموعة من المحاضرات تشتمل على البرنامج السياسي والاقتصادي والإعلامي الذي يتوجب على اليهود اتباعه كي يتمكنوا من بسط سيادتهم على العالم وإقامة مملكة إسرائيل[٢] .

وبالنسبة لمصدر هذه الوثائق فيُذهب إلى أنّ تيودور هرتزل هو واضعها وأنّها المحاضرات السرية التي كان يلقيها على أعضاء المؤتمر الصهيوني الأول[٣].

---

(١) يوميات هرتزل : ص ٨٩ .

(٢) محمد خليفة التونسي : الخطر اليهودي بروتوكولات حكماء صهيون ، الطبعة السابعة (بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م) ص ٤٧ .

(٣) حسان حلاق : المرجع السابق ، ص ١٣٥ .

وقد فقدت هذه الوثائق سريتها بعد تسرب نسخة منها بواسطة سيدة فرنسية[١] استطاعت اختلاسها من أحد أكابر زعماء الماسونية أثناء اجتماعها به في وكر من أوكار الماسونية السرية في فرنسا وسلمتها إلى (نيقولا نيفتش N. Nivitch) أحد أعيان روسيا – وذلك لما تضمنته تلك الوثائق من مخططات تهدف إلى تدمير روسيا – ومن ثم تم ترجمتها إلى اللغة الروسية بواسطة العالم الروسي (سرجي نيلوس S. Nilos) وصدرت الطبعة الأولى لها في عام ١٣٢٠هـ / ١٩٠٢م تحت مسمى بروتوكولات حكماء صهيون مع دراسة مستفيضة للمترجم[٢] ، ثم ترجمت إلى عدة لغات أخرى في وقت لاحق[٣] .

وهكذا افتضحت نيات اليهود الإجرامية فجن جنونهم واستولى عليهم الفزع لأنّ نشر هذه المخططات سوف يجعل شعوب العالم في حذر شديد من اليهود ممّا قد يعطل تنفيذها ، كما أنّه يُعرض اليهود للخطر لأنّ العالم سوف ينقم عليهم ، لمّا تضمنته من الوسائل المقوضة للأديان ، والهدامة لسائر الدول والحكومات ، والموصلة إلى إنحلال القيم وفساد الأخلاق ، لتقوم على أنقاض كل ذلك مملكة اليهود .

لذا فقد أنكر اليهود صلتهم بها وادّعوا أنّ إلصاقها بهم هي نزعة جديدة

---

(١) يذهب البعض إلى أنّ هذه المرأة كانت تقوم بالتجسس لحساب روسيا القيصرية .
- فؤاد الرفاعي : حقيقة اليهود (الكويت : دار صلاح الدين ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م) ص ٣١ .
- محمد علي خرم آبادي : المرجع السابق ، ص ٤٩ .

(٢) محمد خليفة التونسي : المرجع السابق ، ص ص ٣٣ – ٣٤ .

(٣) كانت الترجمة العربية الأولى لهذا الكتاب قد صدرت في سنة ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م والتي قام بها الأستاذ محمد خليفة التونسي ، عن الطبعة الإنجليزية ، ومن المؤسف أن تتأخر ترجمة هذا الكتاب الخطير للعربية إلى ذلك التاريخ ، مع أن الشعوب العربية كانت أحق من غيرها بمعرفة مضمونه ، سيما وأنّها وجزء كبير من أراضيها تقع ضمن هذا المخطط الخطير .

من اللاسامية ، وفي محاولة لدرء فضيحتهم أو حصرها في أضيق نطاق ، راحوا يصادرون نسخ ذلك الكتاب من الأسواق ، كما استغلوا نفوذهم في أنحاء العالم لمنع طباعته ونشره من جديد[١] .

ورغم كل محاولات اليهود للتنصل من جريمتهم ، فقد فشلوا في إقناع العالم بخطأ نسبة ذلك المخطط الحاقد لهم ، وذلك للتوافق الواضح بين خطة البروتوكولات والأحداث الجارية في العالم سيما وقد جاءت تلك الأحداث لمصلحة اليهود وحدهم [٢]. يضاف إلى ذلك أنه قد اعترف بها بعض اليهود أمثال المحامي (هنري كلين Henry Klein) فقد نشر في صحيفته (صوت المرأة) – التي تصدر في شيكاغو– عام ١٣٦٤هـ / ١٩٤٥م كلمة له قال فيها: « إنّ البروتوكولات وهي الخطة التي وضعت للسيطرة على العالم أمر حقيقي ثابت وأنّ زعماء الصهيونية يكونون مجلس سانهدرين الأعلى الذي يرمي إلى السيطرة على حكومات العالم ، ولقد طردني اليهود من صفوفهم لأني أنكرت عليهم خططهم الشريرة »[٣] .

كما أنّه من القرائن التي تثبت صحة نسبة تلك المخططات لليهود أنّه قد زامن تسربها إصدار زعيم الصهيونية تيودور هرتزل للعديد من النشرات التي يعلن فيها أنه قد سُرقت من (قدس الأقداس) بعض الوثائق السرية[٤] .

ولعل أهم الأدلة التي تدين اليهود وتثبت صلتهم بتلك المخططات هي الوثيقة التي قدمها بعض الأمريكيين للكاتب والمؤرخ التركي جواد آتلخان وهي

---

(١) عبد السميع الهراوي : المرجع السابق ، ص ٥٨ .

(٢) أحمد الزغيبي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٣٣ .

(٣) عبدالله التل : خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية ، ص ١٦٥ .

(٤) أحمد شلبي : المرجع السابق ، ص ٢٧٧ .

عبارة عن نشرة قامت جمعية الكابالا اليهودية بتوزيعها على كبار اليهود في العالم وقد جاء في هذه النشرة : « ... لأن الكفرة[١] تخلوا لنا نهائيًا عن حقهم في التفكير والتوجيه ، وبخاصة بعد أن سيطرنا على كل وسائل الإعلام والصحافة ، ولهذا فهم دائمًا بانتظار ما نقوله وما نوجههم إليه ... ويتقبلون توجيهاتنا دون تحقيق أو نقاش والبرهان على غفلة الكفرة هو أن الروسيين اكتشفوا منذ نصف قرن نياتنا وذلك عندما عثروا على منهاجنا السري ، فلما عمدوا إلى نشره وتعميمه أنكرناه وجحدنا انتسابه إلينا واستطعنا أن نوهم الناس أنه من تلفيقات أعدائنا فصدقنا العالم وكذب من عثروا عليه »[٢] .

والدارس لهذه الوثائق – التي يبلغ عددها أربع وعشرون وثيقة – يلاحظ أنها ليست مطردة اطرادًا منطقيًا في أغلبها ، كما أن موضوعاتها متداخلة ومع ذلك فإنه يمكن – بعد دراستها بتأنٍ – تقسيمها من حيث الأفكار التي تنطوي عليها إلى أربعة أقسام رئيسة : القسم الأول منها يتعرض للمفهوم اليهودي عن الطبيعة الإنسانية للأغيار[٣] ، والقسم الثاني عبارة عن مناقشة لما تحقق حتى ذلك الوقت – أي وقت كتابة تلك الوثائق – من أجزاء المخطط اليهودي الذي هو موضع التنفيذ ، أما القسم الثالث فهو مناقشة لأجزاء من المخطط لم تكن قد تحققت بعد – في زمن كتابة تلك الوثائق – والقسم الأخير يتضمن تعليمات دقيقة عن الوسائل التي يجب اتباعها والعمل بها للمضي في تحقيق البرنامج أو المخطط المزمع تنفيذه[٤] .

---

(١) المقصود غير اليهودية .

(٢) صابر طعيمة : الماسونية ذلك العالم المجهول ، الطبعة الثانية (بيروت : دار الجيل ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩م) ص ٣٨٩ ، ٣٩٦ .

(٣) الأغيار : هو المصطلح الذي يطلقه اليهود على غيرهم من الأمم .

(٤) هنري فورد : اليهودي العالمي . المشكلة الأولى التي تواجه العالم ، تعريب خيري حماد (بيروت : المكتب التجاري للطباعة والنشر ، ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م) ص ٩٠ .

ومن أهم عناصر المخطط الصهيوني الذي تنطوي عليه بروتوكولات حكماء صهيون :

١ - أن لليهود منذ قرون غابرة خطة سرية غايتها السيطرة على العالم ، يعمل حكماؤهم في كل عصر على تنقيحها وتطويرها[١] .

٢ - إن الحكم صناعة مقدسة لا يتقنها في اعتقادهم إلا اليهود ، لذا فهم يسعون لهدم الحكومات - لا سيما الملكية - في كل أنحاء العالم واستبدالها بحكومة ملكية عالمية يهودية ، ويهيئون كل الوسائل التي من شأنها هدم تلك الحكومات ، وفي مقدمتها إغراء الحكام باضطهاد الشعوب وإغراء الشعوب بالتمرد على الحكومات[٢] .

٣ - أنهم ينظرون إلى الأمميين أو الأغيار نظرة دونية هي أشد في التدني من نظر غير اليهود للبهائم[٣] .

٤ - إلقاء بذور الفرقة في كل دولة ، عن طريق الأحزاب السياسية والفرق الدينية والمحافل الماسونية والأندية على اختلاف أنشطتها[٤] .

٥ - افتعال الأزمات السياسية بين الدول ومن ثم السعي لإنشاب الحروب التي تكون محصلتها الحقيقية خسارة الطرفين المتحاربين في حين تعود بالربح لليهود ، بطرق غير مباشرة غالباً[٥] .

---

(١) محمد خليفة التونسي : المرجع السابق ، ص ٣١ .

(٢) عجاج نويهض : بروتوكولات حكماء صهيون ، جزءان (مصر: دار التعاون للطباعة والنشر ، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م) ج ٢ ، ص ص ٣٠٤ - ٣٠٧ .

(٣) المرجع نفسه : ج ٢ ، ص ٢٩٨ .

(٤) هنري فورد : المرجع السابق ، ص ص ٩٠ ، ٩١ .

(٥) فؤاد الرفاعي : حقيقة اليهود ، ص ٦٧ .

٦ - إفساد المجتمعات بإضعاف الروابط الأُسرية، وإشاعة الرذيلة والإنحلال، وإغراء الناس بالشهوات ولا سيما الشباب ، لاستنزاف قواهم وتعطيل عقولهم ، مع الاستعانة على تحقيق ذلك بالنساء والمال والمناصب وغيرها من المفاتن[١] .

٧ - السعي لافتعال الأزمات الاقتصادية في كل دول العالم ، لتضطر إلى الاستعانة باليهود لفك أزماتها ، ومن ثم تخضع خانعةً للسلطة اليهودية[٢].

٨ - السعي للسيطرة على كل وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية[٣].

٩ - السعي للسيطرة على أجهزة التعليم ولا سيما الجامعات[٤] .

إسقاط الدولة العثمانية جزء مهم في المخطط الصهيوني (بروتوكولات حكماء صهيون) :

إذا كان حكماء صهيون قد قرروا القضاء على سائر الحكومات والدول الموجودة في العالم ، وذلك لتحل محلها الحكومة اليهودية العالمية ، فإنه بذلك يكون قد اجتمع لديهم أكثر من سبب يوجب القضاء على الدولة العثمانية حين راح سلطانها يقف حجر عثرة في طريق إنشاء دولتهم في فلسطين . لذا فقد كانت الدولة العثمانية من أوائل من طُبق عليهم الحكم بالإعدام انفاذاً لقرار حكماء صهيون .

---

(١) ماجد الكيلاني : الخطر الصهيوني على العالم الإسلامي ، الطبعة الثالثة (جدة : الدار السعودية للنشر ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م) ص ٥٥ ، ٥٧ .

(٢) عجاج نويهض : المرجع السابق ، ج٢ ، ص ٢٩٩ .

(٣) هنري فورد : المرجع السابق ، ص ١٦٣ ، ٢٤٣ .

(٤) فؤاد الرفاعي : حقيقة اليهود ، ص ٤٨ .

وكان الإجهاز على الدولة العثمانية قد تطلب من اليهود أن يستخدموا معظم الوسائل التي استعرضوها في بروتوكولاتهم .

وهذه محاولة متواضعة لإثبات بصمات الصهيونية على كل ما كان له دور في تهتك كيان تلك الدولة العظيمة ، من خلال الكشف عن التوافق الواضح بين ما نصّ عليه المخطط الصهيوني ، والأحداث التي كانت تجري على واقع الدولة العثمانية .

أولاً : فيما يتعلق بدور المحافل الماسونية :

جاء في البروتوكول الخامس عشر : « إلى أن يأتي الوقت الذي نصل فيه إلى السلطة ، سنحاول أن ننشيء ونضاعف خلايا الماسونيين الأحرار في جميع أنحاء العالم وسنجذب اليها كل من يصير أو من يكون معروفًا بأنه ذو روح عامة وهذه الخلايا ستكون الأماكن الرئيسية التي سنحصل منها على ما نريد من أخبار ... وسنضع الحبائل والمصايد في هذه الخلايا »[١] .

ويتضح أثر تطبيق هذه النظرية الصهيونية من خلال هذه الكلمات التي سجلها السلطان عبد الحميد الثاني في مذكراته : « لم أستطع أن أفهم كيف سادت رغبة إسقاطي من فوق عرشي وتنصيب أخي مراد مرة أخرى . هل لأن أخي السلطان مراد كان مثلهم ماسونيًا ؟ أم لأن التفكير أفضى به إلى أنه من السهل عليه أن يضغط على مراد ويجعله آلة ينفذ كل شيء ؟ [٢] حتى الآن لا أستطيع تقدير هذا . لا بد للتاريخ يومًا أن يُفصح عن ماهية الذين سموا

---

(١) محمد خليفة التونسي : المرجع السابق ، ص ١٥٦ .

(٢) كان السلطان مراد الخامس مصاباً باضطراب عقلي أدى إلى عزله عن السلطة .

– محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٥٨٦ .

أنفسهم (الأتراك الشباب) أو (تركيا الفتاة)[١] وعن ماسونيتهم . استطعت أن أعرف من تحقيقاتي أنّ كلهم تقريباً من الماسون وأنهم منتسبون إلى المحفل الماسوني الإنجليزي وكانوا يتلقون معونة مادية من هذا المحفل . ولا بد للتاريخ أن يُفصح عن هذه المعونات إنسانية أم سياسية »[٢] .

كما يقول السلطان عبد الحميد في موضع آخر من مذكراته : « لم يكتف مدحت باشا بإثارة ما أثار من مشاكل فهو من ناحية يريد خلق أزمة في السراي ومن ناحية يريد الزج بالبلاد في أتون الحرب ، وقد حاول سنّ بعض الأعمال التي لا يتصورها العقل مثل تعيين ولاة من الأقلية في ولايات الأغلبية فيها مسلمون . وقبول طلبة من الأروام – النصارى – في المدرسة الحربية التي هي عماد الجيش العثماني المسلم ، أعمال كهذه يمكن أن تؤدي – معاذ اللّه – إلى تقويض الدولة من أساسها . كنت أرى أنّ الصدر الأعظم يؤيد الإنجليز ويتعاون معهم سواء بدافع من ماسونيته[٣] ، أو بدافع من أسباب أخرى خاصة جداً به . ولم أعد أحتمل فاستندت إلى صلاحياتي في القانون الأساسي وعزلته عن الصدارة العظمى »[٤] .

---

(١) كان إبراهيم تيمو مؤسس جمعية الاتحاد والترقي ، – وهي تطور لجمعية تركيا الفتاة – ، قد اعترف في مذكراته التي نشرت عام ١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م بانتماء قيادة ومؤسسي هذه الجمعية إلى الماسونية.

– مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ١٣٤ ، حاشية رقم (١) .

(٢) المصدر نفسه : ص ١١٥ .

(٣) يلاحظ مدى نفوذ الماسونية الصهيونية حيث استطاعت أن توصل أحد رجالها إلى منصب الصدارة العظمى في الدولة العثمانية .

(٤) المصدر نفسه : ص ١٠٧ .

ثانيًا: فيما يتعلق بسيطرتهم على الصحافة ودور النشر في معظم دول العالم واستغلالها لتنفيذ أهدافهم :

جاء في البروتوكول السابع : « لكي نعزز خطتنا العالمية الواسعة التي تقترب من نهايتها المشتهاة يجب علينا أن نتسلط على حكومات الأمميين بما يقال له الآراء العامة التي دبرناها نحن في الحقيقة من قبل ، متوسلين بأعظم القوى جميعًا ، وهي الصحافة ، وإنها جميعًا لفي أيدينا إلا قليلاً لا نفوذ له ولا قيمة يعتد بها »[١] .

كما جاء في البروتوكول الثاني عشر : « سيكون علينا أيضًا أن نظفر بإدارة شركات النشر الأخرى ، فلن ينفعنا أن نهيمن على الصحافة الدورية بينما لا نزال عرضة لهجمات النشرات Pamphlets والكتب »[٢] .

ويمكن إثبات تطبيق هذه الوسيلة الصهيونية للنيل من الدولة العثمانية من خلال هذه الكلمات التي سجلها السلطان عبد الحميد في مذكراته والتي توضح أثر الصحافة الأوربية – التي يسيطر عليها اليهود[٣] – في تصعيد بعض المشاكل السياسية الداخلية في الدولة العثمانية واستغلالها لإثارة الرأي العام

---

(١) محمد خليفة التونسي : المرجع السابق ، ص ١٢٨ .

(٢) المرجع نفسه : ص ١٤٤ .

(٣) أصبحت سيطرة الصهيونية على الصحافة العالمية من الأمور المسلم بها ، ففي بريطانيا يسيطر اليهود على أشهر الصحف مثل : التايمز ، الصنداي تايمز ، الديلي اكسبرس ، النيوز كرونيكل وكذلك يسيطر اليهود على أشهر الصحف الفرنسية مثل صحيفة لوفيغارو وصحيفة لوكوتيديان وصحيفة فرنس سوار ، وكذلك الأمر بالنسبة لأمريكا حيث يسيطر اليهود على أهم صحفها نيويورك تايمز منذ سنة ١٨٩٦م و واشنطن بوست .

– فؤاد الرفاعي : النفوذ اليهودي في الأجهزة الاعلامية والمؤسسات الدولية (الكويت : دار صلاح الدين ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م) ص ص ١٤ – ٢٩ .

ضده . يقول السلطان عبد الحميد : « ... لكن الصحف الأوربية كانت تضع بصماتها على هذه المسألة أيضًا .. كانت تكتب عنها بشكل دائم ، وتهاجمني، وتلقبني بالسلطان الأحمر ، وكانت تحرض الرأي العام العالمي ضدي . وهكذا أصبحت المسألة الأرمينية من المسائل التي تشغل الرأي العام العالمي »[١] .

أما عن سيطرة اليهود على الصحافة ودور النشر في داخل الدولة العثمانية فيكفي للدلالة على ذلك أن نعرف أنّ عددًا كبيرًا من الصحف التي كانت تصدر في تركيا نفسها كان يسيطر عليها ويرأس تحريرها شخصيات من يهود الدونمة ، مثل صحيفة (الصباح) وصحيفة (الجديدة) وصحيفة (طنين)[٢] .

كما قام بعض الكتاب والمفكرين اليهود في داخل الدولة العثمانية وخارجها بالترويج لفكرة القومية التركية[٣] ووضعوا قواعد السياسة العنصرية التي سارت عليها بعض المنظمات الثورية مثل جمعية الاتحاد والترقي[٤] .

ثالثًا : فيما يتعلق بالمطالبة بالنظام الدستوري :

جاء في البروتوكول الحادي عشر : « ها هو ذا برنامج الدستور الجديد الذي نعده للعالم أننا سنشرع القوانين ونحدد الحقوق الدستورية وننفذها »[٥].

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ٢٨ .

(٢) قام اليهودي الدونمة أحمد أمين يلمان بتأسيس صحيفة الصباح في عام ١٣٢٥هـ / ١٩٠٧م وصحيفة الجديدة عام ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م .

– أحمد نوري النعيمي : يهود الدونمة ، ص ٦٩ .

(٣) سوف نتحدث عن دور هؤلاء الكتاب اليهود بتوسع في المبحث الثاني من الفصل الثالث من هذا البحث.

(٤) أنور الجندي : اليقظة الإسلامية في مواجهة الإستعمار (القاهرة : دار الاعتصام) ص ١٢٦ .

– قيس جواد العزاوي : الدولة العثمانية . قراءة جديدة لعوامل الانحطاط ، الطبعة الأولى (بيروت : الدار العربية للعلوم ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م) ص ص ١٣٥ – ١٣٨ .

(٥) محمد خليفة التونسي : المرجع السابق ، ص ١٤١ .

كما جاء في البروتوكول العاشر في هذا الصدد : « لقد ولدت الحرية الحكومات الدستورية التي احتلت مكان الأوتوقراطية وهي وحدها صورة الحكومة النافعة لأجل الأُمميين (غير اليهود) فالدستور كما تعلمون ليس أكثر من مدرسة للفتن والاختلافات والمشاحنات والهيجانات الحزبية العقيمة ، وهو بإيجاز مدرسة كل شيء يضعف نفوذ الحكومة »[١] .

وعلى أرض الواقع العثماني يقوم عملاء الصهيونية وعلى رأسهم مدحت باشا اليهودي الدونمي الماسوني[٢] بالضغط على السلطان عبد الحميد لإعلان الدستور ، بإثارة الرأي العام الذي لم يكن يدرك الأهداف الحقيقية لما يجري في الدولة من تيارات تتستر بالإصلاح والديمقراطية[٣] ، وفي هذا الصدد يقول السلطان عبد الحميد في مذكراته : « مدحت باشا لم ير غير فوائد الحكم المشروطي (الديمقراطي) في أوروبا ، ولكنه لم يدرس أسباب هذه المشروطية ولا تأثيراتها الأخرى ، أقراص (السلفات) لا تصلح لكل مرض كما لا تصلح لكل بنية ... كنت أظن أن المشروطية غير مفيدة أما الآن فإني مقتنع بضررها». ويضيف السلطان قائلاً : « لم أكن أستطيع الوقوف أمام تيار ذلك العهد ، وقلت : ما دامت الأمة تريد تجربة مسؤوليتها عن مقدراتها وحكم نفسها فليكن ما تريد »[٤] .

ولم تكن المطالبة بالنظام الدستوري إلا خطوة في طريقهم للقضاء على الدولة العثمانية ، وكان السلطان عبد الحميد قد علم بهذا وأشار إليه في مذكراته : « كنت أعلم أن كمال بك وضياء بك ورشدي بك وآخرين من

---

(١) المرجع نفسه : ص ١٣٧ .

(٢) س . ناجي : المرجع السابق ، ص ٣١٣ .

(٣) أورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ص ٩١ – ٩٧ .

(٤) مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ٨٠ ، ٨٢ .

رفاقهم يجتمعون في قصر مدحت باشا يعاقرون الخمر ويتحدثون . وذات مرة قال مدحت باشا : (ليس في الأسرة المالكة العثمانية خير يُرجى ، ولم يبق إلا الاتجاه نحو الجمهورية) ... علمت بهذا من أحد الذين حضروا هذه الجلسة »[١] .

رابعًا : في مجال الترويج للأفكار القومية والتعصبات العرقية :

جاء في البرتوكول الخامس : « ... لسنا في حاجة إلى الخوف من أي خطر ما دمنا في أمان بفضل البذور العميقة لكراهيتهم بعضهم بعضًا ، وهي كراهية متأصلة لا يمكن انتزاعها. لقد بذرنا الخلاف بين كل واحد وغيره في جميع أغراض الأمميين الشخصية والقومية ، بنشر التعصبات الدينية والقبلية ... »[٢] .

وكانت الدولة العثمانية وهي التي تُظل تحت مظلتها الإسلامية طوائف وأجناس عديدة ، مُناخًا خصبًا لبذر هذه البذور الشيطانية[٣] ، فتولت الدعاية الإعلامية اليهودية أعباء الترويج للأفكار القومية وإثارة الجنسيات المختلفة التي تعيش في كنف الدولة العثمانية[٤] ، سعيًا لتمزيق هذا الكيان الذي استعصى على الصهيونية أن تنال مآربها منه وهو على تلك الحالة من التماسك ، كما كان لتبني يهود الدونمة من جماعة الاتحاد والترقي – الذين سيطروا على مقاليد

---

(١) المصدر نفسه : ص ١٠٦ .

(٢) محمد خليفة التونسي : المرجع السابق ، ص ١٢٢ .

(٣) زين نور الدين زين : نشوء القومية العربية ، الطبعة الثانية (بيروت : دار النهار للنشر ١٣٩٣هـ / ١٩٧٢م) ص ٩٠ .

(٤) قيس جواد العزاوي : المرجع السابق ، ص ١٢٧ .

الحكم في الدولة العثمانية في أعقاب عزل السلطان عبد الحميد – سياسة قومية تركية متطرفة أبلغ الأثر في بعث المشاعر القومية والنعرات الطائفية لدى بقية الشعوب العثمانية[١] ، فكانت تلك السياسة اسفينًا مزق وحدة الأمة الإسلامية ومهد الطريق أمام أعدائها لتنفيذ مؤامراتهم لإسقاط الدولة العثمانية وإلغاء الخلافة الإسلامية[٢] .

وكان السلطان عبد الحميد الثاني الذي أمضى مدة حكمه يدعو للجامعة الإسلامية ويناصرها ، قد عاب على الذين تولوا زمام الحكم من بعده انجرافهم في هذا التيار ، وحملهم نتائجه ، حيث يقول : « رجح الذين تولوا زمام الحكم من بعدي داعي القومية عند الأتراك وجعلوه في مرتبة أعلى من الغيرة الدينية، ونفروا منهم العرب فبئس ما كانوا يفعلون »[٣] .

خامسًا: في مجال إفساد التربية والتعليم ولا سيما التعليم الجامعي واستغلالهما لتنفيذ أهدافهم :

جاء في البروتوكول السادس عشر : « رغبة في تدمير أي نوع من المشروعات الجمعية غير مشروعنا. سنبيد العمل الجمعي في مرحلته التمهيدية، أننا سنغير الجامعات ونعيد إنشاءها حسب خططنا الخاصة[٤]. وسيكون

---

(١) سنفرد دراسة خاصة عن دور اليهود في بعث القوميات في الدولة العثمانية في المبحث الثاني من الفصل الثالث من هذا البحث .

(٢) جورج انطونيوس : المصدر السابق ، ص ص ١٨١ – ١٨٢ .

– أنور الجندي : المرجع السابق ، ص ص ١٢٨ – ١٣٢ .

(٣) مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ١٩٥ .

(٤) أي أن زعماء الصهيونية قد قرروا أنه بدل من أن يتركوا طلبة الجامعات يتخرجون حاملين لأفكار لا تناسبهم ويقومون بعد ذلك بمحاربتها ، سيتولون هم وضع برامج الجامعات وإعداد أساتذتها بأسلوب يضمنون معه تخرج الطلبة وهم يحملون الأفكار التي تناسبهم .

رؤساء الجامعات وأساتذتها مُعدين إعداداً خاصاً وسيلته برنامج عمل سري متقن ، سيهذبون ويشكلون بحسبه ولن يستطيعوا الانحراف عنه بغير عقاب ... إنّ المعرفة الخاطئة للسياسة بين أكداس الناس هي منبع الأفكار الطوباوية ، وهي التي تجعلهم رعايا فاسدين . وهذا ما تستطيعون أن تروه بأنفسكم في النظام التربوي للأمميين (غير اليهود) وعلينا أن نقدم كل هذه المبادىء في نظامهم التربوي ، كي نتمكن من تحطيم بنيانهم الاجتماعي بنجاح كما قد فعلنا »[١] .

ومما يدل على أنّ الدولة العثمانية كانت من أوائل الدول التي طُبقت عليها بنود المخطط الصهيوني ، أن نجد زعيم الصهيونية تيودور هرتزل بعد وضع هذه البروتوكولات بسنوات قلائل عام ١٣٢٠هـ / ١٩٠٢م يسعى جاهداً للحصول على موافقة السلطان عبد الحميد الثاني لإنشاء جامعة يهودية في بيت المقدس[٢] ، لأنه كان يدرك أهمية التسلل الصهيوني الثقافي إلى فلسطين وغيرها من أجزاء الدولة العثمانية ، وفي محاولة لخداع السلطان راح هرتزل يصور له الدوافع الشريفة التي دفعته إلى هذا العرض ومنها الحرص على أمن الدولة وطابعها الإسلامي من الأخطار المترتبة على سفر الطلاب للدراسة في الجامعات الأوربية ، ولا سيما خطر التطلع إلى تطبيق نظام الحكم الديمقراطي[٣].

وفي هذا الصدد بعث هرتزل إلى السلطان عبد الحميد برسالة يقول فيها:
« لي الشرف أن أقدم لحكمة جلالتكم المتناهية الإقتراح التالي : إني أدرك الصعوبة التي تواجه حكومتكم بسبب ذهاب شباب تركية لتلقي العلم في

---

(١) محمد خليفة التونسي : المرجع السابق ، ص ١٦٤ .

(٢) أورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .

(٣) أحمد الزغيبي : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ص ٢٤ - ٢٥ .

الخارج وما يتعرض له هؤلاء الشبان من ضياع ، خاصة في تأثرهم بالأفكار الثورية[١] ، مما يجعل الحكومة أمام أمرين إما أن تحرم هؤلاء من التدريب العلمي ، أو أن تُعرّضهم إلى مخاطر الغوايات السياسية ، على أنّ هناك حلاً للمشكلة . وأنا أسمح لنفسي بكل اتضاع أن أقدم لحكمة جلالتكم هذا الحل ، إننا معشر اليهود نلعب دورًا هامًا في الحياة الجامعية في جميع أنحاء العالم . والأساتذة اليهود يملأون جامعات البلدان ، كما أنَّ هناك عددًا كبيرًا من العلماء المتخصصين في جميع الحقول التعليمية ، لهذا فإننا نستطيع أن نقيم جامعة يهودية في إمبراطوريتكم ولتكن في القدس[٢] مثلاً ، عندها لن يضطر الطلاب العثمانيون إلى الذهاب إلى الخارج »[٣] .

ولكن السلطان عبد الحميد كان يعي ويدرك ما يخطط له هذا الصهيوني وأنه لو وافقه على اقتراحه لكان كالمستجير من الرمضاء بالنار .

إلا أن زعماء الصهيونية ظلوا يسعون لإنفاذ مخططهم هذا حتى تمكن وايزمان من تحقيق هذا الحلم الصهيوني ، ولكن ذلك لم يتسن لهم إلا عقب عزل السلطان عبد الحميد الثاني[٤] .

---

(١) أراد هرتزل أن يستغل هذا الموضوع لمعرفته بالضغوط التي يواجهها السلطان من المطالبين بالنظام الدستوري .

(٢) كان هرتزل يطمح إلى ضرب عصفورين بحجر واحد فيما لو وافق السلطان على طلبه ، الأول السيطرة على أفكار الشباب وصياغتها بالطريقة التي تخدم أهداف الصهيونية ، والثاني استغلال هذه الجامعة لتكريس الإستيطان اليهودي .

(٣) يوميات هرتزل : ص ٢١٤ .

(٤) وُضِع حجر الأساس لهذه الجامعة في سنة ١٣٣٧هـ / ١٩١٨م في القدس ، واحتفل بافتتاحها في سنة ١٣٤٤هـ / ١٩٢٥م تحت مسمى الجامعة العبرية .

- حسن صبري الخولي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٧٤ .

أما عن نجاح جهود اليهود الذين يعيشون في داخل الدولة العثمانية للسيطرة على ميادين التربية والتعليم فليس أدل على ذلك من تولي (خالدة أديب)[١] - اليهودية الدونمة والداعية القومية المتطرفة التي كانت أعمالها الأدبية تنضح بصهيونيتها - وزارة المعارف في عهد الكماليين[٢] .

وفي أعقاب انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول انطلقت الحركة الصهيونية متمسكة ببرنامج بازل بزعامة تيودور هرتزل لتعزز نشاطها في مجال التنظيم والدبلوماسية ، فهرتزل الذي أدرك أهمية الدعم والتأييد الدولي من أجل تنفيذ المشروع الصهيوني منذ بداية مساعيه في هذا الاتجاه ، كان قد ازداد اقتناعًا بأهمية تلك (البراءة الدولية) ، التي نص عليها برنامج بال أيضًا ، بعد محاولاته المباشرة والفاشلة مع السلطان عبد الحميد الثاني[٣] ، لذلك نجد الدبلوماسية الصهيونية بقيادة هرتزل تبدأ عملاً حثيثًا تعرض فيه خدمات الصهيونية على عدد من الدول الأوربية في إطار حلف من المصالح الاستعمارية المتبادلة ، مؤكدة لكل منها أنّ الدولة الصهيونية المرتقبة في فلسطين ستكون

---

(١) خالده أديب : أبرز شخصية نسائية في الأدب التركي الحديث وهي من يهود الدونمة ولدت في استانبول عام ١٣٠١هـ / ١٨٨٤م وكان والدها مهندسًا في القصر السلطاني ، تخرجت من الجامعة الأمريكية في استانبول ومارست مهنتها ككاتبة صحفية ، وشاركت في الثورة الكمالية ومنحت فيها رتبة (أومباشي) . وقد عبرت عن عداوتها للإسلام وللعلماء المسلمين الذين عارضوا الحركة الكمالية في العديد من مؤلفاتها ، وبعد وفاتها أقام لها الجمهوريون تمثالاً بجانب جامع أياصوفيا .

- محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، الطبعة الأولى (دمشق : دار القلم ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م) ص ص ١١٧ - ١١٨ .

- محمد عمر : المرجع السابق : ص ص ٤٤ - ٥٠ .

(٢) أحمد نوري النعيمي : يهود الدونمة ، ص ٧٠ .

(٣) إسماعيل ياغي : الجذور التاريخية للقضية الفلسطينية ، ص ص ٤٧ - ٤٨ .

حارساً أميناً لمصالحها في المنطقة[١] .

وقد سبقت الإشارة إلى أنّ هرتزل أثناء زيارته الثانية لاستانبول عام ١٣١٦هـ / ١٨٩٨م ، والتي لم تأت مصادفة متزامنة مع زيارة **الإمبراطور الألماني** ولهلم الثاني ، قد سعى جاهداً لاقناع الإمبراطور ببذل مساعيه الحميدة لدى السلطان عبد الحميد ، للتأثير عليه لإبرام الاتفاق المرتجى بين الدولةالعثمانية والمنظمة الصهيونية[٢]،ملوحاً له بأنه في مقابل ذلك سوف تسعى الصهيونية إلى القضاء على الحركات الثورية المناوئة للامبراطور في ألمانيا[٣] .

إلا أنّ الامبراطور الألماني رأى - بعين المصلحة - أنّ صداقة الدولة العثمانية أثمن من صداقة الحركة الصهيونية[٤] ، وأنّ المصالح التي حققتها ألمانيا نتيجة تلك الصداقة وفي مقدمتها حصولها على امتياز خط حديد بغداد[٥] (B. B. B) لا يمكن التفريط فيها من أجل إرضاء الصهيونية ، على الرغم من أن المنظمة الصهيونية العالمية كانت مطعمة بالعنصر الألماني ، حيث

---

(١) روجيه غارودي : المرجع السابق ، ص ١١٣ .

- حسان حلاق : المرجع السابق ، ص ١٤٤ .

(٢) ديزموند ستيوارت : المرجع السابق ، ص ص ٣٠٩ - ٣١٠ .

(٣) يوميات هرتزل : ص ٦٣ .

(٤) أحمد الزغيبي : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ص ٣٤ - ٣٥ .

(٥) B. B. B أي برلين . بغداد . البصرة ، وهو خط حديدي يبدأ من استانبول ويمتد إلى بغداد ومنها إلى البصرة على مدخل الخليج العربي وكان هدف ألمانيا من إنشاء هذا الخط تحويل التجارة من وإلى الشرق إلى هذا الخط بدلاً من الاعتماد على قناة السويس ، وبهذا تتمكن من ضرب المصالح البريطانية في البلاد العربية .

- بيير رنوفان : تاريخ العلاقات الدولية ، جزءان (القاهرة : دار المعارف ، ١٣٩٨ ، ١٤٠٠هـ / ١٩٧٨ ، ١٩٨٠م) ج ١ ، ص ٦٣٤ .

- حسان حلاق : المرجع السابق ، ص ١٥٧ .

تضم العديد من الشخصيات الألمانية أو التي عاشت في ألمانيا لفترة طويلة وتأثرت بالثقافة الألمانية – أمثال هرتزل – وعلى الرغم أيضًا من أنّ اللجنة التنفيذية الصهيونية قد اتخذت من ألمانيا مقرًا لها[١] .

ولكن لم يكن الموقف الألماني من الحركة الصهيونية – في ذلك الوقت – ليثبط مساعي هرتزل لكسب أنصار جدد للمشروع الصهيوني ، بل نجده في عام ١٣١٧هـ / ١٨٩٩م يبذل قصارى جهده لمقابلة **القيصر الروسي** للحصول على تأييده ، وحين تعذّر عليه ذلك أرسل إليه رسالة ضمنها استعطاف الصهيونية للقيصر لبذل مساعيه في نصرة قضيتهم ، كما أشار في رسالته إلى الجهود التي يبذلها – أي هرتزل – ضد النظام الاشتراكي – الذي يخشى القيصر تطبيقه في روسيا على يد الثوريين الروس[٢] – وقد أشار هرتزل في يومياته إلى هذه الرسالة حيث جاء فيها قوله : « ... ولا ننسى أننا اليوم وفي كل مكان نحارب الثوريين وأننا نعمل على إبعاد الطلاب والعمال اليهود عن الإشتراكية والفوضوية ... وهذه الجهود ستظهر في روسية أيضًا ، لأنّه لولا تأثير الصهيونية لكان جميع البائسين من اليهود قد أصبحوا فوضويين »[٣] .

وقدأسفرت اتصالات هرتزل مع المسؤولين الروس عن إظهارهم الاستعداد لتأييد الحركة الصهيونية ، وقد أعربوا عن موقفهم هذا في الرسالة الرسمية التي بعث بها وزير الداخلية الروسي (بليفيه Plehve)[٤] في عام ١٣٢١هـ/

---

(١) حسن صبري الخولي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٧٧ ، ٧٩ .

(٢) رُوجيه غَارودي : المرجع السابق ، ص ص ١١٣ – ١١٤ .

(٣) يوميات هرتزل : ص ص ١٣٢ – ١٣٣ .

(٤) بليفيه : سياسي روسي كان حازم في مطاردته للثوار الشيوعيين ، سيطر على قوات الشرطة منذ عام ١٢٩٨هـ / ١٨٨١م وعين وزيرًا للداخلية في عام ١٣٢٠هـ / ١٩٠٢م سعى إلى تحويل التذمر الشعبي من اليهود إلى كراهية ومقاطعة لهم ، مات اغتيالاً .

– الموسوعة العربية الميسرة : ج ١ ، ص ٤٠٤ .

١٩٠٣م والتي أشار فيها إلى أنّه إذا اقتصرت الحركة الصهيونية جهودها ونشاطها على إنشاء دولة مستقلة في فلسطين ، وتنظيم هجرة عدد معين من يهود روسيا ، فإنّ الحكومة الروسية ستبذل مساعدتها المادية والأدبية في المفاوضات التي تدور في استانبول بين الحكومة العثمانية والمنظمة الصهيونية[١] .

إلا أن هذا الوعد الروسي الذي أبهج هرتزل كثيرًا لم يدم طويلاً إذ سُرعان ما أُبلغ أنّ ظروفًا سياسية طارئة أدت إلى توتر العلاقات الروسية العثمانية إلى حدٍّ لا يسمح بالتوسط[٢] .

وفي مضمار مساعي هرتزل للحصول على التأييد الدولي للمشروع الصهيوني ، كان سفره إلى روما في عام ١٣٢٢هـ / ١٩٠٤م ومقابلته ملك إيطاليا (فيكتور عمانويل الثالث Victor Amanwel) [٣] الذي أبدى تعاطفه الشديد مع الصهيونية ، وتأييده لإقامة دولتها على أرض فلسطين ، مؤكدًا أنّ ذلك حقّ لليهود ، وقد جاء في يوميات هرتزل على لسانه:« ... ستكون لكم ويجب أن تكون المسألة فقط تحتاج إلى وقت »[٤] .

وقد شعر هرتزل بهذا التعاطف حيث يقول في تقييمه لمقابلة الملك

---

(١) اتحاد الجامعات العربية : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٩٤ .

(٢) كانت العلاقات الروسية العثمانية قد ساءت في هذه الفترة على أثر مقتل القنصل الروسي في استانبول
– يوميات هرتزل ، ص ٢٩٨ .

(٣) فيكتور عمانويل الثالث : سياسي إيطالي ارتقى العرش الإيطالي عام ١٣١٨هـ / ١٩٠٠م ، تعرضت إيطاليا في عهده لبعض الاضطرابات الداخلية بسبب الخلاف بينه وبين رئيس الوزراء (موسوليني) حول بعض المواقف السياسية ، وفي عام ١٣٦٥هـ / ١٩٤٦م أجبر على التنازل عن الحكم لابنه (أمبرتو الثاني) ونفي هو إلى مصر حيث أمضى فيها بقية حياته .
– أحمد الزغيبي : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٤٧ .

(٤) يوميات هرتزل : ص ٣١٨ .

الإيطالي : « زرت ملك إيطاليا منذ يومين ، ومن خلال حديث طويل جرى بيني وبينه في عدة نواح من الموضوع استطعت أن أعرف أنّ الملك يعطف على قضيتنا »[١] .

ونرى هنا أنه يمكن إرجاع هذا الموقف المتعاطف للحكومة الإيطالية مع المطالب الصهيونية إلى كون الحكومة الإيطالية آنذاك مشغولة بالتخطيط لاستعمار ليبيا وبالتالي فقد رأت أنها إذا ما أظهرت تعاطفها مع اليهود فإنه بالمقابل يمكن استغلال نفوذ اليهود لتحقيق أهدافها الاستعمارية[٢] .

وعلى الرغم من كون الحركة الصهيونية قد حظيت بعطف وتأييد عدة دول أوربية[٣] ، إلاّ أنّ **الموقف البريطاني** من الحركة الصهيونية كان مميزًا فمنذ بداية اتصالات زعيم الصهيونية هرتزل ببعض أعضاء الوزارة البريطانية في

---

(١) المصدر نفسه : ص ٣٢٣ .

(٢) تمكنت إيطاليا من احتلال ليبيا في عام ١٣٣٠هـ / ١٩١٢م عقب صلح لوزان بين إيطاليا والدولة العثمانية ، وذلك بمؤامرة دبرها الاتحادي اليهودي مترو سالم الحائز على الدرجة الثالثة والثلاثون في الماسونية مع رئيس بلدية روما اليهودي ، حيث دفعت الخزينة الإيطالية ملايين الليرات الذهبية لمترو سالم مقابل إقناعه الحكومة العثمانية بسحب القوات العسكرية العثمانية من ليبيا وبالتالي تمكنت إيطاليا من احتلال ليبيا .

- جواد رفعت آتلخان : أسرار الماسونية ، تعريب : نور الدين الواعظ وسليمان القابلي (بغداد : ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م) ص ٥٩ .

(٣) يُلاحظ غياب الموقف الفرنسي وذلك لأن الفرنسيين كانوا يخشون أن يترتب على تأييدهم للصهيونية نفور أنصارهم من العناصر المسيحية في بلاد الشام . ومن الجانب الآخر فقد كان اليهود يفضلون إذا ما تمكنوا من إنشاء وطنهم القومي في فلسطين ، ألا يكونَ تحت الحماية الفرنسية ، خشية ألا تسمح فرنسا بقيام ثقافة يهودية مميزة عن الثقافة الفرنسية وتصر على أن تطبع الحياة في الدولة اليهودية بالطابع الفرنسي كما هي عادتها في البلاد التي تكون تحت حمايتها .

- إسماعيل ياغي : الجذور التاريخية للقضية الفلسطينية ، ص ٥٠ .

عام ١٣١٦هـ / ١٨٩٨م ، كان الرأي العام البريطاني مهيئًا لتقبل مناقشة المشاريع الصهيونية ، ففي هذا الوقت كانت المسألة اليهودية قد فرضت نفسها على بريطانيا ، بوصول أعداد كبيرة من المهاجرين اليهود قادمين من دول أوروبا الشرقية ، مما هدد بحدوث أزمة بطالة حادة في بريطانيا ، ولذا كانت الحكومة البريطانية على استعداد لتأييد أي مشروع من شأنه تخليصها من أولئك اللاجئين[١] ، هذا إضافة إلى ما يتمتع به اليهود البريطانيين من مركز مرموق[٢] .

ومن الجانب الصهيوني فقد قام هرتزل بعقد المؤتمر الصهيوني الرابع عام ١٣١٨هـ / ١٩٠٠م في لندن العاصمة البريطانية ، في حين كانت كل المؤتمرات السابقة قد عقدت في سويسرا ، وذلك في محاولة لحث بريطانيا على مضاعفة تأييدها واهتمامها بالحركة الصهيونية[٣] .

كما أنّ هرتزل كان يرى أنّ بريطانيا أكثر الدول تفهمًا وتعاطفًا مع الصهيونية ، ومن هذا المنطلق بدأ مساعيه مع المسؤولين البريطانيين لبذل جهدهم في الضغط على السلطان عبد الحميد لتغيير موقفه من المشروع الصهيوني[٤] ، لا سيما وأنّ العلاقات البريطانية العثمانية قد ساءت في عهد السلطان عبد الحميد الذي كان يكنّ كرهًا للإنجليز ، لأنّه كان يرى أنّهم

---

(١) السيد رجب حراز : المرجع السابق ، ص ٤٦ .

(٢) أحمد الزغيبي : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٣٦ .

(٣) ديزموند ستيوارت : المرجع السابق ، ص ٣٢٥ .

(٤) رفيق النتشة : الاستعمار وفلسطين ، ص ١٢٦ .

بالتعاون مع الأقليات في دولته يقفون خلف الكثير من المشاكل التي تعاني منها بلاده[١] .

وتمكن هرتزل من مقابلة وزير المستعمرات البريطاني (جوزيف تشمبرلن Joseph Chamberlain) [٢] وعرض عليه المشروع الصهيوني موضحًا له الفوائد التي ستجنيها بريطانيا من جراء تأييدها لهذا المشروع[٣] .

وكان هناك عدة مشاريع تم طرحها ومناقشتها بين زعيم الصهيونية والحكومة البريطانية كان من أهمها :

أ - مشروع سيناء :

قام هرتزل في عام ١٣٢٠هـ / ١٩٠٢م بمفاوضات مع جوزيف تشمبرلن وزير المستعمرات البريطاني ، حول إقامة دولة يهودية في شبه جزيرة سيناء ، تتمتع بالحكم الذاتي تحت الإشراف البريطاني ، وقد وجدت هذه الأطروحة تجاوبًا لدى تشمبرلن من حيث المبدأ لأنّ هذا المشروع الإستعماري سيؤدي إلى عزل مصر عن غرب آسيا[٤] ، وإضعاف الدولة العثمانية ، كما أنّه يحقق

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد ، ص ١٠٩ .

(٢) جوزيف تشمبرلن : سياسي بريطاني كانت أسرته من الأسر البورجوازية الصناعية لذلك فهو لم يكمل تعليمه بل شارك والده في أعماله فأصبح من كبار رجال الصناعة في بريطانيا ، وكان أول دخوله الميدان السياسي عضوًا في حزب الأحرار عام ١٣٠٢هـ / ١٨٨٥م وفي عام ١٣١٢هـ / ١٨٩٥م عين وزيرًا للمستعمرات في الوزارة الثالثة التي ألفها لورد سالزبوري وكان من أنصار توسيع نطاق الاستعمار البريطاني ، وظل في منصبه ذلك إلى أن قدم استقالته في عام ١٣٢١هـ / ١٩٠٣م .

- بيير رنوفان : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ص ٥٨٦ - ٥٨٧ .

(٣) سوف نرجئ التوسع في موضوع المصالح الاستعمارية المرتبطة بالصهيونية إلى المبحث الأول من الفصل الثاني من هذا البحث .

(٤) كانت مصر قد وقعت تحت الاحتلال البريطاني منذ عام ١٢٩٩هـ / ١٨٨٢م .

- لوثروب ستودارد : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٢٠ .

الحماية لقناة السويس من الجانب الشرقي[١] .

وبناءً على موقف تشمبرلن انتقلت المفاوضات إلى القاهرة حيث سافر هرتزل إلى هناك لإتمام المفاوضات مع (لورد كرومر Cromer)[٢] المعتمد البريطاني في مصر ، إلا أنه لم يجد منه تحمسًا للمشروع وذلك لعدة أسباب أهمها أنّ ذلك يتطلب تحويل كميات كبيرة من مياه النيل إلى سيناء ، لندرة المياه فيها ، مما سوف يؤثر على توفير المياه اللازمة للزراعة في مصر ، كما أنّ استيطان اليهود في سيناء سوف يزيد من متاعب الإنجليز في حكم مصر ، لا سيما وأنّ الرأي العام في مصر كان يعارض ذلك المشروع . لذا فقد أرسلت وزارة الخارجية البريطانية مذكرة إلى هرتزل في عام ١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م قررت فيها أنّه يتعذر عليها المضي في بحث مشروع توطين اليهود في سيناء[٣].

ب - مشروع قبرص :

كان ضمن المناطق التي فاوض هرتزل بريطانيا بشأنها لإقامة الدولة اليهودية عليها جزيرة قبرص[٤] بحكم كونها خاضعة للسيطرة البريطانية[٥]،

---

(١) بشير موسى نافع : المرجع السابق ، ص ٨٧ .

(٢) كرومر (إيفلين بارنج) إداري ودبلوماسي بريطاني من مواليد مدينة كرومر الإنجليزية اتصلت سيرته بأحداث التاريخ المصري الحديث ، وكانت بداية ذلك حين عين عضوًا في (صندوق الدين) الذي شكله الخديوي إسماعيل ، وبعد الإحتلال البريطاني لمصر عين معتمدًا سياسيًا بدرجة (وزير مفوض) حتى استقالته في عام ١٣٢٥هـ / ١٩٠٧م ، له عدة مؤلفات منها (مصر الحديث) و (الاستعمار القديم والحديث) .

- الموسوعة العربية الميسرة : ج ٢ ، ص ١٤٥٦ .

(٣) حسن صبري الخولي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٩٥ .

(٤) رفيق النتشة : الاستعمار وفلسطين ، ص ٢٩٢ .

(٥) انتزعت بريطانيا جزيرة قبرص من الدولة العثمانية بعد الحرب التركية الروسية ، وتم توقيع المعاهدة (التركية البريطانية) عام ١٢٩٥هـ / ١٨٧٨م ، حيث أصبحت قبرص تحت الإدارة البريطانية ، =

ولكن بريطانيا لم تقبل بذلك المشروع لأنها كانت ترى أن قبرص قد تصبح في المستقبل قاعدة عسكرية تعتمد عليها في تأمين مصالحها في المشرق العربي ، إضافة إلى أن بريطانيا كانت ترى أن قبرص ليست هي المكان المناسب لإقامة الدولة اليهودية لأنها كانت تخطط لإقامتها في منطقة تخدم مصالحها الإستعمارية في البلاد العربية[١] .

ويتضح لنا من خلال مفاوضات هرتزل مع بريطانيا بشأن إقامة الدولة اليهودية في سيناء وقبرص ، أنّ هرتزل حين تعذر عليه الحصول على موافقة السلطان عبد الحميد على إقامة الدولة اليهودية في فلسطين ، راح يرنو ببصره إلى الأقاليم المحيطة بفلسطين مثل سيناء وجزيرة قبرص التي قد يكون الحصول عليها أيسر ، ومن ثم يتخذ من تلك المنطقتين فكي كماشة تطبق على فلسطين في الوقت المناسب .

ج – مشروع أوغنده[٢] :

كان وزير المستعمرات البريطاني تشمبرلن قد عرض على هرتزل في عام ١٣٢١هـ / ١٩٠٣م استيطان اليهود في أوغندة كبديل عن تلك المشاريع التي اقترحها هرتزل واعتذرت عنها الحكومة البريطانية[٣] .

وعلى الرغم من أنّ هرتزل كان يفضل أن تمنحه بريطانيا موقعًا قريبًا من

= وأبقيت للسلطان سيادة اسمية عليها .

– محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ص ٦٧٠ – ٦٧١ .

(١) أحمد الزغيبي : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٤١ .

(٢) المقصود بذلك المحمية البريطانية في شرق افريقية في ذلك الوقت ، وقد جاء التعبير عنها غير دقيق بأوغنده من قبل وزير المستعمرات البريطاني ، فهي أقرب ما تكون لكينيا الحالية .

– ديزموند ستيوارت : المرجع السابق ، ص ٣٤٧ .

(٣) اتحاد الجامعات العربية : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٠١ .

فلسطين كقاعدة للوثوب إليها مستقبلاً ، إلاّ أنّه أبدى موافقته على ذلك العرض مسايرة للتيارات السياسية[١] .

كما نرى أنه يمكن تفسير قبول هرتزل لهذا المشروع تفسيرًا آخر وهو أنّ هرتزل في هذا التاريخ كان قد اشتد عليه المرض فلعله شعر بدنو أجله فأراد أن يحقق للحركة الصهيونية شيئًا مهمًا يُنسب إليه .

وعندما عقد المؤتمر الصهيوني السادس في عام ١٣٢١ هـ / ١٩٠٣م في سويسرا ، عرض هرتزل على المؤتمرين مشروع أوغنده ، فأثار ذلك العرض نقاشًا حادًا بينهم ، إذ اعتبره بعض الصهاينة تخليًا عن جوهر الحركة الصهيونية[٢] .

ويُعد طرح مشروع شرق افريقية خطرًا هدد الحركة الصهيونية بانقسام خطير ، إذ وافق عليه البعض وعارضه آخرون[٣] ، وكان يهود روسيا أكثر اليهود معارضة له فبعد انتهاء المؤتمر الصهيوني السادس قاموا بإيفاد لجنة لمقابلة هرتزل ، طلبت منه أن يصرف النظر عن مشروع شرق أفريقيا ، بل وأن يكف عن دراسة أي مشروع آخر غير فلسطين[٤] .

وفـاة هـرتـزل :

تعرض هرتزل وهو الذي كان يُعاني من مرض مزمن في القلب ، لإرهاق شديد نتيجة المناقشات الحادة التي أثارها طرح مشروع شرق افريقيا ، والمعارضة التي وُجه بها من طائفة كبيرة من اليهود ، أثناء انعقاد المؤتمر

---

(١) ديزموند ستيوارت : المرجع السابق ، ص ٣٤٦ .

(٢) بشير موسى نافع : المرجع السابق ، ص ٨٨ .

(٣) صابر طعيمة : التاريخ اليهودي العام ، ج ٢ ، ص ٢٠٢ .

(٤) أحمد الزغيبي : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٤٣ .

الصهيوني السادس عام ١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م، وفي أعقابه ، فاشتدت عليه علته ، وعلى الرغم من ذلك ظل يعمل بإخلاص شديد لخدمة الحركة الصهيونية ، حتى وافته منيته في يوم ٢٠ من ربيع الآخر عام ١٣٢٢هـ الموافق ٣ يوليو ١٩٠٤م، عن عمر يناهز الرابعة والأربعين عاماً ودفن في مقبرة أسرته في فينا[١] .

وقد أظهر اليهود في أنحاء العالم الحزن الشديد لوفاة زعيمهم ، ولبسوا الحداد عليه[٢] .

وفي الذكرى السنوية الأولى لوفاة هرتزل ١٣٢٣هـ / ١٩٠٥م عقد الصهاينة مؤتمرهم السابع في مدينة بازل السويسرية ، إحياءً لذكرى مؤسس الحركة الصهيونية الحديثة وابنها البار ، وفي هذا المؤتمر اتخذ المؤتمرون قراراً برفض مشروع شرق افريقية وقد نصّ القرار نفسه على أنه لن يقبل ببديلٍ عن فلسطين وطنًا للشعب اليهودي . كما وجه المؤتمرون شكرًا خاصًا للحكومة البريطانية ، لما تبديه من اهتمام بالحركة الصهيونية [٣]، وتوجهوا بالرجاء لها لمواصلة بذل جهودها لخدمة المشروع الصهيوني[٤] .

---

(١) كان هرتزل قد أوصى أن يدفن في مقبرة أسرته في فينا مؤقتًا حتى تُقام الدولة اليهودية في فلسطين، وعندئذٍ تنقل رفاته إلى هناك ، وقد تم إنفاذ هذه الوصية في عام ١٣٦٩هـ / ١٩٤٩م .

– ديزموند ستيوارت : المرجع السابق ، ص ٣٩١ .

(٢) المرجع نفسه : ص ٣٨٧ .

(٣) حسن صبري الخولي : المرجع السابق ، ج١ ، ص ١٠٤ .

(٤) يتضح من ذلك بأنّ زعماء الحركة الصهيونية قد اقتنعوا بأن بريطانيا هي الدولة المناسبة لتبني المشروع الصهيوني ، نظراً لاعتبارات مصلحية عديدة يدركها الطرفان .

الفصل الثاني
أساليب التآمر التي نهجتها الصهيونية ضد الدولـــــة العثمانيـــــة

المبحث الأول : ضغط الدول الاستعمارية ذات المصالح المشتركة مع الصهيونية .

المبحث الثاني : تشـويه سمعة السلطان عبد الحميـد الثاني .

المبحث الثالث : إرباك الدولـة ماديًا وإيقاعـها تحت طائلة الديون وفرض الوصاية عليها .

المبحث الأول

ضغط الدول الاستعمارية ذات المصالح المشتركة مع الصهيونية

من الثابت تاريخيًا أنّ العلاقة بين الصهيونية والاستعمار علاقة وثيقة وقديمة قِدم الصهيونية نفسها ، إذ إنها علاقة وجودية ومصلحية تقوم على تلاقي الأهداف والمصالح والمخططات ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا التلاحم بين اليهود والنصارى في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (١) .

فجميعنا يدرك أنّ كل عمليات الغزو الاستعماري تأتي دائمًا متسترة برداء الدين أو الانسانية أو بذريعة القيام بمشاريع حضارية أو تجارية ؛ لذا فقد وجد الكثير من المغامرين والقادة العسكريين والمستعمرين ، في دعوة اليهود إلى العودة إلى أرض الميعاد وإقامة كيان سياسي خاص بهم ، ذريعة مناسبة ليظهروا بمظهر المؤمنين الحريصين على تأدية الرسالة الإنسانية ابتداءً من كورش الفارسي عام ٥٣٨ ق . م(٢) وانتهاءً ببلفور البريطاني عام ١٣٣٥هـ / ١٩١٧م (٣).

لهذا فإن البعض يرى أنّ دعاة المشروع الصهيوني الحديث لم يكونوا في

---

(١) سورة المائدة : الآية (٥١) .

(٢) كورش : ملك فارس القديمة وباني عظمة أسرة (الأخمينيين) والامبراطورية الفارسية اجتاحت جيوشه ممالك الشرق الأدنى ومنها مملكة بابل زمن ملكها (نابونيدوس) عام ٥٣٨ ق . م وقد سمح كورش لليهود الذين كانوا في السبي البابلي بالعودة إلى فلسطين مكافأة لهم على مساندتهم له وليكونوا أدلاء ييسرون له سبل احتلال مصر .
- الموسوعة العربية الميسرة : ج ٢ ، ص ١٤٠٦ .

(٣) آرثر جيمس بلفور : سياسي بريطاني شغل عدة مناصب سياسية مهمة عين وزيرًا للخزانة في عام ١٣٠٨هـ / ١٨٩١م وفي عام ١٣٢٠هـ / ١٩٠٢م خلف خاله الماركيز سالسبوري في رئاسة الوزراء، وفي أثناء الحرب العالمية الأولى عين وزيرًا للخارجية وأصدر بصفته تلك تصريحه المعروف باسمه في عام ١٣٣٥هـ / ١٩١٧م والذي يقضي بتعهد الحكومة البريطانية بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين عقب الحرب .
- المرجع السابق : ج ١ ، ص ٣٩٩ .

البدء من اليهود ، بل كانوا من المستعمرين ومن يدور في فلكهم[١] .

وهذا يفسر لنا لماذا كان نابليون بونابرت Napelion Bonabart [٢] أسبق من هرتزل في دعوة اليهود للعمل من أجل إنشاء الدولة اليهودية في فلسطين ، فنابليون عندما قرر في أوائل القرن الثالث عشر الهجري الموافق أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ضرب المصالح البريطانية [٣]، بقطع تجارة الشرق عنها ، وكان عليه أنْ يجرد حملة للسيطرة على مصر وسوريا وفلسطين ، وجه نداءً يدعو فيه اليهود في كل أنحاء العالم إلى الانضواء تحت لوائه من أجل إعادة مملكة القدس القديمة[٤] .

وكانت جريدة المونتير Al Monteir الناطقة باسم الحكومة الفرنسية قد نشرت هذا النداء الذي أصدره بونابرت في عام ١٢١٣هـ / ١٧٩٩م[٥] ، وكانت أهم فقرات ذلك النداء تقول : « ... يا ورثة فلسطين الشرعيين إنّ فرنسا تناديكم الآن للعمل على إعادة احتلال وطنكم واسترجاع ما فقد منكم ... أسرعوا فإن هذه اللحظة لن تعوض قبل آلاف من السنين ، للمطالبة باسترجاع حقوقكم المدنية بين شعوب العالم ... »[٦] .

---

(١) رفيق النتشة : الإستعمار وفلسطين ، ص ٥٥ .

(٢) نابليون بونابرت : امبراطور فرنسا . ولد عام ١١٨٢هـ/١٧٦٩م في جزيرة كورسيكا وفي عام ١١٩٩هـ/١٧٨٥م تخرج من المدرسة العسكرية بباريس وعين ضابطًا في المدفعية واسترعى إليه الأنظار للأدوار المتميزة التي لعبها في العديد من الحروب التي خاضتها فرنسا في تلك الفترة . وفي عام ١٢١٢هـ / ١٧٩٨م وضع مع حكومة بلاده خطة لضرب الانجليز في الشرق باحتلال مصر فسحق المماليك في الرحمانية ومعركة امبابه ثم توجه إلى سوريا ولكنه أخفق أمام حصون عكا المنيعة وعاد إلى فرنسا . وفي عام ١٢١٣هـ / ١٧٩٩م قام بانقلاب على حكومة الإدارة الفرنسية وتوج امبراطورًا لفرنسا ، وبهزيمته للعديد من الدول الأوربية أصبح سيد قارة أوروبا ، ولكن بعد ذلك تكون تحالف دولي أوربي ضده تمكن من هزيمته في معركة الأمم عام ١٢٢٩هـ / ١٨١٥م ونفي إلى ألبا حيث قضى سنوات النفي في كتابة مذكراته ، وتوفي عام ١٢٣٥هـ/ ١٨٢١م ودفن في باريس .

- الموسوعة العربية الميسرة : ج٢ ، ص ص ١٨١٢ – ١٨١٣ .

(٣) إيلان هاليفي : المرجع السابق ، ص ١٥ .

- عبد الوهاب المسيري : المرجع السابق ، ص ٢٥٨ .

(٤) صادق جلال العظم : الصهيونية والصراع الطبقي ، الطبعة الأولى (بيروت : دار العودة ، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م) ص ص ٥٦ – ٥٧ .

- يوري إيفانوف : الصهيونية ... حذار ، تعريب : ماهر عسل (الهيئة العامة للتأليف والنشر ، دار الكتاب العربي ، ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩م) ص ٣٠ .

(٥) ج . م . ن . جفريز : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٧٨ .

(٦) عبدالله التل : الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام ، ص ص ٢٢ – ٢٣ .

وإذا ما حاولنا أن نعرف حقيقة الحافز الذي جعل نابليون يطلق ذلك النداء فيمكن أن نجد الإجابة على هذا التساؤل في هذه الفقرات من التقرير الذي قدمه (توماس كوربت Thomas Corpet) – الضابط في الجيش الفرنسي – إلى الحكومة الفرنسية قبل إصدار نابليون لذلك النداء بعدة أشهر ، وقد ضمنه الفوائد التي يمكن أن تعود على فرنسا من جراء الاستفادة من اليهود في الحروب التي تزمع القيام بها ، مقابل مساعدتهم في تحقيق كيان سياسي خاص بهم[١] ، فقد جاء في التقرير ما يلي : « ... وثروة اليهود لا تقوم لديهم مقام ما لحق بهم من حرمان فهم ينتظرون بفارغ الصبر المرحلة التي يجتمع بها شملهم فيشكلون أمة بين الأمم ... وأنهم يبذلون كثيراً من الجهود لأجل تحقيق هذه الأمنية ، ولما كانت معظم أموال أوروبا بين أيديهم ، فإنّ جهودهم لن تذهب سدى فيما إذا وجهوا التوجيه الحسن ، فلا ينقصهم إذن سوى الأساس الذي يبنون عليه ، ... وبهذه المناسبة أذكر لك أنهم كانوا أمهر الجواسيس ... وأنت لا ترغب طبعًا بأن تقفر فرنسا من سكانها بإرسال المستعمرين من عائلاتها التي أشهد أنه لا يمكن بدونها أن يكون لتاريخ المستعمرة أية قاعدة أساسية وأي حاجز ضد العرب وغيرهم ... ولما كان الشعب اليهودي شعبًا ذا زهو وفخار فإنّه سريعًا ما ينسجم مع الشؤون الحربية ولا سيما أنه سيبرهن على أنه محارب مجيد ... وانهم إذ يجدون أن ثمة مصالح واحدة تجمعهم بكم ، فإنّهم يعتمدون وجهة نظر الفرنسيين فوراً ... هذا وإنهم يقدمون لكم عنصراً استعمارياً متيناً ثابت الأركان وقد يكون ضرورياً كيما يقوم في آسيا مقام الامبراطورية الآخذة بالانحلال . امبراطورية العثمانيين ، ويقدم لكم أهم الضمانات لبث الفوضى وإشعال الفتن وإحلال الأزمات للقضاء على الأتراك جملة واحدة»[٢] .

---

(١) المرجع نفسه : ص ١٨ .

(٢) المرجع نفسه : ص ص ١٨ – ٢٢ .

ونرى أنّ ما جاء في هذا التقرير – الذي اتخذه نابليون بونابرت ورقة عمل لتنفيذ مشروعه الاستعماري ، وكان إصداره لذلك النداء لليهود دليلاً على تبنيه لسياسته – غنيًا عن التعليق عليه ، حيث يعري الأهداف النابليونية الاستعمارية من لباس الدين والإنسانية .

بل وإنّنا نرى أنّ ذلك القائد الاستعماري المغوار لم يكتف بأن يتلبّس الدين في لون واحد لإخفاء مخططاته الاستعمارية بل كان كالأفعى يغير لون لباسه حسب مقتضيات الزمان والمكان ، فكما تلبّس لباس اليهودية الصهيونية حتى وصفه الزعيم الصهيوني حاييم وايزمان Chaim Weizmann بأنّه (أوّل الصهاينة العصريين)[١] ، فكذلك تلبّس لباس الإسلام كي يتظاهر أمام المصريين بالصلاح وحسن النية ، حيث جاء في منشوره الكاذب الذي وجهه لأهل مصر قوله : « لا إله إلا اللّه ولا ولد له ولا شريك ... من طرف الفرنساوية المبني على الحرية والمساواة السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابرت يعرف أهل مصر جميعهم أن من زمان مديد ، الصناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة الفرنساوية ويظلمون تجارها ... فحضر الآن ساعة عقوبتهم ، ... يا أيها المصريون قد قيل لكم انني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم ، فذلك كذب صريح فلا تصدقوه ... أيها المشايخ والقضاة والأئمة وأعيان البلد قولوا لأمتكم أنّ الفرنساوية هم أيضًا مسلمون مخلصون ... »[٢] .

إلاّ أنّ كل هذا المكر والخداع والتلون لم يدفع عن نابليون الهزيمة أمام القوة المؤمنة الصابرة على أبواب عكا ، واندحار آماله وآمال اليهود في

---

(١) رفيق النتشة : الإستعمار وفلسطين ، ص ٥٧ .

(٢) عبدالرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، ٤ أجزاء (بيروت : دار النفائس للطباعة والنشر) ج ٢ ، ص ١٨٢ .

الاستيلاء على فلسطين[١] .

ومما هو جدير بالذكر أنّ اليهود لم يكونوا جاهلين بحقيقة الدوافع الاستعمارية لمن حاولوا الاستفادة منهم ، إلاّ أنهم لا يجدون غضاضة بأن يكونوا مطايا للمستعمرين ، إذا كانوا سوف يساعدونهم على تحقيق أحلامهم في العودة إلى فلسطين[٢] ، فها هو المفكر اليهودي (موزس هس Moses Hess) يعبّر عن ذلك بقوله : « من مصلحة فرنسا أن ترى الطريق المؤدية إلى الهند والصين وقد استوطنها شعب موال لقضية فرنسا حتى النهاية وذلك كي تحقق الرسالة التاريخية التي آلت إليها كتركة من الثورة الكبرى . لكن هل توجد أُمة أخرى مؤهلة أكثر من إسرائيل لتنفيذ تلك الرسالة على اعتبار أن الرسالة نفسها أنيطت بإسرائيل منذ بدء التاريخ »[٣] .

واستناداً إلى هذا يمكننا القول بأن تلاقي المصالح الاستعمارية الأوروبية مع مصالح البرجوازية القومية اليهودية كان أحد أهم مصادر الحركة الصهيونية .

فعلى أثر هذه الدعوات الاستعمارية الموجهة من الحكومة الفرنسية ، بدأ يلمس نشاط اليهود الفرنسيين في سبيل تحقيق الحلم الصهيوني ، ففي عام ١٢٧٦هـ / ١٨٦٠م تأسس في فرنسا الاتحاد الإسرائيلي العالمي (الاليانس L'Alliance) برعاية كل من (شارلزنتر Sharlezenter) وهو يهودي فرنسي عميل للمخابرات الفرنسية ، والبرت (كريميه Cremieux) الذي

---

(١) محمد كرد علي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٥ .

– محمد كمال الدسوقي : السياسة الدولية وفلسطين (القاهرة : دار الثقافة للطباعة والنشر ، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م) ص ١٣٨ .

(٢) حسان حلاق : المرجع السابق ، ص ٥٢ .

(٣) صادق جلال العظم : المرجع السابق ، ص ص ٩٠ – ٩١ .

أصبح وزيراً للعدل في فرنسا بعد ذلك[١] ، وقد عمل الاليانس على تشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين ولا سيما من الأقطار الشرقية ، ففي هذا الصدد قام في عام ١٢٨٢هـ / ١٨٦٥م بتأسيس مدرسة مهنية لتدريب اليهود على الأعمال المهنية ، كما قام في عام ١٢٨٧هـ / ١٨٧٠م بإنشاء مدرسة زراعية قرب يافا لتدريب المهاجرين اليهود على الأعمال الزراعية[٢] .

كما قام الحاخام اليهودي الفرنسي (كاليشر Kalischer) عام ١٢٧٨هـ / ١٨٦٢م بنشر كتابه (السعي إلى صهيون) وحث فيه اليهود على العودة إلى فلسطين والعمل من أجل إقامة الدولة اليهودية[٣] .

ومن جانب آخر فإن حملة بونابرت على مصر وبلاد الشام قد أثارت مخاوف وأطماع الدول الأوروبية لا سيما بريطانيا ، لتهديدها لسياستها الخارجية التي كان من أبرز ملامحها المحافظة على سلامة البلاد العربية من أي عدوان خارجي ، لتأمن سلامة معابرها البحرية والبرية الموصلة إلى درّة التاج البريطاني (الهند)[٤] .

كما يبدو أنّ استعانة نابليون باليهود في سبيل تحقيق أهدافه الاستعمارية قد نبّه بريطانيا إلى إمكانية استغلال عواطف هذا العنصر البشري الدينية نحو فلسطين لضمان استمرار نفوذها في المنطقة ، ففي أعقاب هزيمة نابليون وإجهاض الحلم اليهودي على أثرها ، راحت بريطانيا تُظهر استعدادها لتبني تحقيق ذلك الحلم ، حيث رأت أن زرع هذا العنصر البشري

---

(١) عبد الوهاب المسيري : المرجع السابق ، ص ص ٦٦ – ٦٧ .

– إيلان هاليفي : المرجع السابق ، ص ٢٩ .

(٢) حبيب قهوجي : استراتيجية الاستيطان الصهيوني في فلسطين المحتلة (دمشق : مؤسسة الأرض المحتلة للدراسات الفلسطينية ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م) ص ٤٩ .

(٣) المرجع نفسه : ص ٤٩ .

(٤) ميم كامل أوكي : المرجع السابق ، ص ٣٠ .

في فلسطين يتوافق مع مصالحها في المنطقة العربية[١] ، لا سيما وقد زامن ذلك انطلاق نداءات يهودية في بريطانيا تطالب بالعودة إلى فلسطين ، ومن أبرز الذين نشطوا في هذا الاتجاه اليهودي البريطاني (موسى مونتفيوري Moses Montefiore)[٢] .

ومما زاد من مخاوف بريطانيا وشعورها بضرورة وجود قوة حليفة لها تحمي مصالحها في المنطقة ، أنّه قد ظهر على مسرح الأحداث في هذه الفترة خطر جديد يهدد مصالحها ، تمثل في اجتياح جيوش والي مصر (محمد علي باشا)[٣] لسوريا وفلسطين في طريقه إلى استانبول عام ١٢٤٧هـ / ١٨٣١م ، حيث رأت بريطانيا فيه القوة الفتية التي تسعى إلى إقامة كيان قوي في المنطقة سوف تكون مواجهته أصعب من مواجهة الدولة العثمانية الضعيفة في ذلك الوقت[٤] .

---

(١) حسّان حلاّق : المرجع السابق ، ص ٥٢ .

(٢) موسى مونتفيوري : مليونير يهودي بريطاني حرص على خدمة اليهود في أنحاء العالم ، وسعى مع السياسة البريطانية لإقامة دولة يهودية في فلسطين منذ أوائل القرن التاسع عشر الميلادي ، وواصل نشاطه في عهد حكم محمد علي لبلاد الشام ، وقام بجهود مضنية من أجل إنجاح المستوطنات الأولى التي أقامها لليهود في فلسطين .
- المرجع نفسه : ص ٥٣ .

(٣) محمد علي بن إبراهيم أغا ألباني الأصل ولد في (قوله) من أعمال اليونان الآن عام ١١٨٣هـ/١٧٦٩م، قدم إلى مصر في إحدى الحملات التي جهزت لإجلاء نابليون واشترك في معركة أبو قير ١٢١٣هـ/ ١٧٩٩م وجاءته فرصته حينما ضاق المصريون ذرعًا بحكم خورشيد باشا وطلبوا من الحكومة العثمانية تولية محمد علي عليهم فلبى السلطان طلبهم وعينه واليًا لمصر في عام ١٢٢٠هـ / ١٨٠٥م، ولكن طموح محمد علي باشا كان أكبر من ذلك خاصة بعد الدور الكبير الذي كان له في القضاء على الثورة التي قامت في المورة فقام بحركة توسعية كبيرة ضم فيها الشام ووصل إلى حدود كوتاهيه في الأناضول عام ١٢٤٩هـ / ١٨٣٣م ، لكن الحكومة العثمانية تمكنت من التصدي له وقد كان للدول الاستعمارية دور كبير في فشل حركته ، وبمقتضى معاهدة لندن ١٢٥٦هـ /١٨٤٠م لم يبق لمحمد علي سوى حكم مصر له ولذريته من بعده ، وفي عام ١٢٦٤هـ/١٨٤٨م اعتزل الأمور لابنه إبراهيم باشا وأقام في قصر رأس التين بالاسكندرية مريضًا إلى أن توفي في عام ١٢٦٥هـ/١٨٤٩م ودفن بالقاهرة.
- خير الدين الزركلي : الأعلام ، ٨ أجزاء ، الطبعة السابعة (بيروت : دار العلم للملايين ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م) ج ٦ ، ص ٢٩٩ .

(٤) إبراهيم بك حليم : المصدر السابق ، ص ٢١٠ .
- إيلان هاليفي : المرجع السابق ، ص ١٩ .

هذا إضافة إلى أن جميع الدول الأوربية وعلى رأسها بريطانيا قد أقلقها تحركات الأسطول الروسي باتجاه الشاطيء الآسيوي للبوسفور بحجة الدفاع عن الدولة العثمانية ، وما قد ينجم عن ذلك من سيطرة روسيا على الدولة العثمانية، لما سوف يحدثه ذلك من اضطراب عام في ميزان القوى الأوربية[١].

وإزاء هذه الأخطار المحدقة بالمصالح البريطانية عامة ومصالحها في المنطقة العربية خاصة [٢]، نجدها قد سلكت اتجاهين في التصدي لها ، الأول أنّها راحت تساند الدولة العثمانية في وضع حدٍ لأطماع محمد علي باشا التوسعية ، حتى تمكنوا من إجباره على التراجع إلى مصر وإخلاء بلاد الشام في عام ١٢٥٦هـ / ١٨٤٠م [٣].

والثاني أنها كرست جهودها من أجل تحقيق آمال اليهود في العودة إلى فلسطين ، ليقوموا بحراسة مصالحها في المنطقة ، لا سيما وأن الفترة التي أعقبت انسحاب جيوش محمد علي باشا قد شهدت انقلاباً في الأوضاع السياسية في منطقة المشرق العربي ، وفتحت عهداً جديداً للنشاط الأوربي الاستعماري فيها ، وذلك نتيجة الفراغ السياسي والعسكري الذي عاشته المنطقة على أثر انسحاب جيش محمد علي باشا[٤] .

---

(١) بيير رنوفان : المرجع السابق ، ص ١٣٣ .

(٢) كانت الحركة التوسعية التي قام بها محمد علي باشا على حساب الأملاك العثمانية قد أحدثت ردود فعل متباينة لدى الدول الأوروبية ، فبالنسبة لفرنسا فقد شجعت محمد علي باشا وأظهرت مساندتها له ، بدافع من متطلبات صراعها مع بريطانيا حول منطقة المشرق العربي ، في حين سارعت روسيا إلى استغلال الفرصة لعقد معاهدة (انكيار سكليسى Unkiar - Skelessi) عام ١٢٤٩هـ / ١٨٣٣م مع الدولة العثمانية ، تعهدت بموجبها بالدفاع عن الدولة العثمانية في حالة تعرضها للهجوم المصري وكانت قد وجدت بذلك ذريعة للتدخل في شئون الدولة العثمانية الداخلية ، وكانت هذه المواقف قد أثارت مخاوف بريطانيا على مصالحها الاستعمارية في المنطقة .

– محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ص ٤٥١ – ٤٦٢ .

(٣) إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ٢ ، ص ص ٢٤٨ – ٢٤٩ .

– بيير رنوفان : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٣٥ .

(٤) حبيب قهوجي : المرجع السابق ، ص ٣٦ .

ولما كان من الطبيعي أن تكون بريطانيا هي الأكثر نشاطًا في هذا المجال ، لذا نراها تسارع في استغلال ردة فعل هذا الحدث على الحكومة العثمانية ، فقام وزير خارجيتها (بالمرستون Palmerstone)[١] بالكتابة إلى السفير البريطاني لدى الدولة العثمانية بونسنبيPonsonby في عام ١٢٥٦هـ / ١٨٤٠م يطلب منه الضغط على السلطان العثماني (عبد المجيد خان) ١٢٥٥ - ١٢٧٧ هـ / ١٨٣٩ - ١٨٦١م من أجل السماح بهجرة اليهود إلى فلسطين[٢] ، حيث يقول في رسالته : « ... ويكون من مصلحة السلطان الواضحة أن يشجع اليهود على العودة إلى فلسطين والإقامة فيها ، لأن ما سيحملونه إلى البلاد من الثروة سيزيد من موارد دولته ولأن الشعب اليهودي بعودته إلى البلاد - بإذن من السلطان - وفي حمايته وبدعوة منه - يكون حجرة عثرة في سبيل أي أهداف تخطر في المستقبل ببال محمد علي أو من يخلفه ، وأرجوك أن تضع هذه الاعتبارات أمام أعين الحكومة العثمانية بصفة سرية وابذل وسعك في إقناعها بأن تقدم كل تشجيع عادل ليهود أوربا كي يعودوا إلى فلسطين »[٣] .

وهكذا نرى من خلال مضمون هذه الرسالة أن بريطانيا التي أقلقتها المحاولة الفاشلة في توحيد مصر مع بلاد الشام وما أفرزته من اضطراب في المواقف السياسية الدولية ، رأت أنه لضمان إحباط أي محاولة مستقبلية مماثلة فلا بد من إقامة هذا السدّ البشري المتمثّل في اليهود .

وفي صدد إخراج هذا المخطط الإنجليزي إلى حيّز الوجود ، بدأت

---

(١) بالمرستون : سياسي انجليزي شهير أصبح وزيراً للخارجية الإنجليزية منذ عام ١٢٤٥هـ / ١٨٣٠م واشتهر بمقاومة محمد علي باشا حتى أنه يمكن القول إن مساعيه كانت السبب الأول في إخفاق مشروع محمد علي باشا .

- محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٤٥٩ .

(٢) حسان حلاق : المرجع السابق ، ص ٥٦ .

(٣) محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية (القاهرة : دار الثقافة للطباعة والنشر ، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م) ص ص ١٨٩ - ١٩٠ . نقلاً عن ملف وثائق فلسطين ، ج ١ ، ص ٤٧ .

بريطانيا بانتهاج سياسة مُقنعة تتمثل في إرسال البعثات الطبية والثقافية والدينية كما قامت بانشاء بعض المستشفيات والمدارس والكنائس في فلسطين وبعض أنحاء بلاد الشام الأخرى للترويج للفكرة الصهيونية[١] .

ولما كانت بريطانيا أوّل دولة قامت بافتتاح قنصلية لها في القدس وذلك في عام ١٢٥٤هـ / ١٨٣٨م ، فقد أوعز اللورد بالمرستون وزير الخارجية البريطاني إلى قنصل بلاده في القدس بأن يقدم العون والحماية لليهود في فلسطين على مختلف أجناسهم [٢] . ولذا فقد كانت أول المشاريع الزراعية التي أقيمت لخدمة اليهود في فلسطين قد أنشئت برعاية القنصل البريطاني وهي (جمعية تشجيع العمل الزراعي اليهودي في الأرض المقدسة) و (المزرعة الصناعية لتوظيف يهود القدس)[٣] .

وفي ظل الحماية التي منحتها القنصلية البريطانية لليهود استطاع اليهودي البريطاني موسى مونتفيوري Moses Monte Fiore أن يمول عملية شراء اليهود لأول ضيعة في فلسطين – بالقرب من يافا – لإسكان المهاجرين اليهود[٤] .

كما شجعت بريطانيا اليهود وساعدتهم على إقامة المدارس اليهودية لتخريج الحاخامين والترويج للفكر الصهيوني[٥] .

وكانت الدول الاستعمارية الأوربية الأُخرى وفي مقدمتها فرنسا ترقب ما

---

(١) محمد عزة دروزة : القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها ، جزءان ، الطبعة الثالثة (منظمة التحرير الفلسطينية ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م) ج ١ ، ص ص ١٤ – ١٥ .

(٢) رفيق النتشة : الإستعمار وفلسطين ، ص ١٦٣ .

(٣) صادق جلال العظم : المرجع السابق ، ص ص ٥٥ – ٥٦ .

(٤) حسّان حلاّق : المرجع السابق ، ص ٦١ .

(٥) المرجع نفسه : ص ٦٠ .

توليه بريطانيا لليهود من حماية ورعاية بقلق بالغ ، مدركة أنّ بريطانيا وجدت فيهم وسيلة لزيادة نفوذها في الشرق الأوسط ، وكان من مظاهر اشتداد حدة التنافس بين تلك الدول على توسيع نطاق نفوذها في تلك المنطقة، أنه قبل مضي عقد من الزمن على تاريخ تأسيس القنصلية الانجليزية في القدس ، كانت معظم الدول الأوروبية (ألمانيا - فرنسا - النمسا - اسبانيا) وغيرها قد أنشأت لها قنصليات في القدس[١] .

وقد كان لهذه القنصليات دور كبير في تشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، وكذلك العمل على عرقلة القوانين العثمانية الخاصة بأوضاع اليهود هناك ، كما سهّلت لهم امتلاك الأراضي الفلسطينية بطرقٍ ملتوية[٢] .

هذا وقد وجدت تلك الدول المتنافسة في (نظام الحماية) الذي يخوله لها نظام الامتيازات الأجنبية أقصر طريق يمكنها من إيجاد موطئ قدم لها في المنطقة المتنازع عليها ، ويمكنها من التدخل في شؤون البلاد الداخلية ، وهو نوع من التنظيم يمنح الرعايا العثمانيين حق التمتع بالامتيازات الأجنبية إمّا بالحصول على الجنسية الأجنبية أو بطلب الحمايّة من الدولة صاحبة الامتياز، وبموجب هذا النظام أصبح الرعايا غير المسلمين يلجأون إلى الدول الأوروبية ليدخلوا في حمايتها ، ليتمتعوا بالامتيازات الممنوحة لها ، وكانت تلك الدول ترحب بذلك لتجد لها ذريعة للتدخل في شؤون الدولة العثمانية الداخلية[٣] .

ولم تكتف الدول الاستعمارية بذلك بل سعت لتعميق هذه الذريعة عن طريق تكثيف نشاطها التنصيري في المنطقة، حيث قامت بتصدير المنصرين في

---

(١) صادق جلال العظم : المرجع السابق ، ص ٥٩ .

(٢) بولاك : المرجع السابق ، ص ص ١٤٩ - ١٥٠ .

(٣) ميم كامل أوكي : المرجع السابق ، ص ص ٥٥ - ٥٦ .

زي التجار والعلماء والرحالة كما أنشأوا عشرات المدارس في مناطق مختلفة من بلاد الشام للغرض نفسه[١] .

ومن هذا المنفذ تسلّلت تلك الدول للبحث عن نقاط الضعف لاستغلالها ، ومن ذلك السعي لتعميق النعرات العنصرية والمذهبية والطائفية لإذكاء الخلافات وإثارة الفتن ومن ثم إيجاد الذرائع التي تبرر تدخلاتها وكان اليهود الذين يعيشون في تلك البلاد هم الأداة النموذجية التي استخدموها في إثارة تلك الفتن ، ولعلّنا نجد في دورهم في حادثة الشام عام ١٢٧٦هـ / ١٨٦٠م خير دليلٍ على اضطلاعهم بهذا الدور [٢].

ذلك أنّ أرباب الغايات من المستعمرين وجدوا في بلاد الشام – وهي ميدانهم – مُناخًا خصبًا لزرع بذور الفرقة والشقاق بسبب تعدّد الجنسيات والأديان واختلاف المذاهب والطوائف ، ولا سيما بين الدروز والمارونية [٣]، حيث

---

(١) علي حسّون : المرجع السابق ، ص ١٨٤ .

– إيلان هاليفي : المرجع السابق ، ص ص ٢١ – ٢٢ .

(٢) حسان حلاق : المرجع السابق ، ص ٦١ .

(٣) الدروز : فرقة باطنية أخذت جل عقائدها عن فرقة الاسماعيلية الشيعية . نشأت في مصر ثم انتقلت إلى الشام ، ومؤسسها هو محمد بن إسماعيل الدرزي الذي أعلن ألوهية الخليفة الفاطمي (الحاكم بأمر الله) عام ٤٠٧ هـ / ١٠١٧م . ويعيش معظم الدروز في العصر الحالي في لبنان وفلسطين وبعضهم تجنس بالجنسية الإسرائيلية .

المارونية : طائفة من طوائف النصارى الكاثوليك الشرقيين . قالوا بأن للمسيح طبيعتين ومشيئة واحدة ، وينتسبون إلى القديس مارون الذي كانت حياته في القرن الرابع الميلادي في انطاكية ، وكان الموارنة قد قدموا خدمات جليلة للصليبيين في حملاتهم على العالم الإسلامي ، وفي العصر الحديث يعيش معظم الموارنة في جبال لبنان .

– الموسوعة الميسرة في الأديان والمذهب المعاصر : ص ٢٢٣ ، ٤٣٩ .

سعوا إلى الوقيعة بينهم فسقطوا فريسة لدسائسهم وشبّت نار الفتنة بينهم[١] ، وفتك بعضهم ببعض ، وامتد لهيب هذه الفتنة ليكتوي به المسلمين فكانت مذبحة عامة بدأت في لبنان وامتدت إلى كافة أنحاء بلاد الشام[٢] .

وكانت بريطانيا تُسلِّح الدروز وفرنسا تُسلِّح المارونية[٣] ، فسقط عشرات الآلاف من القتلى من المسلمين والدروز والمارونية ، وأُحرقت المنازل ودُمِّرت قرى بكاملها[٤] .

وهنا سنحت الفرصة لتلك الدول لتجني ثمار غرسها لبذور الفرقة والشقاق ، حيث وجدت الذريعة للتدخل في شئون الدولة العثمانية الداخلية ، وهي إنقاذ رعاياها في المنطقة من جراء ما أصابهم من هذه الفتنة ، فأرسلت فرنسا إلى الشام قوة عسكرية قوامها عشرة آلاف جندي ، نزلت في بيروت بحجة حماية الموارنة ، مع أنه لم يكن ثمة ضرورة تستدعي ذلك ، لأنَّ الحكومة العثمانية كانت قد تمكنت من السيطرة على الموقف قبل وصول القوات الفرنسية ، ورغم ذلك فقد ظلّت مرابطة في الشام لمدة عشرة أشهر [٥].

وممّا يدل على تعنت تلك الدول وتعمدها التدخل في شئون الدولة العثمانية الداخلية ، أنّها أرسلت لجنة تحقيق أوربية إلى بيروت للبحث في أسباب الحادث وتحديد المسئولين عنه ، وتقدير الخسائر والتعويضات واقتراح

---

(١) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٥٢٦ .
- محمد عزة دروزه : القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها ، ج ١ ، ص ١٥ .

(٢) بيير رنوفان : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣٥٧ .

(٣) موفق بني المرجه : المرجع السابق ، ص ١٨١ .

(٤) محمد كرد علي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ص ٨٥ – ٨٦ .
- محمد أنيس : المرجع السابق ، ص ٢١٦ .

(٥) إسماعيل سرهنك : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٣٢٩ .

التعديلات في نظام حكم المنطقة[١] .

وتؤكد الوثائق المعاصرة لهذا الحادث أنه قد كان ليهود الشام اليد الطولى في إذكاء نار هذه الفتنة ، ولذا فقد قام (فؤاد باشا) وزير الأشغال الخارجية العثماني - الذي أُوكل إليه مهمة إخماد هذه الفتنة - بالقبض على عدد كبير منهم ثبت أن لهم دورًا بارزًا في إثارتها . فما كان من أعيان اليهود في الشام إلا أن رفعوا مذكرة إلى اليهودي البريطاني السير مونتفيوري Monte Fiore طالبوه فيها بالتدخل لحمايتهم . كما عبروا فيها عن أملهم في أن يتوسط لهم عند ملكة بريطانيا (الملكة فكتوريا Victoria)[٢] لتتدخل من أجل تحرير المعتقلين اليهود ، وقد جاء في هذه المذكرة قولهم : « ... وفي هذه الأزمة نطرح توسلاتنا على أقدامها ملتمسين أن تشمل شعب إسرائيل المضطهد في دمشق بعين شفقتها ورأفتها ، وهو يرغب إليها أن تمد له يد المساعدة وتظله بظل نفوذها ... »[٣] .

وبالفعل تدخلت الحكومة البريطانية عن طريق قنصلها في استانبول لفك

---

(١) محمد عبد الرحمن برج : دراسة في التاريخ العربي الحديث والمعاصر (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤م) ص ص ٧٦ - ٧٨ .

(٢) الملكة فكتوريا : هي ملكة انجلترا في الفترة الممتدة بين عامي ١٢٥٣ - ١٣١٩هـ / ١٨٣٧ - ١٩٠٢م خلفت عمها وليم الرابع ، كانت متزوجة من ابن خالها الأمير البرت وأنجبت منه تسعة أبناء ، تعاقب على رئاسة الوزارة في عهدها جلادستون زعيم حزب الأحرار وبنيامين درزائيلي زعيم حزب المحافظين . بلغت بريطانيا في عهدها أوج رخائها وتوسعها الاستعماري . خلق لها درزائيلي لقب امبراطورة الهند عام ١٢٩٣هـ / ١٨٧٦م ، وفي عهدها احتلت بريطانيا مصر ١٢٩٩هـ / ١٨٨٢م ويدل إطلاق اسم (العصر الفكتوري) على عهدها على أثر شخصيتها القوية في معظم نواحي الحياة الانجليزية .

- الموسوعة العربية الميسرة : ج ٢ ، ص ١٣٠٥ .

(٣) حسان حلاق : المرجع السابق ، ص ص ٦١ - ٦٢ ، نقلاً عن المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان ، ج ٢ ، ص ٣٦٨ .

أسر اليهود المعتقلين ، وقد استطاع هذا التدخل أن ينهي الموقف لصالح اليهود حيث أفرج عن أكثرهم[١] .

وهكذا نرى من خلال السياق السابق لأحداث فتنة الشام أن اليهود في سبيل تحقيق أحلامهم الصهيونية ، قد ارتضوا بأن يكونوا الطابور الخامس للدول الاستعمارية .

وفي الربع الأخير من القرن الثالث عشر الهجري الموافق التاسع عشر الميلادي ازدادت حدة التنافس والصراع بين الدول الإستعمارية الأوربية على السيطرة على منطقة الشرق الأوسط بسبب فتح قناة السويس عام ١٢٨٦هـ/ ١٨٦٩م [٢] ، إذ أصبحت هذه القناة أقصر الطرق المائية التي تصل بين هذه الدول وبين مستعمراتها فيما وراء البحار ، وباعتبار أنّ من يستطيع السيطرة على هذه القناة يستطيع أن يدافع عن مستعمراته القديمة ويوطد نفوذه في المنطقة المتنافس عليها –منطقة المستعمرات الحديثة والمستقبلية–[٣] .

وعلى الرغم من أن جميع تلك الدول كانت تدرك أهمية قناة السويس وتطمع في السيطرة عليها ، إلا أن بريطانيا كانت الأكثر حرصاً على ذلك ، بل أنها كانت تعتبر ذلك ضرورة لضمان المحافظة على مصالحها الحيوية[٤] ، سيما والساسة البريطانيون لا يزالون يتذكرون تلك الأزمة الخطيرة التي مروا بها قبيل شق القناة بعدة سنوات – عام ١٢٧٣هـ / ١٨٥٧م – وذلك حين قامت

---

(١) المرجع نفسه : ص ٦٣ .

(٢) بيير رنوفان : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ص ٣٥٣ – ٣٥٨ .

(٣) عبد الرؤوف أحمد عمرو : قناة السويس في العلاقات الدولية (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م) ص ص ٥ – ٦ .

(٤) المرجع نفسه : ص ٨ .

حركة تمرد خطيرة في الهند كادت تعصف بالحكم البريطاني فيها ، فاضطرت الحكومة البريطانية أن ترسل حملات عسكرية لإخمادها وذلك عن طريق رأس الرجاء الصالح وعن طريق الأراضي المصرية ، ونظراً لطول المسافة لم تستطع القوات البريطانية أن تصل إلاّ بعد مرور عدة أشهر ، فكان هذا التأخير قد كلفها خسارة أربعة آلاف جندي من قواتها في الهند[١] .

ومن هنا فقد كانت بريطانيا ترى أنّ سيطرتها على قناة السويس ضرورة ملحة ، وبالتالي فقد عقدت العزم على الاستيلاء عليها بأيٍّ وسيلة كانت[٢] .

وجرت الأقدار لصالح بريطانيا وذلك حين تعرضت الحكومة المصرية لضائقة مالية ، من جراء تراكم الديون عليها بسبب كثرة القروض التي اقترضها الخديوي اسماعيل[٣] ، من البيوت المالية الأوربية وعجزه عن تسديدها ومن ثم امتناع هذه البيوت المالية عن إقراضه قروض جديدة ، فساقه سوء تدبيره إلى عرض أسهم مصر في شركة قناة السويس للبيع عام

---

(١) عبد العزيز محمد الشناوي : قناة السويس والتيارات السياسية التي أحاطت بإنشائها. جزءان (القاهرة : مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية : ١٣٩١هـ / ١٩٧١م) ج ١ ، ص ٣٢ .

(٢) عبد الرؤوف عمرو : المرجع السابق ، ص ص ٩ - ١٠ .

(٣) الخديوي إسماعيل : هو الابن الأكبر لإبراهيم باشا ، تلقى تعليمه في فرنسا ، وخلف عمه سعيد باشا على حكم مصر فأصبح خديوي مصر في الفترة (١٢٧٩ - ١٢٩٦هـ / ١٨٦٣ - ١٨٧٩م) . بدأ الاستدانة من المصارف الأوربية ليحقق مشروعاته الكبيرة لتغطية متطلبات حياة البذخ والإسراف التي كان يعيشها ، بنى الكثير من القصور ودور الأوبرا وعدة خطوط سكك حديدية في مصر وأكمل حفر قناة السويس وافتتحها في احتفال أنفق عليه أموالاً لا حصر لها وقد أوصله هذا الإسراف إلى بيع أسهم مصر في قناة السويس بثمن بخس لبريطانيا ، وإتاحة الفرصة للدول الأجنبية للتدخل في شؤون مصر الداخلية بحجة تحصيل ديونها. وقد عزله السلطان عبد الحميد الثاني في عام ١٢٩٦هـ/ ١٨٧٩م وذهب إلى إيطاليا وأقام فيها عدة سنوات ثم أمضى بقية حياته في استانبول.

- الموسوعة العربية الميسرة : ج ١ ، ص ١٥٩ .

١٢٩٢هـ / ١٨٧٥م ، فلم تتوان بريطانيا في اقتناص هذه الفرصة الذهبية عندما لاحت لها[١] .

وعلى الرغم من الحماس الشديد الذي أبداه رئيس الوزراء البريطاني اليهودي (دزرائيلي Disraeli) [٢] لإتمام هذه الصفقة[٣] ، فقد واجهته عقبة توفير ثمن هذه الأسهم (أربعة ملايين جنيه استرليني) حيث كان مجلس العموم البريطاني في إجازته السنوية ، فخاف أن تفوته هذه الفرصة ، سيما وقد لمس منافسة فرنسية لعقد هذه الصفقة السياسية[٤] .

وكان هذا الموقف فرصة لا تعوض ليظهر اليهود تعاونهم وولاءهم للإنجليز حيث قام البارون اليهودي الانجليزي روتشلد Rothschild بتمويل هذه الصفقة[٥] .

---

(١) كارل بروكلمان : المرجع السابق ، ص ٥٨٠ .

- مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ٤٩ .

(٢) بنيامين دزرائيلي : سياسي بريطاني شهير ينتمي إلى أسرة بريطانية يهودية ذات أصول إيطالية ، دخل مجال السياسة عام ١٢٥٣هـ / ١٨٣٧م حيث انتخب عضواً في البرلمان عن حزب المحافظين ثم تقلد منصب رئيس الوزراء مرتين فيما بين عامي (١٢٨٥ - ١٢٩٧ هـ / ١٨٦٨ - ١٨٨٠م) وقد لعب دوراً مهمًا في رسم سياسة بريطانيا الاستعمارية وترسيخ مصالحها في الشرق الأوسط مما تحدد على أساسه فيما بعد مصير مصر وفلسطين ، وقد عرف عنه تباهيه بيهوديته وقام بتأليف العديد من الكتب والروايات التي كانت تتخللها فكره صهيونية تدور حول الارتباط الأزلي لليهود بفلسطين ، ومن أشهرها رواية (قصة داود الرائي) ورواية (الحروب الصليبية الجديدة) .

- عبد الوهاب المسيري : المرجع السابق ، ص ص ٦٢ - ٦٥ .

(٣) هارولد تمبرلي و أ. ج . جرانت : أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين ، تعريب : محمد علي أبو دره و لويس اسكندر ، جزءان (القاهرة : مؤسسة سجل العرب ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م) ج٢ص ١٦.

(٤) عبد الرؤوف عمرو : المرجع السابق ، ص ٤٠ .

(٥) عبدالله التل : الاستعمار وفلسطين ، ص ١٠٢ .

وهكذا نرى أنه بهذا الدور الكبير الذي قام به كلاً من دزرائيلي وروتشلد في إتمام هذه الصفقة المهمة طوق اليهود أعناق الإنجليز بجميلٍ لا يمكن أن ينسوه لهم أبدا ، ومن جانب آخر فقد خطوا خطوة واسعة في طريق تحقيق أحلامهم الصهيونية .

ولكن أطماع بريطانيا في الاستيلاء على مستعمرات جديدة ، وتحقيق مزيد من الضمانات لسلامة مستعمراتها القديمة لم يكن ليقف عند هذا الحد ، فلم تكن هذه الصفقة إلاّ الخطوة الأولى في طريقها للاستحواذ على قناة السويس، والإشراف المباشر على إدارتها، فقد كانت بريطانيا تخطط للاستيلاء على مصر لتضمن السيطرة على الجانب الغربي لقناة السويس(١) .

ومرة أخرى تتوالى الأحداث – في أعقاب بيع مصر لأسهمها في شركة قناة السويس – لصالح بريطانيا ، حيث شهدت مصر تفاقمًا في الأزمة الاقتصادية ، فكانت فرصة أخرى لبريطانيا فقد اتخذت من هذه الأزمة المالية ذريعة للتدخل في شؤون مصر الداخلية ، سيما وقد وجدت تهاونًا في ذلك من قبل الخديوي توفيق الذي خلف والده – الخديوي إسماعيل – في حكم مصر(٢) .

فتوالت البعثات الأجنبية لبحث أحوال مصر المالية ، ثم تبع ذلك تعيين مراقبين ماليين في نظارة المالية – وزارة المالية – إلاّ أنّ هذا التدخل الأجنبي عمومًا والبريطاني خصوصًا تعدى حد الرقابة المالية وتسوية الديون إلى التدخل في كافة شؤون البلاد(٣) .

---

(١) إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ٢ ، ص ٣٨٢ .

(٢) كارل بروكلمان : المرجع السابق ، ص ٥٩٠ .

(٣) إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ٢ ، ص ٣٦٩ .

– محمد أنيس : المرجع السابق ، ص ٢١٢ .

وقد كان هذا أحد الدوافع القوية التي دفعت قوى المعارضة الوطنية في مصر بزعامة (أحمد عرابي)[١] لأن تثور وتعترض على هذا التدخل الأجنبي السافر في شؤون بلادها الداخلية[٢] .

ولما كانت مباديء هذه الثورة تتعارض مع مصالح الدول الأجنبية ولا سيما بريطانيا ، فقد راحت بريطانيا تدعي أنّ هذه الثورة تقوم على مباديء هدامة تؤدي إلى بث الفرقة بين طبقات الشعب المصري ، ثم أخذت تتذرع بتخوفها على حياة الرعايا الأوربيين في مصر من عواقب هذه الفتنة ، وعدم تدخل الحكومة العثمانية عسكريًا لوضع حدٍّ لها ، لتبرر تدخلها العسكري الذي تمكن من القضاء على حركة المقاومة الوطنية (العرابية) التي حاولت التصدي

---

(١) عرابي : هو أحمد عرابي بن محمد عرابي بن محمد وافي زعيم مصري ولد في قرية (هريه رزنه) من قرى الزقازيق عام ١٢٥٧هـ / ١٨٤١م كان قد تلقى تعليمه في الأزهر ثم التحق بالسلك العسكري وتدرج فيه إلى أن وصل إلى رتبة (اميرالاي) أي عميد في عهد الخديوي توفيق ، وعندما ازداد التدخل الأجنبي في شؤون مصر قام الجيش المصري بمظاهرة عامة قادها عرابي واشتركت فيها طوائف مختلفة من الشعب تطالب بوضع حد لهذا التدخل . وعند ذلك أحست بريطانيا بالخطر فراحت تفتعل بعض الأحداث بين رعاياها في مصر لتجد لها ذريعة للتدخل العسكري ومن ثم كان لقائها بالقوات المصرية التي أصرت على المقاومة بقيادة أحمد عرابي في معركة التل الكبير عام ١٢٩٩هـ / ١٨٨٢م التي انتهت بهزيمة الجيش المصري واحتلال الانجليز لمصر ومن ثم نفي أحمد عرابي إلى سيلان حيث مكث هناك ١٩ عامًا ثم أطلق سراحه وعاد إلى مصر وتوفي بالقاهرة عام ١٣٢٩هـ / ١٩١١م .

– خير الدين الزركلي : المرجع السابق ج ١ ، ص ١٦٨ .

– شوقي أبو خليل : حركات التحرر العربية ، الطبعة الرابعة (دمشق : دار الفكر ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م) ص ص ٣٥ – ٣٧ .

(٢) المرجع نفسه : ص ٣٦ .

– يلماز أوزتونا : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ص ١٣٥ – ١٣٦ .

له ، وانتهى باحتلال مصر في عام ١٢٩٩هـ / ١٨٨٢م[١] .

وإذا كان الإنجليز باحتلالهم لمصر قد حققوا كسبًا استعماريًا حيث دعموا نفوذهم في منطقة الشرق الأوسط وضمنوا مزيدًا من الحماية للطرق المؤدية إلى مستعمراتهم البعيدة[٢] ، فقد كان لهذا الاحتلال صداه عند اليهود أيضًا ، فقد أكدت الأحداث اللاحقة بأنّ سقوط مصر في أيدي الانجليز قد أنعش المطامع اليهودية في فلسطين ، حيث رأوا أنّ الاستعمار البريطاني بدأت تكون له اليد الطولى في المنطقة ، لذا فقد يكون بوسعهم أن يحصلوا من الإنجليز على ما لم يستطيعوا الحصول عليه من العثمانيين[٣] .

وفي مطلع القرن الرابع عشر الهجري الموافق أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، جرت تطورات على مضمار السباق الاستعماري، جعلت العلاقة بين الصهيونية والدول الاستعمارية علاقة حتمية ومصيرية ، وذلك على أثر اقتحام ألمانيا لهذا الميدان كمنافس قوي للدول الاستعمارية التقليدية وفي مقدمتها بريطانيا وفرنسا ، في أفريقيا وآسيا بوجه عام ، وفي أملاك الدولة العثمانية فيهما بوجه خاص . وفي البلاد العربية منها بوجه أخص[٤] ، إذ عمدت ألمانيا إلى التقرب من الدولة العثمانية حين رأت أن بريطانيا وفرنسا تتسابقان للاستيلاء على ممتلكاتها ، إضافة إلى أن ألمانيا وجدت أن الدولة العثمانية أفضل ميدان لتوسعها الاستعماري ، فهي غنية بالمواد الخام اللازمة للصناعة الألمانية ، كما أنّه بالإمكان اتخاذها سوقًا رائجة لمنتجاتها الصناعية المتزايدة

---

(١) إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار ... ، ج ٢ ، ص ص ٣٣٩ - ٤١٠ .

- بيير رنوفان : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ص ٥١١ - ٥١٢ .

(٢) كارل بروكلمان : المرجع السابق ، ص ٥٩٢ .

(٣) حسان حلاق : المرجع السابق ، ص ٦٧ .

(٤) محمد كمال الدسوقي : السياسة الدولية وفلسطين ، ص ١٩ .

، سيما وهي قريبة من أراضيها[١] .

ومن واقع هذه الاعتبارات المصلحية راحت السلطات الألمانية تدعم النفوذ الألماني في الدولة العثمانية في أشكال متعددة ، كان في مقدمتها إيفاد البعثات العسكرية لتدريب الجيش العثماني وفق الأساليب الحديثة ، وجعل أسلحته وذخيرته من نتاج المصانع الألمانية ، وكذلك تنفيذ العديد من المشروعات الكبرى والتي كان على رأسها إنشاء خط حديد برلين بغداد[٢] .

وقد وجدت هذه السياسة الجديدة التي نهجتها ألمانيا كل ترحاب من قبل الساسة العثمانيين ، في حين جوبهت بمعارضة شديدة من قبل الدول الاستعمارية الأُخرى ، وفي مقدمتها بريطانيا وفرنسا وروسيا[٣] .

فالدولة العثمانية رحّبت بالصداقة الألمانية رغم إدراكها أنّها صداقة زائفة تحنوها المصالح الخاصة لكلا الطرفين ، فكما وجدت ألمانيا أنّ مصالحها تقتضي التقرب من الدولة العثمانية ، فكذا وجد السلطان عبد الحميد أنّ مصلحة دولته تقتضي مباركة ذلك التقارب ، لما سوف يحدثه من خلل في ميزان القوى الإستعمارية ممّا يعني فت عضد الدول المتكالبة على بلاده وضرب بعضها ببعض[٤] . وقد أشار السلطان عبد الحميد (رحمه الله) في مذكراته بصراحة إلى حقيقة تلك العلاقة في قوله : « ... إني كنت أرى بوضوح أن ظهور ألمانيا كفيل بإخلال التوازن الأوربي ، وأن هذا سيوقع الدول الأوربية

---

(١) المرجع نفسه : ص ص ١٩ - ٢٠ .

(٢) حسن صبري الخولي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١١٠ .

(٣) زين نور الدين زين : الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان ، الطبعة الثانية (بيروت : دار النهار للنشر ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م) ص ٤٩ .

(٤) جورج انطونيوس : المرجع السابق ، ص ص ١٤٦ - ١٤٧ .

بعضها في بعض ، وإني لو استطعت إنقاذ بلادي من تعريضها للانقسام حتى ذلك اليوم ، فإني – في وقت هذا الصدام – أستطيع حماية وجودنا بالإنضمام إلى إحدى الكتلتين وكسر الطرف الآخر ، ولم أكن أرى هذا بعيداً . كانت قوة الألمان تزداد عاماً بعد عام وكنت ألاحظ اضطراب كل من الفرنسيين والإنجليز والروس لهذا النمو الألماني ، ونهاية هذا الأمر سيكون صدامها »[١] .

كما يقول السلطان في موضع آخر من مذكراته : « ... اقترب مني القيصر الألماني (ويلهلم) لدفع التحالف الفرنسي الإنجليزي الروسي . أما أنا فلكي أهدد الإنجليز بأني أستطيع فتح طريق الهند للجيوش الألمانية اقتربتُ بسرعة من الألمان ، وإن كانت أفكارنا في الأصل مختلفة عن بعضها البعض تماماً »[٢] .

ومن الجانب الآخر رأت الدول الاستعمارية أنّ هذه السياسة الألمانية الجديدة تهدد مصالحها في الدولة العثمانية[٣] ، ففرنسا كانت تخشى أن يؤثر ذلك على مصالحها في بلاد الشام حيث كان تجارها وشركاتها الملاحية تدير النصيب الأكبر من تجارة أوروبا مع البلاد الواقعة في شرق البحر المتوسط ، ومن ناحية أخرى فهي تخشى أن يؤثر ذلك على تواجدها في جنوب البحر المتوسط حيث استطاعت أن تتخذ لها هناك ثلاث قواعد الأولى في الجزائر عام ١٢٤٥هـ / ١٨٣٠م والثانية في تونس عام ١٢٩٨هـ / ١٨٨١م والثالثة في المغرب عام ١٣٢٢هـ / ١٩٠٤م [٤] .

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ١٤٤ .

– تُستشف حنكة السلطان عبد الحميد السياسية من خلال هذه الكلمات التي دونها في مذكراته حيث تنبأ بقيام الحرب العالمية الأولى وأنّ ألمانيا ستكون ضد فرنسا وبريطانيا .

(٢) المصدر نفسه : ص ١٥٦ .

(٣) بيير رنوفان : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٦٣٤ .

(٤) ميم كامل أوكي : المرجع السابق ، ص ٣٠ .

كما قاسمت فرنسا تلك المخاوف بريطانيا حيث وجدت في هذه العلاقات الودية بين الدولة العثمانية وألمانيا خطراً يتهدد مصالحها في مصر وفي الخليج العربي ، كما يهدد قناة السويس الشريان المائي المؤدي إلى درّة التاج البريطاني الهند(١) .

وكذلك روسيا لم تكن في منأى عن تلك المخاوف ولا سيما بعد أن تمخض هذا الود العثماني الألماني الطاريء عن إنشاء خط حديد برلين – بغداد حيث رأت روسيا أنّ هذا الخط يشكل خطراً على الحدود الروسية العثمانية ، كما أنّه سوف يزيد من قدرة السلطان العثماني على تعبئة جيوشه ونقلها بسرعة للدفاع عن دولته(٢) .

وبالإضافة إلى الخطر الماثل في تواجد ألمانيا في المشرق العربي ، ظهرت ملامح خطر جديد يتهدد مصالح الدول الاستعمارية القديمة في هذه المنطقة، تمثل في قيام بعض العناصر العربية وخصوصاً في بلاد الشام بالدعوة إلى استقلال المشرق العربي – استقلالاً ذاتياً وليس استقلالاً تامًا لأنّ الدولة العثمانية كانت لا تزال تمثّل لهم الخلافة الإسلامية التي يحرصون على الارتباط بها – كما انضم إلى هذه العناصر دعاة الاستقلال ومناهضي الاستعمار في بقية البلاد العربية وسعوا إلى تشكيل جمعيات سياسية وثقافية(٣) .

---

(١) بيير رنوفان : المرجع السابق ، ج١ ص ٦٣٤ .

– يلماز اوزتونا : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٥٧ .

(٢) حسن صبري الخولي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١١١ .

(٣) المرجع نفسه : ص ١١٢ ، زين نور الدين زين : نشوء القومية العربية ، ص ٨١ .

وإزاء هذه الظروف السياسية المتأزمة ، راحت بريطانيا تبحث عن وسيلة تدرأ بها هذه الأخطار المحدقة بمصالحها المصيرية في البلاد العربية ، والعائقة لمشاريعها التوسعية المستقبلية ، ولكنها اقتنعت أن ذلك لن يتسنى لها إلاّ بتشكيل جبهة استعمارية موحدة تضم جميع الدول ذات المصالح المشتركة في البلاد العربية ، وهي بريطانيا ، فرنسا ، بلجيكا ، هولندا ، البرتغال ، إيطاليا ، إسبانيا[١] .

لذا قام رئيس الوزراء البريطاني (هنري كامبل بانرمان Henry Campbell - Bannerman) بتشكيل لجنة عليا مكونة من كبار أساتذة الجامعات في شتى المجالات مثل الاقتصاد والقانون والسياسة والجغرافيا والبترول والزراعة والتاريخ وشئون الاستعمار ، من جميع الدول الأعضاء في هذا الحلف ، واجتمعت هذه اللجنة في لندن عام ١٣٢٥هـ / ١٩٠٧م [٢] ، وافتتح رئيس الوزراء البريطاني كامل بانرمان هذا الإجتماع[٣] بخطابٍ وجهه إلى تلك اللجنة حدّد فيه مهمتها ، وممّا جاء فيه قوله : « ... أن الامبراطوريات تتكون وتتسع وتقوى ثم تستقر إلى حد ما ، ثم تنحل رويداً ، رويداً ، ثم تزول ، والتاريخ مليء بمثل هذه الأمثلة ، وهي لا تتغير بالنسبة لأية امبراطورية أو أُمة ، فهناك امبراطوريات روما وأثينا والهند والصين . وقبلها بابل وآشور والفراعنة وغيرها .. فهل يمكن الحصول على أسباب أو وسائل تحول دون سقوط الاستعمار الأوربي وانهياره ، أو تؤخر مصيره المظلم بعد أن

---

(١) صالح مسعود أبو يصير : المرجع السابق ، ص ٦٧ .

(٢) حسن صبري الخولي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١١٣ .

(٣) عُرف هذا الاجتماع في التاريخ الحديث باسم (مؤتمر بانرمان الاستعماري) أو (مخطط بانرمان الاستعماري) .

بلغ الآن الذروة ؟ وبعد أن أصبحت أوربا قارة قديمة استنفذت مواردها ، وشاخت معالمها ، بينما العالم الآخر لا يزال في شبابه يتطلع إلى مزيد من العلم والتنظيم والرفاهية .. ؟ »[١] .

وظلت هذه اللجنة عدة أشهر في دراسة وبحث لهذه القضية التي كُلفت بإيجاد حل لها ، ثم قدمت نتيجة أبحاثها في هيئة تقرير سري خاص إلى وزارة الخارجية البريطانية التي أحالته بدورها إلى وزارة المستعمرات[٢] .

وقد اشتمل هذا التقرير على استعراض للأخطار المحدقة بالاستعمار ، والأضرار التي ستحيق بالدول الاستعمارية إذا ما خرجت المستعمرات من قبضتها ، واستبعد التقرير ظهور هذه الأخطار في الهند والشرق الأقصى نظرًا لانشغالها بالمشاكل الدينية والعنصرية والطائفية ، وبعدها عن العالم المتحضر ، كما استبعد التقرير هذه الأخطار فيما أطلق عليه أفريقيا السوداء، وكذلك في المحيط الأطلسي والهادي لانعزالها عن العالم ولأسباب أخرى فصلّها التقرير[٣] .

ثم انتهى التقرير إلى نتيجة أجمع عليها المؤتمرون وهي أنّ مكمن الخطر الذي يتهدد الدول الاستعمارية ، هي منطقة البحر المتوسط باعتبار هذا البحر همزة الوصل بين الغرب والشرق ، وقد زاد من أهميته وجود قناة السويس شريان الحياة الأوربية[٤] . ولأنّ حوضه مهد الأديان وأعرق الحضارات ، وقد

---

(١) محمد كمال الدسوقي : السياسة الدولية وفلسطين ، ص ١٤٩ .

(٢) محمود صالح منسي : حركة اليقظة العربية في الشرق الآسيوي (القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م) ص ٢٦٦ .

(٣) حسّان حلاّق : المرجع السابق ، ص ٢٨٨ .

(٤) تم افتتاح قناة السويس عام ١٢٨٦هـ / ١٨٦٩م في عهد السلطان عبد العزيز .

- عبد العزيز الشناوي : قناة السويس والتيارات السياسية التي أحاطت بإنشائها ، ج ١ ، ص ١٥ .

أشار التقرير إلى أن الخطر يتركز في شواطئه الشرقية والجنوبية حيث تسكن الشعوب العربية التي يتوفر لها وحدة الدين واللغة والتاريخ والثقافة والآمال ، كما تتوفر لها كل مقومات التحرر والنهوض ، لنزعتها التحررية وثرواتها الطبيعية والبشرية المتزايدة[١] ، ولا سيما بعد أن ظهرت بين شعوبها يقظة سياسية ووعي قومي ضد التدخل الأجنبي ، ثم راح التقرير يطرح التساؤلات التالية :

- ماذا سوف يحدث لو انتشر التعليم وعمت الثقافة بين شعوب هذه المنطقة ؟
- ماذا سوف يحدث لو دخلت وسائل التكنولوجية الحديثة إلى هذه المنطقة ؟
- ماذا سوف يحدث لو توحدت فعلاً شعوب هذه المنطقة وسعت تجاه تحقيق هدف معين ؟ [٢].

ثم يُجيب التقرير على هذه التساؤلات ، قائلاً : إذا حدث ما سلف من احتمالات فستكون تلك هي الضربة القاضية للاستعمار الغربي وعندها سيُقضى على آماله في الخلود ، ثم يضمحل وينهار كما انهارت إمبراطوريات الرومان والإغريق وغيرهم [٣].

ثم ينتهي التقرير إلى وصف العلاج الناجع لمقاومة ودرء هذا الخطر الداهم على النحو التالي :

أولاً – على الدول الاستعمارية ذات المصالح في المنطقة المذكورة العمل على استمرار تجزئتها وتأخرها ، وعلى إبقاء شعبها على ما هو عليه من جهل وتفكك .

---

(١) رفيق النتشة : الاستعمار وفلسطين ، ص ١٩٣ .

(٢) أحمد شلبي : المرجع السابق ، ص ١٠٧ .

(٣) حسن صبري الخولي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١١٤ .

ثانيًا – الحيلولة دون اتحاد هذه الشعوب أو ارتباطها بأي نوع من أنواع الارتباط الروحي أو الفكري أو التاريخي .

ثالثًا – ضرورة العمل على فصل الجزء الافريقي من هذه المنطقة عن جزئها الآسيوي واقترحت اللجنة لذلك إقامة حاجز بشري قوي وغريب على الجسر البري الذي يربط آسيا بأفريقيا، ويربطهما معاً بالبحر الأبيض المتوسط، بحيث يشكل في هذه المنطقة وعلى مقربة من قناة السويس قوة صديقة للاستعمار وعدوة لسكان المنطقة (١).

ونلمح من خلال سياق هذه التوصيات أنها قد تضمنت عدة أمور في غاية الخطورة ليس على البلاد العربية فحسب ، بل على الدول الإسلامية عامة يمكن أن نترجمها في النقاط التالية :

١ – العمل على سلخ سيناء وفلسطين – باعتبارهما المنطقتين الوحيدتين اللتين تفصلان آسيا عن افريقيا – عن سائر الوطن العربي ، لإقامة وتد استعماري عليهما ، يعمل لخدمة الاستعمار واستمراره في المنطقة وفي العالم عامة .

٢ – أن هذه التوصيات قد دعت إلى نمط جديد من الاستعمار وهو استعمار الإبادة أو التحويل أي تحويل فلسطين من بلد عربي يدين بالإسلام إلى بلد موالٍ للغرب عدو للعروبة والإسلام .

٣ – تضمنت هذه التوصيات دعوة غير مصرح بها إلى حتمية تصفية الدولة العثمانية ، لأنه لن يتيسر لهم إقامة ذلك الحاجز البشري الغريب الموالي للاستعمار – الدولة اليهودية – في حال استمرار وجودها .

---

(١) محمد كمال الدسوقي : السياسة الدولية وفلسطين ، ص ١٥٠ .

– إسماعيل ياغي : الجذور التاريخية للقضية الفلسطينية ، ص ٥٤.

– صالح مسعود أبو يصير : المرجع السابق ، ص ٦٧ .

٤ - لم يكتف المؤتمرون بالإيصاء بضرورة زراعة ذلك الكيان الخبيث في قلب العالم الإسلامي بل رأوا أنه لضمانة استمرارالنفوذ الاستعماري في البلاد العربية فلا بد من الأخذ بأسباب التقسيم والتفكك والتناحر بين أبناء تلك البلاد .

هذا وقد اتخذت الدبلوماسية الغربية ولا سيما البريطانية هذا التقرير بمثابة ورقة عمل سعت حريصة على إنفاذ ما جاء فيها ، لذا راحوا يبحثون عن وسيلة لإقامة ذلك الجسر الاستعماري الذي أوصى التقرير بضرورة إقامته ، فهداهم تفكيرهم إلى استغلال الدين لتحقيق هذا الغرض ، ولعلّ المسيحية خطرت على بالهم ، ففي فلسطين وُلِدَ المسيح وبُعث ، وفيها بيت المقدس مزار المسيحيين ، إلا أنهم رأوا أنّ الأخذ بها سيحمل في طياته دواعي الفشل ، لأنّه سوف يبعث في الذاكرة ما آلت إليه الحروب الصليبية[١] .

وأخيراً وجدوا ضالتهم المنشودة في الصهيونية - الأداة الاستعمارية القديمة - حيث يمكن استغلال ما قامت عليه من ادعاء حقوقٍ تاريخية لليهود في فلسطين ، كما يمكن أن يغلفوا أهدافهم الاستعمارية برداء من الإنسانية المشفقة على أولئك اليهود المشردين المضطهدين[٢] .

ومن هنا يمكننا القول بأنّ فكرة استغلال الدول الاستعمارية الأوربية لأحلام وأطماع اليهود في العودة إلى فلسطين ، لتنفيذ أغراضهم الاستعمارية، والتعاون معهم من أجل إقامة كيان يهودي في تلك المنطقة ، يكون بمثابة رأس رمح توجهه تلك الدول إلى صدر العالم الإسلامي - وهي السياسة التي تنبه لها أسلافهم قديماً فورثوها عنهم وعملوا بها - أصبحت تلك الفكرة في أعقاب

---

(١) أحمد شلبي : المرجع السابق ، ص ١٠٩ .

(٢) رفيق النتشة : الإستعمار وفلسطين ، ص ٣٥١ .

مؤتمر كامبل بانرمان نمطًا سياسيّاً حتميّاً رأت تلك الدول أن لا مناص لها عن اتباعه لضمان سلامة مصالحها في المنطقة ، وبالتالي فقد أخذ العون الذي تقدمه تلك الدول للصهيونية طابع العمل الجاد الحثيث الذي تمليه المصالح المصيرية .

ولعل من أهم الأسباب التي شجعت الدول الاستعمارية وبريطانيا على وجه الخصوص على تبني هذه السياسة أنّها وجدت لها تجاوبًا ملحوظًا عند اليهود بل قد يكون بعض الساسة اليهود هم الأسبق في عرض خدمات اليهود على القوى الاستعمارية(١) . فقد كتب هرتزل قبل وفاته بفترة قصيرة إلى (اللورد سالزبوري Salisbury) (٢) رئيس الوزراء البريطاني قائلاً : « ... هذا عامل يجدر بالسياسة الإنجليزية في الشرق أن تقدره حق قدره عامل جديد بكل تأكيد ... أن هناك طريقة لتصحيح المالية التركية وبالتالي المحافظة على التوازن الدولي لمدة أطول ولإيجاد طريق إلى الهند في الوقت ذاته – وهو الطريق الأقصر بالنسبة إلى إنجلترة يجري هذادون أن تخسر إنجلترة قرشًا واحدًا ودون أن تلزم نفسها علنًا بأي شيء ، أقصد بهذه الطريقة إنشاء دولة يهودية في فلسطين لها استقلال ذاتي »(٣) .

كما قدم هرتزل إلى الحكومة الإنجليزية مذكرة جاء فيها قوله:« ... سيكون لإنجلترة عشرة ملايين عميل من أجل عظمتها وسيطرتها وهذا الولاء لا بد أن

---

(١) المرجع نفسه : ص ٢٨٧ .

(٢) سالزبوري الثالث : سياسي بريطاني شغل منصب رئاسة الوزراء في الحكومة البريطانية لفترتين الأولى بين عامي ١٣٠٢ – ١٣٠٩ هـ / ١٨٨٥ – ١٨٩٢م ، والثانية بين عامي ١٣١٢ – ١٣٢٠هـ / ١٨٩٥ – ١٩٠٢م . وفي بداية الفترة الثانية جمع بين وزارة الخارجية ورئاسة الوزراء .

– حسن صبري الخولي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٨٦ .

(٣) مذكرات هرتزل : ص ٥٠ .

يكون على الصعيدين السياسي والاقتصادي ... لقد سبقت إنجلترة غيرها من البلدان في إيجاد وسائل المواصلات لتوسيع وتقوية مستعمراتها وكذلك فإنّ الفوائد تعود على من يقوم بأعمال لا يفطن إليها غيره . أملنا أن تفطن الحكومة الإنجليزية إلى فوائد كسب الشعب اليهودي » [١].

كما عرض الخدمات اليهودية على القوى الإستعمارية زعيم صهيوني آخر هو حاييم وايزمان Chaim Weizmann في رسالة بعث بها إلى الحكومة الإنجليزية يقول فيها : « ... في حالة وقوع فلسطين في دائرة النفوذ البريطاني وفي حالة تشجيع بريطانيا استيطان اليهود هناك ... فستستطيع خلال عشرين أو ثلاثين سنة من نقل مليون يهودي أو أكثر إليها ، فيطورون البلاد ويشكلون حارسًا فعالاً يحمي قناة السويس »[٢] .

ولما أصبحت القوى الإستعمارية الأوربية أكثر اقتناعًا بجدوى هذه السياسة ، أضحت تشعر بأن ما تبذله من عون وحماية لليهود والذي تمثل في تشجيع الهجرة اليهودية والضغط على السلطات العثمانية لتخفيف قوانين إقامة اليهود في فلسطين ، والمساهمة الفاعلة في بناء المستعمرات واستغلال ما لهم من امتيازات لحماية اليهود[٣] ، كل ذلك لم يعد كافيًا ، سيما وقد لمست صلابة في موقف ذلك الحارس اليقظ (السلطان عبد الحميد) الذي وقف بالمرصاد يتصدى لكل المحاولات ويحبط جميع المخططات التي بذلوها من أجل الوصول إلى بغيتهم[٤] ، كما باءت بالفشل جميع سبل الإغراء والإقناع والتحايل التي

---

(١) المصدر نفسه : ص ٢٥٠ .

(٢) رفيق النتشة : الاستعمار وفلسطين ، ص ٢٨٧ ، نقلاً عن حاييم وايزمان : التجربة والخطأ ، ص ١٤٩.

(٣) ج . م . ن . جفريز : المرجع السابق ، ص ٨٨ .

– حسان حلاق : المرجع السابق ، ص ٩٨ .

(٤) رفيق النتشة : السلطان عبد الحميد وفلسطين ، ص ١٦٩ .

اتبعها معه رسول الصهيونية هرتزل[١] ، الذي خرج في أعقاب فشل مساعيه مع السلطان يجر أذيال الخيبة ويقر بالنتيجة التي عبّر عنها بقوله : « ظننت بل توقعت أن السلطان لن يسمح لي بالسفر، إلا أنّ الأمور سارت باتجاه مختلف. كل شيء يسير معه بشكل مختلف عمّا يُتوقع . ولعلني أحصل يومًا ما على الميثاق في لحظة غير متوقعة أبدًا ، إذا كنت سأحصل عليه أي بشرط ألاّ نحصل عليه إلا بعد تقسيم الدول لتركية »[٢] .

ولم يكن زعماء الاستعمار أقل اقتناعًا من زعيم الصهيونية بهذه النتيجة ، وهي استحالة تنفيذ مخططاتهم في فلسطين مع استمرار بقاء السلطة في الدولة العثمانية في يد الحكام العثمانيين ، لأنهم سيظلون عقبة أبدية في طريقهم[٣] . لذا فقد اتفق الحليفان – المستعمرون والصهاينة – على تعطيل دور الحكام العثمانيين ونقل السلطة في الدولة الإسلامية العثمانية إلى أيدي فئة تكون تحت وصايتهم وبمثابة آلة في أيديهم ، وذلك تمهيدًا للقضاء عليها نهائيًا، ليتسنى لهم حينئذٍ تحقيق مآربهم[٤] .

كما أنّهم كانوا يدركون أنّ التهجم على الدولة العثمانية مباشرة سوف يثير عليهم غضبة المسلمين في كافة بقاع الأرض ، لذا فقد اتجهوا نحو القضاء عليها بخطى وئيدة وسياسة تدريجية جندوا لها كل طاقاتهم وإمكاناتهم ، وفتحوا العديد من الجبهات داخل الدولة العثمانية وخارجها[٥] .

---

(١) اورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ٢٥١ .

(٢) مذكرات هرتزل : ص ٢٠٤ .

(٣) حسان حلاق : المرجع السابق ، ص ٢٨١ .

(٤) جواد رفعت آتلخان : الإسلام وبنو إسرائيل ، ص ٢٠٥ .

(٥) إسماعيل الكيلاني : المرجع السابق ، ص ص ١٨٨ – ١٨٩ .

وقد كانت سياسة تحريض الأقليات غير المسلمة التي تعيش في كنف الخلافة العثمانية على الثورة والمطالبة بالانفصال والحكم الذاتي ، من أخطر خيوط المؤامرة التي حاكتها القوى الاستعمارية الغربية وربيفتها الصهيونية[١] ، فقد دأبوا على تدبير الحوادث والمؤامرات التي هيأت لهم فرصة التدخل في شؤون الدولة العثمانية الداخلية بحجة حماية المسيحيين وإصلاح أحوالهم ، في حين كانت تسعى لتغذية الروح الانفصالية عن الحكم العثماني[٢] .

ولعلنا نجد في أحداث فتنة الأرمن – إحدى الأقليات المسيحية في الدولة العثمانية – التي أضرمت نارها في مطلع القرن الرابع عشر الهجري الموافق العشرين ميلادي ، خير مثال يتجلى فيه هذا الدور ، فقد عاش الأرمن في الدولة العثمانية حتى قيام هذه الفتنة ، في رفاهية وأمان ومساواة حيث شملتهم سماحة الحكم العثماني المستمدة من الشريعة الإسلامية[٣] ، وكان الكثير منهم يعمل في أجهزة الدولة ، بل إنّ منهم من وصل إلى مواقع مهمة في الدولة فكان منهم الوزراء والنواب والأعيان ، وكان العثمانيون يكنون لهذا الشعب كل تقدير واحترام[٤] .

ولكن تبدلت الأوضاع عندما وقع هذا الشعب في شراك مخططات الدول الاستعمارية التي أرادت أن تتخذه أداة لتحقيق أطماعها المختلفة ، وذلك حين قامت تلك الدول بتحريض هذا الشعب على الثورة ضدالحكم العثماني والمطالبة

---

(١) مصطفى طوران : أسرار الإنقلاب العثماني . تعريب : كمال خوجه ، الطبعة الرابعة (القاهرة ، حلب ، بيروت : دار السلام للطباعة والنشر ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م) ص ص ٤٥ – ٤٦ .

(٢) إسماعيل سرهنك : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٣٥٩ .

(٣) اورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ص ٢٠٩ – ٢١١ .

(٤) يلماز أوزتونا : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٢٩ .

بالاستقلال[١] ، عن طريق جواسيسها الذين تسللوا بين صفوفهم ونجحوا في بث روح الثورة في الشباب الأرمني[٢] .

وقد شكل الفرنسيون والإنجليز أول جمعية أرمينية إرهابية في باريس بالتعاون مع يهود الدونمة من أعضاء (تركيا الفتاة)[٣] وكان لهذه الجمعية وغيرها من الجمعيات التي أنشئت في العديد من الدول الأوربية مثل روسيا وسويسرا ، دور كبير في تدبير المؤامرات وإثارة النزاعات بين الأرمن الأرثوذكس والكاثوليك من جهة ، وبين الأرمن والمسلمين من جهة أخرى ومن ثم قيام العديد من المذابح بين هذه الأطراف في مناطق مختلفة من الدولة العثمانية[٤] .

كما كان لأعمال الجاسوسية اليهودية دور كبير في تأجيج نار هذه الفتنة، وكان من أهم وسائلهم في ذلك إطلاق الإشاعات المسيئة للأرمن ، وتزويد الحكومة العثمانية بمعلومات مضلِّلة ، بغية نشر الشقاق وزرع بذور الفرقة بين الدولة وتلك الطائفة التابعة لها[٥] .

وقد كشف السلطان عبد الحميد في مذكراته عن حقيقة هذه الفتنة ودور الدول الاستعمارية في إشعالها وذلك في قوله : « لم تكن المشكلة الأرمينية

---

(١) بيير رنوفان : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٧٠٤ .

(٢) اورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ٢١٨ .

(٣) محمود ثابت الشاذلي : المسألة الشرقية ، الطبعة الأولى (القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م) ص ١٣٩ .

(٤) محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص ص ٢٩٩ - ٣٠٢ .

(٥) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ، ص ص ١٨ - ١٩ .

- س . ناجي : المرجع السابق ، ص ص ٣١٤ - ٣١٥ .

مشكلة الأرمن أنفسهم وأستطيع القول – وأنا مرتاح القلب – : إن الأرمن أفضل من يتبنون العثمانية وأفضل من يمثلونها ، لقد خدموا حضارتنا وعملوا على الحفاظ على دولتنا ... لم تكن للأرمن منا شكوى قط ولكن الروس – لكي يصلوا إلى آمالهم في بلغاريا ولكي يقطفوا من الإمبراطورية العثمانية قطعة جديدة – لفوا الأرمن حول أصبعهم احتواءً . أرسلوا جواسيسهم بصحبة قساوستهم ومعلميهم إلى الأرمن فألبوهم علينا وانغمس هؤلاء في المغامرة ... لم يمض زمن حتى اشترك الإنجليز والفرنسيون في هذا . كانوا يريدون أن يصبحوا هم أيضًا أصحاب كلمة في القطعة الجديدة التي ستقتطف من الدولة العثمانية »[1] كما يقول السلطان في موضع آخر : « ... إنجلترا بذلت أقصى ما في وسعها بعد ذلك بسنوات لإثارة المسألة الأرمينية ، لكي تبعد عن الأذهان أعمال تدخلها في مصر ، وكانت تعمل جاهدة على تركيز انتباه العالم على الدولة العثمانية ... كانت المسألة الأرمينية مقلقة للدولة العثمانية لأن هذه المسألة فتحت الباب للدول الكبرى للتدخل في شؤون بلادنا حتى السنوات الأخيرة »[2] .

وكذلك كانت سياسة بعث القوميات وإثارة النعرات الإقليمية في الدولة العثمانية أحد الخطوط العريضة في المؤامرة على إسقاط الخلافة ، حيث لعبت دوائر الاستعمار من الخارج بالتعاون مع يهود الدونمة في داخل الدولة العثمانية دورًا بارزًا في إثارة الجنسيات المختلفة التي تعيش في كنف الدولة العثمانية وإحياء النعرات القديمة التي أماتها الإسلام وظلّت لقرون عديدة دولة واحدة متماسكة ذات صبغة إسلامية[3] . وكان من أبرز تلك القوميات التي

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ص ١٢٣ – ١٢٤ .

(٢) المصدر نفسه : ص ص ١٢٧ – ١٢٨ .

(٣) إسماعيل الكيلاني : المرجع السابق ، ص ص ١٨٩ – ١٩٠ .

ضربوا على أوتارها القومية التركية والقومية العربية اللتين هما عماد الدولة العثمانية الإسلامية ، فظهرت القومية الطورانية في تركيا والقومية العربية في سائر البلاد العربية[١] .

واستطاع يهود الدونمة وعملاء الاستعمار التسلل إلى صفوف الحركة القومية التركية ، وأصبحوا أعضاء بارزين في المنظمات السرية التي انبثقت عنها مثل (تركية الفتاة) و (الاتحاد والترقي) والتي اتخذت من مدينة سلانيك وكراً رئيساً لمؤامراتهم ودسائسهم ، لأنّ معظم سكانها من اليهود والمسيحيين الذين يحظون بالحماية الأجنبية - بحكم معاهدات الامتياز - التي تمنحهم الحصانة ضد تفتيش منازلهم أو القبض عليهم أو محاكمتهم أمام المحاكم العثمانية لأنّ لهم محاكمهم القنصلية الخاصة وبالتالي فقد كانت بيوتات هؤلاء اليهود والمسيحيين حصناً آمناً لأولئك الخارجين عن طاعة السلطات العثمانية[٢] .

وقد صرح أحد زعماء الإستعمار وهو اللورد كرومر Cromer في مذكراته بعمالة عصابة (تركيا الفتاة) للدوائر الاستعمارية حيث يقول : « ... إنّ حزب تركيا الفتاة مديون لإنجلترا ديناً كبيراً تستحق عليه جميل الشكر لأجل الحماية التي تمتع بها كثيرون من رجاله »[٣] .

كما كانت المحافل الماسونية - وهي إحدى أدوات الصهيونية - المنتشرة في سلانيك والمرتبطة بالمحافل الماسونية في إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا

---

(١) زين نور الدين زين : نشوء القومية العربية ، ص ١٣١ .

(٢) هـ . س . أرمسترونج : الذئب الأغبر - مصطفى كمال ، (القاهرة : دار الهلال ، ١٣٧١هـ / ١٩٥٢م) ص ٢٩ .

(٣) محمود الشاذلي : المرجع السابق ، ص ١٨٢ ، نقلاً عن مذكرات كرومر ، ج ٢ ص ٤٦ .

-والتي تحض بالحماية الأجنبية أيضًا- مركزًا آمنًا للنشاط السياسي المناوئ للسلطات العثمانية[١] ، فقد سهلت لتلك العناصر المارقة الاتصال بأنصارهم في الدول الأوربية ، ولم يقتصر الأمر على ذلك الحد بل قامت المحافل الأوربية بتقديم العون المالي والسياسي والإعلامي لهذه المنظمات[٢] . كما اعتمد الاتحاديون على المحافل الماسونية الأوربية في طبع المنشورات والصحف التي تخدم أهدافهم ، والتي كان يصعب عليهم طباعتها في داخل البلاد بسبب صرامة الرقابة على المطابع ، وكانت السفارات الأوربية بدورها تسهل عملية إدخال هذه المنشورات لما تتمتع به من حصانة[٣] .

ولم يكن السلطان عبد الحميد غافلاً عن تلك المؤامرات فقد جاء في مذكراته : « كما استغل الإنجليز غفلة أعضاء (تركيا الفتاة) عن طريق المحافل الماسونية ، بدأ الألمان يفعلون هذا مع الفريق الآخر من هؤلاء الأعضاء وعن طريق المحافل الماسونية أيضًا » ويردف السلطان « كان الإنجليز يثيرون علي اتحادي مناستر ويثير الألمان علي اتحادي سالونيك ، كما يعملون على قيام انقلاب للاستيلاء على الدولة من الداخل » [٤].

هذا وقد أثبتت الوثائق ان الثورة المعروفة بحادثة ٣١ مارت[٥] التي اُتُّخذت ذريعة لعزل السلطان عبد الحميد الثاني في عام ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م كانت من

---

(١) ارنست . ا . رامزور : تركية الفتاة وثورة ١٩٠٨م ، تعريب : صالح العلي (بيروت : دار مكتبة الحياة، ١٣٧٩هـ / ١٩٦٠ م) ص ص ١٢٣ - ١٢٨ .

(٢) أحمد نوري النعيمي : اليهود والدولة العثمانية ، ص ٢٢١ .

(٣) حسان حلاق : المرجع السابق ، ص ٢٩٥ .

(٤) مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ١٥٠ .

(٥) ٣١ مارت هو تاريخ هذه الحادثة بالتقويم الرومي الذي يوافق ٢٢ ربيع الأول عام ١٣٢٧هـ / ١٣ إبريل ١٩٠٩م .

تدبير وكالة الاستخبارات الإنجليزية[١] .

وكما سعت الدوائر الإستعمارية لتغذية القومية التركية فقد راحت تعطي العرب مبرراً للقيام بدعوة للقومية العربية[٢] ، حيث أوعزت لإرسالياتها التنصيرية في البلاد العربية ، وإلى أبناء جلدتهم من نصارى العرب بالمناداة بهذه الأفكار. فلم تتوان تلك الأدوات الاستعمارية عن تلبية النداء ، متبعين في ذلك أساليب شتى من أهمها العمل على إبراز مثالب وعيوب الحكم العثماني، ودغدغة العواطف العربية بنشر الأشعار والأدبيات الحماسية التي تتغنى بأمجاد العرب[٣] .

وقد تمكنوا – بتلك الوسائل – من تحقيق مرادهم حيث وقع كثير من العرب في شراك هذه الأحبولة ، فتطورت تلك الدعوة وأخذت شكل أحزاب ومنظمات ، وكانت دور القناصل الأوربيين ملتقىً آمنًا لدعاة القومية العربية[٤].

ولم تتوقف مساعي أعداء الإسلام عند هذا الحد بل نجدهم يستمرون في تعميق الفجوة بين العرب والترك ويعملون بكل طاقاتهم لتأجيج نار الصراع بينهم[٥] ، ومضيًا في توسيع دائرة هذه المؤامرة راحت قوى الاستعمار تلوح للعرب بفكرة إحياء الخلافة العربية ، وقد وجهوا تلك الخطة نحو شريف مكة

---

(١) ضبطت هذه الوثائق في أعقاب الثورة في بيت شخص اسمه سعيد باشا القبرصي كان معروفًا بعمالته للإنجليز .

- مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ، ص ٩٦ .

(٢) إسماعيل الكيلاني : المرجع السابق ، ص ١٨٩ .

(٣) ج . م . ن . جفريز : المرجع السابق ، ج١ ، ص ص ٦٤ – ٦٥ .

- جورج انطونيوس : المرجع السابق ، ص ١٠٢ .

- محمد عبد الرحمن برج : المرجع السابق ، ص ص ٧٩ – ٨٢ .

(٤) عبدالله التل : الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام ، ص ص ٨٠ – ٨٢ .

(٥) أنور الجندي : المرجع السابق ، ص ١٢٩ .

(الشريف حسين بن علي) [١] وذلك لعدة اعتبارات ، من أهمها إشرافه على الأماكن الإسلامية المقدسة ، وانتمائه للدوحة النبوية الشريفة . وكان غرض الدوائر الاستعمارية من بعث فكرة الخلافة العربية تجزئة الولاء في العالم الإسلامي بين زعامتين إسلاميتين ، وإحداث صدعٍ في الدولة الإسلامية وإضعاف مركز الخليفة العثماني[٢] .

وقد تولت بريطانيا تنفيذ هذا المخطط حيث أخذت تستميل الشريف حسين بن علي إلى جانبها وتزين له المناداة بالخلافة لنفسه ، وتعده بالدعم والمساندة ، فانخدع الشريف بتلك الوعود ، وتحقق المخطط الاستعماري بقيام ما عرف بالثورة العربية التي قادها الشريف حسين ضد الدولة العثمانية في عام ١٣٣٤هـ / ١٩١٦م إبان الحرب العالمية الأولى ، وما ترتب عليها من انضمام العرب إلى جانب بريطانيا وحلفائها في تلك الحرب في مواجهة انضمام الدول العثمانية إلى جانب دول المحور ، وكان لهذا المخطط الاستعماري أثره الفاعل في تمزيق وحدة الدولة العثمانية وهزيمتها وانتصار بريطانيا وحلفائها ومن ثم تمزيق أشلاء الدولة العثمانية بينهم[٣] .

---

(١) الحسين بن علي بن محمد بن عون من أحفاد أبي نمي بن بركات الحسني الهاشمي ، ولد في استانبول عام ١٢٧٠هـ / ١٨٥٤م حيث كان أبوه منفيًا بها ثم انتقل معه إلى مكة وعمره ثلاث سنوات ونشأ بها ، وفي عام ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م عينه جماعة الاتحاد والترقي – الذين سيطروا على مقاليد حكم الدولة العثمانية بعد الانقلاب الدستوري – أميرًا على مكة .

– خير الدين الزركلي : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٤٩ .

(٢) زين نور الدين زين : نشوء القومية العربية ، ص ص ١١٦ – ١١٧ .

– محمود صالح منسي : المرجع السابق ، ص ٢٦٦ .

(٣) خيريه قاسمية : الحكومة العربية في دمشق بين ١٩١٨ – ١٩٢٠م ، الطبعة الأولى (القاهرة : دار المعارف ، ١٣٩٠هـ / ١٩٧١م) ص ص ٢٤ – ٣٩ .

وبهذا أصبحت الظروف مواتية للدول الاستعمارية لإقامة الحاجز البشري الذي يفصل بين أفريقيا وآسيا (الدولة اليهودية) الذي أوصى به مؤتمر كامبل بانرمان الاستعماري . وستتبين طبيعة وأبعاد التعاون بين قوى الاستعمار والصهيونية بصورة أكثر تفصيلاً في الفصول اللاحقة إن شاء اللّه .

هذا وقد لاحظ البحث من خلال تتبعه لهذا الموضوع أن هناك اختلافًا كبيرًا في وجهات نظر المؤرخين الذين تطرقوا لهذا الموضوع حول طبيعة هذا التعاون ، فطائفة منهم أرجعت هذا التعاون إلى وضع اليهود في أوروبا وسيطرتهم على الحياة السياسية والاقتصادية والأعلام، وأظهروا المستعمرين في مظهر المغلوب على أمره بينما الفريق الآخر على النقيض تمامًا ، فهو يرى أنّ الحركة الصهيونية وفكرة إقامة الدولة اليهودية كلها من صنع الدوائر الاستعمارية وذلك لخدمة أغراضها الاستعمارية ، وقد تطرف هذا الفريق في التركيز على دور المستعمرين في هذا الصدد وتهميش دور اليهود حيث صورهم في صورة المطية المغلوبة على أمرها . كما مال أصحاب هذا الرأي إلى استبعاد أيٍّ أثر لما عُرف بـ (بروتوكولات حكماء صهيون)[١] بل وذهبوا إلى نسبتها إلى المستعمرين أيضًا ، مبرّرين ذلك بأنّهم -أي المستعمرين- يريدون صرف الأنظار عنهم .

وقلة من المؤرخين هم الذين رجحوا وجود نوع من التوازن في المصالح بين اليهود والدول الاستعمارية أوجبت هذا التعاون بينهما وجعلتهما يعملان بنفس القدر من الحماس من أجل القضاء على الدولة العثمانية وإقامة الدولة اليهودية .

وهذا هو الرأي الذي يميل إليه البحث وحاول إثباته من خلال عرض هذا الموضوع .

---

(١) سبق التطرق بتوسع لموضوع (البروتوكولات) مع ذكر القرائن التي تثبت نسبتها لليهود . انظر المبحث الثالث من الفصل الأول .

المبحث الثاني

تشويه سمعة السلطان عبد الحميد الثاني

عندما أحس اليهود بأنّ كل مساعيهم لإقناع الساسة العثمانيين بالسماح لهم باستيطان فلسطين قد أخفقت ، وأنّهم فشلوا في زعزعة صلابة موقفهم ، أقبلوا على قومهم وحلفائهم وهم يجرون أذيال الخيبة ويجترون غصص الحقد ومرارة الغضب ، واستنفروهم للانتقام من العثمانيين ، وللعمل على إزاحتهم من طريقهم ، كي يتسنى لهم تحقيق أطماعهم ، ومن هنا بدأت الصهيونية العالمية وكل القوى الشريرة التي تربطها بها المصالح المشتركة تتغلغل في كافة المجالات والأوساط التي يمكن أن يكون لها دور في الإجهاز على الدولة العثمانية ورجالاتها ، فاستغلوا الجمعيات السرية ، وشجعوا الحركات القومية ودبروا الثورات والأزمات السياسية والضائقات المالية[١] .

وقد كان من أفتك الأسلحة التي استخدمتها الصهيونية وحلفاؤها للنيل من الدولة العثمانية ، استغلال الدعاية الإعلامية اليهودية المغرضة في تشويه سمعة رجالات الدولة العثمانية[٢] وإظهارهم بمظهرالحكام الرجعيّين المستبدّين ، المستهترين بمصالح رعاياهم المنغمسين في الفساد والملذات ، ولم يكن ذلك التهجم موجهًا إلى شخصيات معينة ؛ بل كان عامّاً شمل جميع رجالات الدولة العثمانية، إلاّ أنّ ذلك التهجم كان أكثر ضراوة في تناوله للشخصيات العثمانية التي لم تستطع أحابيل اليهود التأثير عليهم[٣] .

---

(١) عبدالله التل : الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام ، ص ص ٧٦ – ٨٠ .

(٢) مما ساعد اليهود على تنفيذ هذه السياسة انهم كانوا يسيطرون على الكثير من الصحف ودور النشر في داخل الدولة العثمانية وخارجها ، وقد سبقت الإشارة إلى أسماء العديد من هذه الصحف . انظر ص ص ٩٢ – ٩٣ .

(٣) زياد أبو غنيمة : المرجع السابق ، ص ٥٠ .

لذا فقد كان السلطان عبد الحميد الثاني رحمه الله صاحب النصيب الأوفر من تلك الدعاية الإعلامية المغرضة ، وليس ذلك بغريب وهو الذي وقف كالطود حائلاً بين اليهود وأطماعهم في فلسطين ، مستعصياً على محاولاتهم المكرورة لإغرائه[١] .

لذلك فقد تبنت الأبواق التي سيطر عليها اليهود وحلفاؤهم حركة تشهير واسعة النطاق بهذا السلطان وحكمه ، فلم تترك عيبًا إلاّ وألصقته به ، حتى أصبح شخصه رمزًا للجهل والظلم وإراقة الدماء ، والانغماس في الملذات ، وحكمه عنوان للاستبداد والتخلف والرجعية والفقر ، وأخذوا يكيلون له التهم ويتهجمون على أعماله وتصرفاته ، حتى لم يبق قرار اتخذه إلاّ وأثيرت حوله الشبهات ولا موضوع تبنّاه إلاّ وانتقدوه بكل ما أوتوا من سلاطة لسان ووقاحة بيان[٢] .

ولما كانت الدعاية اليهودية ماهرة في قلب الحقائق وإبراز المساوىء وطمس المحاسن ، فقد نجحت في ترويج تلك الإشاعات بتكرار وإلحاح حتى صارت وكأنها حقائق ومسلّمات[٣] .

وقد كان هدف هذه الحملة الإعلامية اليهودية الشرسة ضد رجالات الدولة العثمانية عامة والسلطان عبد الحميد خاصة ، الحط من قدرهم ومسخ صورتهم للتمهيد وتهيئة الرأي العام لتقبل فكرة التخلص من الحكام العثمانيين ليسهل عليهم بعدئذٍ الانتقال إلى الخطوة التالية وهي القضاء على الدولة

---

(١) جواد آتلخان : الإسلام وبنو إسرائيل ، ص ٢٠٩ .

(٢) إسماعيل سرهنك : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٧ .

– محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٧٧٣ .

(٣) مصطفى صبري : المصدر السابق ، ص ٩٦ .

الإسلامية ذاتها[1] .

ورغم فداحة تلك الافتراءات التي صدرت عن اليهود في حق الحكام العثمانيين – الذين يشهد التاريخ بأنهم قد أحسنوا إليهم[2] – فإنه لا يستغرب ذلك من قوم فضح الله عز وجل نياتهم تجاه الإسلام والمسلمين في قوله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[3].

ونحن هنا لا ندّعي بأنّ السلطان عبد الحميد كان معصوماً من الخطأ ولا نحاول أن ننسب إليه فضلاً ليس له ، ولكن نقر من خلال استعراضنا لهذا الموضوع عدة حقائق لا يمكن تجاهلها وهي :

أولاً : أنّه في كل عصور التاريخ ، كان لكل دولة ولكل حكم ولكل حاكم أيًا كان مزايا ومثالب .

ثانيًا : أنّ القادة والزعماء مهما أخلصوا لأوطانهم ، ومهما بلغت مواهبهم وقدراتهم ، يظلون مقيدين بالحركة داخل الإطار السياسي والاقتصادي والاجتماعي والدولي الذي وجدوا فيه .

ثالثًا : أنّ السلطان عبد الحميد قد أسدى للعالم الإسلامي خدمات جليلة لا بد من أن تُذكر فتُشكر .

---

(١) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٧٧٢ .
- زياد أبو غنيمة : المرجع السابق ، ص ٥٠ .

(٢) برنارد لويس : المرجع السابق ، ص ١٣٥ .
- إيلان هاليفي : المرجع السابق ، ص ١٠٧ .

(٣) آل عمران : الآية ١١٨ .

رابعًا : أنّ هذه الشبهات والادعاءات التي أُثيرت حول شخصية السلطان عبد الحميد وحكمه ، والتي كان لليهود وأعوانهم اليد الطولى في ترويجها ، لم تقم على بيّنة ولم تستند على وقائع ، وإنّما كانت تُستقى من نبع واحد هو نبع العداوة والبغضاء والكيد .

وبعد فسوف نحاول مناقشة بعض الافتراءات والشبهات التي أُثيرت حول السلطان عبد الحميد ، لا لشخصه فقط ؛ ولكن لانطباع صورته في الأذهان ممثِّلاً للخلافة الإسلامية في آخر مراحلها :

أ - اتهامه بالاستبداد :

الحق أنّه باستطاعة أيّ دارس منصف لفترة حكم السلطان عبد الحميد في ضوء المعطيات العلمية الراهنة البعيدة عن العصبية والتعصب ، أنْ يثبت كثيرًا من الأغاليط التي نُسِجت خيوطها حول هذا السلطان المُفترى عليه - ومنها كونه مستبِدًا . فابتداءً من نظرة واقعية منصفة للظروف التي كانت تمر بها الدولة العثمانية عندما تبوأ السلطان عبد الحميد سدّة حكمها ، حيث كانت الدولة تمر بمرحلة من أصعب مراحلها والخلل قد استشرى في كل ركن من أركانها[١] ، فبالإضافة إلى جهاز إداري في غاية الفساد يسيطر عليه الماسون والدونمة ، كان هناك نزاع بين القوميات تغذيه قوى خارجية ، وأزمات اقتصادية خانقة من جراء الديون المتراكمة ، وثورات وشغب من الأقليات ، ودول كبرى تتناسى خصوماتها لتتفق على إسقاط الدولة العثمانية وتقسيم ممتلكاتها ، وصهيونية عالمية تسعى لاقتطاع فلسطين لإقامة وطن قومي لليهود على أرضها[٢] .

---

(١) موفق بني المرجة : المرجع السابق ، ص ٥٣ .

(٢) مذكرات الأميرة عائشة عثمان أوغلي : والدي السلطان عبد الحميد ، تعريب صالح سعداوي صالح، الطبعة الأولى (عمان : دار البشير للنشر والتوزيع ، ١٤١١هـ / ١٩٩١م) ص ١٣ .

في هذه الظروف الصعبة وصل السلطان عبد الحميد الثاني إلى حكم الدولة العثمانية وكان عليه أن يواجه جميع هذه التحديات القاهرة[١] .

ناهيك عن الوضع النفسي لسلطان يتولى في أعقاب إسقاط سلطانين خلال أشهر قليلة استشهد أحدهما وجُنّ الآخر[٢] . وقد ثبت أنه لبعض كبار ضباط الجيش ورجال الدولة ضلع في العمليتين[٣] .

وعلى الرغم من كل هذه الصعاب التي واجهت السلطان عبد الحميد فإنه لم ييئس . ولم يستسلم بل وقف متحدياً لهذه الصعاب بكل إيمان ووعي وحزم وحذر . فما هي ردة الفعل المتوقعة لهذا الموقف من أولئك المتربصين بالدولة العثمانية من الصهاينة وحلفائهم بعد أن أنهكوها بالدسائس والمؤامرات ففوجئوا بمجيء هذا السلطان الذي راح يسعى جاهداً إلى تقويتها وإعادتها لمكانتها السابقة[٤] .

أجل لقد فعل ذلك السلطان عبد الحميد فقد سدد معظم الديون الخارجية

---

(١) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٧٤٢ .

(٢) المقصود بالسلطان الذي استشهد هو السلطان عبد العزيز الذي وجد مقتولاً في غرفة نومه بعد خلعه وثبت أن مدحت باشا وبعض أعوانه كانوا وراء هذا الحادث ، والثاني هو السلطان مراد أخو السلطان عبد الحميد الذي أصيب باضطراب عقلي على اثر بعض الضغوط النفسية التي تعرض لها من جراء ما حدث لعمه السلطان عبد العزيز وكذلك بعض الأحداث التي جرت في عهده .

– إبراهيم بك حليم : المصدر السابق ، ص ص ٢٢٠ – ٢٢٢ .

(٣) مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ١٣٨ .

(٤) رفيق النتشة : السلطان عبد الحميد وفلسطين ، ص ٥١ .

وزاد من قـوة الجـيش ، واهتم بـنشـر العلم والثـقـافـة بـين أبناء شـعـبـه[١] ، واستطاع بحنكته السياسية وسماحته الإسلامية أن يحتوي الأقليات ، واتبع سياسـة متـوازنة مع الدول الأوربية لإبعـاد بـلاده عـن الحروب التي لم تكن مهيأة للدخول فيـها ، وعمل جاهداً لتقوية الروابط الروحية بـين المسلمين – الجامعة الإسلامية[٢] – للوقـوف صـفّـاً أمـام القـوى المعـادية لهم ، ودرءاً للانشقاقات الطائفية ووأداً للقوميات البغيضة ، والأهم من كل ذلك أنه تنبه إلى المخطط الصهيوني الاستعماري للاستيلاء على فلسطين فتصدى له بكل ما أوتي من قـوة[٣] .

أليس المتـوقع والحال كذلك أن تتوجس تلك القـوى المتآمرة الخطر من هذا السلطان الذي جاء ليباعد بينها وبين تحـقيق آمالها ، وأن تتـربص به وتحيك المؤامرات للتـخلص منه ؟ لا سـيمـا وقد أعيا مـحاولاتها لإغـرائه واحتوائـه[٤] .

---

(١) محمد كرد علي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٢٤ .

– موفق بني المرجة : المرجع السابق ، ص ٨٦ .

(٢) سوف نتناول دور السلطان عبد الحميد في توثيق عرى الروابط بين الشعوب الإسلامية ودعوته للجامعة الإسلامية بشيء من التفصيل في المبحث الثاني من الفصل الثالث من هذا البحث .

(٣) يلماز اوزتونا : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ص ١٨٥ – ١٩٢ .

– محمد قربان نياز ملا : السلطان عبد الحميد الثاني وأثره في نشر الدعوة الإسلامية ، الطبعة الأولى (بيروت : دار البشائر الإسلامية ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م) ص ٨٢ .

(٤) تحدثنا في المبحث الثالث من الفصل الأول من هذا البحث عن العديد من أساليب الإغراء الفاشلة التي لجأ إليها الزعيم الصهيوني هرتزل في سبيل تغيير موقف السلطان عبد الحميد الثاني تجاه مطالبهم في فلسطين .

لذا فليس غريبًا أن يذهب أولئك المغرضين إلى وصف حزمه بالاستبداد وحذره وحيطته بالظلم والطغيان .

ومن جانبٍ آخر وبعد أن تعرفنا على الظروف الحرجة التي ارتقى فيها السلطان عبد الحميد عرش الدولة العثمانية ، فنرى انه ليس من العدل أن يُلام ذلك السلطان أن فقد الثقة فيمن حوله وما زال يتراءى في ذاكرته ما آل إليه عمه السلطان عبد العزيز وأخوه السلطان مراد على يد تلك الفئة الباغية من رجال دولته .

وهل يمكن أن يُلام السلطان عبد الحميد إن ساوره الشك في كل من حوله واستأثر بإدارة دولته ، وقد اكتشف أن الصدر الأعظم لدولته –رئيس الوزراء– ماسوني وعميل لأكبر أعداء دولته – الإنجليز –؟[1] .

كما أن هناك عدة أمور يجب على المنصف أن يأخذها بعين الاعتبار إذا ما أراد الحكم على شخصية السلطان عبد الحميد وطريقته في الحكم ، ومن ذلك الوشايات المفسدة ورسائل التهديد التي كانت تُبعث إليه وكتابات الفارين إلى الدول الأجنبية – ممن بهرتهم حضارة الغرب – الداعية إلى خلعه والقضاء على دولته[2] .

فإذا ظهر من السلطان عبد الحميد ما يمكن أن يوصف بأنه استبداد فذلك لأنّ مقتضيات زمانه قد دعته إلى ذلك ، فقد كان عليه أن يكون حازمًا حيّطًا حذرًا ، ليظل ممسكًا بزمام الأمور في دولته ، وحتى لا يكون مصيره كمصير أسلافه[3] .

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ١٠٧ .

(٢) مذكرات الأميرة عائشة : ص ص ٤٢ – ٤٣ .

(٣) محمد قطب : واقعنا المعاصر ، الطبعة الثانية (جدة : مؤسسة المدينة للطباعة والنشر ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م) ص ١٥٣ .

إلاّ أنّ الأمانة العلمية تقتضي الاعتراف بأن شدة حذر السلطان عبد الحميد وحيطته ، وتوجسه الخطر ممن حوله قد سيطر عليه بشكل مبالغ فيه بعض الشيء ، وأوقعه في بعض الأخطاء غير المقصودة[١] ، حيث دفعته شدة حذره إلى الاستعانة بجهاز واسع من المخبرين والجواسيس ، الذين كانت تقاريرهم أحياناً غير دقيقة - بقصد أو من غير قصد - ممّا ترتب عليه وقوعه في بعض الأخطاء ، رغم حرصه الشديد على التثبت من صحة التقارير التي تصله[٢] .

إلا أنّ ذلك لا يبرر إلصاق تهمة الاستبداد بالسلطان عبد الحميد وكأنها طبع وسجية جُبِلَ عليها . فإن كان السلطان في حذره وحيطته قد خرج عن المألوف شيئًا ما ووقع في بعض الأخطاء غير المتعمدة ، فإن الإنسان خطّاء والكمال للّه سبحانه وتعالى ، ومرد الأعمال للنيات .

ب - اتهامه بالميل لسفك الدماء وتلقيبه بـ (السلطان الأحمر):

لعلّ من أقبح الاتهامات التي افتراها على السلطان عبد الحميد خصومه من اليهود وحلفائهم ، وروجتها بإصرار أبواقهم الإعلامية ، تهمة ميله إلى سفك الدماء ، وإطلاق لقب (السلطان الأحمر) عليه تجسيداً لتلك الفرية ، وقد تمكنوا بما اختلقوه من أساطير أن يرسموا له في أذهان الناس صورة في غاية القبح دونها صورة الوحوش المفترسة[٣] .

ونرى أنه يكفي لمعرفة دوافع إطلاق هذه التهمة أن نتعرف على أهم مصادر ترويجها ، والحق أن السلطان عبد الحميد قد وفر علينا بعض الجهد

---

(١) يلماز أوزتونا : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ص ١٨٨ - ١٩١ .

(٢) س . ناجي : المرجع السابق ، ص ص ٣١٤ - ٣١٥ .

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٧٧٣ .

في هذا المجال حيث يقول في مذكراته : « أحضر لي مرافقي أول أمس كتابًا صغيرًا باللغة الفرنسية عنوانه (إلى ذكرى بيير كيار) وهو كتيب يحتوي على هجاء ومديح . والممدوح هو (بيير كيار) والمهجو هو (أنا) أعرف بيير كيار اسمًا ... كان مدرس الفساد في المدارس الأرمينية ... شيء غريب كان بيير كيار هو الذي أطلق عليَّ لقب (الحيوان الأحمر) كنت أعرف الكلمة ولكني كنت أجهل قائلها . وبقدر ما أحمل من أوسمة أجنبية بقدر ما سُميت بأسماء أُطلقت عليّ من هذه البلاد الأجنبية »[1] .

وهكذا أوضح السلطان عبد الحميد (رحمه الله) أن أول من أطلق عليه هذا اللقب الجائر هو نفسه المحرك الأول للفتنة الأرمينية التي سبقت الإشارة إلى أنّ اليهود والدول الاستعمارية كانوا وراء قيامها[2] .

كما أنّ من أهم المصادر التي تهجمت على الحكم العثماني ممثلاً في السلطان عبد الحميد ، واتهمته بالوحشية والميل لسفك الدماء، كتاب (الأهوال البلغارية والمسألة الشرقية) الذي نشره (جلادستون Gladstone) زعيم حزب الأحرار في إنجلترا عام ١٢٩٣هـ / ١٨٧٦م ، والذي اتخذ من المذابح التي تعرض لها المسيحيين البلغار نتيجة للثورة البلغارية[3] ذريعة لشن حملة

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ص ١٢٠ – ١٢١ .

(٢) سبق أن تطرقنا للقضية الأرمينية ودور اليهود والدول الاستعمارية في قيام النزاع بين الأرمن والدولة العثمانية في المبحث الثالث من الفصل الأول من هذا البحث .

(٣) اشتعلت الثورة في بلغاريا في أواخر عهد السلطان عبد العزيز وكانت روسيا وراء هذه الثورة حيث استهدفت منها دعم حركة الجامعة السلافية التي تعمل لإخضاع جميع العناصر السلافية الأرثوذكس في أوروبا للنفوذ الروسي أملاً في القضاء على الوجود العثماني في أوروبا ، لذا فقد انتهز عملاء الروس فرصة سماح الدولة العثمانية لبعض العائلات الشركسية المسلمة التي هاجرت من روسيا بالاستقرار في بلغاريا فأدخلوا في روع البلغاريين بأن الدولة سوف تقطع أراضي بلغاريا لهؤلاء الشراكسة المسلمين وتستبعد المسيحيين ، وحرضتهم على الثورة والمطالبة بالاستقلال فحصلت =

إعلامية شرسة للتشهير بالحكم العثماني وبالسلطان عبد الحميد فراح يصفها بالبربرية والوحشية وعداوة الإنسانية ، من خلال تقييم متحيز ونظرة غير موضوعية لتلك الثورة[١] .

وأعتقد أنه باستطاعتنا التعرف على دوافع جلادستون لشنّ هذه الحملة الإعلامية الشرسة ضد الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد ، إذا علمنا ان هذا الزعيم السياسي كان مسيحيًا متعصبًا له باع طويلة في الدراسات اللاهوتية وان من أهم الذين شجعوه على شن هذه الحملة (جرانفيل Granville) وزير المستعمرات البريطاني ، وأنه قد حصل على وعد مسبق من قبل الصحف البريطانية الكبرى التي يسيطر عليها اليهود وعلى رأسها صحيفة (التايمز The Times) لتأييده في التشهير بالحكم العثماني[٢] .

كما أنه باستطاعتنا بعد أن عرفنا ذلك أن نفسر تناسي جلادستون أنه قد

= حركات عصيان في عام ١٢٩٢هـ / ١٨٧٥م ولكنه تم السيطرة عليها بسرعة . وفي عام ١٢٩٣هـ /١٨٧٦م استغل الثوار البلغار الهزات العنيفة التي تعرض لها العرش العثماني من جراء عزل السلطان عبد العزيز ومن ثم السلطان مراد وتولي السلطان عبد الحميد على اثر ذلك فعادوا إلى الثورة من جديد وحصلت عدة مذابح قتل فيها الكثير من المسلمين لتجردهم من السلاح وأحرقت قراهم ، ولاتساع نطاق الثورة استقدمت قوات عسكرية من استانبول وكان من الطبيعي أن يحدث بعض العنف في إخماد هذه الثورة ، فلما خابت مساعي المفسدين أشاعوا في أوروبا بأن الجيوش العثمانية ارتكبت في إخماد هذه الثورة مذابح وحشية لم يُرى لها مثيل .

- محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .
- عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مُفترى علها ، ج ٢ ، ص ص ٨٤١ - ٨٤٦.

(١) إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٧٢٠ .
- هارولد تمبيرلي وَ أ . ج . جرانت : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٧ .

(٢) عبدالله التلّ : خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية ، ص ١٨٦ .
- عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مُفترى عليها ، ج ٢ ، ص ص ٨٥٥ - ٨٥٦ .

كان لهذه الثورة ضحايا من المسلمين أيضًا ، وأن معظم ضحايا هذه الثورة كان نتيجة للقتال الذي حدث بين المدنيين ، وأنّ روسيا كانت وراء إشعال تلك الفتنة وهي التي قامت بتزويد الثوار بالسلاح[١] .

وكذلك أصبح بإمكاننا أن نتفهم لماذا كان جلادستون نصيرًا للإنسانية في بلغاريا ولم يكن نصيرها في الجزائر مثلاً حين أقدمت فرنسا على إجراء مذابح للجزائريين في أعقاب احتلالها للجزائر عام ١٢٤٥هـ / ١٨٣٠م ؟ ولماذا لم يُشهر بفرنسا - وهو زعيم حزب الأحرار آنذاك أيضًا - كما فعل بالدولة العثمانية ؟ [٢] .

وكما اتخذ مروجو تلك الحملة الإعلامية المغرضة من أحداث الثورة البلغارية ذريعة لإقناع الرأي العام بأنّ السلطان عبد الحميد سفاح يحب إراقة الدماء ، فكذلك استغلوا أحداث الفتنة الأرمينية لنفس الغرض . حيث راحوا يتخذون من موقف السلطان الصلب في التصدي لهذه الفتنة وشدته مع الذين أثاروها ، وما نجم عن تلك الفتنة من مذابح ، حجة أخرى لإثبات ادعاءاتهم[٣].

والحقيقة التي لا يمكن لمنصف تجاهلها هي أنّ السلطان عبد الحميد معذور إن صدرت عنه بعض القسوة مع الأرمن إذ كيف يمكن معالجة ثورة أقدم أهلها على المطالبة بدولة مستقلة تحمل الشعار الصليبي وتعادي الإسلام وتتفق مع أعدائه ، وتأخذ المساعدات منهم لضرب الدولة العثمانية[٤] .

---

(١) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٦٠٥ .

(٢) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مُفترى عليها ، ج ٢ ، ص ٨٥٤ .

(٣) مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ص ١٢٦ - ١٢٧ .

(٤) محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص ص ٢٩٧ - ٣٠٠ .

- اورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ص ٢١٦ - ٢١٧ .

كما أنه ليس من العدل أن يوصف حاكم يقدم على إعدام أو إبعاد أو اعتقال من خانوا الوطن – وهي خيانة عظمى – بالوحشية فليس هناك شريعة أو قانون في العالم لا يُجيز قتل خائن الوطن .

والحق أن ما طُبع عليه السلطان عبد الحميد وبدت آثاره على سياسته عكس ما أُشيع عنه تمامًا ، فقد كان لين الجانب يميل للمسالمة ويكره الحروب وينفر من إراقة الدماء ولم يصدِّق طيلة مدة سلطنته إلا خمس مرات على عقوبة بالإعدام ، فقد كان يستبدل بالحكم بالإعدام على مستحقيه السجن المؤبد[1] .

ولعلنا نجد في موقفه من مدحت باشا خير دليل على ذلك ، فعلى الرغم من الجرم الفاحش الذي ارتكبه مدحت باشا ، حيث اكتشف السلطان عبد الحميد أن هذا – الذي تشرف بالصدارة العظمى في دولته – كان عميلاً لبريطانيا أكثر الدول الأوروبية عداءً للدولة العثمانية وأكبرها أطماعًا في أراضيها[2] .

إضافة إلى أنه قد علم بأن لهذا الرجل دورًا ضليعًا في ما حدث لعمه السلطان عبد العزيز . عدا كونه قد أقدم على الكثير من الأعمال التي أساءت للدولة[3] .

وعلى الرغم من صدور حكم القضاء بالإعدام على مدحت باشا فقد استبدل به السلطان عبد الحميد – بما له من الصلاحيات –

---

(١) محمد كرد علي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٢٤ .

– يلماز اوزتونا : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٨٨ .

(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ص ١٠٦ – ١٠٧ .

(٣) إبراهيم بك حليم : المصدر السابق ، ص ص ٢٢١ – ٢٢٢ .

النفي خارج البلاد[١] .

فهل يقبل العقل اتهام سلطان تتغلب عليه إنسانيته فتجعله يصفح عن شخص مثل مدحت باشا – رغم فداحة جرمه – ويتوسط بجاهه لتخفيف حكم القضاء عليه بالإعدام ، ليُكتفى بالنفي بأنه سلطان أحمر ؟

وكيف يمكن أن يوصف بمثل هذه الأوصاف السلطان عبد الحميد وهو الذي كان يعلم منذ البداية بما كان يدبره ضده من أطلقوا على أنفسهم اسم الشباب الأحرار في أوكارهم في سلانيك وفي أوروبا ورغم ذلك عاملهم بمنتهى الشفقة على أمل استتابتهم وإرجاعهم إلى جادّة الصواب[٢]، يقول (رحمه الله) في مذكراته في هذا الصدد : « ... هؤلاء الذين أطلقوا على أنفسهم اسم (تركيا الفتاة) كانوا في الأصل ثلاثة أشخاص أو خمسة وهؤلاء عملوا ضدي عدة سنوات في أوروبا ، تكلموا ، خططوا ، كتبوا كل ذلك قبل أن يفكروا أنّ العمل ضدي معناه أيضاً العمل ضد الوطن ... ورغم هذا فإنّي كنت على صلة بهم . وحتى لا يتورطوا في شيء نتيجة لإفلاسهم – وهم في بلاد أجنبية – فقد بذلت لهم مساعدات مادية كبيرة بحجة شراء صحفهم ... وكنت أقول : إنّ معارضتهم – رغم خطأها – فإنها يجب أن تظل شريفة »[٣] .

بل وقد شهد (زاهد باشا الهبل) – أحد باشوات الدولة العثمانية في دمشق – بأن السلطان عبد الحميد عندما علم بعصيان جيش سلانيك وتقدمه نحو العاصمة لم يأمر جنده بالمقاومة ورفض بشدة طلب كبار رجال الدولة المخلصين الإذن لخروج الجيش الموجود في استانبول ليتصدى لهذه الشرذمة

---

(١) إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٧٤٣ .

(٢) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ، ص ٢٨ .

(٣) مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ص ١٣١ – ١٣٢ .

التي جاءت لتطيح بعرشه ، وقال لرجاله : أعرف جيداً أنّ كل ما يرومون هو خلعي أو قتلي وأنا شخص واحد ، فإذا أمرتكم بالمقاومة سقط القتلى منكم ومنهم ، وأنتم جميعًا أفراد من هذه الأمة والأمة ستحتاج إليكم فيما ينزل بها من شدائد(١) .

كما ان السلطان عبد الحميد (رحمه اللّه) نفسه قد أشار إلى هذا الموقف في مذكراته في قوله: « أوصاني مجموعة من رجال الدولة وفي مقدمتهم ناظم باشا بإيقاف جيش الحركة في الطريق قبل وصوله ولكني رفضت ... ونبهت بشدة ألا يخرج الجيش الموجود في إستانبول من ثكناته ... ألم يكن في إمكان جنود إستانبول في حالة خروجهم من ثكناتهم وانتشارهم على أعالي كاغد خانة – حي في إستانبول – أن ينتصروا على ذلك الجند القادم من سلانيك وهم في حالة يعوزها النظام ؟ لم أرغب في أن أريق دماء جنودي » (٢) .

وهذه شهادة – غير مقصودة – لصالح السلطان عبد الحميد أدلى بها الفريق البحري الانجليزي (السير هنري وودز Sir Henry Woods) المعاصر للسلطان حيث يقول في مذكراته : « ... إن السلطان عبد الحميد هو أحد الذين يشغلون أعظم موقع ممتاز بين سلاطين العثمانيين كافة. أحد الحكام الناجحين جداً منذ تأسيس الدولة العثمانية ... انشغل بكل مشاكل طبقات الشعب المعوزة وتأثر لحالهم ، والحق يقال إنّه لم يفرق رعاياه المسيحيين عنهم ، استعمل ثروته الكبيرة جداً في هذا السبيل . الحقيقة أنه كان عدواً لعدوه ، ولكن نفوره من المسيحيين ليس صحيحاً ، ولم يكن عدواً حتى للأرمن كان عدواً للأرمن

---

(١) حسان حلاق : المرجع السابق ، ص ص ٣٢٣ – ٣٢٤ .

(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ١٩٤ .

المتآمرين[١] ، ... ولو كان عزم على استعمال الجيش لما استطاعت أية قوة أن تخلعه عن عرشه ، لكنه لم يقترب من ذلك ، وبالأساس لم يكن يؤمن بالحرب والعراك ويؤمن بالدبلوماسية الدقيقة » [٢].

أفبعد كل هذه المواقف يمكن أن يُصدّق ما تتطاول به أبواق اليهود وحلفائهم من أنّ السلطان عبد الحميد كان جلاداً ! دموياً ! أحمراً ! ؟

جـ - اتهامه بالرجعية والجمود :

كان من جملة تلك الاتهامات التي كالها أعداء الإسلام ودولته للسلطان عبد الحميد بسخاء ، تهمة الرجعية والانغلاق ، والتخلف بدولته عن ركب الحضارة الأوربية ، وقد حظيت هذه التهمة بهالة إعلامية يهودية كبرى بدأت في الخارج ثم تسربت إلى داخل الدولة العثمانية على يد بعض ابنائها الذين ابتعثوا للدراسة في الجامعات الأوربية ، فانبهروا ببريق الحضارة الغربية فاندفعوا يلهثون وراءه بدون تمييز بين غثها وسمينها[٣] .

كما وقد تأثر هؤلاء الطلبة بالأفكار المنحرفة التي كان يبثها في عقولهم أساتذة الجامعات الغربية من اليهود والنصارى العاملين في حقل الدراسات الشرقية ، ممّا أفقدهم الثقة بخليفتهم ونظام الحكم في بلادهم [٤] ، وليس في

---

(١) بعد فشل مساعي اليهود مع السلطان عبد الحميد الثاني قاموا بتمويل المنظمات الأرمينية السرية في الخارج ، وفي عام ١٣٢٣هـ / ١٩٠٥م وضعوا بالتعاون معهم خطة لاغتيال السلطان عبد الحميد وذلك بوضع قنبلة موقوتة في عربة توضع في طريق ذهابه إلى المسجد لأداء صلاة الجمعة ، ولكن شاءت إرادة الله أن ينجو السلطان عبد الحميد من هذا الحادث الذي ذهب ضحيته عدد كبير من رجال الشرطة ، وتم القبض على منفذي العملية .

- مصطفى طوران : أسرار الإنقلاب العثماني ، ص ص ١٩ - ٢٢ .

(٢) يلماز أوزتونا : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ص ١٩١- ١٩٢ ، نقلاً عن مذكرات هنري وودز ، ص١١٣.

(٣) محمد قطب : المرجع السابق ، ص ٣٤٧ .

(٤) أنور الجندي : المرجع السابق ، ص ١٣٠ .

هذا القول تجن على أولئك المدرسين فهذا ما شهد به زعيم الصهيونية هرتزل في الخطاب الذي بعثه إلى السلطان عبد الحميد في عام ١٣٢٠هـ / ١٩٠٢م يستحثه فيه على أن يأذن لليهود بإنشاء جامعة عبرية في القدس حيث يقول :

« لي الشرف أن أقدم لحكمة جلالتكم المتناهية الاقتراح التالي : إني أدرك الصعوبة التي تواجه حكومتكم بسبب ذهاب شباب تركية لتلقي العلم في الخارج وما يتعرض له هؤلاء الشبان من ضياع ، خاصة في تأثرهم بالأفكار الثورية ، ممّا يجعل الحكومة أمام أمرين ، إما أن تحرم هؤلاء من التدريب العلمي أو أن تعرضهم إلى مخاطر الغوايات السياسية . على أن هناك حلاً للمشكلة ، وأنا أسمح لنفسي بكل اتضاع أن أقدم لحكمة جلالتكم هذا الحل . إننا معشر اليهود نلعب دوراً هاماً في الحياة الجامعية في جميع أنحاء العالم . والأساتذة اليهود يملأون جامعات البلدان ، كما أنّ هناك عدداً كبيراً من العلماء والمتخصصين في جميع الحقول التعليمية »[١] ..

كذلك السلطان عبد الحميد أيضًا أشار في مذكراته إلى الانحراف الذي كان عليه المطالبين بالحضارة الغربية من رعاياه حيث يقول : « بعض الشبان الذي كان يذهب إلى أوربا كان قبل أن يرى ما يحدث في المختبرات العلمية هناك ، كان يرى السيدات تراقص الرجال ، وكان هذا الشباب يُعجَب بالأوربيين وهم يشربون الخمر أيضًا ، وعند عودتهم إلى بلادهم يوصون بالأخذ بكل ذلك (السفَه) مدّعين أن قمة الحضارة الأوربية تتمثل في مثل هذه الأمور وكنت أقول: إنّ هذا خطأً فكانوا يتهمون تفكيري بأنه عنكبوتي »[٢] .

والحق أنّ السلطان عبد الحميد لم يكن عدواً للتقدم ولا عنكبوتي التفكير ، وإنّما كان شأنه شأن جميع الحكام المسلمين طيلة عصور الخلافة الإسلامية

(١) يوميات هرتزل : ص ٢١٤ .

(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ص ١٨٢ – ١٨٣ .

فقد كانوا جميعًا يأنفون من استيراد المبادىء والاتجاهات الفكرية من الأمم الأخرى[(١)] ، أما إذا احتاجت الدولة الإسلامية إلى بعض التنظيمات الإدارية ، أو نوع من أنواع الحضارة المادية التي لم تكن في رصيدها السابق ، لرفع مستوى الكفاءة اللازمة لدولتهم المتنامية ، فإنهم لا يجدون غضاضة في الأخذ ببعض أساليب غير المسلمين ، شريطة أن يكون ذلك في إطار التنظيمات الإدارية والعلوم التجريبية ، وهذا ما سبق للمسلمين أخذه من حضارات الفرس والروم والهند ، وهو أمر طبيعي ونوع من أنواع الاحتكاك الثقافي النافع بين الشعوب والأمم طالما المستفيد لم يفقد أصالته ولم يطرأ على مبادئه وقيمه ما يحولها إلى مبادىء وقيم المستفاد منه[(٢)].

وقد أوضح السلطان عبد الحميد (رحمه الله) في مذكراته رأيه في هذا المجال بقوله : « ليس من الصواب القول بأني ضد كل تجديد يأتي من أوروبا لكن العجلة من الشيطان ويقابل العجلة الهدوء والاعتدال . يجب أن نضع نصب أعيننا ما تفضل به الله علينا .. ليس الإسلام ضد التقدم ، ولكن الأمور القيّمة يجب أن تكون طبيعية وأن تأتي من الداخل وحسب الحاجة إليها ولا يمكن أن يُكتب لها النجاح إذا كانت على شكل تطعيم من الخارج »[(٣)] .

لكن الواقع – المؤسف – أنّ هؤلاء الطلاب الذين وقعوا في شراك تلك العناصر الصهيونية من الأساتذة المستشرقين الذين لقنوهم الكثير من المبادىء والاتجاهات الفكرية المضللة ، ليسلخوهم سلخًا كاملاً عن مقومات دينهم ،

---

(١) إسماعيل الكيلاني : المرجع السابق ، ص ٨١ ، ١٠٠ .

(٢) محمد قطب : المرجع السابق ، ص ٣٤١ .

– جميل عبدالله المصري : المرجع السابق ، ص ص ٢١٢ – ٢١٣ .

(٣) مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ٢٧ .

كانوا يطالبون بأخذ المنظومة الحضارية الأوربية كاملة بخيرها وشرها[١] .

فهل كان المفترض في السلطان عبد الحميد أن يستجيب لمطالب هؤلاء المُستغفلين ليرضيهم، فيقع في الفتنة التي حذر الله منها سائر حكام المسلمين في قوله تعالى : ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾[٢] ؟

لقد آثر السلطان عبد الحميد رضا الله ومصلحة الأمة الإسلامية على رضا هذه الفئة الضالة ، فاتبع نهج أسلافه من الخلفاء المسلمين في الاستفادة من الحضارة الأجنبية حيث نراه قد أخذ من هذه الحضارة فيما لا يتعارض مع مبادىء الإسلام ، فاستفاد من خبرة الأجانب في كثير من الإصلاحات الداخلية التي قام بها[٣] ، مثل بناء السكك الحديدية وإقامة خطوط البرق والبريد والهاتف ، وبناء الغواصات البحرية ، وفي استخراج المعادن وفي المدارس الزراعية والبيطرية كما قام بإرسال البعثات العلمية إلى أوروبا لدراسة الطب والفنون العسكرية ، وشجع على تعلُّم اللغات الغربية[٤] .

أمّا بخصوص المطالبة بالحكم النيابي أو الدستوري والذي جاء مصاحباً

---

(١) محمد قطب : المرجع السابق ، ص ٣٤٤ .

- إسماعيل الكيلاني : المرجع السابق ، ص ص ٤٠ – ٤١ .

(٢) سورة المائدة : الآية (٤٩) .

(٣) محمد حرب : المرجع السابق ، ص ٥٤ .

(٤) أكمل الدين إحسان أوغلي وآخرون : الدولة العثمانية تاريخ وحضارة ، تعريب : صالح سعداوي ، جزءان ، الطبعة الأولى (استانبول : مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية ، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م) ج ٢ ، ص ص ٥٦٢ – ٥٦٥ .

- يلماز أوزتونا : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٨٧ .

لتيار التغريب الذي يدعو إلى الإصلاح على الطريقة الغربية ، فقد كان أول الساعين إليه – الدونمة الماسوني – مدحت باشا [١] . وقد حاول مدحت باشا أن يضفي على مطلبه هذا لباس الدين فادّعى بأنّ ما يدعو إليه هو وأتباعه ليس إلا نظام الشورى الإسلامية[٢] .

كما كان للدعاية اليهودية الإعلامية دور بارز في الترويج لهذه الأفكار حيث صورت مدحت باشا بصورة البطل المكافح من أجل حرية الشعوب العثمانية وأطلقت عليه أوصافًا براقة مثل (أبو الأحرار) و (أبو الدستور) ، وفي المقابل صورة السلطان عبد الحميد بالدكتاتور المستبد[٣] .

والحقيقة أنّ السلطان عبد الحميد لم يكن مقتنعًا بالحكم الدستوري أو النيابي ، ولم يكن دافعه إلى ذلك نابعًا من محاربته للتقدم أو رغبته في الاستئثار بالحكم والاستبداد به كما يحاول أعداؤه أن يصوروا ذلك ، وإنّما كان عن اقتناع بأن هذا النظام لا يناسب الدولة العثمانية التي يعيش تحت مظلتها العديد من الأجناس والأقليات غير الإسلامية التي ثبت ولاؤها للدول المعادية للدولة العثمانية[٤] .

كما أن السلطان عبد الحميد كان يشعر بأنّ الأمّة العثمانية ليست من الوعي لما يؤهلها لإدراك مواضع مصالح الدولة[٥] . إضافة إلى أنّه كان يعلم أنّ زعماء المطالبين بهذا النظام والمروجين له وعلى رأسهم مدحت باشا كانوا عملاء

---

(١) يوسف بك آصاف : المصدر السابق ، ص ١٢٨ .

(٢) أنور الجندي : المرجع السابق ، ص ص ٩١ – ٩٢ .

(٣) زياد أبو غنيمة : المرجع السابق ، ص ٥٢ .

(٤) إسماعيل سرهنك : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٣٥٩ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٣٥٩ .

لليهود والدول الاستعمارية(١) .

وقد أوضح السلطان عبد الحميد (رحمه الله) في مذكراته أسباب عدم اقتناعه بتطبيق النظام الدستوري في الدولة العثمانية في قوله : « قلت وسأقول : شرحت وسأشرح مسألة هامة وهي : ألم يكونوا يفكرون أنّ الدولة العثمانية دولة تجمع أُممًا شتى ، والمشروطية في دولة كهذه موت للعنصر الأصلي في البلاد(٢) . هل في البرلمان الإنجليزي نائب هندي واحد ، أو إفريقي أو مصري ؟ وهل في البرلمان الفرنسي نائب جزائري واحد ؟ وهم يطالبون بوجود نواب من الروم والأرمن والبلغار والصرب » كما يقول السلطان في موضع آخر من مذكراته : « مدحت باشا لم ير غير فوائد الحكم المشروطي في أوروبا ، لكنّه لم يدرس أسباب هذه المشروطية ولا تأثيراتها الأخرى أقراص (السلفات) لا تصلح لكل مرض كما لا تصلح لكل بنية . وأظن أن أصول المشروطية لا تصلح لكل شعب ولكل بنية قومية » ، ويضيف السلطان قائلاً : « ... عند افتتاح مجلس المبعوثان للمرة الثانية أوضحت أن سبب الاغلاق الأول هو أنّ الأمّة لم تكن قد وصلت بعد إلى الحالة الضرورية من الرشد ... الدواء الناجح يصبح سمّاً زُعافًا إذا كان في يد غير الأطباء أو في يد من لا يعرفون أصول استعماله »(٣) .

وفي حديث السلطان عبد الحميد عن الوسائل التي استخدمها أعداء الدولة لتمزيقها يقول السلطان : « ... والثانية القول بالمشروطية لإحداث الفرقة بيننا أنفسنا ، واستطاعوا أن يجدوا من بيننا أنصارًا يستخدمونهم في كلا

---

(١) اورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ٩٧ .

(٢) يقصد بالعنصر الأصلي المسلمون .

(٣) مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ١٣١ ، ٨٠ ، ٩٦ .

الغايتين وبكل أسف كان على خبز العدو شيء من السمن »[١] .

وإذا ما أردنا التحقق من مدى صحة رأي السلطان عبد الحميد ، والتثبت من واقعية الذرائع التي أوردها لتبرير موقفه من الدستور ، فعلينا أن نناقش هذا الموضوع من عدة جوانب :

أولاً : من حيث الادعاء بأن الحكم الدستوري الذي طُولب السلطان عبد الحميد بتطبيقه في الدولةالعثمانية يقابل نظام الشورى في الحكم الإسلامي[٢] .

فإن المتأمل في واقع نظام الشورى كأساس تشريعي نصّت عليه الشريعة الإسلامية ، وطبّقه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون ، يجد أنّه يختلف كثيراً عن النظام الدستوري أو البرلماني الذي طُولب به السلطان عبد الحميد ، فالشورى في الحكم الإسلامي لا تكون إلاّ فيما لا نص فيه من مصالح المسلمين وقضايا الأُمّة ومواقف الدولة من السلم والحرب[٣] ، كما أنّه من الثابت أنّه لم يكن للرسول صلى اللّه عليه وسلم ولا لخلفائه الراشدين مجلس شورى يُعين أعضاؤه لا بصورة دائمة ولا مؤقتة[٤] . بل كان يدعى لها عقلاء المسلمين وفقهاؤهم ولم يسجل التاريخ للرسول صلى اللّه عليه وسلم ولا لخلفائه الراشدين حالة شورى واحدة اشترك فيها غير المسلمين أو من يتهم في عدالته وإخلاصه للمسلمين[٥] .

---

(١) المصدر نفسه : ص ١٤٥ .

(٢) أنور الجندي : المرجع السابق ، ص ٩١ .

(٣) محمد أبو زهرة : خاتم النبيين صلى اللّه عليه وسلم ، ٣ أجزاء (القاهرة : دار الفكر العربي) ج ٢ ، ص ٨٥٨ .

(٤) يستثنى من ذلك حالة واحدة وهي تعيين عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه لستة من الصحابة للنظر في أمر اختيار الخليفة بعد وفاته .

(٥) أكرم ضياء العمري : عصر الخلافة الراشدة (محاولة لنقد الرواية التاريخية وفق منهج المحدثين)، الطبعة الأولى (الرياض : مكتبة العبيكان ، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م) ص ص ٩٩ – ١٠١ .

كما أن الشورى ليست ملزمة لولي الأمر في الإسلام[١] ، وإنما الحكمة منها استخراج وجوه الرأي عند المسلمين ، والبحث عن مصلحة قد يختص بعلمها بعضهم ، أو لاستطابة نفوسهم ، فإذا وجد الحاكم في آرائهم ما تسكن إليه نفسه على ضوء دلائل الشريعة الإسلامية أخذ به ، وإلا كان له أن يأخذ بما شاء بشرط أن لا يخالف نصًا في الكتاب أو السنة[٢] .

ثانيًا : بالنسبة لتذرع السلطان عبد الحميد بطبيعة تكوين الدولة العثمانية من عدة أجناس وطوائف دينية مختلفة ، وأن ذلك عائق يحول دون تطبيق النظام البرلماني ، نجد أنّه قد أيده في هذا الرأي الكثير من الخبراء السياسيين ومن أولئك رئيس الوزراء الفدرالي للامبراطورية الألمانية (بسمارك Bismarck)، حيث استصوب حل السلطان عبد الحميد للمجلس النيابي وعلق على ذلك بقوله : « إن لم يكن قوام الدولة شعبًا واحدًا ، فإنّ ضرر مجلسها يكون أكبر من نفعه »[٣] .

ويقول الميرلي إسماعيل سرهنك المعاصر لتلك الأحداث ، في هذا الصدد: « وقد قال كثير من عقلاء الأمة الذين خبروا أحوال الدولة العثمانية وأحوال شعوبها ووافقهم على قولهم هذا من تنزهوا عن الأغراض من رجال سياسة الدول الأجنبية بعدم إمكان تأليف مجلس كهذا للأمّة العثمانية في ذلك الوقت لأسباب عديدة أهمها عدم تجانس الأمّة العثمانية وميل جميع الطوائف الغير المسلمة بها إلى ترويج مصلحة الدولة الأوروبية التي تستند عليها تلك الطائفة ... ومنها سعي كثير من دول أوروبا في تفريق الجامعة العثمانية لينالوا بذلك

---

(١) يمكن الاستدلال على ذلك بموقف الرسول صلى الله عليه وسلم من مشورة أصحابه في الحديبية ، وموقف أبو بكر رضي الله عنه من مشورة بعض الصحابة بعدم مقاتلة المرتدين عن دفع الزكاة .

(٢) محمد سعيد البوطي : المرجع السابق ، ص ص ٣٢٤ – ٣٢٥ .

(٣) يلماز أوزتونا : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١١٨ .

مآربهم الخصوصية »[١] .

ثالثًا : أن الفترة الوجيزة التي طُبِّق فيها النظام الدستوري لأول مرة في الدولة العثمانية وذلك في مستهل عهد السلطان عبد الحميد الثاني[٢] . أثبتت عدم تفهم النواب لماهيّة المسئوليات والواجبات التي يلقيها عليهم النظام البرلماني ، والأدهى من ذلك عمل كل نائب من نواب الأقليات لصالح إحدى الدول الأجنبية وتقاضيه أجرًا على ذلك[٣] .

يقول المؤرخ التركي يلماز أوزتونا في تعليقه على هذا الموضوع : « ... ظهر نواب دافعوا عن التخلي عن كريت إلى اليونان ، ونواب طلبوا تأسيس إمارة أرمينية في الأناضول الشرقية لم يكن السلطان حميد (عبد الحميد) قد عثر على هذه الدولة عن طريق الصدفة ، ولم يكن كذلك قد ورثها عن مدحت باشا ، وإنّما انتقلت إليه عن أجداده . لذلك فقد حل هذا المجلس ، وأنقذ الإمبراطورية من الاضمحلال »[٤] .

---

(١) إسماعيل سرهنك : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٣٥٩ .

(٢) كان السلطان عبد الحميد قد أعلن قيام الدستور في بداية عهده وعمل به لمدة سنة وعدة أشهر تقريبًا –رغم عدم اقتناعه به – وذلك لعدة أسباب من أهمها شدة ضغط المطالبين به ، ولإثبات عدم صلاحية هذا النظام للدولة العثمانية – وقد ثبت ذلك بالخلافات الكبيرة التي قامت بين النواب ، وخيانة ممثلي الأقليات غير الإسلامية – وهناك سبب آخر وهو رغبته في ذر الرماد في أعين الدول الأوربية التي اجتمع ممثلوها لعقد (مؤتمر الأستانة) عام ١٢٩٣هـ / ١٨٧٦م الذي كان الغرض منه التدخل في شؤون الدولة العثمانية الداخلية بحجة تحسين أوضاع الشعوب المسيحية الخاضعة للدولة العثمانية ، وقد أدى انعقاد المجلس النيابي بالفعل إلى فشل مؤتمر الأستانة وتفرق أعضائه .

– يوسف بك آصاف : المصدر السابق ، ص ١٢٩ .

– هارولد تمبرلي وَ أ . ج . جرانت : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٩ .

(٣) اورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ص ١٣٦ – ١٣٧ .

(٤) يلماز أوزتونا : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١١٨ .

إذًا فلم يكن سبب رفض السلطان عبد الحميد تطبيق النظام الدستوري كونه رجعيًا عدوّاً للتقدم ، وإنّما لكونه حرّاً أبيّاً رفض مجاراة الدونمة مدحت باشا ورفاقه في العمالة للغرب المستعمر الطامع في الدولة الإسلامية ، ولكونه لم يطق أن يرى (٤٨) نائبًا من اليهود والنصارى من مجموع ١١٧ نائبًا هم أعضاء مجلس المبعوثان (البرلمان) يعملون لتمزيق الدولة العثمانية [١].

د - اتهامه بالجهـل :

لقد اتهم السلطان عبد الحميد بالجهل ومحاربة العقل والعلم ، وأغرب ما في الأمر أن يردد هذه التهمة أناس كان للسلطان عبد الحميد الفضل بعد اللّه فيما وصلوا إليه من علمٍ وثقافة[٢]، وقد أشار السلطان عبد الحميد (رحمه اللّه) إلى هذا الأمر في مذكراته مبديًا أسفه لذلك في قوله : « ... لكن كم هو غريب أنّ هؤلاء الذين يحملون لي كل هذا العداء ، درسوا كلهم تقريبًا في المدارس التي افتتحتها أنا ، ومع ذلك وبكل أسف لا يخجلون أن يُطلقوا عليّ لقب عدو العقل والعلم »[٣] .

ولمعرفة مدى صحة هذا الاتهام من زيفه ، فعلينا مناقشة شقيه كلاً على حدة للتثبت من ذلك .

أولاً : إذا كان المقصود باتهام السلطان عبد الحميد بالجهل هو أنه لم ينل حظًا من العلم والثقافة فقد أثبتت الوثائق والمصادر التاريخية عكس ذلك ، فقد تلقى في نشأته العديد من العلوم على أيدي نخبة من الشخصيات العلمية

---

(١) عبداللّه التل : الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام ، ص ٨٣ .

(٢) أورخان محمد علي : المرجع السابق ، ١٤٨ .

(٣) مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ١٦٤ .

فكان قد تعلّم اللغة العربية والفارسية والفرنسية إضافة إلى التركية[١] ، كما تلقى دروساً في العلوم الإسلامية وخاصة الحديث على صحيح الإمام البخاري، وكذلك درس الاقتصاد السياسي والتاريخ والأدب ، وقد أشرف على تدريسه كل هذه العلوم وامتحنه فيها الوزير (أحمد كمال باشا) الذي تقلّد وزارة المعارف ست مرات ووزارة الأوقاف مرتين في الدولة العثمانية[٢] .

أمّا في مجال العلوم التقنية والفنون الجميلة فقد ذكرت الأميرة عائشة بنت السلطان عبد الحميد في مذكراتها بأن والدها كان يجيد نظم الشعر والرسم والخط والنجارة والحفر على الخشب مشيرة إلى أنّ هذه المواهب قد صقلتها الدراسة العلمية لهذه الفنون على أيدي الخبراء ، في عهد مبكر من حياته[٣] .

ولم يتوقف التحصيل العلمي والثقافي عند السلطان عبد الحميد على ما ناله في سني الدراسة في بداية شبابه ، بل كان حريصًا على القراءة والاطلاع حتى بعد توليّه حكم الدولة العثمانية ، فعلى الرغم من كثرة مشاغله فقد كان شغوفًا بتتبع الصحف وقراءة الكتب في شتى المجالات ، وقد شهد له بهذا معاصريه ، ومنهم الفريق البحري الإنجليزي (السير هنري وودز Sir Henry Woods) حيث يقول في عرض حديثه عن السلطان عبد الحميد : « ... كان يتابع الصحافة الأوربية يوميًا ويأمر بترجمة الكتب المهمة في نفس العام الذي تصدر فيه ويقرأها أو يستمع لقراءتها ، وهكذا ترجم ٦٠٠٠ كتاب

---

(١) موفق بني المرجة : المرجع السابق ، ص ٥٣ .

(٢) يلماز أوزتونا : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٩٧ .

- مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ٦٤ .

(٣) مذكرات الأميرة عائشة : ص ٨٦ ، ٣٤٠ .

وجدت في مكتبته على شكل دفاتر »[١] .

كما أشارت إلى ذلك ابنته الأميرة عائشة في مذكراتها في قولها : « كان الوالد في النهار يكلف أمين بك موظف (المابين)[٢] بأن يقرأ عليه الكتب التاريخية الهامة ، وكان هذا الرجل محل تقدير عظيم منه ، لأنه كان ماهراً في الترجمة السريعة السهلة من الفرنسية إلى التركية »[٣] .

كما شهد له المستشرق اليهودي أرمينوس فمبري A. Vambery رئيس جامعة بودابست حيث يقول : « ... هذا هو السلطان عبد الحميد ولا تحسبوا معلوماته الواسعة تخص الأمبراطورية العثمانية المنهكة ، فمعلوماته حول أوربا وآسيا وأفريقيا بل وحتى حول أمريكا معلومات واسعة وهو يراقب عن كثب جميع الحوادث في هذه الأماكن ... أفكاره عن الدين والسياسة والتعليم ليست رجعية ومع ذلك فإنه متمسك بدينه غاية التمسك »[٤] .

ثانياً : إذا كان يقصد باتهامه بالجهل أنه لم يول العلم اهتمامه وأنه كان عدواً للمتعلمين ، فهذا القول أيضاً يتعارض مع ما سجله التاريخ من اهتمام السلطان عبد الحميد بهذا الميدان وما أولاه به من عناية[٥] ، بل

---

(١) يلماز أوزتونا : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ص ١٩٠ – ١٩١، نقلاً عن مذكرات هنري وودز، ص ٦٦.

(٢) المابين : هو ديوان خاص بالسلطان في قصر يلديز يتألف من مجموعة من المستشارين السياسيين والقانونيين وعلماء الدين ، ويعتبر هذا الديوان المرجع الأول في شئون الحكم دون الباب العالي ، وقد عرف هذا الديوان باسم المابين وهي لفظة مأخوذة من اللغة العربية لأن هذا الديوان كان أداة الاتصال بين السلطان والباب العالي فهو ما بين الفريقين .

- عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج ١ ، ص ٣٧٢ .
- موفق بني المرجة : المرجع السابق ، ص ١٩٣ .

(٣) مذكرات الأميرة عائشة : ص ٩١ .

(٤) أورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ص ١٥١ – ١٥٢ .

(٥) أكمل الدين أوغلي وآخرون : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٥١٤ .

إنّ الإنسان ليعجب أن يرى أن قد بلغت الجرأة والوقاحة بأعداء ومعارضي السلطان أن يتنكروا لحقيقة هي في ثباتها قد أضحت من المسلّمات، ولكن يبدو أن رمد العمالة والردّة قد أصابهم فلم يعودوا يروا حتى ضوء الشمس ، وحق للسلطان عبد الحميد (رحمه اللّه) أنْ يظهر تعجّبه واستنكاره الشديد لهذه الفرية حين يقول في مذكراته : « كنت عدواً للعقلاء ! هكذا يكتبون دون أدنى خجل ... هل يمكن أن يكون عدواً للعلم والعقل سلطان بذل كل ما في وسعه قرابة الثلاثين عاماً لكي يرى في كل قرية مسجداً وبجانب المسجد مدرسة ؟ » (١).

لقد اتفقت آراء المؤرخين بشكل يقرب من الإجماع على أنْ التعليم قد تقدم في عهد السلطان عبد الحميد الثاني بشكل ملحوظ(٢) ، ولم تكن الديون التي أثقلت كاهل الدولة عائقًا لهذه العناية التي استهدفت تنشئة جيل من الخبراء والموظفين ذوي الكفاءة العالية ، يمكنهم أن يقوموا بواجبهم على أكمل وجه في المرافق العامة التي بدأت تتسع قاعدتها باضطراد(٣) .

كما أن السلطان عبد الحميد كان يرغب في إيجاد نوع من التوازن بين التعليم العسكري الذي استوجبت ظروف الدولة العسكرية الاهتمام به في عهد مبكر وبين التعليم المدني(٤) .

لذا فقد سعى السلطان للتوسع في نشر التعليم على جميع مستوياته

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ص ١٦٢ - ١٦٤ .

(٢) محمد كرد علي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٢٤ .

- مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ، ص ص ٣٦ - ٣٧ .

(٣) محمد قربان نياز ملا : المرجع السابق ، ص ٢٢٣ .

(٤) زياد أبو غنيمة : المرجع السابق ، ص ص ١٨٧ - ١٨٨ .

ونوعياته طبقًا لأحدث معطيات العصر ، فأنشأ المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية في كافة الولايات ، وكان في استانبول وحدها ستة مدارس ثانوية ، وبالنسبة للقرى فقد كان يوجد فيها مدرسة ابتدائية واحدة على الأقل ، كما أنشأ العديد من كليات المعلمين لتلبية حاجة هذه المدارس[١] .

وقد حظي التعليم العالي بصفة عامة بعناية فائقة من السلطان عبد الحميد فأنشأ العديد من الكليات ، منها كلية الحقوق (مكتب حقوق شاهانه) وكلية العلوم السياسية (مكتب ملكية شاهانه) وأكاديمية الفنون الجميلة (مكتب شاهانه صنايع نفيسه)[٢] .

وحتى في مجال التعليم العالي لم يقتصر اهتمام السلطان عبد الحميد على الولايات التركية فقد أقام كلية للطب في دمشق وكلية للحقوق في بيروت ، كما انتشرت كليات المعلمين في الكثير من حواضر الولايات العثمانية[٣] .

كما أرسل السلطان عبد الحميد عددًا كبيرًا من البعثات إلى الدول الأوربية لاستيفاء التحصيل العلمي في مجالات عديدة[٤] .

ولم يقتصر اهتمام السلطان عبد الحميد على تعليم أبناء البلاد من الذكور فقط ، بل حظيت الفتاة أيضًا بعناية فأقام العديد من المدارس لتعليم البنات ، ودورًا لإعداد المعلّمات ، ومدرسة للفنون النسوية[٥] .

---

(١) أكمل الدين أوغلي وآخرون : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ص ٥١٤ – ٥٤١ .

– محمد قربان نياز ملا : المرجع السابق ، ص ١٢٦ .

(٢) محمد حرب : المرجع السابق ، ص ٥٥ .

(٣) مذكرات الأميرة عائشة : ص ٢٣ .

(٤) يلماز أوزتونا : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٨٧ .

(٥) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ، ص ٣٧ .

وممّا يدل على شدة اهتمام السلطان بمحاربة الجهل وإتاحة فرصة التعليم لكافة أبناء شعبه أنّه قد أنشأ مدارس متخصصة في تعليم الصم والبكم والعمي[١] .

ولكي يشجع السلطان عبد الحميد الطلاب على استكمال دراساتهم العليا كان قد ألحق ببعض الكليات دوراً لإقامة الطلبة المغتربين[٢] .

وقد توج السلطان عبد الحميد جهوده في مجال التعليم بإنشاء جامعة استانبول عام ١٣١٨هـ / ١٩٠٠م والتي كانت فكرة تعثر تنفيذها في عهد بعض من سبقه من السلاطين ، وقد ضمت أربع كليات هي كلية العلوم الدينية وكلية العلوم الرياضية وكلية العلوم الطبيعية وكلية الآداب[٣] .

وفي موازاة التطورات التي حدثت في مجال التعليم في عهد السلطان عبد الحميد نشطت أيضاً حركة الترجمة وطباعة الكتب والصحف والمجلات[٤] ، وإن كانت الأمانة تقتضي الاعتراف بأن السلطات العثمانية قد فرضت نوعاً من الرقابة على هذه المطبوعات اقتضتها الظروف الصعبة المحيطة بالدولة[٥] .

كما وجه السلطان عبد الحميد اهتمامه للعديد من المؤسسات الثقافية

---

(١) محمد حرب : المرجع السابق ، ص ٥٥ .

(٢) محمد قربان ملا : المرجع السابق ، ص ١٢٧ .

(٣) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج ٣ ، ص ١١٥٩ .

(٤) مذكرات الأميرة عائشة : ص ٣٢ .

(٥) إسماعيل ياغي : الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث ، الطبعة الثانية (الرياض : مكتبة العبيكان ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م) ص ٢٠٤ .

- أورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ١٦٠ .

الأخرى فأنشأ متحف الآثار القديمة والمتحف العسكري ، ومكتبة بايزيد ومكتبة يلـدز[١] .

أوبعد هذا الزخم من الإنجازات التي أشرنا إليها للاستدلال على مدى ما أبداه السلطان عبد الحميد من اهتمام بالتعليم والمتعلمين – ونحن لم نوفيه حقه في هذا المجـال – يجـرؤ منصف على اتهامـه بأنه عـدو للعلم والعـقل ؟ أو أن يتهمه بالجهل ومن المسلّمات إن فاقد الشيء لا يعطيه .

وها هو الكاتب المسيحي (سليمان البستاني) المعاصر للسلطان عبد الحميد على الرغم من كونه من كبار المعارضين والناقدين لعهده يقـف عاجزًا عـن إنكار هذه الحقيقة لشدة جلائها فلا يسعه إلا أن يعترف بها حيث يقول : « ... فإذا ذكر العلم والتعليم فلا يسعنا إلاّ أن نقول الحق فنعترف أنّهما رقيا فوق ما كانا عليه درجات ، وإنّ معظم العثمانيين أصبحوا ولهم نصيب من العلم »[٢] .

وبعد مناقشة تلك الاتهامات التي ألصقت بالسلطان عبد الحميد أعتقد أننا نتفق على أن الدعاية الإعلامية اليهودية كانت ماهرة إلى حدٍّ بعيد حيث استطاعت أن تقلب الحقائق وتطمس المحاسن وتبـرز المثالب حتى تمكنت من إقناع الناس بتلك الافتراءات بل واضحت لكثرة تكرارها لها وكأنها مسلّمات ، وفي هـذا يقـول المؤرخ التركي نظام الدين نظيف : « عندمـا خـاب هرتزل في مسعاه اشتدّ العداء ضد (يلدز)[٣] وهذا ما كان يتوقعه عبد الحميد ، لأن اليهود قوم يتقنون العمل المنظم وكانت لديهم قوى عديدة تضمن لهم النجاح في

---

(١) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ، ص ص ٣٧ - ٣٨ .

(٢) محمد قربان ملا : المرجع السابق ، ص ١٧٣ ، ٢٠١ . نقلاً عن سليمان البستاني : عبرة وذكرى ، ص٧٧.

(٣) يلدز : هو اسم القصر الذي كان يقيم فيه السلطان عبد الحميد الثاني والمقصود هنا عداء اليهود للسلطان عبد الحميد الثاني .

مسعاهم ... وكانت صحافة أوربا في قبضتهم ، فكان في مقدورهم إطلاق العواصف التي يريدونها لدى الرأي العام العالمي متى شاءوا »[١] .

بل ويشهد بدور اليهود في اختلاق وترويج هذه الافتراءات الكاتب اليهودي (آورام غالانتي Auram Galanty) حين يقول : « إن الجمعية الإسرائيلية بمصر أكدت أنّ من أهم واجباتها إدخال المطبوعات التي تهاجم السلطان عبد الحميد إلى داخل حدود الدولة العثمانية بأي شكل من الأشكال وهي المطبوعات التي كان يحررها أعضاء تركيا الفتاة »[٢] .

إذًا فقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك بأن اليهود كانوا وراء إطلاق هذه الأباطيل والترويج لها سواء عن طريق ما كان يكتبه يهود الدونمة من أعضاء (تركيا الفتاة) و (الاتحاد والترقي) أو عن طريق ما تروجه أبواقهم الإعلامية من ترهات مضللة .

كما أنه لا يمكن تجاهل دور حلفائهم الأوروبيين فقد كانت سفاراتهم في داخل الدولة العثمانية المعبر الآمن لدخول تلك الصحف والمنشورات[٣] ، التي كانت تحمل في طياتها تلك الأباطيل[٤] .

وكذلك ما كان من تأييد ومساندة صنائعهم السذج من أبناء الدولة العثمانية الذين كانوا يرون ويسمعون بأبصار وآذان غيرهم فتلقفوا تلك

---

(١) أحمد نوري النعيمي : اليهود والدولة العثمانية ، ص ١٣١ ، نقلاً عن نظام الدين نظيف : إعلان الحرية والسلطان عبد الحميد الثاني ، ص ص ٥٨ – ٥٩ .

(٢) فتحي شهاب الدين : كيف سقطت الخلافة الإسلامية ، الطبعة الأولى (طنطا : دار البشير للثقافة والعلوم ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م) ص ٣٠ ، نقلاً عن آورام غالانتي : توركلر ويهود يلر ، ص ٢٢ .

(٣) لأن هذه السفارات كانت لها حصانة من مراقبة السلطات العثمانية بموجب الامتيازات الأجنبية .

(٤) حسان حلاق : المرجع السابق ، ص ص ٢٩٤ – ٢٩٥ .

الأغاليط دون تمحيص ولا تدقيق وراحوا يرددونها كما تفعل الببغاءات غير مدركين أنهم بعملهم ذلك يؤدون أكبر خدمة لأعداء دولتهم [١]. وإن كان بعضهم قد عض أصابع الندم حين لم يعد ينفع الندم فتحققت فيهم نبوءات سلطانهم الحصيف الذي اتهموه بالجهل ، فقد كتب السلطان عبد الحميد في مذكراته عن هؤلاء المغرر بهم قائلاً : « الذين أعلنوا أني أعظم مناصر للحكم الاستبدادي ، وأني أكبر مستبد في العالم ، لا شك أنهم سيعترفون بالحقيقة بعد موتي ، وسيتراجعون عن موقفهم تجاهي »[٢] .

وبالفعل تحقق هذا التنبؤ ، وللدلالة على ذلك فسوف نسوق هنا ترجمة لقصيدة نظمها الفيلسوف التركي رضا توفيق -بعد وفاة السلطان عبد الحميد- وهو من كبار أعضاء الاتحاد والترقي وكان من أكبر المعارضين لحكم السلطان عبد الحميد ، يقول فيها :

عندما يذكر التاريخ اسمك
يكون الحق في جانبك ومعك يا أيها السلطان العظيم
كنا نحن الذين افترينا دون حياء
على أعظم سياسي العصر

* * *

قلنا إنّ السلطان ظالم وأنّ السلطان مجنون
قلنا لا بد من الثورة على السلطان
وصدقنا كل ما قاله لنا الشيطان
وعملنا على إيقاظ الفتنة

* * *

(١) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٧٧٢ .

(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ٨٦ .

لم تكن أنت المجنون بل نحن ولم نكن ندري

علقنا القلاة على فتيل واهٍ

لم نكن مجانين فحسب بل كنا قد عدمنا الأخلاق

فلقد بصقنا أيها السلطان العظيم

على قبلة الأجداد[١] .

ولئن كنا لا نستغرب أن تحمل اليهود أحقادهم وأطماعهم على شن تلك الحملة الإعلامية الضارية على السلطان عبد الحميد فإنّ الذي نستغربه أشد الاستغراب بل ونستهجنه بشدة أن ينجرف في تيار هذه الحملة المغرضة بعض المؤرخين المسلمين فيذهبوا إلى ترديد تلك الأغاليط التي استقوها من كتابات القوى الحاقدة وكأنها الحق الذي لا ريب فيه .

كما أن الأسى يشتد ويتعاظم في النفس المسلمة وهي ترى أجيالنا حتى يومنا هذا ما تزال تتلقى على مقاعد الدراسة في بعض أنحاء وطننا الإسلامي تلك المعلومات المغلوطة عن الدولة العثمانية بشكل عام والسلطان عبد الحميد بشكل خاص .

هذا فضلاً عن ما تبثه وسائل الإعلام من أفكار خاطئة عن هذا السلطان ودولته .

وإن كنا نشعر بالخزي لاستمرار الوقوع في هذا الخطأ وترديد هذه الافتراءات بعد مضي زمن طويل على إطلاقها وبعد تمكن مروجيها من تحقيق أهدافهم منها ، فقد خلعوا السلطان عبد الحميد ودكوا أركان الدولة العثمانية ، وأقاموا دولتهم اليهودية في فلسطين ، فإنّنا نرى أن استمرار وقوع بعض أبناء الإسلام في هذا الخطأ يرجع إلى أمرين :

---

(١) محمد حرب : المرجع السابق ، ص ص ٣٣ - ٣٤ .

الأول : الخلط غير المقصود بين عهد السلطان عبد الحميد الذي انتهى عام ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م تقريبًا وبين عهد الاتحاديين الذي بدأ بانتهاء عهد السلطان عبد الحميد وظل مستمرًا حتى أسلم أمره إلى الكماليين بعد الحرب العالمية الأولى .

الثاني : أنّ شبح الخلافة الإسلامية ما يزال يؤرق اليهودية العالمية وحلفاءها لذا فإن أيديهم الخفية ما زالت تعمل للإبقاء على الصورة الممسوخة للخلافة الإسلامية في أذهان أبناء الإسلام .

إلا أننا نرى أن ذلك لا يعفي أبناء الإسلام الذين ما زالوا يقعون في هذا الخطأ ، إذ عليهم أن لا يتسرعوا في الحكم وأن يتحروا الحقيقة ويدققوا فيما يقولون ويكتبون ، لا سيما وقد أمرهم الله عز وجل بذلك فى قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾ (١)

---

(١) سورة الحجرات : الآية (٦) .

المبحث الثالث

إرباك الدولة مادياً وإيقاعها تحت طائلة الديون وفرض الوصاية عليها

يُفرِّق اليهود في تعاملهم بين اليهود وغير اليهود ، فهم يتعاملون فيما بينهم بطريقة جيدة لأنّهم – في زعمهم – صفوة الخلق وشعب الله المختار ، أمّا في تعاملهم مع غيرهم من الأُمم فهم لا يدّخرون وسيلة للإضرار بهم إلاّ واتبعوها وذلك في كافة المعاملات ولا سيما الاقتصادية منها[١] .

ويستند اليهود في ذلك التصرف إلى عقيدة دينيةاستمدّوها من مصادرهم الدينية المحرفة (التوراة) والموضوعة (التلمود) فقد جاء في التوراة : « لا تقرض أخاك بربا ربا فضة أو ربا طعام أو ربا شيء ما ممّا يُقرض بربا . للأجنبي تقرض بربا ولكن لأخيك لا تقرض بربا لكي يباركك الرب الهك »[٢] .

كما جاء في التلمود : « غير مصرح لليهودي أنْ يقرض الأجنبي إلاّ بالربا »[٣] وكذلك جاء فيه : « إن السرقة غير جائزة من الإنسان (أي اليهودي) أما الخارجون عن دين اليهود فسرقتهم جائزة »[٤] .

هذا هو المنطلق اليهودي في التعامل مع من سواهم من الأمم ،

---

(١) فؤاد الرفاعي : حقيقة اليهود ، ص ١٨ .

– أحمد عبدالله الزغيبي : المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٣٤٢ .

(٢) تثنية ، أصحاح (٢٣) فقرة : ١٩ – ٢٠ .

(٣) أوغست روهلنج : المرجع السابق ، ص ٨٧ .

(٤) المرجع نفسه : ص ٧٩ .

وصدق الله العظيم القائل فيهم في محكم تنزيله : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [١] .

ولمّا كان الغش والسرقة والاستغلال هي القاعدة التي يقيم اليهود عليها معاملاتهم الاقتصادية مع كافة الأمم والشعوب غير اليهودية[٢] ، لذا فلا يُستغرب كون اليهود قد عملوا على كلٍّ ما من شأنه أنْ يضعف الدولة العثمانية اقتصاديًا ليتسنى لهم إغراقها بالديون وتطويقها بالربا الفاحش ، فالدولة العثمانية علاوة على كونها خارجة عن نطاق الشعوب اليهودية هي عدو اليهود اللدود والعقبة الكؤود التي حالت دون تحقيق أحلامهم وأطماعهم في فلسطين[٣] .

وقد خُيِّل لليهود أنّهم إذا نجحوا في إثقال كاهل الدولة العثمانية بالديون فإنّه بإمكانهم إخضاع حكامها لرغباتهم وإجبارهم على السماح لهم بتنفيذ مشاريعهم [٤].

لذا نجد اليهود وحلفاءهم الأوروبيين قد عمدوا إلى استنزاف موارد الدولة عن طريق إثارة الفتن والقلاقل في الداخل وإضرام نار الحروب في الخارج[٥] .

---

(١) سورة آل عمران : الآية (٧٥) .

(٢) سعد الدين السيد صالح : العقيدة اليهودية وخطرها على الإنسانية ، الطبعة الثانية (القاهرة : دار التابعين للنشر والتوزيع ، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م) ص ص ١٩٨ – ١٩٩ .

(٣) حسان حلاق : المرجع السابق ، ص ٢٨٧ .

(٤) المرجع نفسه : ص ٢٨٧ .

(٥) سبقت الإشارة في مواضع متفرقة من البحث إلى دور اليهود في إثارة الحروب والفتن الداخلية مثل فتنة الأرمن وحادثة الشام وغير ذلك .

وذلك إنفاذاً لخطتهم البروتوكولية فقد جاء في البروتوكول السابع : « ... ويجب علينا أن نكون مستعدين لمقابلة كل معارضة بإعلان الحرب على جانب ما يجاورنا من بلاد تلك الدولة التي تجرؤ على الوقوف في طريقنا » [١].

ومن المعلوم أنّ التصدي للحروب والفتن الداخلية يتطلب تجنيد فئة كبيرة من أبناء البلاد لفترات طويلة ممّا يعني حرمان البلاد من مشاركة شريحة كبيرة ومهمة من أبنائه - الشباب - في إنفاذ خططه التنموية ولا سيما الاقتصادية منها ، سواء كانت في المجال الزراعي أم التجاري أم غير ذلك ، إضافة إلى ما تتطلبه تلك الحروب من أموال طائلة كرواتب الجند وتوفير السلاح والذخيرة ووسائل النقل وغير ذلك ممّا تقتضيه الحروب[٢] .

وقد أشار السلطان عبد الحميد الثاني (رحمه اللّه) إلى هذا الموضوع في الخطاب الذي ألقاه بمناسبة انعقاد البرلمان العثماني الأول في عام ١٢٩٤هـ / ١٨٧٧م والذي شرح فيه الأسباب التي أدت إلى ضعف الدولة العثمانية وتأخرها ومن ذلك قوله : « ... وهكذا والدي الماجد المرحوم عبد المجيد خان قد اقتفى هذا الأثر فأعلن أساس التنظيمات الخيرية ... ومنذ ذلك اليوم اتسعت تجارة ممالكنا وزراعتها وزادت واردات دولتنا أضعافًا في أمد قليل ... وبينما شبّ في دولتنا أمل النجاح بناء على هذه المقدمات الحسنة ولا سيما بناء الأمنية الداخلية ظهرت حرب القرم فكان ظهورها مانعًا لدوام المساعي بتنظيم أحوال الملك والتبعة ومع أنّ خزينة دولتنا كانت حتى ذلك الوقت غير مديونة للخارج بقرش واحد اضطررنا للاستقراض الخارجي دفعًا للاحتياج والضرورة فتعذر والحالة هذه تقابل وارداتنا مع مصاريف الحرب المبرمة وبهذا السبب فتح باب الدين ، نعم إنّه في هذه المسألة بواسطة اتفاق الدول المفخمة ... إنّ

---

(١) محمد خليفة التونسي : المرجع السابق ، ص ١٢٨ .

(٢) مصطفى صبري : المصدر السابق ، ص ٩٨ .

توالي الحوادث الداخلية المتتابعة الظهور بمفاعيل التحريكات والتسويلات لم تخولنا وقتًا للنظر في إصلاحات ملكنا وتنظيماته بل أوقعت زراعتنا وتجارتنا في وقوف عظيم لاضطرارنا في كل عام لجمع معسكرات فوق العادة في أنحاء مختلفة ووضع الصنف الأكثر نفعًا من أهالينا تحت السلاح ... فدوام هذه الغوائل وتعاقبها وإنشاء الأدوات والأسلحة الجديدة الحربية التي هي أعظم أسباب شوكة دولتنا واقتدارها وعدم وضع وارداتنا ومصاريفنا تحت موازنة اقتصادية من الجهة الأخرى ، أفضتا إلى انتقاض إدارتنا درجة فدرجة فأنتجت ما نحن فيه الآن من المضايقة الخارقة للعادة »[١] .

لقد اتفق الكثير من المؤرِّخين والمحلّلين الاقتصاديين على أن أهم أسباب الارتباك المادي الذي عانت منه الدولة العثمانية في عهودها المتأخرة عائد إلى كثرة الحروب التي افتعلها أعداؤها وأُقحمت فيها[٢] .

فعلى سبيل المثال عانت الدولة العثمانية في عهد السلطان محمود الثاني (١٢٢٣ - ١٢٥٥ هـ / ١٨٠٨ - ١٨٣٩م) من ضائقات مادية كان من أهم أسبابها تكاليف الحروب التي سببتها الثورة اليونانية والتصدي لأطماع محمد علي باشا التوسعية وقد كان للتحريضات الأجنبية أثر بالغ في كلا الحدثين[٣] .

وكذلك كان الوضع في عهد السلطان عبد المجيد (١٢٥٥ - ١٢٧٧هـ / ١٨٣٩ - ١٨٦١م) وقد سبقت الإشارة إلى خطاب السلطان عبد الحميد الثاني

---

(١) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ص ٥٩٥ - ٥٩٦ .

(٢) محمد عبد اللطيف البحراوي : حركة الإصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني ، الطبعة الأولى (القاهرة : دار التراث ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م) ص ص ٢٦٩ - ٢٧٠ .

(٣) المرجع نفسه : ص ٢٧٠ .

- إسماعيل سرهنك : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٧٣ ، ٣٠٢ .

الذي أوضح فيه سبب تدهور الوضع المادي في عهد والده .

أمّا بالنسبة للسلطان عبد العزيز (١٢٧٧ - ١٢٩٣ هـ / ١٨٦١ - ١٨٧٦م) فقد وصل إلى سدّة الحكم والدولة تعاني من مصاعب مالية متصلة الحلقات حيث خلّف أسلافه وراءهم - بسبب الظروف السالفة الذكر - دينًا باهظًا[١] . مما أتاح الفرصة للدول الأجنبية الدائنة للتدخل في شؤون الدولة الداخلية عن طريق مراقبيها الماليين الذين فرضتهم على الدولة العثمانية[٢] .

لذا أظهر السلطان عبد العزيز حرصًا بالغًا على تدارك ذلك الخلل فأوكل إلى بعض ثقات رجاله أمر إصلاح الأوضاع المالية ، وأنشأ في استانبول ديوان للمحاسبة ، كما أنشأ البنك العثماني لنفس الغرض[٣] . وفي هذا الصدد أيضًا أمر السلطان عبد العزيز بالاقتصاد في جميع فروع ميزانية الدولة حتى في المبالغ المخصصة لسرايته الخاصة[٤] .

وعندما كادت الدولة أن تنجح في تخفيف العجز المالي أقلق ذلك أعداءها فراحوا يثيرون الفتن السياسية ويسعون لإغراقها في مزيدٍ من الديون ، فمن ناحية عملت العديد من الدول الأوربية على إثارة رعايا الدولة المسيحيين في عدة مناطق وشجعتهم على الثورة على الحكومة العثمانية بحجة المطالبة ببعض الامتيازات فقامت ثورة في جزيرة كريت وأُخرى في بلغاريا وثالثة في ولايتي بوسنة وهرسك ثم امتدّت إلى بلاد الصرب والجبل الأسود ، ولإخماد هذه

---

(١) اورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ٤٤ .

(٢) كارل بروكلمان : المرجع السابق ، ص ٥٧٤ .

(٣) إبراهيم بك حليم : المصدر السابق ، ص ٢١٨ .

(٤) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٥٤١ .

الثورات تكبدت الدولة خسائر مادية جسيمة[١] .

ومن ناحية أُخرى نجح الصدر الأعظم الدونمة اليهودي والعميل الإنجليزي مدحت باشا في إقناع السلطان عبد العزيز بأهمية إصدار الفرمان الذي يمنح خديوي مصر إسماعيل باشا حق الاقتراض من الخارج في عام ١٢٨٩ هـ / ١٨٧٢م ، وبذلك أتاح مدحت باشا الفرصة لأربابه الإنجليز ليستغلوا إسراف ورعونة الخديوي إسماعيل[٢] ، الذي أغرق مصر بالديون الخارجية ثم طرح أسهمها في قناة السويس للبيع عندما اشتدت به الضائقات المالية فكانت تلك هي الفرصة التي طالما حلم بها الإنجليز ، فسارع رئيس وزرائهم اليهودي دزرائيلي بشراء تلك الأسهم [٣] ، وقد كان للبارون اليهودي البريطاني روتشلد فضل كبير في تمويل تلك الصفقة السياسية[٤] ، التي حققت لبريطانيا مزيداً من الضمانات لسلامة مستعمراتها القديمة[٥] ، كما أتاحت لليهود الفرصة ليخطو خطوة واسعة في طريق تحقيق أحلامهم الصهيونية[٦] .

ولم يتوقف استغلال اليهود وحليفتهم الأولى بريطانيا للضائقة المالية التي افتعلوها في مصر عند هذا الحد ، بل اتخذوها ذريعة للتدخل في شئونها الداخلية حيث توالت البعثات الأجنبية لبحث أحوال مصر المالية ثم تبع ذلك

---

(١) إسماعيل سرهنك : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٣٤٦ .

– إبراهيم بك حليم : المصدر السابق ، ص ٢١٩ .

(٢) يلماز أوزتونا : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٧٩ .

(٣) هارولد تمبرلي وَ أ . ج . جرانت : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٦ .

– عبد العزيز الشناوي : قناة السويس والتيارات السياسية التي أحاطت بإنشائها ، ج ١ ، ص ١٦ .

(٤) عبد الوهاب المسيري : المرجع السابق ، ص ٦٣ .

(٥) عبد الرؤوف أحمد عمرو : المرجع السابق ، ص ٤٠ .

(٦) سبق أن تناولنا هذه الأحداث في المبحث الأول من الفصل الثاني .

تعيين المراقبين الماليين لتسوية الديون وبهذه الحجة أعطوا أنفسهم حق التدخل في كافة شؤون البلاد لينتهي الأمر عام ١٢٩٩هـ / ١٨٨٢م باحتلال بريطانيا لمصر قرّة عين العالم الإسلامي ونجاح اليهود في إسقاط إحدى أهم دعامات صرح الدولة الإسلامية الذي يسعون لتقويضه[١] .

وبذلك تحقّق لليهود ما وعدهم به حاخاماتهم ومنهم الحاخام (رايخون Raichon) الذي جاء في الخطاب الذي ألقاه عام ١٢٨٦هـ / ١٨٦٩م – في اجتماع سري عقده اليهود في مقبرتهم الخاصة بمدينة (براغ) عاصمة تشيكوسلوفاكيا تأبيناً لكبير الحاخامين (سيمون بن يهودا) – قوله : « ... يعيش الملوك والأباطرة والأمراء اليوم مثقلين بالديون ، وعلينا أن نستغل هذه الناحية ونزيد من قروضنا لهم مقابل رهن أملاكهم وسكك الحديد والمصانع والمناجم في بلادهم وبذلك تتم لنا السيطرة على عروشهم وإماراتهم »[٢] .

أمّا بالنسبة للسلطان عبد الحميد الثاني[٣] ، الذي قُدِّر له أنْ يصل إلى سدّة حكم الدولة العثمانية وهي تمر بأحرج مراحلها ، ومن ذلك التدهور الذي آلت إليه أوضاعها الاقتصادية[٤] ، ففي الوقت الذي كان هذا السلطان الواعي اليقظ قد عقد العزم على السعي من أجل تدارك الوضع وإصلاح ما يمكن إصلاحه لرفع المستوى الاقتصادي للدولة وتسديد الديون التي

---

(١) إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ص ص ٣٦٩ – ٤١٠ .

(٢) عبدالله التل : خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية ، ص ١٣٦ ، ١٤٠ .

(٣) كان السلطان مراد الخامس قد تولى الحكم في الدولة العثمانية لمدة ثلاثة أشهر في أعقاب عزل السلطان عبد العزيز ثم عُزل هو الآخر لاصابته بخلل في قواه العقلية ، وتولى الحكم بعده السلطان عبد الحميد الثاني .

– محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ص ٥٨٤ – ٥٨٦ .

(٤) محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص ص ٢٢٩ – ٢٣١ .

أثقلت كاهلها[١]، كان اليهود في الوقت ذاته قد اعتقدوا بأنّه آن الأوان لحصاد ثمار جهودهم السابقة التي بذلوها في سبيل الوصول بالأوضاع الاقتصادية في الدولة العثمانية إلى الوضع المتردي الذي وصلت إليه ، وهُيئ لهم أنّ بإمكانهم استغلال هذا الوضع لتحقيق مخططاتهم لذا فقد سعى زعيمهم هرتزل جاهداً حتى حظي بمقابلة السلطان عبد الحميد الثاني ظانّاً بأنّ ملايين اليهود التي جاء يلوح بها كفيلة بأن تجعل هذا السلطان – الذي هو في أمس الحاجة لها – يخضع لرغباتهم وينفذ لهم كل مطالبهم[٢]. وفي هذا الصدد يقول هرتزل في مذكراته : « أعطيته رأيي بصراحة قلت إنَّ هناك حلاً وحيداً لتركية: عقد اتفاق مع اليهود حول فلسطين ، بهذه الطريقة تُسوي الشؤون المالية ، وتُنفذ الإصلاحات ، وبعد ذلك يُمنع أي تدخل أجنبي منعًا باتًا ، كل التدابير المالية الأُخرى هي معالجات وقتية ولا تؤدي إلاّ إلى ملء جيوب القليلين من المضاربين » [٣] ، كما يؤكد الزعيم الصهيوني هذه العروض في قوله :« نصرف عشرين مليون ليرة تركية لنصلح الأوضاع المالية في تركية ، ندفع من هذا المبلغ مليونين بدل فلسطين ... وبالثمانية عشر مليونًا تحرر تركية من بعثة الحماية الأوربية »[٤] .

ولكن خابت آمال اليهود وأُحبطت مساعيهم وفشلت عروضهم إزاء ردة فعل السلطان عبد الحميد الذي أبت عليه عقيدته وكرامته أنْ يخضع لليهود وأنْ ينفّذ لهم مطالبهم مهما كانت النتيجة[٥] ، لقد جاء رد السلطان

---

(١) يلماز أوزتونا : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٢٧ .

(٢) عبدالله التل : الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام ، ص ٨٤ .

(٣) يوميات هرتزل : ص ٤٥ .

(٤) المصدر نفسه : ص ٣٣ .

(٥) ج . م . ن . جفريز : المصدر السابق ، ص ٨٣ .

عبد الحميد على هذه العروض على عكس ما توقع اليهود تماماً حيث قال لهم :
« ... لا أقدر أن أبيع ولو قدماً واحداً من البلاد لأنّها ليست لي بل لشعبي ، لقد حصل شعبي على هذه الإمبراطورية بإراقة دمائهم وقد غذوها فيما بعد بدمائهم وسوف نغطيها بدمائنا قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منا ... **ليحتفظ اليهود ببلايينهم . فإذا قسمت الإمبراطورية فقد يحصل اليهود على فلسطين بدون مقابل ، إنما لن تقسم إلا جثتنا ولن أقبل بتشريحنا لأي غرض كان** »[1] .

لقد أظهر هذا الموقف أصالة معدن السلطان عبد الحميد الذي صقله الإيمان بالله عز وجل وأكسبه الشعور بعظمة المسؤولية التي يتحملها من استخلف على هذه الأمة صلابة وقوة فلم يلتفت لإغراءات اليهود ومضى يعمل لتخليص بلاده من تلك الأزمة الاقتصادية بكل وسيلة ممكنة شريطة ألاّ يكون فيها خيانة لذلك الوطن أو تفريط في الأمانة التي اؤتمن عليها ، ورغم صعوبة الموقف فقد استطاع السلطان عبد الحميد (رحمه الله) أن يتغلب عليه وذلك مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾[2] .

وبادئ ذي بدء اهتم السلطان عبد الحميد بإيجاد طريقة للتخلص من عبء تلك الديون الثقيلة التي مهدت السبيل أمام الدول الأجنبية للتدخل في شؤون دولته وممارسة ضغوطها عليها[3] ، لذلك قام في عام ١٢٩٨هـ/١٨٨١م بتشكيل (إدارة الديون العمومية) وكانت هذه المؤسسة بمثابة وزارة مالية ثانية في الدولة وقد وضع السلطان بعض إيرادات الدولة الرئيسة الثابتة الدخل تحت

---

(١) يوميات هرتزل : ص ٣٥ .

(٢) سورة محمد : الآية (٧) .

(٣) بيير رنوفان : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٧٠٢ .

تصرف هذه الإدارة لتقوم بتوزيعها على الدائنين ، وقد أمكن بهذه الطريقة تسديد معظم الديون الخارجية[١] .

وإنّ مما يثبت حسن سياسة السلطان عبد الحميد أنّه استطاع أن يخفض ديون دولته بنسبة كبيرة رغم أنّ عهده لم ينج من الثورات والحروب التي كبدت الدولة خسائر مادية كبيرة[٢] ، فبالإضافة إلى استمرار الثورات والحروب التي حركتها الدسائس الأجنبية في بلاد البلقان منذ عهد السلطان عبد العزيز ، وكذلك قيام الثورة الأرمينية التي سبقت الإشارة إلى دور اليهود وحلفائهم في قيامها ، فقد عانت الدولة أيضًا من ويلات الحرب الروسية[٣] .

وقد أشار السلطان عبد الحميد (رحمه الله) إلى هذا في مذكراته في قوله :« عندما توليت الحكم كانت ديوننا العمومية تقرب من ثلاثمائة مليون ليرة، وُفقت إلى تخفيضها إلى ثلاثين مليون ليرة ، أي إلى العشر وذلك بعد دفع ما تطلبته حربان كبيرتان وسحق بعض تمردات داخلية »[٤] .

وبالنسبة للحرب الروسية فقد كان مدحت باشا الدونمة اليهودي وراء إقحام الدولة العثمانية فيها رغم أن السلطان عبد الحميد لم يكن يرغب في خوضها للظروف الصعبة التي كانت الدولة تعاني منها آنذاك[٥] ، فقد استطاع

---

(١) يلماز أوزتونا : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٢٧ .

(٢) أورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ١٥٠ .

(٣) إسماعيل سرهنك : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٣٥٦ ، ٣٦٠ .

- عبد العزيز نوار : الشعوب الإسلامية (بيروت : دار النهضة العربية ، ١٤١١هـ / ١٩٩١م) ص٢٠٦.

(٤) مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ٦٨ .

(٥) موفق بني المرجة : المرجع السابق ، ص ٦٢ .

مدحت باشا إقناع أعضاء المجلس العمومي الطارىء [1] الذي انعقد بهذا الخصوص في عام ١٢٩٤هـ / ١٨٧٧م بضرورة تلك الحرب ، كما أوعز إلى طلبة المدارس العليا بالقيام بمظاهرات تطالب بالحرب ، ودفع الصحافة المحلية للمناداة بالحرب وإثارة الأمّة لتقبلها ، ولم يكتف مدحت باشا بهذا ، بل أشاع أنّ السلطان عبد الحميد موالٍ للروس ولذلك يعارض الحرب ضدهم ، فاضطر السلطان عبد الحميد تحت هذه الضغوط أن يوافق على خوض تلك الحرب فكانت النتيجة هزيمة ساحقة للقوات العثمانية وخسائر مادية جسيمة تكبدتها الدولة[2] .

وقد نوه السلطان عبد الحميد (رحمه اللّه) في مذكراته إلى مسئولية مدحت باشا عن إقحام الدولة العثمانية في الحرب الروسية ، وأعرب عن عدم اقتناعه بذلك حيث يقول : « ... تركت للأمة المسائل التي اقترحتها روسيا أو بمعنى آخر قبول الدخول في حرب روسيا أو رفض هذه الحرب ، ترأس مدحت باشا المجلس العمومي الذي تشكل لبحث المسألة المشار إليها ومناقشتها ، وكان مدحت باشا محل ثقة كبيرة وحب بالغ من الشعب وعلى هذا أكون غير مسؤول عن حرب ٩٣ (تاريخ رومي = ١٢٩٤هـ / ١٨٧٧م) فلا هي مسؤوليتي الشخصية ولا هي مسؤوليتي كسلطان ... وإنّه لمّا يخدش إنصاف التاريخ

---

(١) كانت روسيا قد طالبت الدولة العثمانية بإجراء إصلاحات في بعض الولايات التي يُشكل المسيحيون معظم سكانها في بلاد البلقان ، وهددتها بالحرب إذا لم توافق على تلك المطالب ، وقام سفراء الدول التي شاركت في مؤتمر الأستانة ١٢٩٣هـ / ١٨٧٦م بالتوقيع على اللائحة التي تضمنت تلك المطالب (لائحة لوندره) وأرسلتها إلى الدولة العثمانية وذلك في عام ١٢٩٤هـ / ١٨٧٧م فعقدت الدولة العثمانية المجلس العمومي الطارىء لمناقشة هذا الموضوع .

- يوسف بك آصاف : المصدر السابق ، ص ص ١٢٩ - ١٣١ .

(٢) أورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ص ١١٥ - ١١٧ .

وعدالته أن تُلقى علي وعلى عهدي مسؤولية فشل هذه الحرب »[١] .

كما أشار المؤرخ إبراهيم بك حليم - المعاصر لتلك الأحداث في كتابه المعروف بـ (التحفة الحليمية) إلى موقف اليهود والنصارى من رعايا الدولة العثمانية الذين شاركوا في مجلس الأعيان الذي عُقد لمناقشة موضوع الحرب الروسية ، حيث أصروا على ضرورة خوض الدولة العثمانية لتلك الحرب في قوله : « ... وقالت النصارى واليهود : نؤثر إراقة آخر نقطة من دمائنا ، وصرف آخر درهم من مالنا على حفظ شرف مملكتنا من الإهانة بالتجزئة . وكان ذلك نفاقًا من أغلبهم »[٢] .

ومن ناحية أخرى فقد كان اليهود يسعون إلى تضييق الخناق على السلطان عبد الحميد حين كان يضطر - تحت إلحاح الدول الدائنة على سداد ديونها - إلى طلب ديون جديدة من المصارف الأوروبية لسداد الديون القديمة أو تغطية تلك المصارف لديون دولته مؤقتًا ، ولأن اليهود كانوا يسيطرون على معظم هذه المصارف والبيوتات المالية[٣] ، لذا فقد كانت تمتنع عن إقراض الدولة العثمانية[٤] .

كما كان اليهود يشعرون بالقلق والأسى حين تتمكن الدولة العثمانية من إيجاد مخرج لبعض مشاكلها المالية ويحاولون الحيلولة دون ذلك ، ومما يُستدل به على ذلك على سبيل المثال ما جاء في تلك الرسالة التي بعث بها الزعيم

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ص ٧٠ - ٧١ .

(٢) إبراهيم بك حليم : المصدر السابق ، ص ٢٥٧ .

(٣) يمتلك معظم أسهم بنوك أوروبا أُسَر يهودية مثل آل روتشلد ، ساسون مورجانتو ، باروخ ، ماندلسون، فرانكفورتر .

- عبدالله التل : خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية ، ص ص ١٨٠ - ١٨٢ .

(٤) حسان حلاق : المرجع السابق ، ص ٢٨٧ .

الصهيوني هرتزل إلى أحد أصدقائه اليهود والتي يقول فيها : « ... يُهدد الصهيونية حالياً خطر جسيم أنت تعلم ان هناك إعداد لتدبير روسي – فرنسي للمالية التركية إذا تحقق ذلك دفنا كل آمالنا بالحصول على فلسطين ، لذلك على كبار المصرفيين اليهود ألا يساعدوا في تحقيق ذلك ، وقد تكلمت أمس في الموضوع في (الاتحاد المحلي) وأوعزت إلى لجنتي في إنجلترة بالشروع بحملة ضد القرض »[١] .

ورغم كل تلك العوائق التي حاول اليهود أن يضعوها في طريق السلطان عبد الحميد وهو يعمل للنهوض بالوضع المالي المتردي للدولة العثمانية ، على أمل أن يتراجع عن موقفه تجاه عروضهم إذا ما فشل في إصلاح الوضع واشتدت عليه الضائقات المالية ، إلا أنّ السلطان عبد الحميد لم يضعف ولم ييأس واستمر في سياسته الإصلاحية[٢]، مع أنّ الإصلاح الإقتصادي في دولة لها ظروف الدولة العثمانية أمر صعب للغاية ، فبينما كان العالم بأسره يعيش خلال الفترة من (١٢٩٥هـ / ١٨٧٨م) إلى (١٣١٨هـ / ١٩٠٠م) أزمة اقتصادية طاحنة ، وكان من أهم الوسائل التي استخدمتها معظم الدول لحماية اقتصادها إقامة الحواجز الجمركية على وارداتها ، فقد كانت الدولة العثمانية عاجزة عن فعل ذلك بسبب معاهدات الامتيازات الأجنبية[٣] ، ذلك القيد القديم الذي أعاق حرية الدولة العثمانية وأوقعها في كثير من المآزق[٤] ، فأضحت الدولة العثمانية بسبب تلك الامتيازات وكأنّها مستعمرة أوربية تمد أوروبا

---

(١) يوميات هرتزل : ص ٤٧ .

(٢) مذكرات الأميرة عائشة : ص ص ٢٥ – ٢٦ .

(٣) سبقت الإشارة إلى ان نظام الامتيازات الأجنبية يعفي من الضرائب . انظر المبحث الثاني من الفصل الأول من هذا البحث . ص ٦٢ .

(٤) المصدر نفسه : ص ٢٦ .

بالمواد الأوليِّة بأرخص الأثمان ، وسوق واسعةٌ لمنتجاتهم الصناعية وحالت دون تطبيق سياسة حمائية للصناعة العثمانية[١] ، لا سيما وقد كان معظم التجار في الدولة من اليهود والأرمن واليونانيين وغيرهم من الطوائف المسيحية[٢] .

وقد أشار السلطان عبد الحميد (رحمه اللّه) في مذكراته إلى أثر تلك المعاهدات الأجنبية في تردي الأوضاع الاقتصادية في قوله : « ... الدخل يقل عامًا بعد عام ، والإنتاج المحلي كان يضمحل يومًا بعد يوم ، فقد كنا ، منذ فترة التنظيمات ، نأتي بكل أشيائنا من أوروبا . المنتوجات الأوروبية غطت كل مكان ، أضحت عدة مصانع في طريق الزوال ، وهبط دخل الجمارك إلى الحد الذي لا يُجزيء بسبب تلك المعاهدات المعقودة مع الدول الكبرى »[٣] .

ولما كان السلطان عبد الحميد يدرك أنّ التخلص من قيد الامتيازات الأجنبية هو أمل صعب المنال فقد رأى أنّ أجدى وسيلة لرفع المستوى الاقتصادي هي زيادة الإنتاج الزراعي[٤] ، ولمّا كانت أبرز مشكلة تواجه المزارعين هي صعوبة المواصلات وعجزهم عن نقل منتجاتهم للمدن المجاورة والموانيء القريبة بسبب طول الطرق ورداءتها [٥] ، لذا فقد وجد السلطان عبد الحميد أن إنشاء خط حديد بغداد ١٣٢٠هـ / ١٩٠٢م سوف يحل هذه المشكلة - إضافة إلى الأهداف السياسية والعسكرية لهذا المشروع . والتي

---

(١) نادية محمود مصطفى وآخرون : العلاقات الدولية في التاريخ الإسلامي (العصر العثماني) الطبعة الأولى (القاهرة : المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م) ص ٢٢٥ .

(٢) محمد عبداللطيف البحراوي : المرجع السابق ، ص ٢٧٢ .

(٣) مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ١٣٩ .

(٤) مذكرات الأميرة عائشة : ص ٢٧ .

(٥) محمد عبد اللطيف البحراوي : المرجع السابق ، ص ٢٦٧ .

سبق التطرق إليها[١] – وبالفعل انتهت هذه المشكلة بعد إنشاء هذا الخط الذي يمر بكثير من المدن والقرى العثمانية[٢] ، وزاد الإنتاج الزراعي بصورة ملحوظة وفي هذا الصدد يقول السلطان عبد الحميد : « ... إنّ خط حديد الأناضول أمر على درجة كبيرة من الأهمية ... لقد فهمت من التقارير المقدمة أنّ المناطق التي يمر بها الخط الحديدي تزداد غنىً يومًا بعد يوم ، ... لقد كنا ننقل البضائع قديمًا على ظهور الجمال ، وكان نقل طن القمح آنذاك من ولاية أسكيشهر إلى محطة حيدر باشا في استانبول يكلفنا ٣٠٠ قرش (٦٠ فرنكًا) أمّا اليوم فهو يكلفنا ٧٠ قرشًا (١٤ فرنكًا) وكان يصعب علينا قديمًا نقل المحاصيل الزراعية من المناطق النائية داخل البلاد ، ومن ثم كانت تتلف في مواطنها ولهذا السبب كان الفلاّح لا يزرع بجوار المكان الذي يعيش فيه إلاّ ما يمكن له بيعه هناك ، أمّا اليوم – وبفضل وسائل النقل الرخيصة – فقد صار الفلاّح قادرًا على زرع الكمية التي يريدها من المحاصيل ، بعد أن أصبح واثقًا من إمكان بيعها ، ويقال الآن إنّ خط الأناضول تمّ تنظيمه بصورة طيبة ، وإنّ مخازن الحبوب تُقام باستمرار بالقرب من محطات السكك الحديدية ، لقد حقق هذا الخط نتائج مطمئنة فاقت ما كنا نتعشمه »[٣] .

ولكن ما لم يتسن لليهود تحقيقه في عهد السلطان عبد الحميد وأسلافه تسنى لهم حين تمكّنوا من إزاحته عن طريقهم ، فبعد أن سيطر الإتحاديون على كثير من مؤسسات الدولة في أعقاب الانقلاب الدستوري عام ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م ومن ثمّ خلت الساحة لهم بعد خلعهم للسلطان عبد الحميد عام ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م تمكن اليهود من إغراق الدولة بالديون مستغلين قلة الخبرة

---

(١) انظر ص ١٣٣.

(٢) كارل بروكلمان : المرجع السابق ، ص ص ٥٩٣ – ٥٩٤ .

(٣) مذكرات الأميرة عائشة : ص ٣٠ .

السياسية للمستغفلين من أعضاء هذه الجمعية إضافة إلى كون كثير من أعضائها من اليهود ذاتهم – الدونمة –[١] .

وقد أثبتت الوثائق البريطانية خضوع جمعية الاتحاد والترقي للنفوذ الاقتصادي اليهودي فقد جاء في رسالة السفير البريطاني في استانبول جيرارد لوثر Gerard Lowther إلى وزير خارجية بلاده في عام ١٣٢٨هـ / ١٩١٠م قوله : « ... الكيان الاقتصادي التركي ضعيف جدًا ولا يستطيع أن يقف وحده دون سند أسبوعًا واحدًا ، وكان المؤمل في البداية أن يؤلف الأرمن والبلغار واليونان واليهود العثمانيون الدعامة الاقتصادية للبلاد ، ولكن يظهر أن جمعية الاتحاد والترقي قد تحالفت فقط مع اليهود العثمانيين والأجانب وعادت العناصر الأخرى ... ومما لا شك فيه أن حكومة تركيا الحالية وهي تتحمل نفقات عسكرية ثقيلة ، بحاجة إلى قروض مالية مما سيمكن المقرضين اليهود من استخدام ضغوط جديدة عليها ، وقد رفض السلطان عبد الحميد عندما كان يعاني أزمة مالية شديدة مثل هذه العروض »[٢].

كما أشار السلطان عبد الحميد (رحمه الله) في مذكراته إلى دور جمعية الاتحاد والترقي في تراكم الديون على الدولة العثمانية في قوله : « عندما توليت الحكم كانت ديوننا العمومية تقرب ثلاثمائة مليون ليرة وُفقت إلى تخفيضها إلى ثلاثين مليون ليرة أي إلى العشر ... أمّا ناظم بك ورفاقه فقد رفعوا هذا الرقم بعد تولي (الاتحاد والترقي) الحكم بعدي من ثلاثين مليون ليرة حيث كان حينما تركت الحكم ، إلى أربعمائة مليون ليرة يعني إلى ثلاثة عشر أمثاله ! ! يعني أن خلفائي ولا أقصد هنا أخي (السلطان رشاد) لأنّه لا يملك من أمر السلطنة شيئًا ، ولذلك أقول خلفائي أعضاء جمعية (الاتحاد

---

(١) حسّان حلاّق : المرجع السابق ، ص ٢٣٥ .

(٢) F.O.800/193.A .

والترقي) أظهروا فعالية ونجاحًا عظيمين في زيادة ديوننا »[١] .

وهكذا نجح اليهود في تنفيذ مخططاتهم فبعد أن قيدوا الدولة العثمانية بالديون وتمكنوا من إيصال أحد رجالهم إلى منصب وزير المالية وهو الدونمة (جاويد باشا)[٢] ، استطاعوا أن يخطوا خطوات واسعة في طريق استعمارهم لفلسطين فقد أقنع ذلك اليهودي رفاقه الاتحاديين بأن لا غضاضة في أخذ الأموال التي يلوح بها اليهود ، للخروج من الضائقات المالية التي يعانون منها مقابل تسهيل الهجرة والاستيطان اليهودي في فلسطين ، وبالفعل قام جاويد بعقد عدة صفقات مالية مع عدد من البيوتات المالية اليهودية في أوروبا مثل كريدي موبيلين وبرنارد ودريفوس وجاريسلوسكي وقُدرت عائدات هذه الصفقات بستة ملايين ليرة عثمانية[٣] .

وقد أكد السفير البريطاني لوثر في رسالته السالفة الذكر حقيقة تسهيل جمعية الاتحاد والترقي عملية هجرة اليهود إلى فلسطين مقابل الدعم المالي الذي يقدمه اليهود للجمعية حيث يقول : « ... ولما كانت الدولة التركية تضم الأماكن المقدسة عند إسرائيل فمن الطبيعي أن يسعى اليهودي جاهدًا ليحتل مركز نفوذ ينفرد به وحده ويستخدمه لتحقيق مثله العليا ألا وهي إقامة دولة مستقلة في فلسطين ... وهو سيصيد عصفورين بحجر واحد إذا استطاع أن

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ٦٨ .

(٢) جاويد باشا : يهودي من يهود الدونمة وماسوني بدرجة ٣٣ لعب دورًا كبيرًا في الانقلاب الدستوري والثورة على السلطان عبد الحميد الثاني عام ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م . وفي عام ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م عُين وزيرًا للمالية وكتب عدة كتب في الاقتصاد أشهرها كتاب (علم الاقتصاد) في أربعة مجلدات . وفي عام ١٣٤٤هـ / ١٩٢٦م أُعدم بتهمة التآمر على مصطفى كمال .

- أرمسترونج : المرجع السابق ، ص ٣٧ .
- أحمد نوري النعيمي : يهود الدونمة ، ص ٧٨ .

(٣) حسان علي حلاق : المرجع السابق ، ص ٢٣٠ ، حاشية رقم (٣) .

يحصل من الأتراك على السماح بهجرة غير مقيدة ... وفي مقابل الهجرة غير المحددة هذه لليهود الأجانب عرض على جمعية الاتحاد والترقي أن يستبدل لغته الوطنية باللغة التركية بل انه على استعداد لتحمل جميع ديون الدولة التركية ، وقد قام الدكتور ناظم وهو من أبرز أعضاء جمعية الاتحاد والترقي في سلانيك ويقال إنه من أصل يهودي ... بزيارة فرع الوكالة اليهودية في باريس ومنذ تلك الزيارة تبنى فكرة إدخال ٢٠٠٠٠٠ يهودي »[١].

ولم ينته الأمر عند هذا الحد بل اتفق يهود الدونمة في جمعية الاتحاد والترقي على بيع ثلاثة ملايين دونم من الأراضي في فلسطين وسوريا على جمعيات الاستعمار الصهيوني وكادت أن تتم هذه الصفقة اليهودية فعلاً لولا قيام ضجة كبيرة في الصحف حول ذلك أدت إلى فشلها[٢] .

وبهذا نرى أنّ اليهود داخل الدولة العثمانية وخارجها قد عملوا يداً واحدة وبكلِ ما أُوتو من قوة على تدمير اقتصاد الدولة الإسلامية العثمانية وتمزيق أراضيها .

---

(١) F.O.800/193.A.

(٢) محمد كرد علي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ص ١٢٨ - ١٢٩ .

الفصل الثالث
تنفيذ المخططات الصهيونية

المبحث الأول : دور المحافل الماسونية .

المبحث الثاني : إثارة العصبيات الجنسية داخل الدولة العثمانية .

المبحث الثالث : اليهود وجمعية الاتحاد والترقي .

المبحث الأول
دور المحافل الماسونية

من أهم أسلحة اليهود التي استخدموها وما زال يفعلون في سبيل تحقيق مآربهم وتنفيذ مخططاتهم ضد المسلمين بوجه خاص والإنسانية بوجه عام الجمعيات والمنظمات السرية ، وليس ذلك بغريب فالتاريخ يشهد بأن لليهود براعة فائقة في مسيرات الظلام وأنهم لعبوا في الخفاء دوراً ضخماً لتحقيق أهدافهم يفوق في خطورته الدور الذي لعبوه في العلانية ، فلا تكاد توجد جمعية ذات أسرار وأخطار إلا كان اليهود خلفها ، وقد يتولى اليهود أنفسهم إنشاء هذه الجمعيات أو يوعزون بإنشائها أو يجدون جمعيات قامت لغرض أو لآخر فيندسون فيها وينفثون فيها سمومهم ويوجهونها الوجهة التي يريدونها[1].

فكما كان اليهود وراء عشرات الجمعيات والمنظمات السرية التي قامت في أوربا منذ قرون لهدم المسيحية مثل جمعية (فرسان المعبد) وجمعية (الصليب الوردي) وجمعية (القدّاس الأسود) وغير ذلك من الجمعيات السرية[2] كانوا كذلك ومنذ قرون أيضًا وراء الكثير من الجمعيات السرية الهدامة التي أوقعت بالمسلمين أبلغ الأضرار مثل القرامطة والحشاشين والراوندية والباطنية والزنج وغيرها من الجمعيات والحركات السرية التي اتخذت الكثير منها التشّيع ستاراً لها ، ونسجوا خلفه ألوانًا من التّرهات والأباطيل بقصد الكيد للإسلام والمسلمين[3] .

---

(١) محمد سيد طنطاوي : المرجع السابق ، ص ٦٢٧ .

(٢) محمد عبدالله عنان : المصدر السابق ، ص ٦٣ ، ٧١ ، ٧٣ .

- جواد آتلخان : أسرار الماسونية ، ص ص ٦ – ٧ .

(٣) كثير من الحركات التي اتخذت التشيع لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ستاراً لها كان واضع أسسها عبدالله بن سبأ اليهودي الذي ادّعى الإسلام وكان وراء الفتنة التي انتهت بمقتل ==

والمتتبع لهذه الجماعات والحركات السرية يلاحظ أنها كانت تظهر بصورة متلاحقة فلا يكاد المسلمون الذين يتصدون للدفاع عن دينهم وأوطانهم يتمكنون من السيطرة على إحداها بعد جهاد قد يستغرق عشرات السنين وبعد الكثير من الخسائر في الأموال والأرواح ، إلا وتظهر في أعقابها حركة أخرى بمسمّى جديد تقوم بنفس الدور وهو النيل من الإسلام والمسلمين ، وهذا يدل على أن هناك قوة خفية تدبر هذا الأمر ، وكل القرائن تثبت أن اليهود هم هذه القوة الخفية[1] .

وإذا تركنا الماضي وعُنينا بالحاضر وجدنا اليهود أيضًا وراء كثير من الجمعيات والمنظمات السرية الهدامة الموجودة الآن والتي بذلت وما زالت تبذل جهداً كبيراً لتحقيق أهداف اليهودية العالمية ، وليست الماسونية إلا واحدة من هذه المنظمات اليهودية السرية بل هي من أهمها فقد كان لها دور فاعل في تنفيذ المخطط الصهيوني وما زالت تستكمل هذا الدور بكل جدارة واقتدار[2] .

وإطلاق مسمى الماسونية على هذه الجمعية جاء مشتقًا من لفظة

= الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فهذا اليهودي كان وراء نشر الكثير من المعتقدات الفارسية الضالة بين المسلمين مثل نظرية الحق الإلهي ومذهب الوصاية وتناسخ الأرواح وغيرها من الأفكار التي استندت إليها العديد من الحركات الهدامة التي ظهرت في الدولة الإسلامية في عصور مختلفة ، وقد كانت القيادة الفارسية الساخطة على الإسلام خير سندٍ لليهود في هذا المجال حيث كانت بلادهم منبعًا وموطنًا لهذه الحركات المناوئة للإسلام .

- محمد بن عبد الكريم الشهرستاني : الملل والنحل ، جزءان ، الطبعة الأولى (بيروت : مؤسسة الكتب الثقافية ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م) ج ١ ، ص ص ١٢٧ - ١٢٨ .

- أحمد شلبي : المرجع السابق ، ص ٣١٦ ، ٣٥٧ .

(١) المرجع نفسه : ص ٣٥٧ .

(٢) سعد الدين السيد صالح : المرجع السابق ، ص ٢٧١ .

(فري ميسون Free Mason) الإنجليزية وكلمة Free الانجليزية تعني (حر) وكلمة Mason تعني (البناء) فتصبح الدلالة اللغوية لهذه اللفظة (البناء الحر)[١] .

أما فيما يتعلق بمنشأ الماسونية فهو أمر للباحثين فيه آراء متضاربة ، فمنهم من يقول بحداثتها فهي عنده لا تتعدى القرن الثاني عشر الهجري الموافق للقرن الثامن عشر الميلادي ، ومنهم من ربط نشأتها بجمعية الصليب الوردي التي تأسست في أوائل القرن الحادي عشر الهجري الموافق أوائل القرن السابع عشر الميلادي ، ومنهم من يرجعها إلى فترة الحروب الصليبية ، ومنهم من يوغل في قدمها فيربطها ببناء هيكل سليمان بل ويرجعها آخرون إلى الكهانة في عهد الفراعنة[٢] .

والواقع أن من يحاول التعرف على التفاصيل الدقيقة لهذه الجمعية تواجهه الكثير من العقبات ومرجع ذلك أن الماسون يتعمدون السرية وإضفاء الضبابية على كل ما يتعلق بمنظمتهم، بل إنَّ كثيرًا من المنتسبين إلى الماسونية لا يستطيعون حل كثير من طلاسمها فهي أسرار لا يحظى بها إلا أصحاب

---

(١) تعددت الأقوال حول أصل هذا المسمى فهناك من يقول أنه مأخوذ من البنائين الأحرار وهم العمال الذين يشتغلون بالحجر غير القاسي الذي يمكن تشكيله بالمطرقة والإزميل وان المنظمة اتخذت هذا الاسم لأنها ترى أنها تحسن صنعًا مثل البنائين الأحرار . وهناك تفسير آخر يرجع ارتباط اسم هذه المنظمة بالبناء إلى وجود فئة خاصة من البنائين كان يُوكل لهم بناء الهياكل والكنائس والمقابر ويكونون على علم بأسرار هذه المباني كما أن لهم صلة بالكهنة وبالأسرار الكهنوتية فأراد الماسون أن يتخذوا لهم اسمًا غامضًا يكتنف أسرارهم فاتخذوا اسم البناء الحر أو البنائين الأحرار .

- صابر طعيمة : الماسونية ذلك العالم المجهول ، ص ١٧ .
- أحمد نوري النعيمي : اليهود والدولة العثمانية ، ص ١٧٢ .
- عبد الوهاب المسيري : المرجع السابق ، ص ١١٥ .

(٢) محمد عبدالله عنان : المصدر السابق ، ص ص ٨٨ – ٨٩ .

الدرجات العليا فيها[١] . وقد جاء في تعميم المشرق الفرنسي الأعظم لعام ١٣١٠هـ / ١٨٩٣م ما نصه : « إن المشرق الأعظم يعتبر حفظ الأسرار من أهم واجبات الماسونية، ... ويطلب من إخواننا الذين يشتغلون في مهن الطباعة بألا يبوحوا بشيء من الأسرار والخطب التي تلقى في المحافل »[٢] .

إلا أن من الأشياء التي يتفق عليها الباحثون في هذا المجال هو أن المنظمة الماسونية مقسمة إلى مراتب لا يصل إلى الدرجات العليا منها إلا الذين ثبت إخلاصهم لها وتفانيهم في خدمة أهدافها وهي على النحو التالي :

المرتبة الأولى : الماسونية الرمزية ويدخل فيها أتباع الديانات المختلفة ويقومون بطقوس وحركات لا يُفهم مغزاها وفي هذا الطور تحاول الماسونية الظهور في شكل جمعيات خيرية غايتها ترقية الفكر وإسعاد الإنسانية وتنجح في جذب الناس إليها عن طريق الشعارات البراقة ، وأعضاء هذه المرتبة يجهلون الأهداف البعيدة للماسونية وغالبًا ما تسعى الماسونية إلى تحسين أحوالهم المعيشية كأن تعمل على وصول العضو إلى مكان الصدارة في عمله أو تمكنه من الحصول على وظيفة ممتازة أو تحقيق ربح كبير في تجارته مما يجعل الأعضاء أكثر ارتباطًا بها ، وتنقسم هذه المرتبة إلى ثلاثة وثلاثين درجة يترقى فيها العضو بمقدار إخلاصه وكفاءته وتخليه عن دينه ووطنه .

المرتبة الثانية : الماسونية الملوكية ومعظم أعضائها من اليهود ولا يسمح لغير اليهودي بالوصول إليها إلا إذا وصل لأرقى درجات الماسونية الرمزية ولم

---

(١) محمد علي الزعبي : الماسونية منشئة ملك إسرائيل (بيروت : المكتبة الثقافية ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م) ص ٤٧ .

– عبد الوهاب المسيري : المرجع السابق ، ص ١٢٩ .

(٢) جواد آتلخان : أسرار الماسونية ، ص ص ٢٤ – ٢٥ .

يعد يكترث بدين ولا وطن ، وقد يعرف بعض أعضاء هذه المرتبة الأهداف البعيدة للماسونية .

المرتبة الثالثة : الماسونية الكونية وهي أرقى أطوار الماسونية وتتكون من اليهود وحدهم ويطلق عليهم (الحكماء) وهي موطن الأسرار ومصدر السلطة والتخطيط لجميع المحافل الماسونية[١] .

ولما كان أهم ما يعنينا من أمر الماسونية هو إثبات صلتها باليهود وأنها كانت من أفتك أسلحتهم في الحرب التي شنوها على الدولة العثمانية ، فإنه ابتداءً من شعارها المزيف وهو (الحرية والمساواة والاخاء)[٢] فقد نص عليه حكماء صهيون في البروتوكول التاسع في قولهم : « ... إن الكلمات التحررية لشعارنا الماسوني هي الحرية والمساواة والإخاء وسوف لا نبدل كلمات شعارنا بل نصوغها معبرة ببساطة عن فكرة وسوف نقول حق الحرية وواجب المساواة وفكرة الاخاء وبها سنمسك الثور من قرنيه ، وحينئذٍ نكون قد دمرنا في حقيقة الأمر كل القوى الحاكمة إلا قوتنا »[٣] .

أما فيما يختص بأهداف الماسونية فهي نوعان : أهداف ظاهرة وهي التي يقنعون بها السذج من أتباعهم وقد صورها أحد أساتذتهم (شاهين مكاريوس) في قوله : « الماسونية جمعية أدبية أخذت على عاتقها خدمة الإنسانية وعضد

---

(١) محمد الزعبي : الماسونية منشئة ملك إسرائيل ، ص ١١ .
- صابر طعيمة : الماسونية ذلك العالم المجهول ، ص ص ١٧٩ - ١٨٦ .
- سعد الدين السيد صالح : المرجع السابق ، ص ٢٧٤ .

(٢) شاهين مكاريوس : الأسرار الخفية في الجمعية الماسونية ، الطبعة الثانية (بيروت : دار مارون عبود، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م) ص ٨ .

(٣) محمد خليفة التونسي : المرجع السابق ، ص ١٣٠ .

الدين بأدبياتها وإصلاح الشعوب وتنوير الأذهان »[١] وأهداف خافية وهي التي لا يحيط بها إلا من بلغ الدرجات العليا في الماسونية وهي نفسها أهداف الصهيونية العالمية يؤكد ذلك هذا المقطع من البروتوكول الرابع لحكماء صهيون: « إن المحفل الماسوني المنتشر في كل أنحاء العالم ليعمل في غفلة كقناع لأغراضنا . ولكن الفائدة التي نحن دائبون على تحقيقها من هذه القوة في خطة عملنا وفي مركز قيادتنا ما تزال على الدوام غير معروفة للعالم »[٢] .

ولكن لأن الحقيقة دائمًا لا بد أن تظهر فقد تمكن القائد العسكري التركي المناضل جواد آتلخان في كتابه أسرار الماسونية من كشف حقيقة الأهداف الماسونية[٣] . مستقيًا معلوماته من مصادر ماسونية موثوقة تمكن من الحصول عليها ومن ذلك ما جاء في مضابط مؤتمر المشرق الأعظم الفرنسي عام ١٣٤١هـ / ١٩٢٣م : « ... الماسونية هي الجمعية التي تعمل في الخفاء للاستيلاء على العالم عن طريق بث أفكارها » وكذلك ما جاء في مضابط المؤتمر الماسوني العالمي المنعقد في باريس عام ١٣١٨هـ / ١٩٠٠م : « أن هدف الماسونية هو تكوين جمهورية عالمية »[٤] .

---

(١) شاهين مكاريوس : المرجع السابق ، ص ٨ .

(٢) محمد خليفة التونسي : المرجع السابق ، ص ١١٩ .

(٣) كان هذا القائد التركي المناضل معاصرًا لحكم السلطان عبد الحميد الثاني وكان مديرًا لدائرة الأمن العام في الدولة العثمانية أثناء الحرب العالمية الأولى ، وقد وعى أهداف الحركة الصهيونية وقام بتأليف العديد من الكتب التي كشفت الستار عن كثير من الأمور التي تتعلق بأطماع اليهود في فلسطين وأخطارهم على العالم الإسلامي ، كما كشف أسرار الماسونية ووضح دورها في خدمة الصهيونية ولذا فقد تعرض لتهديد الصهيونية عن طريق منظمة (Beni Brith) .

- محمد الزعبي : الماسونية في العراء ، ص ٨٧ .
- حسان حلاق : المرجع السابق ، ص ٣٠١ ، ٣١٥ .

(٤) جواد آتلخان : أسرار الماسونية ، ص ٢٨ ، ٣٠ .

وهكذا فبالربط بين ما جاء في بروتوكولات حكماء صهيون وما جاء في مضابط المؤتمرات الماسونية يتبين بجلاء أن هدف الماسونية هو ذاته هدف الصهيونية أي إقامة الدولة اليهودية العالمية .

وأخيراً فلم يعد بإمكان الماسون إنكار يهوديتهم بعد أن شهد عليهم شاهد منهم هداه الله فارتد عن الضلال الماسوني بعد أن وصل إلى أعلى مراتبه - رئيس أول لدرجة العقد الملوكي وأستاذ أعظم إقليمي ومندوب عام على محافل سوريا وفلسطين والعراق - ذلك هو (يوسف الحاج) مؤلف كتاب (في سبيل الحق - هيكل سليمان) وهو كتاب خطير فضح فيه يوسف الحاج أسرار الماسونية وأهدافها ففي ما يتعلق بالرموز اليهودية التي تستعملها الماسونية يقول يوسف الحاج : « أولاً : يسمي الماسون الرمزيون المكان الذي يجتمعون فيه محفلاً أو هيكلاً رمزاً للكون الذي هو هيكل الله بينما الملوكيون يرمزون به إلى هيكل سليمان الذي يرى فيه اليهود شعار وطنهم القومي .

ثانياً : يستعمل الماسون الرمزيون[١] النور رمزاً إلى نور العقل الإنساني أما الملوكيون فيرمزون به إلى عامود النار الذي رافق بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر .

ثالثاً : يرمز السيف في الماسونية العامة إلى الجهاد في سبيل الحقّ والعدل والحرية أما الملوكيون فيشيرون إلى السيف الذي كان يحمله بنو إسرائيل دفاعاً عن أورشليم »[٢] .

---

(١) من الملاحظ أن أعضاء الماسونية الرمزية وهم الفرائس الساذجة يجهلون أسرار وأهداف الماسونية ومما يؤسف له أن كثيراً من أبناء الإسلام الذين خُدعوا ببريق الشعارات الماسونية يقعون ضمن هذه الشريحة ويقدمون الكثير من الخدمات لهذه المؤسسة اليهودية دون أن يشعروا .

(٢) صابر طعيمة : الماسونية ذلك العالم المجهول ، ص ص ١٤٣ - ١٤٤ .

ويبدو أن كثرة الأدلـة التي تثبت صلـة اليهود بالماسونية هي التي دفعت (هولت زنكر Hault Zenker) رئيس محاكم فينا ليعبر عن ذلك بسخرية في قوله : « إن من بين الماسونيين المائة في فينا مائة واثنين من اليهود »(١) .

وحيث إنه لم يعد هناك مجال للشك في أن الماسونية لا تعدو كونها إحدى المنظمات السرية الهدامة التي أسسها اليهود تواصلاً مع تاريخهم الحافل بالمكائد والدسائس وخادماً لمصالحهم الصهيونية الاستعمارية(٢) ، لذا فلا يستغرب أن كان لها اليد الطولى في تنفيذ المخطط اليهودي الصهيوني الذي استهدف الخلافة الإسلامية ودولتها - العثمانية - التي حالت بين اليهود وأطماعهم في أراضيها(٣) .

أما عن زمن دخول الماسونية إلى الدولة العثمانية فقد اختلفت المصادر التي أرخت لهذا الحدث فمنها من يرجعه إلى عهد السلطان بايزيد الثاني (٨٨٦ - ٩١٨ هـ / ١٤٨١ - ١٥١٢م) حيث أنشأ يهود سلانيك في مدينتهم أول محفل ماسوني(٤) ، وتذهب أُخرى إلى أن بداية النشاط الماسوني في الدولة العثمانية يعود إلى عهد السلطان أحمد الثالث (١١١٥ - ١١٤٣هـ / ١٧٠٣ - ١٧٣٠م)حيث أسست أول جمعية ماسونية في عام ١١٣٠هـ / ١٧١٧م في العاصمة استانبول وكانت مرتبطة بالمشرق الفرنسي واستمرت قائمة حتى عام

---

(١) جواد آتلخان : أسرار الماسونية ، ص ٥٢ .

(٢) أسعد السحمراني : الماسونية نشأتها وأهدافها ، الطبعة الثالثة (بيروت : دار النفائس ، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م) ص ٨٠ .

(٣) موفق بني المرجة : المرجع السابق ، ص ٢٣٠ .

- أحمد نوري النعيمي : اليهود والدولة العثمانية ، ص ٢٢٩ .

(٤) داود عبد الغفور سنقرط : القوى الخفية لليهودية العالمية الماسونية ، الطبعة الأولى (عمان : دار الفرقان ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م) ص ١٢٩ .

١٢١٥هـ / ١٨٠٠م حيث أغلقت بعد قيام الثورة الفرنسية[١] .

هذا وقد نجحت بعض المؤسسات الماسونية في الغرب في إيقاع عدد من كبار الشخصيات العثمانية في شباكها فأصبح هؤلاء خير عون للماسون في توسيع نطاق نشاطهم في الدولة العثمانية ، ومن ذلك على سبيل المثال أن أحد المحافل الماسونية في بريطانيا استطاع أن يوقع بـ (رشيد باشا) سفير الدولة العثمانية في بريطانيا حيث انتسب إليه في عام ١٢٦٩هـ / ١٨٥٢م وعندما عاد إلى بلاده أسس جمعية ماسونية في استانبول بالتعاون مع السفير البريطاني في الدولة العثمانية[٢] .

ومن ثم ضاعف الماسون جهودهم فتمكنوا من تأسيس العديد من المحافل في استانبول وازمير وغيرها من المدن التركية كان بعضها تابعًا للشرق الأعظم الانجليزي وبعضها للفرنسي أو الإيطالي إلى أن أنشأ الأمير (حليم باشا) مجمعًا وطنيًا تحت رعاية المحفل الأعظم الإنجليزي ترأسه شخصيًا طوال حياته وتعددت محافله وكان لذلك أثره البالغ في إنخراط عدد كبير من الأتراك في الماسونية حتى أصبح عدد الماسون الأتراك في عام ١٢٩٩هـ / ١٨٨٢م نحو عشرة آلاف شخص[٣]، من بينهم عدد كبير من الوزراء والقادة العسكريين وكبار موظفي الدولة[٤] .

وقد بلغ الأمر أن تمكن أحد الماسون الأتراك من الوصول إلى منصب الصدارة العظمى في الدولة العثمانية وهو الدونمة مدحت باشا الذي كان له

---

(١) أحمد نوري النعيمي : اليهود والدولة العثمانية ، ص ١٧٦ .

(٢) المرجع نفسه : ص ١٧٦ .

(٣) حسان حلاق : المرجع السابق ، ص ٢٩٠ .

(٤) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ، ص ص ٣٠ - ٣١ .

دور كبير في خدمة أهداف الماسونية[١]، وفي هذا يقول السلطان عبد الحميد: « لم يكتف مدحت باشا بإثارة ما أثار من مشاكل فهو من ناحية يريد خلق أزمة في السراي ومن ناحية أخرى يريد الزج بالبلاد في أتون الحرب وحاول سن بعض الأعمال التي لا يتصورها العقل مثل تعيين ولاة من الأقلية في ولايات الأغلبية فيها مسلمون ... بناءً على هذا كله كان المُلك العثماني يهتز من أساسه وكنت أرى أن الصدر الأعظم يؤيد الإنجليز ويتعاون معهم سواء بدافع من ماسونيته أو بدافع من أسباب أخرى »[٢] .

والواقع ان هذه المكاسب التي حققتها الماسونية لم تأت مصادفة بل كانت نتائج لخطط مدروسة ومنفذة بدقة ، ويمكننا الاستدلال على ذلك بما جاء في الخطاب الذي ألقاه رئيس جمعية (هوت فنت Haute Vente) الماسونية في عام ١٢٣٧هـ / ١٨٢٢م والذي يقول فيه : « ... ترغب جمعية هوت فنت بأية وسيلة أن يلتحق أكبر عدد ممكن من الأمراء بالماسونية إن الأمراء يرضون طموحهم للشهرة ... أعدوهم للماسونية ... سيعمل الأمراء مؤقتًا على اجتذاب المعتوهين والمتآمرين والعاطلين عن العمل ، وهؤلاء الأمراء المساكين يخدمون قضيتنا من حيث يظنون أنهم يخدمون أنفسهم ، إنها لخدعة كبرى »[٣] .

كما أن مما تجدر الإشارة إليه إن هذا النجاح الكبير الذي حققته الماسونية في الدولة العثمانية قد تم رغم تصدي السلطات العثمانية للماسونية منذ وقت مبكر وفي هذا يقول الأب (لويس شيخو) : « كانت تركيا بين الدول التي ناهضت الماسونية منذ عام ١٧٤٨م وأن بين قوانينها ما يُحظر على العثمانيين الجمعيات السرية فكان السلاطين العظام ينظرون بعين النفور إلى

---

(١) زياد أبو غنيمة: المرجع السابق ، ص ٥٢ .

(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ص ١٠٦ – ١٠٧ .

(٣) عبدالله التل : خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية ، ص ١٤٧ .

كل ما يتستر تحت حجاب الظلمة وإذا بلغهم شيء من أمر تلك المجامع أسرعوا إلى إلغائها وتشتيت شمل أصحابها »[١] ، ويمكن إرجاع ذلك إلى ما كانت تلقاه المؤسسات الماسونية من حماية الدول الأوربية – بحكم معاهدات الامتيازات الأجنبية –[٢] .

أما عن تمكن الحركة الصهيونية من متابعة نشاطها السياسي لتحقيق المشروع الصهيوني من خلال المحافل الماسونية فذلك أنها قد جعلت الأساتذة الكبار الحقيقيين في المحافل الماسونية من كبار اليهود الذين ينتمون للمنظمة الصهيونية العالمية وجعلت وظيفتهم توحيد المساعي وتنسيقها بين مختلف المحافل وتوجيهها لخدمة المشروع الصهيوني ، والعمل على جذب كبار موظفي الدولة وأصحاب النفوذ في المجتمع لاستغلالهم في خدمة الأهداف الصهيونية[٣] وقد أشار حكماء صهيون في بروتوكولهم الخامس عشر إلى هذا الدور في قولهم:« ... وإلى أن يأتي الوقت الذي نصل فيه إلى السلطة ، سنحاول أن ننشيء ونضاعف خلايا الماسونيين الأحرار في جميع أنحاء العالم وسنجذب إليها كل من يصير أو من يكون معروفًا بأنه ذو روح عامة (Public Spirit) وهذه الخلايا ستكون الأماكن الرئيسية التي سنحصل منها على ما نريد من أخبار كما أنها ستكون أفضل مراكز الدعاية وسوف نركز كل هذه الخلايا تحت قيادة معروفة لنا وحدنا وستتألف هذه القيادة من علمائنا »[٤] .

وفي الدولة العثمانية تركز النشاط الماسوني في ولاية سلانيك لأنها تضم

---

(١) حسان حلاق : المرجع السابق ، ص ٢٨٩ نقلاً عن الأب لويس شيخو : السر المصون في شيعة الفرماسون ، ص ص ٦٠٦ – ٦٠٧ .

(٢) محمود الشاذلي : المرجع السابق ، ص ١٧٥ .

(٣) اورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ٢٩٤ .

(٤) محمد خليفة التونسي : المرجع السابق ، ص ١٥٦ .

نسبة كبيرة من اليهود أكثر بكثير من أية ولاية في العالم في تلك الحقبة حيث بلغت هذه النسبة سبعين في المئة من عدد سكانها ومعظمهم من يهود الدونمة – الذين طردوا من اسبانيا –[١] ، ناهيك عن الحماية الدبوماسية التي حظيت بها المحافل الماسونية في تلك الولاية لارتباطاتها الأوربية ولأن بعض يهود سلانيك ينتمون إلى جنسيات أوربية مختلفة[٢] .

لذا فلا عجب أن برزت سلانيك بمحافلها الماسونية مركزًا آمنًا للنشاط السياسي المناوىء للسلطان عبد الحميد ومنطقة جذب لجميع القوى الداخلية والخارجية المعارضة والمعادية له[٣] .

فوراء ستار المحافل الماسونية تمكنت تلك القوى المناوئة من تنظيم العديد من الخلايا السرية الثورية ولعل أخطر تلك المنظمات السرية التي برزت كقوة مؤثرة في المحيط السياسي للدولة العثمانية هي جمعية الاتحاد والترقي التي ولدت في الأوكار الماسونية[٤] ، فقد ذكر القائد التركي جواد رفعت آتلخان أن القرار رقم سبعين للجمعية الماسونية الفرنسية قد نص على تأسيس جمعية سرية باسم (جون ترك Jeune Turguie) تباشر نشاطها من سلانيك[٥] .

كما أكدت هذا الدور للمحافل الماسونية الرسالة المطولة التي بعث بها لوثر Lowther السفير البريطاني لدى الدولة العثمانية إلى وزير خارجية

---

(١) إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٦٦ .

(٢) هـ . س . أرمسترونج : المصدر السابق ، ص ٢٩ .

(٣) محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص ص ٣١٤ – ٣١٥ .

(٤) أرنست . أ. رامزور : المرجع السابق ، ص ١٢٣ .

(٥) حسان حلاق : المرجع السابق ، ص ٢٩٢ نقلاً عن جواد رفعت آتلخان : الخطر المحيط بالإسلام ، ص ١٥٠ .

بلاده في عام ١٣٢٨هـ / ١٩١٠م حيث جاء فيها : « ... قام إيمانوئيل قراصو[١] وقبل عدة سنوات وهو من الماسونيين اليهود في سلانيك ونائب المدينة ونائب غرفة التجارة على إيجاد محفل (ماكدونيا ريزوتورا Macedonia Ris-tora) وذلك بالتنسيق والتعاون مع المحافل الماسونية الإيطالية وقد استطاع قراصو إستمالة جمعية الاتحاد والترقي من مدنيين وعسكريين إلى الإنضمام إلى الماسونية وكان الهدف من وراء ذلك هو فرض النفوذ اليهودي على النظام السياسي في تركيا العثمانية » [٢].

وكان مؤسس جمعية الاتحاد والترقي (إبراهيم تيمو) قد تلقى دروسًا في التنظيم السري في أحد المحافل الماسونية في مدينة نابولي الإيطالية[٣] . وقد اعترف إبراهيم تيمو صراحة في مذكراته التي نشرت في عام ١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م بانتماء قادة ومؤسسي جمعية الاتحاد والترقي إلى الماسونية[٤] .

كما أن الشعار الذي رفعته جمعية الاتحاد والترقي هو (حرية وأخاء

---

(١) ايمانوئيل قراصو : يهودي اسباني الأصل كان يتمتع بجنسيتين الإيطالية والعثمانية ، وهو الأستاذ الأعظم لمحفل ماكدونيا ريزوتورا في سلانيك وكان من أوائل المشتركين في جمعية الاتحاد والترقي وقد تمكن من استمالة عدد كبير من أعضاء هذه الجمعية للانضمام إلى الماسونية . وبعد الانقلاب الدستوري عام ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م عملت جمعية الاتحاد والترقي على تعينه في المجلس النيابي العثماني نائبًا عن سلانيك مرة وعن استانبول مرتين ، وبعد الحرب العالمية الأولى ذهب إلى ايطاليا حيث استقر فيها إلى أن مات في عام ١٣٥٢هـ / ١٩٣٤م وقد رثته صحيفة التايمز الإنجليزية – التي يسيطر عليها اليهود – رثاءً حارًا .

– جواد آتلخان : أسرار الماسونية ، ص ٥٨ .

– أحمد نوري النعيمي : اليهود والدولة العثمانية ، ص ص ١٩٢ – ١٩٣ .

(٢) F.O. 800/193A .

(٣) أرنست . أ. رامزور : المرجع السابق ، ص ٥٠ .

(٤) مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ١٣٤ ، حاشية رقم (١) .

ومساواة) هو نفسه شعار الماسونية[١] ، وكان أيضاً شعاراً للثورة الفرنسية التي من المعروف أن الماسون كانوا وراء قيامها[٢]. وقد أعمى بريق هذا الشعار الماسوني بصائر الكثير من الأتراك المتحمسين من المدنيين والعسكريين[٣] ، فوقعوا في شباك جمعية الاتحاد والترقي[٤] .

ولم تتوقف الرعاية الماسونية لجمعية الاتحاد والترقي عند هذا الحد بل قامت المحافل الأوربية ولا سيما الانجليزية بتقديم العون المالي والسياسي والإعلامي لأعضاء هذه الجمعية في داخل الدولة العثمانية وخارجها ليتمكنوا من مواصلة نشاطهم ضد السلطان عبد الحميد[٥] ، وقد أشار السلطان عبد الحميد (رحمه الله) ، إلى هذا في مذكراته حيث يقول : « لا بد للتاريخ يوماً أن يُفصح عن ماهية الذين سموا أنفسهم (الأتراك الشبان) أو (تركيا الفتاة) وعن ماسونيتهم ، استطعت أن أعرف من تحقيقاتي أن كلهم تقريباً من الماسون وأنهم منتسبون إلى المحفل الماسوني الإنجليزي وكانوا يتلقون معونة مادية من هذا المحفل ولا بد للتاريخ أن يُفصح عن هذه المعونات وهل كانت معونات إنسانية أم سياسية؟». ويضيف السلطان في موضع آخر من مذكراته:

---

(١) انظر الملحق رقم (١) ص

(٢) عبد الوهاب المسيري : المرجع السابق ، ص ١٢٤ .

عبدالله التل : الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام ، ص ٧٨ .

(٣) للماسون أساليب عديدة لإيقاع الناس في شباكهم ، وهم يتعاملون مع كل شخص بما يوافق فكره وميوله فإن كان من أهل الفضول لمعرفة الأسرار قالوا له إن في الماسونية أسرار لا يعرفها غيرهم ، وإن كان من أهل التجارة أو الصناعة أغروه بالربح وزيادة عدد المستهلكين ، وإن كان من عشاق المناصب وعدوه بالترقي في وظيفته .

– محمد علي الزعبي : الماسونية منشئة ملك إسرائيل ، ص ٦٩ .

(٤) جواد آتلخان : أسرار الماسونية ، ص ص ٥٨ – ٥٩ .

(٥) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ، ص ٥٠ .

« رأيت خطاباً ... من علي كمال في مصر ... فيه أسماء ومصادر التمويل اسماً اسماً وفي هذا الخطاب يذكر أن الدكتور عبدالله جودت والدكتور إسحاق سكوتي والدكتور بهاء الدين شاكر والدكتور ناظم والدكتور إبراهيم تيمو ينتسبون إلى المحافل الفرنسية والإيطالية وإن هذه المحافل تسلم عائلاتهم الموجودة داخل البلاد النقود يداً بيد ، هذا ما كتبه وأرسل معه الوثائق المؤكدة لهذه المعلومات »(١) .

وكما هو واضح من خلال هذه المعلومات التي أوردها السلطان عبدالحميد الثاني في مذكراته فقد كان على علمٍ بطبيعة النشاط الذي تقوم به المؤسسات الماسونية في بلاده وبدورها في تأييد العناصر المناوئة له ولذا فقد بذل قصارى جهده في التصدي لها حتى تمكن في عام ١٣١١هـ / ١٨٩٤م من إغلاق جميع المحافل الماسونية في بلاده ما عدا محافل سلانيك لأن ارتباطها بالدول الأوربية يعطيها حق الحماية الأجنبية(٢) .

وهكذا تلاقت جهود الدوائر الماسونية مع جهود الدول الاستعمارية من أجل توفير المُناخ المناسب لنشأة هذه المنظمة الثورية (جمعية الاتحاد والترقي) حتى اشتد ساعدها وأصبح أعضاؤها من الدونمة وتلاميذ الماسون وأرباب المنصرين قادرين على القيام بالدور الذي أعدوهم له فأعلنوا في عام ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م الثورة على السلطان عبد الحميد متذرعين بالمطالبة بتطبيق النظام الدستوري(٣) ، وعلى الرغم من أن السلطان عبد الحميد - الذي كان يدرك أبعاد تلك الثورة - قد أجاب مطلبهم فإنه لم ينههم عن مواصلة نشاطهم

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ١١٥ ، ١٣٤ .

(٢) اورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ٢٨٧ .

- ارنست . أ. رامزور : المصدر السابق ، ص ١٢٣ .

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ص ٧٠٦ - ٧٠٧ .

حتى تمكنوا من تحقيق مطلبهم الحقيقي وهو عزل السلطان عبد الحميد في عام ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م[١] .

وقد بلغ بهم الحقد والشماتة أن جعلوا في مقدمة الوفد الذي كلفوه بتبليغ خليفة المسلمين قرار عزله الأستاذ الأعظم الماسوني اليهودي ايمانوئيل قراصو مؤسس محفل ماكدونيا ريزوتورا Macedonia Ristora [٢].

وإمعاناً في إهانة السلطان الذي أعياهم سنين طويلة قاموا بنفيه إلى سلانيك المركز اليهودي الدونمي الماسوني ، وفرضوا عليه الإقامة في منزل تاجر يهودي وعينوا عليه حارساً ماسونياً[٣] .

وبهذا حقق الاتحاديون الماسونيون لليهود الحلم الذي طالما راودهم ، لذا نجد القيادة اليهودية الماسونية تعبر عن فخرها بهم بحماسٍ بالغ في دائرة المعارف الماسونية حيث جاء على لسان الأستاذ الأعظم الماسوني (شاريبا) قوله:« انظروا إلى إخوانكم الماسونيين السالونيكيين الذين قاموا بالحركة الدستورية التي قلبت الحكم العثماني في آخر عهد السلطان عبد الحميد دون أن تسيل نقطة دم واحدة ... أجل فبمثل هذا الشعب الماسوني تفخر الماسونية »[٤] .

كما أن الاتحاديين أيضاً قد صرحوا بامتنانهم وعرفانهم للماسونية لدورها الكبير في دعم حركتهم ، وعبروا عن افتخارهم بانتمائهم لها ، فقد

---

(١) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ، ص ٥٥ ، ٩٩ .

وسوف نتناول موضوع الانقلاب الدستوري وما أعقبه من أحداث بشيء من التوسع في المبحث الثالث من الفصل الثالث .

(٢) مذكرات الأميرة عائشة بنت السلطان عبد الحميد : المصدر السابق ، ص ٢٤٠ .

(٣) حسان حلاق : المرجع السابق ، ص ٣٢٥ .

(٤) إسماعيل الكيلاني : المرجع السابق ، ص ١٩٠ ، نقلاً عن دائرة المعارف الماسونية ، ص ١٦٦ .

نشرت صحيفة (تمبس Tembes) الفرنسية في أعقاب نجاح انقلاب جمعية الاتحاد والترقي تصريحًا أدلى به (رفيق مانياسي زادة) أحد أعضاء تلك الجمعية جاء فيه قوله :« ... لقد كانت للمساعدات المالية والمعنوية التي تلقيناها من الجمعية الماسونية الأثر الكبير في حركتنا ويجب أن لا نستغرب ذلك لأننا ماسونيون أيضًا وأود أن أوجه شكري إلى الجمعية الماسونية الإيطالية التي أمدتنا بالعون العظيم نظرًا لارتباطنا الوثيق بها »[١] .

وبعد إقصاء السلطان عبد الحميد وانتقال السلطة إلى جمعية الاتحاد والترقي أخذت النكبات تتوالى على الدولة العثمانية ، فقد احتُلت الكثير من ولاياتها ولم يحرك الاتحاديون ساكنًا[٢] ، بل لا يستبعد أن يكون الاحتلال قد تم بالتواطؤ معهم كما هو الحال في ليبيا التي من الثابت أن احتلال إيطاليا لها في عام ١٣٣٠هـ/ ١٩١٢م قد تم بمؤامرة دبرها الاتحادي اليهودي (مترو سالم) الحائز على الدرجة الثالثة والثلاثين في الماسونية حيث ذهب إلى إيطاليا وقابل رئيس بلدية روما اليهودي ورسما الخطة اللازمة ودفعت الخزينة الإيطالية الملايين من الليرات الذهبية لمترو سالم مقابل إقناعه حكومة الاتحاد والترقي بسحب القوات العسكرية من ليبيا . وهكذا تم احتلال إيطاليا لليبيا[٣] .

وعندما قامت الحرب العالمية الأولى عام ١٣٣٢هـ / ١٩١٤م قام تلاميذ الماسونية الذين تركزت بيدهم السلطة في جمعية الاتحاد والترقي بزج الدولة العثمانية فيها[٤] مقابل خمسة ملايين ليرة ذهبية عثمانية دفعتها لهم ألمانيا

---

(١) أحمد نوري النعيمي : اليهود والدولة العثمانية ، ص ٢٢١ .

(٢) علي حسون : المرجع السابق ، ص ٢٧٢ .

(٣) جواد آتلخان : أسرار الماسونية ، ص ٥٩ .

(٤) يلماز اوزتونا : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ .

التـي كسبتها في صفها[١] ، فكانت النتيجة أن تنوقت الدولة العثمانية مرارة الهزيمة[٢] ومُزقت أشلاؤها بين الحلفاء المنتصرين وجُعلت فلسطين من نصيب الإنجليز ليتمكنوا من الوفاء بوعدهم لليهود بإقامة وطن لهم عليها[٣] .

ولإنفاذ الجزء الأخير من أجزاء المخطط الصهيوني الإستعماري الرامي للقضاء على الدولة العثمانية جلب اليهود وحلفاؤهم الإنجليز أحد تلاميذ محفل سلانيك أيضًا وهو الدونمة (مصطفى كمال)[٤] وأضفوا عليه ثوب البطولة والصلاح فانخدعت الشعوب الإسلامية بالبطل المصطنع وعلقت عليه أكبر الآمال في استرداد الأمجاد الضائعة فإذا به قد جاء ليُجهز على الدولة العثمانية ، ويدير ظهر تركيا للإسلام ويجعلها تابعًا ذليلاً لأوروبا بعد أن كانت دار الخلافة الإسلامية ومركز القوة السياسية والعسكرية في العالم الإسلامي[٥] .

إذ ما أن استتب الأمر لذلك الدونمة الماسوني حتى شرع في تنفيذ الخطة التي رسمت له لمحاربة الإسلام وهدم الخلافة الإسلامية ففي عام ١٣٤٠هـ / ١٩٢٢م ألغى السلطنة وجرد الخليفة من جميع صلاحياته وفي العام الذي يليه ١٣٤١هـ / ١٩٢٣م أعلن قيام الجمهورية التركية وقامت الجمعية الوطنية

---

(١) زين نور الدين زين : نشوء القومية العربية ، ص ١١٧ .

- محمود شاكر : التاريخ الإسلامي ، العهد العثماني ، الطبعة الثالثة (بيروت ، دمشق ، عمان : المكتب الإسلامي ، ١٤١١هـ / ١٩٩١م) ص ٢١٧ .

(٢) أفردنا دراسة خاصة عن دخول الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى ونتائج ذلك في الفصل الرابع من هذا البحث .

(٣) صالح مسعود أبو يصير : المرجع السابق ، ص ٨٧ .

(٤) هـ . س . أرمسترونج : المصدر السابق ، ص ٣٠ .

(٥) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ص ٧٥١ - ٧٥٢ .

- محمد قطب : المرجع السابق ، ص ص ٣٨٢ - ٣٨٣ .

التركية بانتخابه رئيسًا لها ، وفي عام ١٣٤٢هـ / ١٩٢٤م ألغى الخلافة الإسلامية التي طالما كانت درعًا واقيًا للإسلام والمسلمين وخنجرًا في صدر أعدائهما[١] .

لذا فقد عبّرت الدوائر اليهودية الماسونية عن اغتباطها بابنها البار مصطفى كمال الذي حقق لها أكبر أحلامها حيث جاء في دائرة المعارف الماسونية : « إن الانقلاب التركي الذي قام به الأخ العظيم مصطفى كمال أتاتورك أفاد الأمة فقد أبطل السلطنة وألغى الخلافة وأبطل المحاكم الشرعية، وألغى دين الدولة الإسلام وألغى وزارة الأوقاف أليس هذا الإصلاح هو ما تبتغيه الماسونية في كل أمة ناهضة ؟ فمن يماثل أتاتورك من رجالات الماسون سابقًا ولاحقًا ؟ »[٢] .

وإذا كانت الماسونية قد أسدت خدمات جليلة للحركة الصهيونية وهي في صدد إقامة نواة الدولة اليهودية في فلسطين فهي ما زالت تضطلع بهذا الدور على أكمل وجه في سبيل تحقيق الأهداف البعيدة للصهيونية[٣] ، ومن الدلائل الأكثر حداثة في مجال خدمة الماسونية للصهيونية اليهودية ما ذكره أمين القدس السيد (روحي الخطيب) في المؤتمر الأول لمنظمة المدن العربية الذي عقد في بيروت عام ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م من أن السلطات الإسلامية في القدس قد تلقت عرضًا من الحركة الماسونية لشراء قطعة أرض من الحرم الشريف بغية إعادة بناء هيكل سليمان وقد ورد العرض الماسوني في رسالة هذا بعض

---

(١) مصطفى صبري : المصدر السابق ، ص ١٦٣ ، ١٧٧ .

– إسماعيل الكيلاني : المرجع السابق ، ص ١٩٣ .

(٢) المرجع نفسه : ص ١٩٥ ، نقلاً عن دائرة المعارف الماسونية ، ص ١٦٢ .

(٣) سعد الدين السيد صالح : المرجع السابق ، ص ٢٩٠ .

ما جاء فيها : « ... تذكرون أن هيكل سليمان كان المحفل الماسوني الأصلي والملك سليمان كان رئيس هذا المحفل ... وإنني كعضو في الحركة الماسونية أرأس جماعة في أميركا يحبون أن يعيدوا بناء هيكل سليمان من جديد ، هذا هو اقتراحنا إذا أعطى جامع عمر الإذن لمؤسستي فسوف تجمع مائة مليون دولار في أمريكا لهذه الغاية ... وبإذن مؤسستكم سيمنح كل أخ ماسوني أسهم في إعادة البناء عضوية في المحفل الماسوني الأول لهيكل الملك سليمان في مدينة القدس أؤكد لكم أن مؤسستكم إذا تعاونت معنا في إعادة بناء الهيكل فسوف تصبح أغنى مؤسسة دينية على الأرض . إذا أبديتم اهتمامًا بهذا العرض – وليس لديكم ما تخسرونه بل كل شيء لتربحوه[١] – فسنزودكم بالمال ... آمل أن تأخذوا هذه القضية بعين الاعتبار وتبحثوها مع أعضاء مجلس إدارتكم »[٢] .

ولأن الماسونية قد أثبتت تفوق أدائها في خدمة الأهداف اليهودية فقد تزايدت أعداد المحافل الماسونية في كل أنحاء العالم ولا سيما في فلسطين بعد إنشاء الدولة الصهيونية حيث بلغ عدد المحافل الماسونية فيها في عام ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م أربعة وستين محفلاً تضم ثلاثة آلاف وخمسمائة عضو من اليهود والمسيحيين والمسلمين[٣] .

ورغم أنه لم يعد هنالك مجال للشك في أن الماسونية مؤسسة يهودية لم توجد إلا لخدمة أهداف اليهودية العالمية فإن مما يؤسف له أن عددًا ليس بقليل

---

(١) يتضح من هذا التعبير مدى الاستخفاف بعقول وعقائد وضمائر المسلمين فهم يساومونهم على مقدساتهم ويقولون لهم بأنهم لن يخسروا شيء .

(٢) أسعد السحمراني : المرجع السابق ، ص ص ١١٥ – ١١٨ نقلاً عن صحيفة النهار اللبنانية بتاريخ ١٩٦٨/٨/١م .

(٣) عبد الوهاب المسيري : المرجع السابق ، ص ١٣٥ .

من أبناء الإسلام ما زالوا ينتسبون إليها أو للأندية المتفرعة عنها منخدعين بشعاراتها الزائفة ومتوهمين أنهم يعملون لخير أنفسهم وخير مجتمعاتهم[١] .

ولذا فقد قامت كثير من المؤسسات الإسلامية العالمية بإصدار بيانات رسمية كشفت فيها حقيقة الماسونية وحذرت منها وبينت حكم الإسلام في المنتسبين إليها ، ومن ذلك القرار الذي أصدره المجمع الفقهي برابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة – في دورته الأولى المنعقدة في عام ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م والذي جاء فيه : « ... قد تبين للمجمع بصورة واضحة العلاقة الوثيقة للماسونية باليهودية الصهيونية العالمية وبذلك استطاعت أن تسيطر على نشاطات كثيرة من المسؤولين في البلاد العربية وغيرها في موضوع قضية فلسطين . وتحول بينهم وبين كثير من واجباتهم في هذه القضية المصيرية العظمى لمصلحة اليهود والصهيونية العالمية . لذلك ولكثير من المعلومات الأُخرى التفصيلية عن نشاط الماسونية وخطورتها العظمى وتلبيساتها الخبيثة وأهدافها الماكرة يقرر المجمع الفقهي اعتبار الماسونية من أخطر المنظمات الهدامة على الإسلام والمسلمين وأن من ينتسب إليها على علم بحقيقتها وأهدافها فهو كافر بالإسلام مجانب لأهله »[٢].

كما أن المؤتمر الإسلامي العالمي الذي عقد في مكة المكرمة عام ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م تحت رعاية الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود (رحمه اللّه) قد خصص قراره الحادي عشر في إيضاح موقفه من الماسونية وهذا نص القرار : « الماسونية جمعية سرية هدامة لها صلة وثيقة بالصهيونية العالمية التي تحركها وتدفعها لخدمة أغراضها ، وتتستر تحت شعارات خداعة كالحرية

---

(١) سعد الدين السيد صالح : المرجع السابق ، ص ٢٨٢ .

(٢) رابطة العالم الإسلامي : قرارات المجمع الفقهي الإسلامي بمكة المكرمة ، الدورات : من الأولى إلى الخامسة عشرة ، الطبعة الأولى (مكة المكرمة : مطابع رابطة العالم الإسلامي) ص ١٩ .

والإخاء والمساواة ، وما إلى ذلك مما أوقع في شباكها كثيراً من المسلمين وقادة البلاد وأهل الفكر وعلى الهيئات الإسلامية أن يكون موقفها من هذه الجمعيات السرية على النحو التالي :

١ - على كل مسلم أن يخرج منها فوراً .

٢ - تحريم انتخاب أي مسلم ينتسب لها لأي عمل إسلامي .

٣ - على الدول الإسلامية أن تمنع نشاطها داخل بلادها وأن تغلق محافلها وأوكارها .

٤ - عدم توظيف أي شخص ينتسب لها ومقاطعته مقاطعة كلية .

٥ - فضحها بكتيبات ونشرات تباع بسعر الكلفة .

وتعامل كل من النوادي التالية معاملة الماسونية : نادي الروتاري ، نادي الليونز ، حركات التسلح الخلقي ، إخوان الحرية » (١).

وبعد كل هذا يتضح بجلاء أن الصلة بين الماسونية والصهيونية اليهودية منعقدة انعقاد النسب القريب ولا يمكن ان ينكر هذا إلا متآمر مع الصهيونية أو مغمض عينيه وساد جميع حواسه الظاهرة والباطنة عن النظر في دلائل الأمور وقرائنها انسياقاً وراء مطامعه المضللة وأهوائه المستحكمة وصدق الله العظيم القائل في محكم تنزيله :

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٢) .

---

(١) رابطة العالم الإسلامي ، إدارة المؤتمرات : قرارات وتوصيات أهم المؤتمرات التي عقدتها رابطة العالم الإسلامي ، الطبعة الأولى (مكة المكرمة : مطابع رابطة العالم الإسلامي) ص ٩٧ ، ١١٢ .

(٢) سورة الأنفال : الآية (٢٢) .

المبحث الثاني

إثارة العصبيات الجنسية داخل الدولة العثمانية

كانت سياسة بعث القوميات وإثارة العصبيات الجنسية في الدولة العثمانية أحدى الخطوط العريضة في المؤامرة على إلغاء الخلافة الإسلامية وإسقاط الدولة العثمانية التي لعبت فيها الدوائر اليهودية الصهيونية دورًا بارزًا .

وفكرة هذا المخطط تقوم على نقض نسيج الدولة العثمانية الموحد ذي الصبغة الإسلامية والفصل بين خيوطه حتى يتهلهل ويسهل تمزيقه وذلك بإضرام نار القوميات الجنسية والنعرات الطائفية التي أطفأها الإسلام .

فمن منطلق الأخوة الإسلامية عقيدة ومنهجًا وواقعًا وتاريخًا كانت الشعوب الإسلامية تنظر إلى الدولة العثمانية على أنها امتداد لدولة الخلافة الإسلامية وبالتالي فقد كانت تجل السلطان العثماني وتدين له بالولاء والطاعة وتعتبره رمزًا لوحدتها وتدعو له على المنابر الإسلامية في كل صقاع الأرض وتلبي دعوته للجهاد راضية محتسبة[١] .

كما أنّ التاريخ يشهد بأن العثمانيين قد التزموا بما يفرضه عليهم إسلامهم فترفعوا عن الوقوع في متاهات العصبية القومية والعرقية امتثالاً لهدي نبيهم صلى الله عليه وسلم القائل : « دعوها فإنها منتنة »[٢] ولم يفرقوا بين رعاياهم المسلمين وأفسحوا المجال أمام الجميع للمشاركة في إدارة الدولة أو الانخراط في جيشها[٣] . ولم يكن لانتماءاتهم القومية أي أثر يعوق ارتقاءهم

---

(١) ساطع الحصري : محاضرات في نشوء الفكرة القومية ، الطبعة الثانية (بيروت : منشورات مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م) ص ٩٢ ، ١٢١ .

(٢) مسلم بن الحجاج القشيري : المرجع السابق ، ج ٤ ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب نصر الأخ ظالمًا أو مظلومًا ، حديث رقم (٦٤) ص ١٩٩٩ .

(٣) يلماز أوزتونا : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٣ .

أعلى المناصب العسكرية والمدنية في الدولة[١] .

ولأنّ هذه الوحدة العقائدية العظيمة التي جمعت بين الأبيض والأسود والهندي والفارسي والعربي والألباني والتركي ... الخ تحت المظلة العثمانية كانت بمثابة سد منيع يحول بين تلك القوى المتآمرة من اليهود والاستعماريين وبين الوصول إلى أهدافها لذا فقد سعت إلى إيجاد وسيلة لخلخلة هذا البناء المتماسك وتلغيم صموده[٢] .

وفي مواجهة الفكرة الإسلامية التي أوجدت هذه الرابطة القوية كان لا بد من إيجاد البديل الهزيل ، لذا راحت تلك القوى الشريرة تنبش في الماضي البائد وتبعث الأفكار الجاهلية التي أماتها الإسلام فابتدعوا فكرة القومية التركية (اليني توران) أو الطورانية الجديدة[٣] ، لتتبعها القومية العربية وغيرها من القوميات وبهذا زرعوا بذور الفرقة والتشرذم بين أبناء الدولة

---

(١) مما يثبت عدم التفات العثمانيين للانتماءات القومية أنّه قد تولى منصب الصدارة العظمى – أي رئاسة الوزراء – ٤٩ شخصاً من أصل أرناؤوطي و ٢٣ شخصاً من أصل بيزنطي و ١٤ من أصل شركسي و ١٣ من أصل يوغسلافي و ٤ من أصل عربي .

– زياد أبو غنيمة : المرجع السابق ، ص ٦١ .

(٢) عبدالله التل : الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام ، ص ٨٢ .

(٣) الطورانية : حركة عنصرية تدعو إلى اتحاد الشعوب التركية وإحياء أمجاد الأتراك الأوائل وربط الأتراك المعاصرين بتراثهم الحضاري القديم ، وتخليص التراث الفكري التركي من المؤثرات الفارسية والعربية وغيرها من المؤثرات التي دخلت عليه وقد جاءت تسمية هذه الحركة بالطورانية نسبة إلى جبل توران الواقع في المنطقة الشمالية من إيران وهي موطن الأتراك الأصلي .

– جهاد صالح : الطورانية التركية بين الأصولية والفاشية ، الطبعة الأولى (بيروت : دار الصداقة للطباعة والنشر ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م) ص ٣٤ .

– عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج ١ ، ص ٧٣ .

– أحمد نوري النعيمي : اليهود والدولة العثمانية ، ص ١٦٣ .

الإسلامية إذ أخذ كل جنس يطالب بإحياء قوميته ويتوق إلى الاستقلال الذاتي فتمزقت وحدة الكيان الإسلامي ممّا مهد السبيل أمام تلك القوى المتآمرة لتنفيذ مخططاتها لإلغاء الخلافة الإسلامية وإقامة الدولة اليهودية[١] .

وقد بزغت فكرة بعث القوميات في الدولة العثمانية مصاحبة لقضية الإصلاح الداخلي التي اشتغلت بها الدولة خلال الثلث الأخير من القرن الثالث عشر الهجري الموافق لبداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي[٢]، فقد ربط الشباب الأتراك الذين تلقوا تعليمهم في الغرب بين الإسلام وبين ما تعيشه الدولة العثمانية من ضعف وتخلف في الجوانب الحضارية المادية وكانوا قد اكتسبوا هذا المفهوم الخاطيء نتيجة لحملات التشكيك التي تبنتها الدول الغربية وأصلّه في نفوسهم الأساتذة اليهود الذين تلقوا التعليم على أيديهم في أوروبا[٣] .

كما أن أصحاب هذا الاتجاه كانوا يعتبرون الإسلام مظهراً من مظاهر القومية العربية ومفخرة من مفاخرها ، لذا فقد دعوا إلى القومية التركية الخالصة والتنصل من الروابط الدينية وتقبل الحضارة الغربية والفكر الغربي كاملاً[٤] .

وقد باءت بالفشل محاولات كثير من أبناء الإسلام الغيورين تصحيح هذه المفاهيم الخاطئة وإقناع أتباعها بالحقيقة التي تقول : أن تخلف تركيا والعالم

---

(١) ماجد الكيلاني : المرجع السابق ، ص ١٤٢ .
 – زياد أبو غنيمة : المرجع السابق ، ص ٥٥ .
(٢) ساطع الحصري : المرجع السابق ، ص ٩٣ .
(٣) لوثروب ستودارد : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٧٩ .
 – أنور الجندي : المرجع السابق : ص ١٣٠ .
(٤) مصطفى صبري : المصدر السابق ، ص ١٧٣ .

الإسلامي عامة إنما يرجع إلى البعد عن تعاليم الإسلام وقيمه[١] .

والواقع أن جدل الفكرة القومية الذي ظهر في الفضاء السياسي العثماني في ذلك الوقت كان قد سبقه أساس نظري تمثل في ظهور العديد من الدراسات في أوروبا حاولت توجيه الأنظار إلى أهمية العرق التركي[٢] .

ومن أوائل هذه الدراسات كتاب (قواعد اللغة التركية) الذي أصدره اليهودي الإنجليزي (دافيد لوملي David Lomly) عام ١٢٥٥هـ / ١٨٣٩م وقد حاول من خلاله تعميق الشعور القومي التركي وتأكيد الخصوصية الثقافية للأمة التركية[٣] .

وعقب ذلك أصدر المستشرق اليهودي المجري (أرمنيوس فامبري A.Vambery) [٤] كتابه (رحلة درويش شاب في آسيا الوسطى) الذي أرسى من خلاله نظريته التي تقول بضرورة قيام اتحاد قومي تركي يمتد من بحر إيجة حتى حدود الصين[٥] ، كما ضمنه نقداً حاداً للإسلام حيث اعتبره العائق الأساسي أمام وحدة الأتراك[٦] .

هذا وقد توالت الدراسات الأوربية اليهودية التي اتفقت على هدف واحد

---

(١) أنور الجندي : المرجع السابق ، ص ١٣١ .

(٢) علي حسون : المرجع السابق ، ص ٢٧٣ .

(٣) قيس جواد العزاوي : المرجع السابق ، ص ١٢٨ .

(٤) تجدر الإشارة إلى أن (أرمنيوس فامبري) هذا هو نفسه الشخص الذي سبقت الإشارة إلى دوره في إقناع السلطان عبد الحميد الثاني بالموافقة على مقابلة الزعيم الصهيوني هرتزل .

(٥) يوضح هذا التحديد الذي يشمل المناطق الحيوية للاستعمار الإنجليزي الارتباط الوثيق بين اليهود والدول الاستعمارية وعلى رأسها بريطانيا من حيث الأهداف وخطة العمل .

(٦) أحمد السعيد سليمان : التيارات القومية والدينية في تركيا المعاصرة (القاهرة : دار المعرفة ، ١٣٨١هـ / ١٩٦١م) ص ٢٣ .

أساسه أنّ الوحدة القومية التركية أجدى للاتراك من الوحدة الإسلامية ، إلا أن الكتاب الذي وضعه اليهودي الفرنسي (ليون كوهين Leon Cohein) وأطلق عليه اسم (تاريخ الترك والمغول في آسيا من مبدأ نشأتهم إلى سنة ١٨٠٥م) كان له وضع خاص عند أعلام الفكر القومي التركي حيث أفاض كوهين فيه بالحديث عن خصائص القومية التركية ومزايا الترك العسكرية مشيدًا ببطولة (جنكيز خان) !! وعظمة (تيمورلنك) [١] وقد اعتبر كوهين الهجمات الوحشية التي قام بها التتار والمغول وما رافقها من تدمير وتخريب بطولات قومية[٢] .

لذا فقد اعتبر القوميون الأتراك هذا الكتاب مرجعًا أساسًا لكل أدبياتهم الفكرية القومية وموجهًا لهم في سياستهم العملية كما كان موضع اهتمام الاتحاديين فقد ترجموه إلى التركية وأصبح مرجعهم فيما يسمونه النهضة الطورانية[٣] .

وعن أثر هذه الدراسات ولا سيما كتابي اليهوديين ليون كوهين وأرمنيوس فامبري في الانتشار السريع لفكرة القومية الطورانية يقول المؤرخ الأمريكي لوثروب ستودارد : « ... كان لأعمال هذين العالمين القطبين فمباري وكوهين أكبر دوي في أنحاء العالم ، فطفقت كتب فمباري وزملائه تنتشر في كل بقعة من بقاع العالم الطوراني الجديد انتشارًا سريعًا فأقبلت عليها العقول

---

(١) يبدو أن هؤلاء القوميين السذج قد نسوا أن تيمورلنك الذي يتغنون ببطولته هو نفسه الذي زحف على تركيا وهزم السلطان (بايزيد الأول) في معركة أنقرة عام ٨٠٥ هـ / ١٤٠٢م وأخذه أسيرًا .

– إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٩٦ .

(٢) لوثروب . ستودارد : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١١١ .

– محمود ثابت الشاذلي : المرجع السابق ، ص ١٦٧ .

(٣) قيس جواد العزاوي : المرجع السابق ، ص ١٣١ .

– جهاد صالح : المرجع السابق ، ص ٣٤ .

الطورانية المستعدة الاستعداد العجيب للأخذ عنها والاقتباس منها ، العقول الهائجة المتأهبة للتجدد والارتقاء ، ثم سرعان ما نشأت طوالع الحركة الطورانية تظهر وتتكاثر في أقطار مختلفة »[1] .

وهكذا فسرعان ما ظهرت آثار تلك الدراسات على أتراك الدولة العثمانية وذلك بظهور بعض المؤلفات التي هي أشبه ما تكون بالصدى لتلك الدراسات اليهودية ، حيث بدأ بعض الشباب التركي يكتب متأثرًا بما قرأه ولا سيما الشباب الذين تلقوا تعليمهم في أوروبا أو في مدارس الإرساليات التنصيرية ومن أبرز من يمثلون هذه المرحلة يوسف اقشورا اوغلي[2] وضياء كوك الب[3] ونامق كمال[4] .

---

(١) لوثروب ستودارد : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ١١١ .

(٢) يوسف اقشورا اوغلي : من أتراك روسيا من نواحي قازان على نهر الفولغا . درس في جامعة أورنبورغ في روسيا ثم واصل دراسته في مدرسة العلوم السياسية في باريس وقد أولى اهتمامًا بالغًا بمبدأ دور القوميات في توجيه سياسة الدول .
- أحمد نوري النعيمي : اليهود والدولة العثمانية ، ص ١٦٦ .

(٣) ضياء كوك ألب : من أصل كردي ولد في ديار بكر عام ١٢٩٣هـ / ١٨٧٦م ، عمل في حقل التعليم ولكنه كان منشغلاً بالأمور السياسية وانتُخب عضوًا في جمعية الاتحاد والترقي السرية وعندما كُشف أمره أُبعد عن التعليم وسجن وبعد خلع السلطان عبد الحميد أُطلق سراحه وعُيّن أستاذًا لعلم الاجتماع في جامعة استانبول وكان متأثرًا جدًا بآراء المفكر اليهودي دور كايم كما كان من الأعضاء المؤسسين لمنظمة (الشبيبة العثمانية) السرية التي قامت على نمط منظمة الكاربوناري الماسونية .
- محمد عمر : المرجع السابق ، ص ٣٩ .
- موفق بني المرجة : المرجع السابق ، ص ١٩١ .

(٤) نامق كمال : ولد عام ١٢٥٦هـ / ١٨٤٠م في أسرة تركية ثرية درس اللغة العربية والفارسية والفرنسية وكان ماسونيًا شديد الإعجاب بالمفكر التركي إبراهيم شناسي ، وعمل في تحرير صحيفته (تصوير أفكار) التي كانت تهاجم الحكومة العثمانية ثم نفي خارج البلاد وبعد أن سُمح له بالعودة إليها أصدر صحيفة (عبرت) ، كما كتب العديد من القصائد والمسرحيات والروايات التي كان لها دور كبير ==

وكان المحور الذي تدور حوله كتابات كل هؤلاء هو الدعوة للأخذ بفكرة الجامعة الطورانية المبنية على التآليف بين الناطقين باللهجات التركية أولاً [١] ثم تكوين اتحاد منهم ومن الأمم التي أصلها طوراني مثل المجر والبلغار وفنلندا ، فهم يرون أن الاتحاد مع هؤلاء طبيعي وأكثر إفادة من فكرة الجامعة الإسلامية ، كما أنهم يرون أن الرابطة الإسلامية ليست إلاّ احتلالاً عربيًا بسط سلطانه على الأتراك وجعل لنفسه سيادة عليهم ولذا فهم يرون وجوب الخلاص منه[٢] .

وأشهر هؤلاء الكتاب هو يوسف اقشورا الذي درس العلوم السياسية في باريس وكتب العديد من المقالات عن أهمية القوميات في توجيه السياسة وكانت كتاباته تنشر في صحيفة (تورك) التي كانت تصدر في القاهرة ، ويُعد كتابه (ثلاثة أساليب سياسية) الذي جمع فيه مقالاته عن القومية المرجع الأساسي لدعاة القومية في الدولة العثمانية يعولون عليه ويهتدون به فيما يكتبون ويعملون[٣] .

ومن الجدير بالذكر أنه على الرغم من ظهور فكرة بعث القوميات في سماء الدولة العثمانية منذ بداية الثلث الأخير من القرن الثالث عشر الهجري الموافق لبداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي فقد ظل يكتنفها

= في إثارة الروح القومية التركية .

– أحمد السعيد سليمان : المرجع السابق ، ص ٢٤ .

– أحمد نوري النعيمي : اليهود والدولة العثمانية ، ص ١٦٢ .

(١) أي الأتراك الذين يعيشون في سيبريا وتركستان والقوقاز والأناضول .

– مصطفى صبري : المصدر السابق ، ص ص ١٧٢ – ١٧٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ص ١٧٢ – ١٧٥ .

(٣) قيس جواد العزاوي : المرجع السابق ، ص ١٣٨ .

بعض الغمام إلى أن قام الانقلاب الدستوري عام ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م[١] ، وذلك لأن السلطان عبد الحميد الثاني كان شديد المقاومة لجميع الحركات الرامية إلى إحياء العصبيات الجنسية[٢] .

كما أن السلطان عبد الحميد كان منذ أن تبوأ عرش الدولة العثمانية قد تبنى فكرة الدعوة للجامعة الإسلامية وكان هدفه من هذه السياسة القائمة على استخدام القوة المعنوية – وهي قوة أثبت التاريخ شدة فاعليتها إذا ما أُحسن استخدامها – تدعيم سلطته كخليفة للمسلمين وتوطيد أواصر الوحدة والتلاحم بين أبناء الأمة الإسلامية وتقديم بديل إسلامي للحلول الإصلاحية المستوردة وتعبئة سائر القوى الإسلامية للجهاد لقذف الرعب في روع المتربصين بالدولة الإسلامية[٣] ، وقد أشار السلطان عبد الحميد (رحمه الله) إلى هذا في مذكراته حيث يقول : « ... لم تكن لدي الطاقة ولا القوة لمحاربة الدول الأوربية بمفردي ولكن الدول الكبرى التي تحكم شعوبًا مسلمة عديدة في آسيا مثل إنجلترا وروسيا ، ترتعد من سلاح الخلافة الذي أحمله ... قررت استخدام قوتي كخليفة في وحدة بلادي وأمنها كما قررت العمل على سلامة أخوتنا في الدين في الخارج ضد كل احتمال ... وجود الخلافة في يدي كان يجعل الإنجليز يعيشون دائمًا في دوامة الاضطراب »[٤] .

هذا وقد قام السلطان عبد الحميد بجهود كبيرة في صدد تدعيم فكرة الجامعة الإسلامية ومن ذلك انشاؤه معهدًا شرعيًا لإعداد الدعاة الذين كانوا

---

(١) ساطع الحصري : المرجع السابق ، ص ٩٦ .

(٢) لوثروب ستودارد : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ص ١١٣ – ١١٤ .

(٣) أحمد فهد الشوابكة : فكرة الجامعة الإسلامية (الأردن : مكتبة المنار ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م) ص٢٣.

– محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٧٤٤ .

(٤) مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ١٤٧ .

يبعثون إلى كل أنحاء العالم الإسلامي للوعظ والإرشاد والتأكيد على أهمية الوحدة الإسلامية للخلاص مما يعانيه المسلمون من ضائقات[١] . كما استغل السلطان عبد الحميد موسم الحجة لنشر دعوته للجامعة الإسلامية ليحملها الحجاج إلى بلادهم في كل الأقطار الإسلامية ، وكذلك قام بإنشاء بعض الصحف والمجلات التي سخرها للترويج لهذه الدعوة بين كافة العناصر الإسلامية وقد بُذلت جهود كبيرة لإيصال هذه المنشورات إلى المسلمين في المناطق الخاضعة للنفوذ الأجنبي[٢] . وقد أشار السلطان عبد الحميد إلى دور الدعاة في بث فكرة الوحدة الإسلامية في قوله : « كنت أرسل الأشراف وشيوخ الطرق الصوفية والدراويش إلى مسلمي آسيا الوسطى وكنت أعرض عناية خاصة بربط آسيا معنويًا بالخلافة ، وإني أذكر بشكل خاص وبكل امتنان الخدمات التي أداها في هذا السبيل الشيخ سليمان أفندي البخاري بين مسلمي روسيا »[٣] .

وقد نجح السلطان عبد الحميد في اعمال هذه السياسة التي ارتسمها في تنفيذ مشروع إسلامي في غاية الأهمية وهو إنشاء خط سكة حديد الحجاز الذي يمتد من استامبول إلى المدينة المنورة مخترقًا سوريا من الشمال إلى الجنوب فقد كان إنشاء هذا الخط الذي سوف ييسر سبل أداء فريضة الحج

---

(١) ميم كامل أوكي : المرجع السابق ، ص ٥٢ .

- لوثروب ستودارد : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٠٩ .

(٢) زكريا بيومي : قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ، التحالف الصليبي الماسوني الاستعماري وضرب الاتجاه الإسلامي ، الطبعة الأولى (جدة : عالم المعرفة للنشر والتوزيع ، ١٤١١ هـ / ١٩٩١م) ص٢٤١.

(٣) مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ص ١٤٨ - ١٤٩ .

على ملايين المسلمين[١] يتطلب مبالغ باهظة جداً لم يكن بوسع خزينة الدولة العثمانية توفيرها لذا فقد دعا السلطان عبد الحميد المسلمين إلى التبرع لإنشاء هذا الخط . فتجاوبت الشعوب لهذه الدعوة وتبرعت بجزء كبير من نفقات هذا المشروع[٢] .

كما أن الإنجليز الذين تتبعوا آثار هذه السياسة التي انتهجها السلطان عبد الحميد بقلق بالغ قد اعترفوا بنجاحها حيث جاء في التقرير السنوي الذي كتبه السفير البريطاني في استانبول عام ١٣٢٥هـ / ١٩٠٧م قوله : « يمكننا أن نقرر بأنه من بين حوادث السنوات العشر الأخيرة على الأقل يوجد عنصران بارزان في الموقف السياسي العام ، الأول هو خطة السلطان الماهرة التي استطاع بها أن يظهر أمام ثلاثمائة مليون من المسلمين في ثوب الخليفة - الذي هو الرئيس الروحي في الدين الإسلامي - وأن يقيم لهم البرهان على قوة شعوره الديني وغيرته الدينية ببناء سكة حديد الحجاز التي ستمهد الطريق في القريب العاجل أمام كل مسلم للقيام بفريضة الحج ، وقد ترتب على هذه السياسة أنه أصبح حائزاً على خضوع رعاياه له خضوعاً أعمى بشكل لم يسبق له مثيل ... »[٣] .

وحتى لا تطل فتنة القوميات برأسها فتفسد على السلطان عبد الحميد

---

(١) لم تقتصر عناية السلطان من إنشاء هذا الخط على تحقيق المنفعة الدينية على الرغم من أولويتها فهو يحقق للدولة منافع سياسية وعسكرية واقتصادية يأتي في مقدمتها تسهيل وصول القوات العسكرية إلى البلاد العربية بالسرعة اللازمة إذا استدعى الأمر ذلك .

- أورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ٢٣٥ .

(٢) جورج انطونيوس : المرجع السابق ، ص ١٤٢ .

- كارل بروكلمان : المرجع السابق ، ص ٥٩٤ .

(٣) حسان حلاق : المرجع السابق ، ص ٢٧٨ .

سياسته فقد عمل على إذابة جميع الجنسيات في بوتقة الوحدة الإسلامية حيث راح يقرب إليه شخصيات من شتى الجنسيات الإسلامية من العرب والأكراد والأفغان والأرناؤوط وعينهم في أكبر وظائف الدولة[١] .

ويبدو أن السلطان عبد الحميد قد اطمأن للعرب بصفة خاصة فقد استعان بعدد كبير منهم في وظائف قريبة منه وأخرى في غاية الأهمية[٢] . ومن أولئك على سبيل المثال أحمد عزة باشا العابد الكاتب الثاني في المابين وشفيق بك الكوراني رئيس الشرطة وشكري باشا الأيوبي ناظر الأعمال العسكرية وجميعهم من سوريا وطالب النقيب وأحمد الزهير أعضاء مجلس شورى الدولة وهما عراقيان كما كان الفريق محمد والفريق محيي الدين ولدا الأمير عبد القادر الجزائري من مرافقي السلطان والفريق شفيق باشا وأخوه الفريق وهيب باشا من أركان المدارس العسكرية وهما لبنانيان[٣] .

ومما يدل على مدى ثقة السلطان عبد الحميد في العرب وارتياحه لهم أنه قد اتخذ حرسه الخاص منهم وأنزلهم حول قصره وهي الكتائب التي عُرفت بالزحوف العربية[٤] .

كما أثبت السلطان عبد الحميد عمق إيمانه بسمو الرابطة الإسلامية على غيرها من الروابط بأنه عمد إلى تزويج أميرات من البيت الحاكم من شخصيات

---

(١) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ، ص ص ٤١ – ٤٣ .

– لوثروب ستودارد : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٠٩ .

(٢) زين نور الدين زين : نشوء القومية العربية ، ص ٥٦ ، ١٩٤ .

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٧٤٥ .

(٤) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ، ص ٤١ .

إسلامية تنتمي إلى جنسيات مختلفة[١] ، ومن أولئك الشريف علي حيدر وصالح بك خير الدين التونسي وأحمد نامي الشركسي[٢] .

هذه بعض الجهود التي بذلها السلطان عبد الحميد في سبيل جمع كلمة أبناء الإسلام وتوحيد صفوفهم وقد أحرزت هذه السياسة نجاحًا كبيرًا إذ أدت إلى كبح جماح الدول الاستعمارية وجعلتها تعيد حساباتها إزاء التكتل الإسلامي الذي بعثته تلك السياسة ، ويمكن رصد بعض آثار هذا النجاح من خلال ما أشار إليه السلطان عبد الحميد في قوله : « ... رأيت في هذا فوائد جمة ورأى الولاة العموميون (المندوبون الساميون) الإنجليز في الهند أن مسلمي الهند على رباط وثيق بالدولة العثمانية ، فكتبوا إلى حكوماتهم بضرورة التعايش في سلام مع العثمانيين ولهذا سهل عملنا قليلاً »[٣] .

ولكن بقدر ما نجح السلطان عبد الحميد بإتباعه لتلك السياسة في تدعيم أركان دولته ، بقدر ما لاقى من العنت من الدول الاستعمارية والصهيونية التي أدركت خطورة هذه الوحدة الإسلامية على مخططاتها فسارعت إلى تدميرها بالحملة على السلطان عبد الحميد وتشويه سمعته ثم الانقضاض عليه وعزله[٤] .

---

(١) كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عمل بهذه السياسة حيث كان الباعث إلى تعدد زيجاته عليه السلام هو توثيق عرى الاخوة الإسلامية بينه وبين بعض أصحابه أو أن يقضي برباط المصاهرة على روح العداء عند بعض القبائل .

– محمد الغزالي : فقه السيرة ، الطبعة السابعة (القاهرة : دار الكتاب الحديث ، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م) ص ص ٤٧٢ – ٤٧٦ .

(٢) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٧٤٦ .

(٣) مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ١٤٩ .

(٤) أنور الجندي : المرجع السابق ، ص ١٤٦ .

وإنه لمن دواعي الأسى والأسف أن نجد بعض المؤرخين المسلمين يحاولون التقليل من قيمة هذا العمل العظيم الذي قام به السلطان عبد الحميد حيث يرون أنه لم يستهدف من تلك الدعوة إلاّ بلوغ أغراضه السياسية وتدعيم وتوسيع نطاق سياسته الاستبدادية ، محاولين بذلك تفريغ تلك الدعوة من محتواها الروحي ، ولا شك أن أصحاب هذا الرأي الذي يحمل طابع المعارضة والخصومة الظالمة هم ممن جرفهم تيار الدعاية الصهيونية والاستعمارية المغرضة التي كان ديدنها إثارة الشبهات حول شخصية السلطان عبد الحميد وانتقاص كل عمل يقوم به ، لأن المؤرخ المنصف الذي لم تغش بصائره غشاوة التضليل يدرك أن ما قام به السلطان عبد الحميد عمل عظيم صدر عن نفس مؤمنة بنصر اللّه ، لا يقلل من عظمته كون السلطان قد توخى منه حلاً لمشاكل دولته السياسية ، بل يكفي السلطان عبد الحميد شرفًا أنه راح يستمد حلاً لمشاكل دولته من الشريعة الإسلامية السمحة ، في حين كان بإمكانه أن يجد حلاً سريعًا لها بالخضوع لمطالب الصهيونية التي لم تدخر وسيلة لإغرائه .

وعلى أي حال فما أن تمكن أعداء الوحدة الإسلامية من إقصاء السلطان عبد الحميد بعد الانقلاب الدستوري عام ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م حتى استعادت الحركة القومية نشاطها بشكل جلي[١] فقد كان رجال الحكومة الجديدة (جمعية الاتحاد والترقي) ، ومعظمهم من يهود الدونمة[٢] من أنصار الدعوة للقومية التركية[٣] . لذا فقد أصبح دعاة القومية التركية يتحركون بحرية ونشاط فبعد الانقلاب الدستوري بفترة قصيرة تأسس في استانبول المنتدى التركي (ترك درنكي) وهو أول ناد تركي أسس لخدمة القومية التركية أو الرابطة

---

(١) ساطع الحصري : المرجع السابق ، ص ٩٨ .

(٢) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ، ص ٦٧ .

(٣) ارنست ا. رامزور : المرجع السابق ، ص ١٦٠ .

الطورانية[١] . ومن مؤسسيه يوسف اقشورا وأحمد آغايف ولم يقتصر عمل هذا النادي على خدمة الحركة القومية أدبيًا بل وعن طريق دراسة كل ما يتعلق بالشعب التركي من تاريخ وحضارة وحياة اجتماعية وخصائص عرقية[٢] .

ويمكن القول إنه بعد خلع السلطان عبد الحميد عام ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م تحولت فكرة القومية التركية من كونها دعوة تبناها بعض الأدباء والشباب الذين تأثروا بالثقافة والحضارة الغربية إلى سياسة انتهجها أغلب سياسيي الصف الأول في الدولة ، فقد أسهم الاتحاديون عمليًا في تغذية تيار القومية التركية ومن ذلك أنهم قاموا بإنشاء جمعية أطلقوا عليها اسم (تورك أوجاقي) أي العائلة التركية ، تولت إعداد الكثير من الدراسات والبحوث التي تدور حول السياسة التي يجب أن تتبع مع القوميات غير التركية في الدولة العثمانية وطرق تغليب اللغة التركية على غيرها من اللغات داخل الدولة[٣] ، وإضافة إلى ذلك كانت هذه الجمعية تقوم بإنشاء فرق كشافة من الفتيان الأتراك تحت رعاية (أنور باشا)[٤] وتعمل على صياغتهم في قالب عرقي مستوحى من

---

(١) كارل بروكلمان : المرجع لسابق ، ص ٦١٣ .
- جهاد صالح : المرجع السابق ، ص ٣٣ .

(٢) قيس جواد العزاوي : المرجع السابق ، ص ١٤٠ .

(٣) أحمد نوري النعيمي : اليهود والدولة العثمانية ، ص ٢٣٥ .

(٤) أنور أحمد باشا : ولد في استانبول عام ١٢٩٩هـ / ١٨٨٢م من أسرة ذات أصول بولندية ، وفي عام ١٣٢٠ هـ / ١٩٠٢م ، تخرج من الكلية الحربية في استانبول وعين في الجيش الثالث في سلانيك وهناك انضم إلى جمعية الاتحاد والترقي ثم عُين ملحقًا عسكريًا في برلين ، وكان له دور كبير في إحداث الانقلاب الدستوري عام ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م . وفي عام ١٣٣١هـ / ١٩١٣م عُين وزيرًا للحرب، ويُعد المسؤول الأول عن قرار اشتراك الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى ، وبعد هزيمة الدولة العثمانية فرّ إلى تركستان وانضم إلى الثورة المضادة للشيوعية وقتل هناك عام ١٣٤٠هـ/١٩٢٢م.
- علي حسون : المرجع السابق ، ص ٢٥٩ .
- أحمد نوري النعيمي : اليهود والدولة العثمانية ، ص ٢٢٧ .

ماضي الأتراك الوثني قبل الإسلام حيث كانت جميع شاراتهم وألقابهم مستمدة من تلك الحقبة البائدة[١] .

هذا ويُعد ضياء كوك ألب عضو اللجنة المركزية لجمعية الاتحاد والترقي من رواد الحركة القومية الطورانية حتى أنه كان يلقب (أبو القومية التركية) وكان ينشر فلسفته القومية على صفحات مجلة (الأقلام الشابة) التي تصدر في المركز اليهودي سلانيك[٢] .

وكما كان ليهود الدونمة دور كبير في إثارة المشاعر القومية عند الأتراك بوصفهم أعضاء بارزين في جمعية الاتحاد والترقي فقد كان لهم أيضًا دور بارز في الحركة الأدبية التي أرست تيار الفكرة القومية وروجتها ، فعلى سبيل المثال يُعد الكاتب اليهودي الدونمة (موئيز كوهين Moeiz Kohein)[٣] من أبرز المخططين للسياسة العنصرية الطورانية التي سارت عليها جمعية الاتحاد والترقي وذلك من خلال كتاباته في صحيفة (روم أيلي) التي كان يصدرها أحد الدونمة أيضًا وصحيفة (اتحاد وترقي) التي كان يصدرها

---

(١) محمد أنيس : المرجع السابق ، ص ٢٧٥ .

- محمود الشاذلي : المرجع السابق ، ص ١٦٨ .

(٢) علي حسون : المرجع السابق ، ص ٢٧٧ .

(٣) موئيز كوهين : ولد في سلانيك عام ١٣٠٠هـ / ١٨٨٣م وبعد تخرجه من كلية الحقوق انضم إلى جماعة الاتحاد والترقي عام ١٣٢٣هـ / ١٩٠٥م وبعد أن سيطر الاتحاديون على حكم البلاد عمل استاذًا في كلية الحقوق بجامعة استانبول كما عمل بالصحافة فترة طويلة وله مؤلفات عديدة في القومية التركية ولكنه لم يكن يضع اسمه الحقيقي على كتاباته بل اتخذ اسمًا مستعارًا هو (تكين ألب) وذلك حتى لا يثير اسمه اليهودي حساسية القراء الأتراك المسلمين الذين كانوا يقرأون له على اعتبار انه مسلم ولم يكشف عن اسمه الحقيقي إلا في السنوات الأخيرة من حياته .

- محمد حرب : المرجع السابق ، ص ١٢٠ .

الاتحاديون[١] . ومن خلال العديد من الكتب التي ألفها في هذا المجال وبصفة خاصة كتابيه (الطورانية) و (سياسة التتريك) ففي كتابه الطورانية يعرّف هذا اليهودي مفهوم القومية التركية الطورانية وأهدافها كما يحاول إثارة العواطف القومية عند الأتراك ومن ذلك قوله في هذا الكتاب : « ... طوران أسيرة وحبيسة طوران ذليلة ومظلومة إن أكبر إذلال للقومية التركية ليتمثل في ترك طوران هكذا إن الواجب الأول والأقدس لكل تركي يدرك واجبه القومي أن يسرع لنجدتها »[٢] أمّا كتابه سياسة التتريك فهو يبحث في عدة موضوعات مثل مهمة التتريك وقواعد التتريك وأهداف التتريك وفوائده وغيرها من الموضوعات في نفس المجال[٣] .

كما كانت الأديبة الدونمة (خالدة أديب) من أبرز الدعاة المتعصبين للقومية التركية وكانت على صلة وثيقة بالاتحاديين وإسهامًا منها في الترويج لسياستهم القومية كتبت روايتها (طوران الجديدة) التي توضح الأيديولوجية الطورانية[٤] ، وتقول خالدة أديب في روايتها مُعبّرة عن شوقها لقيام الدولة التركية الطورانية : « أيتها المنطقة البديعة يا طوران الجديدة حدثينا عن الطريق إليك »[٥] ، ولكن يبدو أن هذه الأديبة اليهودية كانت عاجزة عن إخفاء عواطفها الدينية ففي الفترة التي كانت فيها مديرة لمدرسة البنات في بيروت وذلك إبان الحرب العالمية الأولى فرضت على التلميذات المسلمات تمثيل أوبرا غنائية من تأليفها عنوانها (رعاة كنعان) ، قامت فيها بكيل المديح لليهود ،

---

(١) أحمد نوري النعيمي : اليهود والدولة العثمانية ، ص ص ١٦٦ – ١٦٧ .

(٢) محمد حرب : المرجع السابق ، ص ١٢٣ .

(٣) المرجع نفسه : ص ١٢٤ .

(٤) محمد عمر : المرجع السابق ، ص ص ٤٤ – ٤٥ .

(٥) ساطع الحصري : المرجع السابق ، ص ١١٢ .

كما ضمنتها أمنياتها الصادقة بقيام دولة يهودية في فلسطين ، وقد وُصفت تلك الأوبرا بأنها بشرى تعلن عن قرب قيام دولة إسرائيل[١] .

ولقد كان للنزوع القومي المتعصب الذي طبع توجهات جماعة الاتحاد والترقي آثار بليغة على باقي القوميات غير التركية لا سيما بعد اعتمادها سياسة تتريك الشعوب العثمانية وما اقتضته من فرض اللغة التركية على جميع تلك الشعوب على اختلاف أجناسها وطمس معالم لغاتها والقضاء على ثقافاتها[٢] .

ولم ينته الأمر عند هذا الحد بل إنهم شرعوا يجاهرون باحتقار الأجناس غير التركية ويتعمدون إذلالها وإنّ ممّا يؤكد دور اليهود في تكريس هذه السياسة القومية ما جاء في رسالة لوثر المطولة « لقد قدم اليهود الأموال إلى الأتراك الشبان وبهذا أحكموا سيطرتهم عليهم ولكن حتى يحافظ اليهود على هذه السيطرة لا بد لهم أن يتظاهروا على الأقل بانهم يوافقون على تحقيق الأتراك الشبان لأحلامهم القومية »[٣] .

هذا وقد حملت سياسة التتريك في طياتها روح العداوة والجفاء للعرب بشكل خاص ويمكن إرجاع ذلك إلى أن القوميين الأتراك ربطوا الإسلام بالعرب كما سبق وأن ذكرنا[٤] . ولأنّ العرب كانوا من أكثر الشعوب الإسلامية

---

(١) أحمد نوري النعيمي : يهود الدونمة ، ص ٧١ .

(٢) خيرية قاسمية : المرجع السابق ، ص ١٨ .

- موفق بني المرجة : المرجع السابق ، ص ١٩٦ .

(٣) F.O.800/193.A .

(٤) مصطفى صبري : المصدر السابق ، ص ١٧٣ .

فاعلية في الدولة العثمانية فاعتبروهم العنصر المنافس لهم سيما وقد كان للعرب وضع مميز في عهد السلطان عبد الحميد[١] .

وعلى أي حال فقد أساؤوا معاملة العرب وحاربوا اللغة العربية فجعلوا اللغة التركية هي اللغة الرسمية للدولة بعد أن كانت اللغة العربية هي اللغة الرسمية بوصفها لغة القرآن الكريم[٢] . واشترطوا فيمن يتولى عملاً من أعمال الدولة أن يكون على معرفة باللغة التركية[٣] . كما أُلغيت دروس اللغة العربية واللغة الفارسية في جميع المدارس الحكومية[٤] .

ومن نفس المنطلق ظهرت دعوة للبحث عن كلمات تركية قديمة أو كلمات أوروبية لتحل محل الكلمات العربية والفارسية المستخدمة في اللغة التركية[٥] .

ومن مظاهر السياسة القومية المتعصبة التي اتبعها الاتحاديون أنه بعد عزلهم للسلطان عبد الحميد عام ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م قاموا بعزل الكثير من الموظفين العرب وفي مقدمتهم من كان يعتمد عليهم السلطان في مواقع حساسة ، ولم يكتفوا بذلك بل وأخذوا يوجهون الاتهامات إلى أولئك العرب

---

(١) مصطفى طوران : أسرار الإنقلاب العثماني ، ص ٤١ .

- محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٧٤٥ .

(٢) زين نور الدين زين : نشوء القومية العربية ، ص ٩٦ .

(٣) من الملاحظ أن أثر هذه السياسة ما زال قائماً حيث لا تزال بعض الألفاظ التركية تجري على ألسنة بعض العرب مثل الكلمات التي تنتهي بالمقطع (جي) مثل بوسطجي وقهوجي والكلمات التي تنتهي بالمقطع (خانه) مثل اجزخانه وكتبخانه .

(٤) المرجع نفسه : ص ٩٥ .

- جورج انطونيوس : المرجع السابق ، ص ١٩٤ .

(٥) لوثروب ستودارد : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٥٩ .

بحجة أنهم كانوا وراء مظالم السلطان ، وقد تعرض الكثير منهم للملاحقة والاعتقال[١] .

ويمكن أن نلمس مدى تعنت الاتحاديين في تطبيق سياسة التتريك من خلال ما جاء في التقرير الذي بعثه لوثر السفير البريطاني في استانبول إلى وزير خارجية بلاده في عام ١٣٢٨هـ / ١٩١٠ م حيث يقول فيه : « ... أن جمعية الاتحاد والترقي قد عدلت نهائيًا عن فكرة تتريك جميع الشعوب التركية بالطرق الدستورية وعدلت كذلك عن الأساليب المتبعة لاستمالتها وكسب عطفها وولائها ، ويبدو كذلك أن العثمانية في نظرها تعني التركية أي جعلهم أتراكًا وأن سياستها في عثمنة الامبراطورية تعني سحق العناصر غير التركية بمطرقة تركية »[٢] .

ولقد كان لهذه السياسة القومية المتطرفة التي انتهجها الاتحاديون وما ترتب عليها من سعي لتتريك جميع الشعوب العثمانية أبلغ الأثر في تقوية الشعور بالذاتية العربية كرد فعلٍ لتلك السياسة الجائرة[٣] ، في حين أنه لم تظهر من جانب العرب في ظل السياسة الإسلامية العادلة حتى نهاية عهد السلطان عبد الحميد بارقة يشتم منها رائحة التعصب القومي ولم يفكر العرب قط بأن يكون لهم كيان مستقل عن الدولة العثمانية[٤] .

وكان العرب آنذاك ينظرون إلى الدولة العثمانية على أنها الدولة الإسلامية الوحيدة التي تجمع شمل المسلمين ، ويدركون أن ضعف هذه الدولة سوف

---

(١) حسان علي حلاق : المرجع السابق ، ص ٣٣٨ .

– خيرية قاسمية : المرجع السابق ، ص ١٨ .

(٢) F.O.371/1014, No. 635 .

(٣) خيرية قاسمية : المرجع السابق ، ص ١٨ .

(٤) أنور الجندي : المرجع السابق ، ص ص ١١٢ – ١١٣ .

يمكّن أعداءهم منهم [١].

وإذا كان العرب قد طالبوا بشيء آنذاك فهو المطالبة بالإصلاح السياسي والاقتصادي والاجتماعي ضمن إطار الدولة العثمانية وليس بالانفصال عنها[٢].

ولكن بعد أن سيطر الاتحاديون على مقاليد الحكم في الدولة العثمانية وراحوا بسياستهم القومية المتعصبة يتحدون العرب في أعز ما لديهم من دين وكرامة ولغة بدا الموقف العربي يتغير[٣] .

لقد تنكر الاتحاديون حتى لتلك العناصر العربية المحدودة التي شاركتهم في الثورة اعتقاداً منها أن الغاية من تلك الثورة هي إصلاح الدولة ، كما خيبوا آمال بقية العرب الذين توسموا الخير في النظام الدستوري الذي لوحوا به[٤] .

وبناءً على ما تقدم فإنه يمكننا القول بأن العرب قد دُفعوا لاعتناق فكرة القومية العربية دفعًا بفعل السياسة القومية التركية المتطرفة التي اتبعها الاتحاديون وما ترتب عليها من ممارسات جائرة ضد جميع الأجناس الأخرى في الدولة بشكل عام وعلى العرب بشكل خاص .

والواقع أن هذه السياسة التي تبنتها جماعة الاتحاد والترقي لم تكن أول جزء ينفذ من المخطط اليهودي الاستعماري الرامي إلى زعزعة الوفاق بين العرب والترك وتعميق الشعور بالذاتية المستقلة لكل منهما ، فقد كان للمدارس

---

(١) علي حسون : المرجع السابق ، ص ٢٧٨ .

(٢) ساطع الحصري : المرجع السابق ، ص ١٢٣ .

– ارنست ا. رامزور : المرجع السابق ، ص ٣٥ ، ٣٧ .

(٣) حسان علي حلاق : المرجع السابق ، ص ٣٣٧ .

(٤) خلف بن دبلان الوذيناني : الدولة العثمانية والغزو الفكري حتى عام ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م ، الطبعة الأولى (مكة المكرمة : مطابع جامعة أم القرى ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م) ص ٤٨٠ .

والكليات التنصيرية التابعة للدول الاستعمارية والتي كانت منتشرة في كثير من البلاد العربية ولا سيما التي أنشئت في بلاد الشام الفضل في إلقاء بذور فكرة القومية العربية منذ عهد مبكر(١) . حيث ركزت هذه المدارس بشكل ملحوظ على تدريس اللغة العربية والأدب والشعر العربي إضافة إلى أن هذه المدارس والكليات كانت مزودة بالمطابع العربية ممّا مكنها من طبع الكثير من الكتب والنشرات التي كانت تحتوي على كل ما من شأنه الدعوة إلى إحياء التراث العربي السابق للإسلام وإثارة العرب على دولة الخلافة(٢) .

وقد كان لبعض الأدباء والمفكرين من نصارى العرب دور كبير في دعم نشاط تلك المدارس والكليات التنصيرية في بعث القوميةالعربية وليس بمستغرب أن يكون العرب المسيحيون أول الملبين لداعي القومية العربية فعلى خلاف العربي المسلم الذي كان يشعر بالانتماء للدولة العثمانية ويعتبرها دولته لأنها دولة إسلامية ، كان العربي المسيحي – على الرغم من التسامح الإسلامي في معاملة الكتابيين – يشعر بأنه غريب عن هذه الدولة حيث لا يوجد ما يربطه بها(٣) . ولذا فهو دائم التطلع نحو الغرب(٤) .

---

(١) ارتبطت بداية نشاط هذه الإرساليات التنصيرية الفعلي بالفترة التي سيطرت فيها قوات محمد علي على بلاد الشام (١٢٤٩ – ١٢٥٦هـ / ١٨٣٣ – ١٨٤٠م) حيث سمح للعديد من الإرساليات التنصيرية الفرنسية والأمريكية بالدخول بشكل واسع .

– جورج انطونيوس : المرجع السابق ، ص ص ٩٩ – ١٠٦ .

(٢) محمد عبد الرحمن برج : المرجع السابق ، ص ٨٠ .

– زكريا بيومي : المرجع السابق ، ص ٢٢١ .

(٣) ساطع الحصري : المرجع السابق ، ص ص ١٢٣ – ١٢٤ .

– علي حسون : المرجع السابق ، ص ٢٧٨ .

(٤) مما يؤكد تطلع أولئك المسيحيين نحو الغرب أنه في عام ١٢٦٠هـ / ١٨٤٤م رفعت مجموعة ذكرت أنها تمثل نصارى الشام عريضة إلى ملك فرنسا (لويس فيليب) أكدوا فيها أنهم يعتبرون أنفسهم من =

ومن هنا فإنه يمكن القول بأن معظم دعاة القومية العربية من نصارى العرب لم يكونوا صادقين في توجهاتهم لإحياء الأمجاد العربية ، وإنما كان هدفهم الأساس مرتبطًا بأهداف الصهيونية العالمية والدول الاستعمارية وهو تمزيق دولة الخلافة الإسلامية واستبدالها بالحكم العثماني الإسلامي حكم دول أوربية مسيحية .

ومن أبرز دعاة القومية العربية من المسيحيين العرب في بلاد الشام بطرس البستاني[1] ونصيف اليازجي[2] اللذان استعانت بهما الإرساليات التنصيرية في وضع الكتب العربية التي تدرس في مدارسها وكلياتها[3] .

= رعاياه وأنه وحده الذي يملك تقرير مصيرهم بالشكل الذي يمكنهم من الخلاص من دائرة النفوذ العثماني ويؤهلهم كيما يكونوا عبيدًا طيعين لجلالته .

– أحمد فهد الشوابكة : المرجع السابق ، ص ١٠٢ .

(١) بطرس البستاني : ولد عام ١٢٣٤هـ / ١٨١٩م في قرية (الدبية) في جنوب لبنان والتحق بمدرسة الدير بعين ورقة وتعلم فيها العلوم اللاهوتية إضافة إلى قواعد اللغة العربية واللغة اللاتينية ثم انتقل إلى بيروت وهناك اتصل بالمستشرق والمبشر الكبير الدكتور (فان دايك) ومنذ ذلك الحين ارتبطت جهوده بالبعثة التنصيرية الأمريكية ارتباطًا وثيقًا ، ولترويج أفكاره القومية أنشأ صحيفته (نفير سوريا) ومجلته (الجنان) وتوفي عام ١٣٠٠هـ / ١٨٨٣م .

– أنيس المقدسي : الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة ، الطبعة الثالثة (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م) ص ص ١٨٣ – ١٨٦ .

(٢) نصيف البازجي : ولد في كفر شيما قرب بيروت عام ١٢١٥هـ / ١٨٠٠م وتلقى تعليمه على يد كاهن القرية وظهرت موهبته الأدبية في سن مبكرة ، ولمع نجمه عندما اتخذه الأمير (بشير الشهابي) حاكم لبنان كاتبًا له ولازمه ١٢ سنة في مقره (بتدين) ثم انتقل إلى بيروت وانشغل بالدعوة لإحياء الأدب العربي القديم كما أنشأ أبناءه على ذلك فقد لعب ابنه إبراهيم دورًا كبيرًا في الحركة العربية .

– المرجع نفسه : ص ص ٥٥ – ٥٧ .

(٣) محمود صالح منسي : المرجع السابق ، ص ٦٥ .

كما كان لأولئك المثقفين إسهاماتهم الخاصة في بعث القومية العربية من خلال تنشيط الثقافة العربية ، ومن إسهامات البستاني في هذا المجال وضعه معجم للغة العربية باسم (محيط المحيط) صدر في عام ١٢٨٧هـ / ١٨٧٠م وكذلك وضعه دائرة معارف عربية مصنفة في ستة أجزاء[١] .

ولما للشعر من أثر ملحوظ في إثارة العواطف الإنسانية فقد جادت قريحة هؤلاء النصارى بالكثير منه فيما يتضمن التنديد بالحكم التركي والتغني بأمجاد العرب . ومن هذا على سبيل المثال ما جاء في قصيدة إبراهيم اليازجي ابن نصيف اليازجي التي يقول فيها :

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب

فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب

أقداركم في عيون الترك نازلة

وحقكم بين أيدي الترك مغتصب

فيا لقومي وما قومي سوى عرب

ولن يضيع فيهم ذلك النسب

فشمروا وانهضوا للأمر وابتدروا

من دهركم فرصة ضنت بها الحقب

لنطلبن بحد السيف مآربنا

فلن يخيب لنا في جنبه أرب [٢]

كما تمثل نشاط أولئك القوميين في إقامة العديد من الجمعيات التي اتخذت الأدب والعلوم والفنون ستاراً لأهدافها الحقيقية وهي إثارة النعرة القومية والروح الاستقلالية لدى العرب مثل جمعية (الأدب والعلوم) التي

(١) المرجع نفسه : ص ص ٦٥ – ٦٦ .

– محمد عبد الرحمن برج : المرجع السابق ، ص ص ٨٢ – ٨٣ .

(٢) إبراهيم اليازجي : العقد ، (بيروت : دار مارون عبود ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م) ص ص ٢٥ – ٢٨ .

أنشـأتهـا الإرسـاليـات الأمـريكيـة في بيـروت عـام ١٢٦٣هـ / ١٨٤٧م وتولى الإشراف عليها بطرس البستاني ونصيف اليازجي ، ولكن هذه الجمعيات لم تنجح في أن تضم إلى عضويتها واحداً من العرب المسلمين[١] .

وإزاء فشل أولئك المسيحيين في اجتذاب العرب المسلمين إلى صفوفهم لجـأوا إلى خطة أخرى وهي استمالة العرب المسلمين إلى المحافل الماسونية لمشاركتهم في عضويتها ليسهل من ثم التأثير عليهم ، وقد تمكنوا من تحقيق مخططهم حيث خُدع بعض العرب المسلمين بشعارات الماسونية البراقة[٢] .

والواقع أنه ليس من الغريب استغلال المسيحيين المحافل الماسونية للإيقاع بالعرب المسلمين فالمحافل الماسونية ليست إلاّ مصائد اليهود الذين هم أشد حرصاً من المسيحيين على إثارة القومية العربية كوسيلة لتمزيق وحدة الدولة العثمانية الإسلامية ويؤكد هذا ما أشار به الكاتب الصهيوني (كادمي كوهين Cadmy Kohein) في كتابه (دولة إسرائيل) على ساسة الاستعمار الأوروبيين في قول : « ... إذا أرادت السياسة الأوربية أن تتحرر من العقبات التي ترهق مستعمراتها ينبغي عليها أن تسعى لتفكيك هذه الهوية التي تتحرك ضدها ... إن نظرية الوحدة العربية هي خير علاج وأفضل ترياق ضد الوحدة الإسلامية فهي لا تشكل خطراً أكثر مما تشكله القومية التركية الحالية ... إن تفتيت الهوية التي تجمع بين الإسلام والعروبة هو القادر على جعل الضفة الشرقية للبحر المتوسط على ما يجب أن تكونه ... رأس جسر لأوروبا نحو آسيا الكبرى »[٣] .

---

(١) جورج انطونيوس : المرجع السابق ، ص ص ١١٧ – ١١٩ .

– زكريا بيومي : المرجع السابق ، ص ٢٢٤ .

(٢) زين نور الدين زين : نشوء القومية العربية ، ص ٦١ .

(٣) رفيق النتشة : السلطان عبد الحميد وفلسطين ، ص ١٤٤ ، نقلاً عن كادمي كوهين : دولة إسرائيل ، ص ص ٤١ – ٤٢ .

ومن الذين أسهموا في دعم التيار القومي في بلاد الشام الدونمة الماسوني مدحت باشا عندما كان والياً على سوريا ١٢٩٥ - ١٢٩٧هـ / ١٨٧٨ - ١٨٨٠ م وذلك عن طريق إنشاء الجمعيات السرية التي تندد بالحكم التركي وتحث العرب على الثورة عليه[١] ، وكان من أهم الوسائل التي استخدمتها هذه الجمعيات لإيصال تلك الدعوة إلى المواطنين العرب هي بث المنشورات المتضمنة لتلك الأفكار الثورية وقد أشار إلى هذا الدور وكيل القنصل العام البريطاني في بيروت (جون ديكسون John Dikson) في رسالته التي بعثها إلى (ف . ر . سانت جون F. R. St. John) القائم بأعمال السفارة البريطانية في استانبول عام ١٢٩٨هـ / ١٨٨١م : « ... إن الرأي السائد الآن بشأن مصدر هذه المناشير الثورية التي ظهرت أخيراً في أنحاء عديدة من سوريا هو أنها صادرة عن جمعية المقاصد الخيرية مع أن هذه الجمعية تأسست منذ سنة ونصف برعاية مدحت باشا ... وتحت هذا الاسم الحسن الوقع في النفس تستطيع الجمعية أن تقوم خفية بنشاط لبلوغ أهدافها دون أن تخشى اكتشاف حقيقتها ... إن مدحت باشا لا يزال على اتصال وثيق بالجمعية بالرغم من أنه الآن في ازمير ويقال أن له ضلعاً في توزيع هذه المناشير بواسطة عملائه السريين »[٢].

وفي مصر كانت فكرة القومية العربية تسير في خطٍ موازٍ لخطها في بلاد الشام وقد ارتبط مولدها بتعيين محمد علي باشا والياً على مصر عام ١٢٢٠هـ / ١٨٠٥م) لأن محمد علي باشا رأى في بعث فكرة القومية العربية خدمة لمساعيه الرامية إلى الاستقلال بمصر وإبعادها عن الارتباط بالدولة العثمانية[٣] ، وقد وجد في اتجاهه هذا خير عونٍ من المحافل الماسونية التي

---

(١) محمد عبد الرحمن برج : المرجع السابق ، ص ص ٨٤ - ٨٧ .

(٢) زين نور الدين زين : نشوء القومية العربية ، ص ص ٦٤ - ٦٥ .

(٣) من أبرز القوميين المصريين الذين يمثلون هذه الفترة رفاعة الطهطاوي الذي كان محمد علي باشا ==

يُعتبر هذا الاتجاه من صلب أهدافها[١] .

وفي عهد الخديوي إسماعيل (١٢٧٩ - ١٢٩٦هـ / ١٨٦٣ - ١٨٧٩م) وفد إلى مصر مجموعة من المثقفين القوميين اليهود والنصارى الشوام المنتمين إلى المحافل الماسونية ، لأن تزايد النفوذ الأجنبي في مصر وبعدها بالتالي عن رقابة السلطات العثمانية قد جعل منها موطنًا آمنًا لنشر أفكارهم القومية ، كما أن النظام الحاكم فيها قد أبدى ترحيبًا غير معلن بهذه العناصر لاتفاق دعوتها مع أهدافهم في تعميق الشعور القومي لدى المصريين[٢] .

ومن أبرز الكتاب والأدباء القوميين الذين يمثلون هذه المرحلة في مصر اليهودي الماسوني يعقوب صنوع (أبو نظاره) الذي كان قد تأثر كثيرًا إبان ابتعاثه للدراسة في إيطاليا بالحركة القومية الإيطالية وتشرب كثيرًا من أفكارها . وبعد عودته إلى مصر قام بالترويج لأفكاره القومية من خلال تأسيسه لجمعيتين قامتا على طريقة التنظيم الماسوني أطلق على أولاهما اسم (محفل التقدم) وعلى الثانية اسم (محفل محبي التقدم) كما قام بإنشاء فرق مسرحية كانت تمثل مسرحيات مترجمة عن الإيطالية والفرنسية وكان من أهم رواد مسرحه باشوات وبكوات البلاط الخديوي . ولكي يتمكن هذا اليهودي من

= قد ابتعثه إلى فرنسا خمس سنوات للدراسة عاد بعدها ليعمل في الترويج لفكرة القومية العربية وغيرها من الأفكار التي عايشها في فرنسا والتي تتعارض مع الفكر الإسلامي ، وذلك من خلال كتاباته الصحفية والكتب التي قام بتأليفها ولا سيما كتابه (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) وكذلك من خلال الكثير من الكتب التي قام بترجمتها .

- محمد قطب : المرجع السابق ص ٢٠٩ .

- أنيس المقدسي : المرجع السابق : ص ص ١٠٨ - ١١٣ .

(١) زكريا بيومي : المرجع السابق ، ص ١٨٣ .

(٢) محمود صالح منسي : المرجع السابق ، ص ١٠٤ .

بث أفكاره في دائرة أوسع من أبناء الشعب المصري أنشأ مجلة أطلق عليها اسم (أبو نظاره) وقد استطاعت هذه المجلة أن تكتسب شعبية كبيرة لما تميزت به من أسلوب فكاهي ساخر[١] .

كما أنشأت مجموعة من المصريين بالتعاون مع بعض اليهود والنصارى من عرب الشام حزبًا سريًا أطلقوا عليه اسم (الحزب الوطني) كان أشبه ما يكون بالمحفل الماسوني لأن أغلب أعضائه من اليهود والمنصرين الذين كانوا أعضاء في المحفل الماسوني المصري ، وقد أعلن هذا الحزب في مقدمة برنامجه بأنه حزب سياسي لا ديني يجمع كل طوائف المصريين[٢] .

وعندما وقعت مصر تحت الاحتلال الإنجليزي عام ١٢٩٩هـ / ١٨٨٢م بدأت الدعوة القومية فيها تتخذ طابعًا وطنيًا هدفه الأساسي هو تحرير البلاد من الاحتلال الأجنبي[٣] .

وهكذا نرى أن فكرة القومية العربية وما تضمنته من طموح استقلالية كانت قبل تولي جمعية الاتحاد والترقي مقاليد حكم الدولة العثمانية محصورة في دائرة ضيقة يمثلها بعض المغامرين الطامحين وفئة من المثقفين العرب غالبيتهم ينتمون إلى أقليات غير إسلامية ، أما غالبية الشعب العربي المسلم فقد ظل ارتباطهم بالدولة العثمانية هي السمة الغالبة على جميع توجهاتهم .

وقد رصد الشعر العربي هذا الارتباط بدولة الخلافة في أكثر من موقف ومن جملة ذلك تلك القصيدة التي نظمها الشاعر العربي المسلم أحمد شوقي

---

(١) عبد الوهاب المسيري : المرجع السابق ، ص ص ٢٣٢ – ٢٣٦ .

(٢) زكريا بيومي : المرجع السابق ، ص ٢٣٣ .

(٣) جورج انطونيوس : المرجع السابق ، ص ١٧٤ .

بمناسبة إعلان السلطان عبد الحميد إعادة العمل بالدستور عام ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م والتي يقول فيها :

بشــرى البــرية قاصيهـا ودانيهـا

حــاط الخلافــة بالدســتـور حاميهــا

لمــا رآهـــا بلا ركــنٍ تداركهــــا

بعــد الخليفــة بالشــورى وناديهـــا

أســـدى إلينـــا أمير المؤمنـــين يـــداً

جلَّت كما جلّ في الأمـلاك مُســـديها

وفي نهاية القصيدة يؤكد الشاعر العربي الترابط بين الشعب العربي والشعب التركي في قوله :

يا شعب عثمان من ترك ومن عـرب

حيّاك من يبعــث الموتــى ويحييهـا [١]

ولكن بعد السياسة القومية المتطرفة التي مارسها الاتحاديون وتعنتهم في تطبيق سياسة تتريك الشعوب العثمانية بدأ الموقف العربي يتغير كما سبق وأن ذكرنا ذلك من قبل .

ومن جانبٍ آخر فقد تزايدت شكوك العرب في نوايا الاتحاديين نتيجة لمواقفهم المتراخية تجاه العديد من القضايا العربية التي ظهرت آنذاك ، مثل موقفهم المتقاعس في الدفاع عن ليبيا إزاء العدوان الإيطالي عليها[٢] بل واتجاههم إلى عقد الصلح مع إيطاليا عام ١٣٣٠هـ / ١٩١٢م على أساس

---

(١) أحمد شوقي : الشوقيات ، ٤ أجزاء (بيروت : دار مكتبة التربية ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م) ج ١ ، ص٤٦٤.

(٢) ساطع الحصري : المرجع السابق ، ص ١٣٧ .

انسحاب القوات العثمانية من ليبيا مقابل انسحاب إيطاليا من الجزر العثمانية التي كانت قد احتلتها في بحر إيجة[١] ، وقد سبقت الإشارة إلى دور اليهودي الماسوني (مترو سالم) في إتمام هذا الصلح[٢] .

وكذلك ما قامت به حكومة الاتحاد والترقي من منح امتياز الملاحة النهرية في نهري دجلة والفرات لشركة انجليزية عام ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م مقابل حصولها على نصف أسهم هذه الشركة . وقد تمت هذه الصفقة دون عرضها على مجلس المبعوثان مما أدى إلى تزايد السخط العربي خوفاً من تزايد النفوذ البريطاني في المنطقة[٣] .

ناهيك عن أهم هذه القضايا وهي قضية فلسطين التي وإن كانت تهم المسلمين بصفة عامة فهي تهم العرب سكان المنطقة بصفة خاصة ، ونقصد بذلك ما لمسه العرب من تأييد جمعية الاتحاد والترقي - التي يشكل يهود الدونمة العنصر الفاعل فيها - للمشروع الصهيوني في فلسطين وذلك من خلال تقديمهم المساعدات اللازمة لليهود لإنشاء المؤسسات العاملة في ميدان العمل الاستيطاني اليهودي وغضهم الطرف عن تزايد الهجرة اليهودية إلى فلسطين[٤] .

كما أن من الأمور التي زادت شقة الخلاف بين العرب والترك سياسة

---

(١) عايض بن خزَّام الروقي : حروب البلقان والحركة العربية في المشرق العربي العثماني ١٣٣٠ - ١٣٣٢هـ / ١٩١٢ - ١٩١٣م ، الطبعة الأولى (مكة المكرمة : جامعة أم القرى ، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م) ص ٨٦ .

- جواد أتلخان : أسرار الماسونية ، ص ٥٩ .

(٢) سبقت الإشارة إلى هذا الموضوع في المبحث الأول من الفصل الثالث ، ص ٢١٩ .

(٣) زكريا بيومي : المرجع السابق ، ص ٢٧٥ .

- محمود صالح منسي : المرجع السابق ، ص ١٣٥ .

(٤) حسان حلاق : المرجع السابق ، ص ص ٣٤ - ٣٥ .

بعض الولاة الأتراك المعادية للعرب أمثال (جمال باشا)[١] الذي عين قائداً عاماً للجيش الرابع في سوريا إبّان الحرب العالمية الأولى ١٣٣٢ - ١٣٣٦هـ / ١٩١٤ - ١٩١٨م فأمعن في سياسة القمع والاضطهاد ضد زعماء العرب هناك وساق المئات من وجهائهم إلى حبال المشانق بتهم ملفقة حتى أن العرب لقبوه بالسفاح[٢] .

لقد كانت هذه العوامل مجتمعة كفيلة بزعزعة الوفاق العربي التركي الذي استمر طيلة أربعة قرون تحت راية الأخوة الإسلامية وكفيلة باستفزاز أحاسيس العرب وإذكاء روحهم القومية ، مما أسفر عن تأسيسهم للعديد من الجمعيات العربية والأحزاب السياسية للدفاع عن قضاياهم والمطالبة بحقوقهم مثل الجمعية القحطانية والجمعية العربية الفتاة وجمعية بيروت الاصلاحية والمنتدى الأدبي وغيرها من الجمعيات التي مارست نشاطها بين عامي ١٣٢٧ - ١٣٣٢هـ / ١٩٠٩ - ١٩١٤ م[٣] .

---

(١) جمال باشا : من مواليد استانبول عام ١٢٩٠هـ / ١٨٧٣م . تخرج من الكلية الحربية في استانبول وعين في الجيش الثالث في سلانيك ، وهو أحد مؤسسي جمعية الاتحاد والترقي . وبعد الانقلاب الدستوري عام ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م أصبح واليًا على أدرنه ، وفي عام ١٣٣١هـ / ١٩١٣م أصبح حاكمًا عسكريًا في استانبول ، وهو أحد الثالوث الذي تركزت السلطة في أيديهم في الدولة العثمانية (جمال باشا ، أنور باشا ، طلعت باشا) بعد خلع السلطان عبد الحميد . وخلال الحرب العالمية الأولى تولى قيادة الجيش الرابع في سوريا فقام بإعدام عدد كبير من وجهاء العرب في الشام بتهم كان أغلبها ليس لها أساس من الصحة ، وفي نهاية الحرب العالمية فر إلى أفغانستان وفي عام ١٣٤٠هـ / ١٩٢٢م قُتل على يد الأرمن .

- جورج انطونيوس : المرجع السابق ، ص ٢٣٤ .
- موفق بني المرجه : المرجع السابق ، ص ٢٧٦ .

(٢) محمد كرد علي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٣٥ .

- صالح مسعود أبو يصير : المرجع السابق ، ص ص ٤٠ - ٤٢ .

(٣) جورج انطونيوس : المرجع السابق ، ص ص ١٨٤ - ١٨٨ .

وليس من شأننا الإسهاب في الحديث عن هذه الجمعيات إلا أنه يجدر بنا الإشارة إلى أن الشيء الذي اتفقت عليه هذه الجمعيات هو المطالبة بالحكم اللامركزي أي أن تحصل الولايات العربية على الاستقلال الذاتي داخل إطار الدولة العثمانية وليس بالانفصال عنها[١] . يؤكد هذا ما جاء في البيان الذي ألقاه نائب رئيس المؤتمر العربي المنعقد في باريس عام ١٣٣١هـ / ١٩١٣م[٢] حيث يقول فيه : « ... توهم بعض أنصار النظام المركزي من اخواننا الأتراك أنّ الغرض من النهضة العربية الانفصال عن الدولة وهو أمر بعيد عن الصحة ، فإنّ الأُمة العربية لا تريد إلا استبدال شكل الحكم الفاسد - الذي يكاد يودي بالدولة - بالحكم الذي يُرجى منه وحدة الصلاح والنجاح لنا ولهم وهو الحكم على قاعدة اللامركزية ولو كانت الهيئة الحاكمة اليوم من صميم قريش لكان موقفنا معها نفس موقفنا هذا »[٣] .

ولكن عاملاً آخر جدّ على الموقف غير مجرى الحركة العربية وأدخلها منحىً خطيراً وهو قيام الحرب العالمية الأولى عام ١٣٣٢هـ / ١٩١٤م ، إذ فيما كان قيام هذه الحرب والإعلان عن اشتراك الدولة العثمانية فيها إلى جانب دول المحور (ألمانيا ، النمسا - المجر) قد دفع الجمعيات العربية والأحزاب السياسية العربية لإيقاف جميع أنشطتها بل وأن القائمين عليها عقدوا العزم على الوقوف إلى جانب إخوانهم الأتراك في هذه الحرب إذا ما استدعى الأمر

---

(١) صالح مسعود أبو يصير : المرجع السابق ، ص ٣٤ .
- محمد عبد الرحمن برج : المرجع السابق ، ص ١٣٦ .

(٢) أعدت لهذا المؤتمر الجالية العربية في باريس بالتعاون مع حزب اللامركزية في القاهرة وحضره وفد عن بعض الجمعيات العربية ووفد عن الحكومة الاتحادية يترأسه (طلعت باشا) وزير الداخلية آنذاك وقد اتفق المؤتمرون على مجموعة من القرارات اعتبرها العرب نصراً لهم ولكن سرعان ما تبددت آمالهم إذ أصبح من الواضح أنه ليس في نية الإتحاديين إنجاز ما وعدوا به .
- زين نور الدين زين : نشوء القومية العربية ، ص ص ٩٩ - ١٠٢ .
- جورج انطونيوس : المرجع السابق ، ص ص ١٩١ - ١٩٤ .

(٣) ساطع الحصري : المرجع السابق ، ص ١٤١ .
- زين نور الدين زين : نشوء القومية العربية ، ص ١٠٠ .

ذلك[١] ، كان الحلفاء (بريطانيا ، فرنسا ، روسيا) قد بدأوا في بذل جهودٍ حثيثة لاستقطاب الحركة العربية ملوحين لأنصارها بوعود براقة كإقامة خلافة عربية ومنح الولايات العربية الإستقلال[٢] . وذلك لأن تلك الدول كانت تدرك أنها إذا ما نجحت في كسب العرب إلى صفها فإن ذلك سيحطم وحدة الدولة العثمانية ويفتح أمام حكومتها جبهة حرب داخلية وبالتالي فسوف يضعف موقفها الحربي ويسهل عليهم هزيمتها[٣] .

ولتنفذ تلك الخطة وجهت بريطانيا أنظارها نحو الشريف (حسين بن علي)[٤] شريف مكة لأنها رأت أنه علاوة على كون الحسين زعيمًا عربيًا يطمح للسيادة فإنّ مكانته الدينية التي يستمدها من انتمائه لبيت الرسول صلى اللّه عليه وسلم ومن كونه القيّم على الأماكن المقدسة في الحجاز ستتيح لها إذا ما تمكنت من التحالف معه ضرب دعوة الجهاد التي أطلقها السلطان العثماني وإبطال تأثيرها على شعوب مستعمراتها الإسلامية[٥] .

---

(١) جورج انطونيوس : المرجع السابق ، ص ٢٣٧ .

(٢) لوثروب ستودارد : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٨٩ ، ١٢٠ .

– محمود صالح منسي : المرجع السابق ، ص ٢٧٥ .

(٣) خيرية قاسمية : المرجع السابق ، ص ٢٥ .

(٤) كان السلطان عبد الحميد الثاني ببعد نظره قد توجس خيفة من الشريف حسين بن علي لأنه شعر بأن له طموحات سياسية واسعة لذلك فقد استغل وقوع خلاف بينه وبين عمه الشريف عون الرفيق أمير مكة وطلب منه القدوم مع أسرته إلى استانبول فقدم إليها في عام ١٣١٠هـ / ١٨٩٣م فعينه السلطان عضواً في مجلس الشورى ، وعندما توفي الشريف عون عام ١٣٢٣هـ / ١٩٠٥م كان الحسين يطمع في أن يعينه السلطان أميراً على مكة ولكن السلطان لم يرغب في ذلك لأنه يدرك أن طموحاته السياسية واسعة وانه لو ظفر بمنصب أمير مكة فإنه سيتطلع إلى حكم العرب لذلك عين الشريف علي ابن عبداللّه أميراً لمكة ، ولكن عندما سيطر الاتحاديون على مقاليد البلاد في أعقاب الانقلاب الدستوري عام ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م قاموا بتعيين الشريف حسين أميراً على مكة وكان ذلك بإيعاز من السفارة البريطانية في استانبول وعندما علم السلطان عبد الحميد بذلك عبر عن تخوفه من طموح الحسين بقوله : « لقد خرجت الحجاز من يدنا ويا ليته يقنع بإمارة مكة » .

– عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مُفترى عليها ، ج ٢ ، ص ص ١٠١٤-١٠١٦ .

– جورج انطونيوس : المرجع السابق ، ص ١٧٨ .

(٥) المرجع نفسه : ص ص ٢٢٠ – ٢٢١ .

ولسنا هنا بصدد دراسة شاملة لما عرف بالثورة العربية الكبرى وإنما حسبنا منها تتبع خيوط المؤامرة التي استغلت مشاعر العرب القومية في تحقيق أهداف الاستعمار والصهيونية .

ففي الوقت الذي نجحت فيه بريطانيا باغراء الشريف حسين فقام بالثورة على الدولة العثمانية عام ١٣٣٤هـ / ١٩١٦م منساقًا وراء وعودها له بإقامة دولة عربية وتنصيبه خليفة عليها ، كانت في الخفاء تعقد مع حليفتها فرنسا معاهدة (سايكس – بيكو Sykes - Picot)[١] عام ١٣٣٤هـ / ١٩١٦م من أجل تقسيم الولايات العربية الخاضعة للدولة العثمانية فيما بينهما والتي تقرر فيها أن تكون أجزاء واسعة من فلسطين تابعة لبريطانيا – ليسهل عليها فيما بعد إقامة الدولة اليهودية عليها –[٢] .

ويتضح لنا مدى تلاعب الإنجليز بمشاعر العرب القومية واستغلالهم لقصر نظرة الحسين السياسية من خلال البرقية التي أرسلها وزير خارجية بريطانيا بلفور Balfour إلى الشريف حسين في عام ١٣٣٦هـ / ١٩١٨م والتي أشار فيها إلى رغبة بريطانيا في تحرير البلاد العربية من الحكم الأجنبي وتأييدها للأمة العربية في جهادها وصراعها لإحياء الدولة العربية وتأكيدها بتأييد الاستقلال العربي[٣] . في الوقت الذي كان بلفور نفسه قد أصدر في عام ١٣٣٥هـ / ١٩١٧م وعد لليهود بإنشاء وطن قومي لهم في فلسطين في رسالة وجهها إلى الزعيم اليهودي البريطاني روتشيلد Rothschild [٤].

---

(١) أطلق هذا المصطلح على هذه المعاهدة نسبة إلى الخبير البريطاني في الشؤون الشرقية مارك سايكس والقنصل الفرنسي في بيروت فرانسو جورج بيكو اللذين رسما خطة تقسيم الولايات العربية في الدولة العثمانية بعد الحرب في هذه المعاهدة .

– كارل بروكلمان : المرجع السابق ، ص ٧٤٦ .

(٢) لوثروب ستودارد : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٣٩ .

(٣) رفعت سيد أحمد : وثائق حرب فلسطين ، الملفات السرية للجنرالات العرب (القاهرة : مكتبة مدبولي ، ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م) ص ٧٨ .

(٤) حسن صبري الخولي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٩٥ .

ولكن سرعان ما انكشفت الحقائق واتضح للعرب حجم الخدعة التي وقعوا فيها وذلك حين وضعت الحرب أوزارها ووجدوا أن وطنهم أضحى غنيمة للحلفاء وأن أحلامهم القومية قد تطايرت بها رياح الحرب[١] .

إلا أن مما يؤسف له أنه على رغم فداحة الخطأ الذي وقع فيه العرب وجلاء الدرس الذي تلقوه فإنهم لم يستفيدوا من خطأهم ولم يستوعبوا درسهم فقد استطاع أعداؤهم الإيقاع بهم من جديد وكان الشرك هذه المرة قد نصب لفيصل بن الشريف حسين الذي كان الأمل بإنشاء دولة عربية مستقلة ما زال يراوده بعد أن شيع والده آماله في الخلافة[٢] . وذلك حين أوحى له ضابط المخابرات الإنجليزي والعميل الصهيوني (لورنس Laurence)[٣] – الذي استطاع بمكره وخداعه أن يكسب ثقته ومحبته – بأن تأييده لليهود سيدعم القضية العربية ويقوي موقفه أمام الحلفاء في مؤتمر الصلح المنعقد في باريس عام ١٣٣٧هـ / ١٩١٩م[٤]. مؤكدًا له بأن الصهاينة ليست لهم أهداف سياسية

---

(١) صالح مسعود أبو يصير : المرجع السابق ، ص ص ٧٠ – ٧٢ .

(٢) حسن صبري الخولي : المرجع السابق ، ص ٢٩٧ .

(٣) اسمه الكامل توماس ادوارد لورنس واشتهر بـ (لورنس العرب) ولد عام ١٣٠٥هـ / ١٨٨٨م بمقاطعة ويلز بانجلترا ، تلقى تعليمه الجامعي في جامعة اكسفورد وبعد تخرجه تعهده زعيم المؤسسات الاستعمارية وضابط الاستخبارات البريطانية المتخصص في شؤون الشرق الأوسط (هوغارث) وأخذ يُعده للمهمة التي ستسند إليه فبعثه في عدة رحلات إلى الشرق الأوسط قام خلالها بدراسة اللغة العربية بمدرسة الإرساليات الأمريكية بلبنان ، كما تعرف خلالها على عادات العرب وميولهم السياسية والعاطفية . وفي عام ١٣٣٢هـ / ١٩١٤م انخرط رسميًا في سلك الاستخبارات البريطانية العسكرية .

– زهدي الفاتح : لورنس العرب على خطى هرتزل ، الطبعة الرابعة (بيروت : دار النفائس ، ١٤١١هـ / ١٩٩١م) ص ص ٣٢ – ٣٤ .

(٤) يوسف بن علي الثقفي : الهدف الأرعن لمعاهدة فيصل – وايزمن لعام ١٣٣٨هـ / ١٩١٩م ، الطبعة الأولى (الطائف : دار الحارثي ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م) ص ٣١ .

في فلسطين وأن غايتهم هي تنمية موارد البلاد ، فتولد اعتقاد في نفس فيصل نتيجة هذه التأكيدات بأن أماني اليهود وسياسة الحكومة البريطانية الموجهة لتحقيقها لا تحمل في طياتها ما يتعارض مع حريات العرب وحقوقهم السياسية والاقتصادية في فلسطين ثم تطور هذا الاعتقاد في ذهن فيصل بتأثير من لورنس إلى قناعة بإمكانية التعاون بين العرب واليهود في فلسطين[١].

وقد تكللت بالنجاح مساعي العميل الصهيوني لورنس Laurence الذي اعترف بولائه للصهيونية في تصريح صحفي قال فيه : « إني أؤيد الصهيونية إني أعتبر اليهود النَقَلَة الطبيعيين للخميرة الغربية الضرورية جداً لدول الشرق الأدنى »[٢] وذلك حين تمكن من إقناع فيصل بن الحسين بمقابلة الزعيم الصهيوني وايزمان Weizmann والتوقيع على المعاهدة المعروفة بـ (معاهدة فيصل – وايزمان) عام ١٣٣٧هـ/ ١٩١٩م والتي تضمنت موادها إقراراً بوجود حق لليهود في فلسطين كما تضمنت وعداً بتقديم أوفى الضمانات لتنفيذ وعد بلفور لليهود وتشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين على مستوى واسع[٣] ، مما يثبت أن هذه المعاهدة قد خُطط لتكون وثيقة رسمية في أيدي اليهود تثبت أن العرب في يومٍ من الأيام قبلوا بتصريح بلفور[٤] .

---

(١) جورج انطونيوس : المرجع السابق ، ص ص ٣٩٤ – ٣٩٦ .

(٢) أحمد نوري النعيمي : اليهود والدولة العثمانية ، ص ٢٥١ .

(٣) خيرية قاسمية : المرجع السابق ، ص ٩٠ .

– يوسف بن علي الثقفي : الهدف الأرعن لمعاهدة فيصل وايزمن ، ص ص ١٤ – ١٥ .

(٤) يؤكد هذا أن رئيس الكيان الصهيوني (نافون) كان قد تطرق لهذه المعاهدة في الكلمة التي ألقاها بمناسبة تواجد الرئيس المصري أنور السادات في الأرض المحتلة عام ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م وذلك في قوله : « ... وليس بالماضي البعيد فحسب وإنما قبل ستين سنة ، مع تداعي الإمبراطورية العثمانية اعتبر قادة الحركة الوطنية العربية واليهودية حركتيهما تكمل الواحدة الأخرى وتعاونوا على هذا الأساس . وفي سنة ١٩١٩م وقع حاييم وايزمان مع الأمير فيصل بن الحسين أمير الحجاز على ==

وليس غريباً أن يكون للورنس هذا الدور الضليع في استصدار هذه الوثيقة فقد تبين مدى حماسه لإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين وتقديره لجهود الزعيم الصهيوني وايزمان في هذا الصدد من خلال الخطاب الشديد اللهجة الذي بعثه إلى أحد الكهان الذين أظهروا اعتراضهم على فكرة إقامة الوطن اليهودي والذي يقول فيه : « ... كان الأفضل لك أن تفعل شيئًا آخر غير الاحتجاج ، لكنك غير صالح حتى لتنظيف حذاء وايزمان »[1] .

والواقع أنه قد أثيرت مناقشات واسعة حول حقيقة هذه المعاهدة وظروف توقيعها خلاصتها أن فيصل بن الحسين قد وقع على هذه المعاهدة فعلاً وأن من حق الأمة العربية والإسلامية أن تحمله مسئولية ذلك ، مع الأخذ بعين الاعتبار أنه لم يكن على دراية باللغة التي كتبت بها المعاهدة - الإنجليزية - وأنه لم يطلب ترجمة باللغة العربية بل اعتمد على لورنس في ترجمتها ، ولا يستبعد أن يكون هذا الأخير قد تواطأ مع الزعيم الصهيوني على استغلال ذلك في خداع فيصل بمحتواها[2] . سيما وقد اعترف لورنس بأنه كان يُحرّف معظم البرقيات التي كان يتبادلها فيصل مع والده الحسين وذلك في قوله : « ... وبقيت أياماً ألعب هذا الدور وبقي فيصل لا يعلم شيئًا عن السبب الذي تحمله رسائل الحسين ، وكان كل ما يعرفه أنّ برقيات مكة قد ضربت شوطًا بعيداً في التحريف والاضطراب حتى أصبح لا معنى لها ولم تكن مكة تُعنى بإعادة هذه البرقيات مُصححة بل كانت تُرسل مكانها برقيات جديدة ...

= اتفاقية التعاون المذكورة من أجل تحقيق أهداف الجانبين في الاستقلال الوطني » .

- أحمد نوري النعيمي : اليهود والدولة العثمانية ، ص ٢٤٠ .

(١) زهدي الفاتح : المرجع السابق ، ص ٢٩ .

(٢) حسن صبري الخولي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ص ٣٠٧ - ٣٠٩ .

فكنت لا أسلمها إلا بعد أن ألعب دوري بحذق »[١] .

كما اعترف لورنس بالأهداف الحقيقية التي من أجلها وجد بين العرب في قوله : « ... أهدافنا الرئيسية تفتيت الوحدة الإسلامية ودحر الامبراطورية العثمانية وتدميرها ... وإذا عرفنا كيف نعامل العرب وهم الأقل وعياً للاستقرار من الأتراك ، فسيبقون في دوامة من الفوضى السياسية داخل دويلات صغيرة حاقدة ومتنافرة ، غير قابلة للتماسك »[٢] .

إلا أننا نرى أن كل هذا لا يخلي مسئولية فيصل ولا يخفف من الجرم الذي ارتكبه في حق الأمة العربية والإسلامية حيث كان من الأجدر به أن يتوخى الحيطة والحذر سيما وهو يتعامل مع أناس - بريطانيا - قد ثبتت له خداعهم وغدرهم - على الأقل - بما كان منهم مع والده ، وشريعتنا الإسلامية الغراء التي لم تترك جانباً من جوانب حياتنا إلا وتعهدته بالتوجيه دعت إلى الحذر وجعلت من متممات الإيمان تجنب تكرر الوقوع في الخطأ ذاته كما جاء في قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يُلدغ المؤمن من جحرٍ مرتين »[٣] ولكن يبدو أن فيصلاً قد غلبت عليه طموحاته الشخصية فأُعميت بصيرته .

وكما استطاع أولئك المتربصون بالأمة الإسلامية استغلال أحاسيس ومطامح العرب القومية - التي يعود إليهم الفضل في بعثها وإضرامها - لتحقيق مصالحهم أثناء الحرب العالمية الأولى فكذا استغلوا تلك الحرب

---

(١) لورانس : الثورة العربية ، تعريب : شعبان بركات ، الطبعة الثانية (عمان : المطبعة الأهلية للنشر والتوزيع ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م) ص ١٦٨ .

(٢) زهدي الفاتح : المرجع السابق ، ص ٦٤ .

(٣) محمد ناصر الدين الألباني : المرجع السابق ، ج٢ ، حرف اللام الفا حديث رقم (٧٧٧٩) ص ١٢٨٤.

لاصطناع بطل القومية التركية وأبرز أبطال مسرحية القضاء على دولة الخلافة الإسلامية ومرخي ستارها اليهودي الدونمة مصطفى كمال [١] .

وكان من الطبيعي بعد أن سيطر هذا الدونمة الماسوني على مقاليد الحكم في البلاد أن يضع جهوده الرامية لإلغاء منصب الخلافة الإسلامية والقضاء على الدولة العثمانية وإقامة دولة علمانية في إطار قومي بعيد كل البعد عن التيار الديني[٢] سيما ومشهود له بعدم إقامة وزن لأي قيم دينية أو إنسانية[٣].

ومن هذا المنطلق نجد مصطفى كمال يسعى إلى فصل الشعب التركي عن كل مصادر ثقافته الإسلامية بل وشتى مجالات المعرفة التي كتبت بالحروف العربية بإصداره قانونًا يلغي كتابة اللغة التركية بالحروف العربية – وهو الأمر الذي درج عليه الأتراك في الدولة العثمانية – واستبدالها الحروف اللاتينية[٤] . كما صدرت أوامره بترجمة القرآن الكريم إلى اللغة التركية وبأن ينادى للصلاة وأن يتلى القرآن فيها بالتركية[٥] .

ولتكريس النزعة القومية الطورانية لدى الشعب التركي أمر مصطفى كمال بإزالة كل النقوش والعلامات والشعارات الإسلامية من على مباني الدولة وطوابع البريد والأوراق النقدية ليحل محلها شعار (الذئب الأغبر) رمز

---

(١) سوف نتناول هذا الموضوع بتوسع في المبحث الأول من الفصل الخامس الذي خصصناه لهذا الموضوع.

(٢) محمد عزة دروزة : تركيا الحديثة (بيروت : مطبعة الكشاف ، ١٣٦٥هـ / ١٩٤٦م) ص ١٦ .

(٣) هـ . س . أرمسترونج : المصدر السابق ، ص ٢٥ .

(٤) بلغ حرص مصطفى كمال على قطع صلة الشعب التركي باللغة العربية أنه بعد إصداره القانون القاضي بكتابة اللغة التركية بالحروف اللاتينية كان يقوم بنفسه بجولات في المدن والقرى حاملاً لوحًا وطباشير لإلقاء دروس في الكتابة باللاتينية . انظر الملحق رقم (٣) .

– محمد عزة دروزة : تركيا الحديث ، ص ص ١٢٢ – ١٢٤ .

(٥) هـ . س . أرمسترونج : المصدر السابق ، ص ٢١٥ .

الأتراك القدماء الوثنيين[١] .

وقد جاء إحياء ذلك الشعار الطوراني بداية مشجعة لرفع الشعارات الوطنية والقومية في سائر أقطار الدولة العثمانية فإذا بالفرعونية تبرز في مصر والفينيقية في الشام والبابلية والآشورية في العراق والبربرية في المغرب وقد شجع المستعمرون والمنصرون هذا الاتجاه ليكون سبيلاً للقضاء على الرابطة الإسلامية[٢] .

ولعلنا من خلال العرض السابق استطعنا أن نوضح مدى خطورة هذا السلاح الذي استخدمته الصهيونية وحلفاؤها عن إدراك تام منها لما يعنيه التلاعب بالأحاسيس القومية والمشاعر الوطنية في دولة تتألف من قوميات مختلفة ووطنيات متعددة وعن يقين بأنّ هذه السياسة سوف تحقق لهم أهدافهم في اسقاط الدولة العثمانية حيث سيدعون فشلها في جمع شتات الشعوب الإسلامية في نظام حكم إسلامي موحد .

---

(١) أورد شيخ الإسلام مصطفى صبري في كتابه أسطورة ذلك الشعار في قوله : « ... اسطورته أنه لما انسحب الترك إلى (اركنه قونة) بعد انهزام أصابهم بقوا في تلك البقاع المحاطة بالجبال المسلسلة ثم أنهم لما تكاثروا على مرور الزمن تحروا لهم مخرجًا منها وكان القوم أضرموا نارًا ذات يوم على سفح جبل فصادفت فلذًا من الحديد وأذابته فانفتحت منه فوهة وكان أول من مرّ على هذه الفوهة ذئب أغبر فمشى القوم على أثر هذا الذئب وخرجوا وفتحوا بعده الدنيا وشادوا ملكهم العظيم . ومنها صار الحديد والذئب محترمين عند الترك وكان على رايات الأمراء والخواقين القدماء من الترك شعار يدل على الذئب » .

– مصطفى صبري : المصدر السابق ، ص ١٩٦ .

(٢) المصدر نفسه : ص ١٩٧ .

المبحث الثالث

اليهود وجمعية الاتحاد والترقي

أيقنت الدوائر الصهيونية أنها لن تتمكن من تنفيذ مخططاتها وبلوغ أهدافها إذا ما استمر السلطان عبد الحميد الثاني ممسكًا بزمام أمر الدولة العثمانية وهي النتيجة التي خرج بها زعيمها هرتزل – بعد فشل مساعيه لإقناع السلطان بالموافقة على إقامة وطن لليهود في فلسطين – والتي عبّر عنها في قوله : « إني أفقد الأمل في تحقيق أماني اليهود في فلسطين وأن اليهود لن يستطيعوا دخول الأرض الموعودة طالما أنّ السلطان عبد الحميد قائمًا في الحكم مستمرًا فيه »(١) .

لذا قررت تلك الدوائر إزاحة السلطان عبد الحميد وتسليم السلطة في الدولة العثمانية لفئة تسهل جهودها وتخدم أهدافها(٢) ، وأصدر (الشرق الأعظم) الماسوني الفرنسي قرارًا بهذا الخصوص (٣).

ومن هذا المنطلق بدأت المنظمات الصهيونية تسعى لاجتذاب العناصر المناهضة والثائرة على السلطان عبد الحميد وتعمل على تنظيم جهودها ودعمها ماديًا ومعنويًا(٤) ، وقد استطاعت تلك القوى الصهيونية أن تجني ثمار جهودها في رعاية ودعم تلك العناصر المناوئة للسلطان عبد الحميد حين تمكنت ربيبتها (جمعية الاتحاد والترقي) من الإطاحة بحكم السلطان عبد الحميد الثاني عام ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩م – تمهيداً للإطاحة بصرح الدولة الإسلامية –

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ٢٩ .

(٢) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ، ص ١٧ .

(٣) ارنست أ . رامزور : المرجع السابق ، ص ١٢٦ .

(٤) حسان حلاق : المرجع السابق ، ص ٣٠١ .

وأصبح أعضاء هذه الجمعية من يهود الدونمة أداتها الطيعة لتنفيذ المشروع الصهيوني[١] .

ولإثبات الصلة الوثيقة بين جمعية الاتحاد والترقي والمؤسسات الصهيونية ودور تلك المؤسسات في احتضان هذه الجمعية ، يجدر بنا أن نتتبع مراحل نشأة هذه الجمعية .

إن هناك شبه إجماع بين المصادر التاريخية على أن جذور جمعية الاتحاد والترقي ترجع إلى عهد السلطان عبد العزيز (١٢٧٧ - ١٢٩٣هـ / ١٨٦١ - ١٨٧٦م) حيث قامت مجموعة من الشباب الأتراك الذين تأثروا بالثقافة الغربية ، بإنشاء جمعية سرية أطلقوا عليها اسم (جون ترك John Turk) أي تركيا الفتاة[٢] ، كان مركز نشاطها في بداية الأمر في داخل تركيا ثم انتقل إلى أوروبا بسبب صرامة الرقابة الحكومية ، وقيام هذه الجمعية يمثّل حركة قومية علمانية تستهدف قيام النظام الدستوري والإصلاح بالمفهوم الغربي ، واتخذت هذه الجمعية القنوات الثقافية والأدبية طريقًا للتعبير عن اتجاهاتها[٣] .

وقد انتشرت الأفكار التي نادت بها جمعية تركيا الفتاة بين الشباب التركي سيما وقد وجدت مروجين لها في داخل تركيا . ومن أبرز من اضطلعوا بهذا الدور الدونمة اليهودي مدحت باشا الذي استغل هذه الأفكار لتشويه

---

(١) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مُفترى عليها ، ج ٢ ، ص ١٠٠٢ .

(٢) من أبرز المؤسسين لهذه الجمعية نامق كمال وضياء باشا والأمير مصطفى فاضل أخو الخديوي إسماعيل .

- المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ص ١٠٠٤ - ١٠٠٥ .

(٣) ارنست أ . رامزور : المرجع السابق ، ص ص ٤٠ - ٤١ .

سمعة السلطان عبد العزيز – لغاية في نفسه [١]– ، فانتهى الأمر إلى عزل السلطان عبد العزيز وتولية السلطان مراد الخامس ومن ثم عزله ولم يمض إلا ثلاثة أشهر على توليته الحكم [٢]، وعلى إثر ذلك اعتلى العرش السلطان عبد الحميد الثاني الذي اعتقد مدحت باشا ورفاقه من أصحاب الأفكار التحررية أنه سيقر منهج الحكم الذي يطالبون به عندما أعلن الدستور (النظام البرلماني) عام ١٢٩٣هـ / ١٨٧٦م [٣]، لكن السلطان عبد الحميد كان يدرك الأضرار التي تترتب على تطبيق النظام الدستوري في دولة لها ظروف الدولة العثمانية [٤]، وقد جاء إعلان الدستور كحل مؤقت اقتضته الظروف السياسية الصعبة التي تمر بها الدولة[٥] . لذا فقد قام بتعطيل هذا النظام بعد إعلانه بفترة قصيرة لا تتجاوز السنة وبضعة أشهر لما لمسه من اختلاف أعضاء مجلس الأعيان حول أمور تهدد كيان الدولة[٦] .

وقد استغل المتربصون بالدولة العثمانية وخصوم السلطان عبد الحميد تعطيله للدستور فرصة للنيل من سمعته حيث راحوا يشنون عليه حملة إعلامية شرسة فسرت اتخاذه هذا القرار بأنها محاولة لشد قبضته على الدولة وحكمها

---

(١) سبقت الإشارة إلى أن مدحت باشا كان عميلاً للإنجليز الذين رغبوا في إزاحة السلطان عبد العزيز لتبنيه سياسة مضرة بمصالحهم في الشرق .

– محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ص ٥٧٥ – ٥٧٦ .

(٢) إسماعيل سرهنك : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ص ٣٥٤ – ٣٥٥ .

(٣) كان مدحت باشا ورفاقه قد اشترطوا على السلطان عبد الحميد تطبيق الدستور قبل مبايعته فأظهر السلطان موافقته لتهدئة الموقف .

– يوسف آصاف : المصدر السابق ، ص ١٢٨ .

(٤) سبق التطرق لهذا الموضوع بالتفصيل في المبحث الثاني من الفصل الثاني .

(٥) هارولد تمبرلي وَ أ . ج . جرانت : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٩ .

(٦) إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٧٣٠ .

بيد من حديد إرضاء لنزعته الاستبدادية[١] .

وقد نجحت هذه الحملة الإعلامية التي كانت تسعى لتقويض أركان الدولة العثمانية[٢] ، في إيجاد المُناخ المناسب لنمو الحركة المعارضة لحكم السلطان عبد الحميد وتبرير مسوغاتها[٣] .

ففي عام ١٣٠٧هـ / ١٨٨٩م شكل جماعة من طلبة المدرسة الطبية العسكرية في استانبول جمعية سرية تستهدف عزل السلطان عبد الحميد الثاني وكان وراء هذا التشكيل طالب ألباني ماسوني اسمه (إبراهيم تيمو) ويعرفه البعض باسم (أدهم) اتفق مع مجموعة من زملائه على إقامة تلك الجمعية وكان في مقدمتهم اسحق سكوتي وعبدالله جودت وشركس محمد رشيد ، ومن هؤلاء الأربعة تكونت نواة الجمعية التي أطلق عليها اسم (الترقي والاتحاد) وليس (الاتحاد والترقي) وهو الاسم الذي اشتهرت به فيما بعد[٤].

وقد اتخذت هذه الجمعية لها شعارات براقة مثل إعادة الدستور للمساواة بين أجناس الرعية ومنح حرية إبداء الرأي والمحافظة على سلامة الأرواح والأموال وتقييد سلطة السلطان بالقوانين وقد كانت هذه الشعارات الزائفة طعمًا مغريًا سرعان ما جذب إلى الجمعية عددًا كبيرًا من الطلاب[٥] .

---

(١) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مُفترى عليها ، ج ٢ ، ص ١٠٠٣ .

(٢) سبقت الإشارة إلى أن اليهود كانوا هم المروجين لهذه الأفكار عبر وسائل الإعلام التي يسيطرون عليها.

(٣) المرجع نفسه : ج ٢ ، ص ١٠٠٤ .

(٤) ارنست . أ. رامزور : المرجع السابق ، ص ص ٤٩ – ٥٠ .

– جورج انطونيوس : المرجع السابق ، ص ١٧٦ .

(٥) يوسف آصاف : المصدر السابق ، ص ١٣٤ .

والتساؤل المطروح هنا لماذا ارتفعت راية الثورة على السلطان عبد الحميد بين طلاب المدارس العسكرية بالذات ؟ وللإجابة على هذا التساؤل نجد أنه لا يوجد أي وجه للاختلاف بين الظروف المعيشية والاجتماعية والتعليمية لطلاب المدارس العسكرية وطلاب المدارس والكليات الأخرى سوى كون طلاب المدارس العسكرية يتلقون تعليمهم على أيدي مدرسين أجانب . فالسلطان عبد الحميد كان يخشى على شباب بلاده مغبة البعثات التعليمية في الدول الأجنبية لذا عمل على جلب أولئك المعلمين والمدربين العسكريين إلى بلاده معتقداً أنهم بذلك يكونون في مأمن من التأثيرات الأجنبية[١] .

ولا نعلم هل غاب عن السلطان عبد الحميد أن أولئك المعلمين والمدربين ليسوا إلا رسل الدول الاستعمارية والدوائر الصهيونية وأنهم قد حملوا معهم تلك الأفكار التي كان يخشى على شباب بلاده منها وأن خطر هذه الأفكار يتفاقم كونها تبث في المدارس العسكرية حيث يوجد الشباب بما يحملونه من حماس واندفاع وحيث يوجد القادة العسكريون وكبار الضباط ومن بيدهم قلب الموازين في البلاد ؟

أم أن السلطان عبد الحميد – وهو المشهود له باليقظة وشدة الحذر – كان يرى أنه بعمله هذا قد أخذ بأقل الأمرين ضرراً سيما وهو مضطر لذلك تحت إلحاح المطالبين بالأخذ بالأساليب الغربية .

وإن مما يثبت أن الدوائر الصهيونية كانت وراء نشر هذه الأفكار الثورية بين شباب الدولة العثمانية أن تنظيم جمعية الإتحاد والترقي قد جاء على نمط جمعية (الكاربوناري)[٢] الإيطالية وتنظيماتها الماسونية وقد كان إبراهيم تيمو

---

(١) ارنست . أ . رامزور : المرجع السابق ، ص ٥٢ .

(٢) الكاربوناري : جمعية سرية كبيرة ظهرت في إيطاليا في النصف الأول من القرن التاسع عشر =

في السنة السابقة لتشكيل جمعيته في زيارة لبلاده ألبانيا وفي الطريق توقف في مدينة نابولي الإيطالية وزار خلال إقامته فيها محفلاً ماسونياً وتعلم الكثير عن دور الكاربوناري في التاريخ الإيطالي وقرر أن ينشيء في تركيا جمعية سرية على غرارها[١] .

ومما يُستدل به على أن إبراهيم تيمو قد تدرب جيداً على أيدي أساتذته الماسونيين الإيطاليين أنه قد طبق النظم الماسونية بحذافيرها في مراسيم قبول الأعضاء الجدد في الجمعية وعند عقد اجتماعات أعضائها . وفي هذا الصدد يقول المؤرخ المعاصر لتلك الأحداث يوسف آصاف : « ... واتخذوا في قبول الأعضاء وإدخالهم في هذه الجمعية طرقاً تشبه الطرق الماسونية »[٢] .

كما أكد تلك الصلة أرمسترونج الملحق العسكري الإنجليزي في استانبول في قوله : « ... فقد انضموا إلى جماعة الماسون - البنائين الأحرار - واستعانوا على تأليف جمعيتهم الثورية وتنظيمها باقتباس أساليب المنظمات الماسونية »[٣] .

= الميلادي وكان معظم أعضائها باديء الأمر من الفحامين والحطابين ولكن سرعان ما انتشرت بين طبقات الشعب الإيطالي المختلفة مدنيين وعسكريين بل وتخطت حدود إيطاليا فانتشرت في فرنسا واسبانيا وكان شعارها (الحرية والمساواة والاستقلال) ولها رموز خفية وطقوس غامضة ، وكانت تستخدم العنف لتحقيق المطالب الشعبية كما كان لها دور في كثير من الحروب والثورات الأوربية مما أدى إلى اتفاق الحكومات والكنائس على محاربتها .

- محمد عبدالله عنان : المرجع السابق ، ص ص ١٥٢ - ١٥٩ .

(١) عبدالله التل : الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام ، ص ٧٨ .

- اورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ٢٧١ .

(٢) يوسف آصاف : المصدر السابق ، ص ١٣٤ .

(٣) هـ . س . أرمسترونج : المصدر السابق ، ص ٢٩ .

إلا أن الدليل الذي لا يدع مجالاً للشك في صلة هذه الجمعية بالماسونية الصهيونية هو اعتراف إبراهيم تيمو نفسه بانتمائه إلى الماسونية هو وعدد كبير من القادة المؤسسين لها وقد جاء هذا القرار صريحًا وواضحًا في مذكرات إبراهيم تيمو التي نشرت في عام ١٣٥٨ هـ / ١٩٣٩م[١] .

هذا وقد استمرت تلك الجمعية السرية الثورية في النمو وانضم إليها أعضاء من الكليات العسكرية والكلية الملكية – وهي معهد لتدريب موظفي الحكومة – ومن الكلية البحرية بل ومن خارج نطاق المدارس والكليات[٢] .

وهنا أود التوقف عند نقطة أشار إليها ارنست . أ . رامزور في صدد حديثه عن نمو هذه الجمعية وكثرة المنضمين إليها من طلبة المدارس والكليات وهي قوله : « ... غير أن السوفتا – طلبة المدارس الدينية – رغم أنهم كثيراً ما كانوا مصدر قلق للحكومة إلا أنهم لم يكونوا مادة طيبة لحركة تركيا الفتاة »[٣] ولا نعلم أترك رامزور هذه النقطة دون تعليق عليها عن قصد أو غير قصد . وعلى العموم فنحن نرى انه ليس هنالك ما يمكن أن يبرر به عزوف طلبة المدارس الدينية عن الانضمام إلى تلك الجمعية التي تسابق أندادهم إلى الانتماء إليها إلا كونهم قد أدركوا الأهداف الحقيقية لهذه الجمعية وخطورة الأفكار التي تروجها . وليس ذلك بغريب فمن الطبيعي أن يكون الدارس للعلوم الشرعية أكثر تيقظًا من غيره لمثل هذه المزالق وأكثر إلمامًا بما يُحاك ضد الأمة الإسلامية ، وعدا ذلك فهم يعلمون أي إثم عظيم يقع فيه من يشق عصا الطاعة ويخرج على ولي أمر المسلمين .

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ١٣٤ .

(٢) محمد أنيس : المرجع السابق ، ص ٢٦٤ .

(٣) ارنست . أ . رامزور : المرجع السابق ، ص ٥٤ .

وعلى أي حال ففي عام ١٣١٠هـ / ١٨٩٢ م افتضح أمر الجمعية على أيدي ثلاثة طلاب قدّموا للقصر السلطاني تقريراً عن نشاط هذه الجمعية والأفكار التي تروجها وعلى إثر ذلك غادر بعض أعضائها البلاد واتجهوا إلى أوروبا خوفًا من الوقوع في قبضة السلطان ولكن يبدو أن السلطان لم يعر هذا الموضوع اهتمامًا كبيرًا فقد اكتفى بإقالة مدير المدرسة الطبية العسكرية وتعيين شخص آخر والتحقيق مع بعض الطلبة[١] .

وقد تركز معظم أعضاء الجمعية الذين غادروا الدولة العثمانية في باريس حيث وجدوا هناك مجموعة من الشباب العثماني الذين تركوا البلاد بعد تعطيل الدستور تعبيرًا عن اعتراضهم على ذلك ، وقد جمعت وحدة الهدف بين هؤلاء الشباب فأصبحت باريس مركزًا جديدًا لجمعية الاتحاد والترقي[٢] .

وفي باريس انضم إلى الجمعية الماسوني أحمد رضا[٣] الذي قُدِرَ له فيما بعد أن يُصبح أشهر رجال جمعية الاتحاد والترقي في أوروبا وقد قام هذا الشخص بالتعاون مع بعض زملائه في عام ١٣١٢هـ/١٨٩٥م بإصدار صحيفة أطلقوا عليها اسم (مشورت) أصبحت اللسان الرسمي للجمعية وكانت تطبع باللغة التركية لأنها موجهة للقراء داخل الدولة العثمانية[٤] .

---

(١) المرجع نفسه : ص ٥٣ .

(٢) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مُفترى عليها ، ج ٤ ، ص ١٨٠٢ .

(٣) أحمد رضا : هو ابن علي رضا الذي كان يعرف بـ (علي بك الإنجليزي) نظرًا لميوله الإنجليزية أما أمه فهي نمساوية ، عمل مديرًا للمعارف في منطقة بورصة وحاول التزلف للسلطان عبد الحميد بمقالات المديح المدبجة التي كان ينشرها في بعض الصحف وعندما فشل في تحقيق مكسب من هذه الطريقة ذهب إلى باريس ورفع راية المعارضة من هناك .

- اورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ٢٧٢ .

(٤) يلماز اوزتونا : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٧٠ .

ولأن إدخال مثل هذه المطبوعات إلى الدولة العثمانية أمر في غاية الصعوبة فقد تكفلت السفارات الأوروبية ودوائرها البريدية بهذه المهمة لأنها محصنة عن التعرض للرقابة الحكومية بموجب الامتيازات الأجنبية[١] .

كما كان للدوائر اليهودية دور كبير في هذا المجال وقد شهد بذلك الكاتب اليهودي (غالانتي) في كتابه (الأتراك واليهود) وذلك في قوله : « إن الجماعات اليهودية خارج نطاق نفوذ عبد الحميد أيدت جمعية الاتحاد والترقي وكان هذا التأييد مفيداً أثناء ما كانت الجمعية تعد العدة للانقضاض على عبد الحميد » ويردف غالانتي قائلاً : « إن الجمعية الإسرائيلية بمصر أكدت أن من أهم واجباتها إدخال المطبوعات التي تهاجم السلطان عبد الحميد إلى داخل حدود الدولة العثمانية بأي شكل من الأشكال وهي المطبوعات التي كان يحررها أعضاء تركيا الفتاة »[٢] .

أما بالنسبة لمركز الجمعية في استانبول فقد دبر في عام ١٣١٣هـ / ١٨٩٦م مؤامرة خطيرة لخلع السلطان عبد الحميد لكن تسرب خبر هذه المؤامرة إلى السلطات العثمانية وأُلقي القبض على معظم مدبريها وحكم عليهم بالنفي[٣] إلى مناطق بعيدة داخل الدولة[٤] .

ونلاحظ هنا أن روح التسامح والحلم التي طُبع عليها السلطان عبد الحميد قد غلبت عليه فجعلته يكتفي بنفي هؤلاء المتآمرين عليه ، وأنسته أنه

---

(١) حسان حلاق : المرجع السابق ، ص ٢٩٥ .

(٢) فتحي شهاب الدين : المرجع السابق ، ص ٣٠ ، نقلاً عن آوام غالانتي : الأتراك واليهود، ص ٢٢.

(٣) نرى في موقف السلطان عبد الحميد (رحمه الله) من مدبري هذه المؤامرة - حيث اكتفى بنفيهم مع أن جرمهم يدخل في إطار الخيانة العظمى التي عقابها شرعًا وقانونًا الإعدام - إسقاط للادعاء الذي تردده أبواق اليهود وحلفائهم من أن السلطان عبد الحميد كان يميل إلى سفك الدماء .

(٤) يوسف أصاف : المصدر السابق ، ص ١٣٥ .

بعمله هذا يتيح لهم الفرصة لنشر أفكارهم الخطيرة في مناطق عديدة وبعيدة عن رقابته .

وفي فترة الأحداث السالفة الذكر ظهرت على الساحة شخصية جديدة أظهرت اعتراضها على سياسة السلطان عبد الحميد وهي شخصية (مراد بك الداغستاني)[١] الذي كان يعمل مدرسًا للتاريخ في الكلية المدنية ، ولأن له شهرة كبيرة في مجال الكتابات السياسية والأدبية فسرعان ما استقطبته جمعية الاتحاد والترقي وعرضت عليه أن ينتقل إلى مصر ليكون بعيداً عن الرقابة الحكومية وأن يصبح ممثلاً للجمعية هناك ، فوافق على هذا العرض وانتقل إلى مصر حيث أنشأ هناك بتوجيه من الجمعية صحيفة موجهة لنقد سياسة السلطان عبد الحميد أطلق عليها اسم (ميزان)[٢] .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن مصر - رغم كونها ولاية عثمانية - كانت ملاذاً آمنًا للمناوئين للسلطان عبد الحميد وذلك راجع لخضوعها للنفوذ الانجليزي في هذه الفترة وقد كان من الطبيعي أن تعمد السياسة البريطانية إلى تأييد مثل هؤلاء الثوار ودعمهم وأن تتيح لهم الحرية لمزاولة نشاطهم المناوىء للحكومة العثمانية ومن ذلك أنها مكنتهم من إنشاء دار للطباعة والنشر بمصر هدفها إصدار المطبوعات التي تهاجم السلطان عبد الحميد[٣] .

---

(١) مراد بك الداغستاني : مؤرخ وصحفي عُرف بلقب (ميزانجي) نسبة إلى صحيفته ميزان . ولد في داغستان وتلقى تعليمه بها وقدم إلى تركيا وعمل مدرسًا للتاريخ في الكلية المدنية في عهد السلطان عبد الحميد حيث اشتهر أمره عن طريق كتاباته الصحفية وكان يجيد اللغة الفرنسية والروسية إلى جانب التركية . وقد عُرف بتأييده للسياسة الإنجليزية كما ثبت اتصاله ببعض الساسة الإنجليز .

- موفق بني المرجه : المرجع السابق ، ص ١٩٢ .

(٢) محمد أنيس : المرجع السابق ، ص ٢٦٦ .

- مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ١٣٣ .

(٣) زين نور الدين زين : نشوء القومية العربية ، ص ص ٧٦ - ٧٧ .

كما كان كرومر Cromer المعتمد البريطاني في مصر يتدخل لحماية هذه العناصر الثائرة والدفاع عنها إذا ما طلب السلطان عبد الحميد تسليمها للسلطات العثمانية بغية محاكمتها[١] .

وقد كان لإصدار صحيفة ميزان أثر كبير في إعادة تماسك مركز الجمعية في استانبول بعد أن أصابته هزة كبيرة من جراء اعتقال زعمائها ونفيهم على إثر محاولة الانقلاب الفاشلة ، ولكن صحيفة ميزان أعادت لهم الثقة في أنفسهم وتمكنوا من استئناف نشاطهم [٢].

ثم طلبت اللجنة الإدارية للجمعية من مراد بك أن ينتقل إلى أوروبا حيث أصبح رئيسًا لمركز الجمعية في العاصمة السويسرية (جنيف) في حين ظل أحمد رضا رئيسًا لمركز الجمعية في باريس وبعد ذلك بعدة أشهر انتقل المركز الرئيس لقيادة الجمعية من استانبول إلى جنيف ، ومن هذه الحصون الأوربية المنيعة أخذوا يطلقون حممهم من الطعن والقدح على السلطان عبد الحميد من خلال صحيفتي مشورت وميزان[٣] .

وقد حاول السلطان عبد الحميد استخدام الطرق الدبلوماسية لوضع حدٍ لهذا التهجم عليه وتشويه سمعته حيث طلب من السفارة التركية في باريس رفع دعوى على محرري صحيفة مشورت بتهمة إساءة السمعة وبالفعل رُفعت القضية واستدعي المتهمون للمحكمة وانتهت المحاكمة لصالح المدعين إلا أن الحكم الذي صدر بحق المتهمين اقتصر على تغريم كل واحد منهم بستة عشر فرنك فرنسي مع وقف التنفيذ[٤] ! !

---

(١) أحمد نوري النعيمي : اليهود والدولة العثمانية ، ص ٢١٠ .

(٢) ارنست . أ . رامزور : المرجع السابق ، ص ص ٦٧ – ٦٨ .

(٣) محمد سهيل طقوش : العثمانيون من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة (بيروت : دار بيروت المحروسة ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م) ص ص ٥٢٨ – ٥٢٩ .

(٤) ارنست . أ . رامزور : المرجع السابق ، ص ص ٦٥ – ٦٦ .

والواقع أننا لا نستغرب أن يصدر هذا الحكم الهزلي عن المحكمةالفرنسية لأنها موجهة لخدمة المصالح الفرنسية السياسية الاستعمارية.

وعندما أيقن السلطان عبد الحميد من فشل الطرق الدبلوماسية في وضع حد لهذا الأمر لجأ إلى أسلوب الحوار والوساطة علّه يفلح في استتابة هذه الفئة الخارجة عليه فقام في عام ١٣١٤هـ / ١٨٩٧م بإرسال رئيس استخباراته لمفاوضة زعماء الجمعية في أوروبا وقد نجح موفده في إقناع مراد بك بأن السلطان موافق على الإصلاحات المطلوبة ولكنه يطلب منهم أن يمنحوه فرصة يتمكن خلالها من وضع سياسة متكاملة للإصلاح فوافق مراد بك على منحه هذه الفرصة التي أُطلق عليها (الهدنة) سيما وقد وعدهم السلطان بمناصب ممتازة عند عودتهم إلى البلاد - ولكنه اشترط بعض الشروط التي وافق عليها السلطان ومن أهمها العفو العام عن جميع أعضاء الجمعية[١] ، ولِما لمراد بك من مكانة خاصة بين أعضاء الجمعية فقد استجاب معظمهم لهذا الصلح وأوقفوا نشاطهم ضد السلطان عبد الحميد وعاد عدد كبير منهم إلى استانبول يتقدمهم مراد بك ومنحهم السلطان المناصب التي وعدهم بها ، إلا أن هناك فئة قليلة من الثوار لم يوافقوا على الهدنة وظلوا على معارضتهم وعلى رأس هذه الفئة أحمد رضا رئيس مركز الجمعية في باريس[٢] .

وعلى العموم فإنه يمكن القول بأن جمعية الاتحاد والترقي قد انهارت وشلّ نشاطها في أعقاب هدنة عام ١٣١٤هـ / ١٨٩٧م إلا أن هذا الركود الذي استمر قرابة العامين كان مقلقاً لأعداء الدولة لذا راحوا يبحثون عن شخصية

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ٥٦ .

- اورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٢) ارنست . أ . رامزور : المرجع السابق ، ص ص ٧٨ - ٨٠ .

جديدة تبعث روح الثورة من جديد وتعيد بناء الجمعية ، وقد وجدوا ضالّتهم في الداماد[١] (محمود جلال الدين باشا) صهر السلطان عبد الحميد وزوج شقيقته (سنيحه) الذي كان حاقداً على السلطان عبد الحميد لأنه رفض أن يمنحه امتياز أحد المعادن ، فأغروه بترك البلاد والرحيل إلى أوروبا ، فخرج خفية دون علم السلطان ومعه ابناه (صباح الدين) و (لطف اللّه)[٢] وقد ساعدوهم على الإفلات من الرقابة حيث حملوهم في سفينة فرنسية عبرت الحدود دون أن يعترضها أحد[٣] .

ومما يؤكد أن الدول الأجنبية كانت هي المحرك لثورة صهر السلطان وخروجه عليه أنه عندما وصل إلى لندن وجد حفاوة وتأييداً من الحكومة الإنجليزية[٤] .

وقد استقر المقام بالداماد محمود باشا في باريس حيث اتصل ببقية الثوار هناك وقاموا بإحياء جمعية الاتحاد والترقي وكان ذلك في عام ١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م [٥].

ونرى هنا أن أعداء الدولة العثمانية قد تعمدوا أن يضموا إلى صفوف المعارضين والثائرين على السلطان عبد الحميد أحد أقاربه لإدراكهم أثر ذلك في تقوية موقف هذه المعارضة وزيادة الثقة بها وهو ما حدث فعلاً ، فما أن صرح الداماد محمود باشا عن تأييده لأفكار أحمد رضا ورفاقه حتى لوحظ

---

(١) الداماد : كلمة تركية تعني صهر .

– علي حسون : المرجع السابق ، ص ٣١٣ .

(٢) يلماز اوزتونا : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٧١ .

(٣) ارنست . أ . رامزور : المرجع السابق ، ص ٨٤ .

(٤) حسان حلاق : المرجع السابق ، ص ٢٩٧ .

(٥) يوسف آصاف : المصدر السابق ، ص ١٣٥ .

كثرة المنضمين للجمعية على إثر ذلك[١] .

هذا وقد فشلت جميع المحاولات الجادة التي بذلها السلطان عبد الحميد لاسترضاء صهره محمود باشا الذي ظل على موقفه حتى وافاه أجله عام ١٣٢١هـ / ١٩٠٣م ، فخلفه ابنه الأكبر صباح الدين في معارضة السلطان[٢] .

ولكن وقع اختلاف بين صباح الدين وبعض الثوار الأتراك في باريس وفي مقدمتهم أحمد رضا حول الطريقة التي يفترض أن تحكم بها الدولة فيما بعد[٣] ، فبينما كان أحمد رضا ومؤيدوه يرون ضرورة قيام حكم مركزي في استانبول تكون في يده جميع السلطات ، كان صباح الدين ورفاقه يرون ضرورة تطبيق نظام اللامركزية في الحكم وإعطاء الولايات المزيد من الصلاحيات[٤] ، ومن جانبٍ آخر كان أحمد رضا يرى أن يكون للقومية التركية وضع متميز في الدولة فيما كان صباح الدين يدعو إلى تكوين اتحاد عثماني يكون فيه التمثيل لمختلف قوميات الدولة ، ونتيجة لهذا الاختلاف قام صباح الدين بإنشاء منظمة ثورية أطلق عليها اسم (عصبة الإدارة اللامركزية)[٥] .

وفي الوقت الذي استمر الثوار في باريس يمارسون نشاطهم الموجه ضد السلطان عبد الحميدد رغم ما بينهم من اختلاف في الآراء حول بعض الأمور كان الثوار في داخل الدولة قد أيقنوا بأن نشاطهم سيظل مصيره الفشل إذا ما ظلت استانبول هي مركز تحركاتهم لذا قرروا أن يتخذوا لنشاطهم مركزاً

---

(١) محمد سهيل طقوش : المرجع السابق ، ص ٥٣٠ .

(٢) يلماز اوزتونا : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٧١ .

(٣) أي بعد التخلص من السلطان عبد الحميد حيث إن هذا أمر اتفق عليه جميع الثوار .

(٤) محمود صالح منسي : المرجع السابق ، ص ص ١١٦ – ١١٧ .

(٥) ارنست . أ . رامزور : المرجع السابق ، ص ص ١٠٠ – ١١٥ .

جديداً يكون بعيداً عن رقابة السلطات العثمانية[١] .

وقد وقع اختيار الثوار على مدينة سلانيك في مقدونيا حيث توقعوا أن تكون موطناً خصباً لنشاطهم فهي بالإضافة إلى سهولة اتصالها بالدول الأوربية[٢] ، بعيدة عن رقابة السلطان عبد الحميد وذلك لأن نشاط قوميات البلقان قد أتاح للدول الأوروبية فرصة للتدخل في شؤون هذه المنطقة حيث فرضت على السلطان عبد الحميد الموافقة على حشد قواتها العسكرية فيها كما أُنشئت إدارة دولية خاصة لمراقبة ولاياتها تحت إشراف خمس دول أوروبية هي بريطانيا وفرنسا وروسيا والنمسا وإيطاليا فكانت كل ولاية من ولايات البلقان تخضع لمراقبة دولة أو اثنتين من هذه الدول الخمس باستثناء سلانيك فقد عين لها هيئة عليا للمراقبة الدولية[٣] .

والواقع أن هذا الاستثناء لسلانيك يدفعنا للشك في أن هناك تخطيطاً أوربياً مسبقاً لجعل سلانيك محضناً آمناً للحركات المناهضة للحكومة العثمانية سيما وهي موطن ليهود الدونمة ومركز للماسونية الصهيونية كما سبق وأشرنا إلى ذلك[٤] .

كما أن هناك ميزة أُخرى لسلانيك وهي وجود الجيش الثالث بها والثوار يدركون أنهم إذا ما تمكنوا من نشر أفكارهم بين صفوفه فإن ذلك سوف يقصر عليهم الطريق للوصول إلى أهدافهم[٥] .

---

(١) محمد أنيس : المرجع السابق ، ص ٢٦٧ .

(٢) انظر الملحق رقم (٣) .

(٣) ساطع الحصري : المرجع السابق ، ص ١٠٦ .

– حسان حلاق : الموجع السابق ، ص ٢٩٧ .

(٤) تناولنا ذلك في المبحث الأول من الفصل الثالث ص ٢١٤ .

(٥) زين نور الدين زين : نشوء القومية العربية ، ص ٧٧ .

وعلى العموم ففي عام ١٣١٧هـ / ١٨٩٩م قام (طلعت بيك)[١] مأمور البريد في سلانيك مع سبعة من أصدقائه الثوار بتشكيل أول خلية لجمعية الاتحاد والترقي في سلانيك ، وما أن سمع بذلك أحمد رضا رئيس جمعية الاتحاد والترقي في باريس حتى أرسل موفدًا من لدنّه لينقل إلى هذا التشكيل الجديد تأييد التنظيم الخارجي لجمعية الاتحاد والترقي[٢] .

كما أظهرت المحافل الماسونية في سلانيك تأييدها لهؤلاء الثوار ولا سيما طلعت بيك فقد اتصلوا به ومنحوه درجة عالية في الماسونية وخصصوا له راتبًا شهريًا مقداره عشرة ليرات انجليزية[٣] .

وعن تأييد المحافل الماسونية في سلانيك لجمعية الاتحاد والترقي يقول ارنست . أ . رامزور : « لم يمض وقت طويل على المتآمرين في سلانيك وهي مركز النشاط حتى اكتشفوا فائدة منظمة أخرى وهي الماسونية إذ لمّا كان يصعب على عبد الحميد أن يعمل هنا بنفس الحرية التي كان يتمتع بها في الأجزاء الأخرى من الامبراطورية فإن المحافل الماسونية القديمة في تلك المدينة

---

(١) طلعت بيك : يهودي دونمة من أصل غجري . ولد عام ١٢٩١ هـ / ١٨٧٤م في أدرنه من أسرة فقيرة وتعلم في مدرسة الاتحاد اليهودي ثم أصبح مأمورًا للبريد في سلانيك ، وكان من الأعضاء البارزين في جمعية الاتحاد والترقي وعضوًا في محفل سلانيك الماسوني وبعد أن ترقى في الدرجات الماسونية أصبح عضوًا في محفل الشرق الأعظم الماسوني وفي أعقاب الانقلاب الدستوري عام ١٣٢٦ هـ / ١٩٠٨م عين وزيرًا للداخلية ، وقبل انتهاء الحرب العالمية الأولى بفترة وجيزة فر إلى ألمانيا حيث قُتل هناك عام ١٣٣٩ هـ / ١٩٢١م .

- أحمد نوري النعيمي : اليهود والدولة العثمانية ، ص ص ١٦٠ – ١٦١ .
- عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مُفترى عليها ، ج ٢ ، ص ١٠٢٤ .

(٢) علي حسون : المرجع السابق ، ص ٢٥٢ .

- مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ، ص ٤٩

(٣) المصدر نفسه : ص ٥٠ .

استمرت تعمل دون انقطاع بطريقة سرية طبعًا[١] وضمت إلى عضويتها عددًا ممن كانوا يرحبون بفكرة خلع عبد الحميد ... وعلى ما يبدو أن الجمعية استعملت بعض المحافل أو ربما جميعها لتكون محلات للاجتماع ... ومن المحتمل أيضًا أن عمل الجمعية سار بسرعة تثير التقدير بسبب هذا الاتصال مع ماسونية سلانيك »[٢] .

وهكذا نرى أن اختيار الثوار لسلانيك كي تكون مركزًا لنشاطهم ضد السلطان عبد الحميد كان اختيارًا موفقًا فقد أصبحت بيوت اليهود ومحافلهم الماسونية فيها أوكارًا آمنة لدسائسهم ومؤامراتهم[٣] . وفي هذا الصدد يقول أرمسترونج : « ... ثم باح له واحد منهم أخيرًا بأن منظمة ثورية كبيرة أُلفت في سلانيك وأُطلق عليها اسم الاتحاد والترقي وبأن اجتماعاتها تعقد في بيوت بعض اليهود المنتمين للجنسية الإيطالية والجمعيات الماسونية الإيطالية إذ أن جنسيتهم هذه تحميهم – بحكم المعاهدات والامتيازات الأجنبية – من الخضوع لأوامر القبض التي يُصدرها السلطان ومن تفتيش البوليس لمنازلهم أو محاكمتهم أمام المحاكم التركية لأنّ لهم محاكمهم القنصلية الخاصة ... ومن ثم دأب أعضاء الاتحاد والترقي على الاحتماء بحصانة هؤلاء اليهود فكانوا يجتمعون في بيوتهم آمنين من كل خطر »[٤] .

---

(١) في هذا إشارة إلى ما كان قد قام به السلطان عبد الحميد حيث أصدر قرارًا في عام ١٣١١ هـ / ١٨٩٤م بإغلاق جميع المحافل الماسونية في الدولة العثمانية وقد تم ذلك بالفعل باستثناء محافل سلانيك لارتباطاتها الدولية .

– حسان حلاق : المرجع السابق ، ص ٢٩٠ .

(٢) ارنست . أ . رامزور : المرجع السابق ، ص ص ١٢٣ – ١٢٤ .

(٣) عبدالله التل : الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام ، ص ٧٩ .

(٤) هـ . س . أرمسترونج : المصدر السابق ، ص ٢٩ .

وقد كان لليهودي ايمانوئيل قراصو Emanuel Carasso دور كبير في تطبيع العلاقات بين الماسونية وجمعية الاتحاد والترقي حيث استطاع هذا اليهودي الماسوني أن يوقع بمعظم أعضاء الجمعية في سلانيك في شباك الماسونية بعد أن تمكن من خداعهم بشعاراتها البراقة[١] ، وقد أكدت الوثائق البريطانية هذا الدور لقراصو حيث ورد في رسالة السفير البريطاني جيرارد لاوثر إلى وزير خارجية بلاده في عام ١٣٢٨هـ / ١٩١٠م قوله: « قام ايمانوئيل قراصو وقبل عدة سنوات وهو من الماسونيين اليهود في سلانيك ونائب المدينة ونائب غرفة التجارة على إيجاد محفل ماكدونيا ريزوتورا Macedonia Ristora وذلك بالتنسيق والتعاون مع المحافل الماسونية الإيطالية وقد استطاع قراصو استمالة جمعية الاتحاد والترقي من مدنيين وعسكريين إلى الانضمام إلى الماسونية وكان الهدف من وراء ذلك هو فرض النفوذ اليهودي على النظام السياسي الجديد في تركيا العثمانية »[٢] .

هذا وقد أدرك ماسونيو الاتحاد والترقي أن نشاطهم سيكون أكثر فاعلية إذا ما استطاعوا تسريب أفكارهم بين صفوف الجيش الثالث الموجود في سلانيك فسعوا إلى استقطاب بعض الضباط وأغروهم بالانتماء للماسونية ليسهل التأثير عليهم [٣].

وإمعانًا من قادة جمعية الاتحاد والترقي في تحفيز الجيش للثورة على السلطان قام أحمد رضا بإصدار كتابٍ عنوانه (الواجب والمسؤولية : الجندي) شرح فيه الدور الذي يتعين على الجيش القيام به في الدفاع عن الدولة

---

(١) جواد آتلخان : أسرار الماسونية ، ص ٥٨ .

(٢) F.O.800/193.A .

(٣) محمد سهيل طقوش : المرجع السابق ، ص ص ٥٣٠ – ٥٣١ .

وتقدمها مشيرًا إلى أن أفراد الجيش هم أكثر عناصر الأمة تأهيلاً ووطنية لذلك يتوجب عليهم توجيه الحياة السياسية للبلاد ضد النظام الذي وصفه بالاستبدادي[١] .

والواقع أن أفراد الجيش الثالث في سلانيك كانوا مهيئين لتقبل مثل هذه الأفكار فقد كان لاتصالهم بالجيوش الأوربية الموجودة في المنطقة أثر كبير في تشبعهم بالأفكار الأوربية التحررية[٢] .

وقد تحقق للاتحاديين مرادهم فأصبح معظم أفراد الجيش الثالث على مختلف رتبهم أعضاء في جمعية الاتحاد والترقي ومن الأسماء التي كان لها تأثير واضح في الأحداث السياسية اللاحقة الرائد الركن أنور بك والنقيب متقدم (نيازي أفندي)[٣] والنقيب ركن (مصطفى كمال)[٤] - أتاتورك فيما بعد - والرائد الركن (جمال بك) - جمال باشا السفاح فيما بعد -[٥] .

ومن خلال المقارنة بين خطة عمل أولئك الماسون وهم في صدد إعداد تلك الجمعية الثورية وبين ما جاء في البروتوكول الخامس عشر لحكماء صهيون يتضح لنا أن ما قاموا به لم يكن إلا تنفيذًا دقيقًا للخطط التي وضعها لهم

---

(١) المرجع نفسه : ص ٢٣١ .

(٢) ارنست . أ . رامزور : المرجع السابق ، ص ١٣٤ ، ١٥٨ .

(٣) نيازي الرسنه لي : من مواليد رسنه في مقدونيا عام ١٢٨٠ هـ / ١٨٧٣م اشترك في الحرب العثمانية اليونانية وأظهر بطولة عسكرية وكان قد تأثر كثيرًا بأفكار نامق كمال السياسية لذا كان من أول المنضمين إلى جماعة الاتحاد والترقي . توفي مقتولاً عام ١٣٣٢ هـ / ١٩١٤م .

- مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ٢٨٨ .

(٤) للتعريف به يمكن الرجوع للمبحث الأول من الفصل الخامس الذي خصصناه للتعريف بدور هذه الشخصية .

(٥) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ، ص ص ٥١ - ٥٢ .

حكماؤهم الصهاينة في هذا البرتوكول الذي جاء فيه قولهم : « ... سنحاول أن ننشيء ونضاعف خلايا الماسونيين الأحرار ... وسنضع الحبائل والمصايد في هذه الخلايا لكل طبقات المجتمع الثورية ، وأن معظم الخطط السياسية السرية معروفة لنا وسنهديها إلى تنفيذها حالما تشكل ... ولخدمات البوليس أهمية عظيمة لدينا لأنهم قادرون على أن يلقوا ستاراً على مشروعاتنا وأن يستنبطوا تفسيرات معقولة للضجر والسخط بين الطوائف ، وأن يعاقبوا أيضًا أولئك الذين يرفضون الخضوع لنا »[١] .

ورغم إحاطة هؤلاء الثوار أعمالهم بالسرية فقد بلغ السلطان عبد الحميد ما يجري في محافل وبيوت يهود سلانيك وفي أوساط الجيش الثالث وذلك عن طريق عيونه الذين كان يبثهم في كل مكان حرصًا على سلامة دولته وقد أشار إلى ذلك في مذكراته في قوله : « لا بد للتاريخ يومًا أن يفصح عن ماهية الذين سموا أنفسهم الأتراك الشباب أو تركيا الفتاة وعن ماسونيتهم استطعت أن أعرف من تحقيقاتي أن كلهم تقريبًا من الماسون وأنهم منتسبون إلى المحفل الماسوني الإنجليزي وكانوا يتلقون معونة مادية من هذا المحفل ولا بد للتاريخ أن يفصح عن هذه المعونات وهل كانت معونات إنسانية أم سياسية »[٢] .

ولكن يبدو أن طبيعة الرجل الرحيم المتسامح الذي لا يميل إلى استخدام الشدة كانت تغلب على السلطان عبد الحميد فيركن إلى أسلوب المهادنة والاستتابة ويمكن أن نلاحظ ذلك من خلال قوله : « ... وكما يحمي البستاني أزهاره من الحشرات الضارة حميتُ أنا أيضًا بلادي من الأفكار التافهة ولم أسمح لها بقرض دولتي ، عاملت هؤلاء الشباب وهم أصحاب أفكار خاطئة بشفقة ولم أعاملهم بظلم ولقد حاولت مع الكثير جداً منهم كل على حدة أن

---

(١) محمد خليفة التونسي : المرجع السابق ، ص ١٥٦ .

(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ١١٥ .

أرشدهم إلى الطريق القويم وعملت على تحويل نيران حماسة شبابهم إلى خير البلاد نجحت مع بعضهم وأخفقت مع البعض الآخر »[١] .

ورغم تقديرنا البالغ لهذه الطبيعة الرحيمة التي جبل عليها السلطان عبد الحميد إلا أننا نرى أن البستاني أيضًا قد يضطر أحيانًا لاجتثاث بعض النباتات الغريبة أو الفاسدة من بستانه ، وليت السلطان (رحمه الله) تذكر موقف الرسول صلى اللّه عليه وسلم - وهو الذي أُرسل رحمة للعالمين - من أمثال هؤلاء ، يقول ابن هشام : « بلغ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن أناسًا من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي يثبطون الناس عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في غزوة تبوك فبعث إليهم النبي صلى اللّه عليه وسلم طلحة بن عبيداللّه في نفر من أصحابه وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم ففعل طلحة »[٢] .

أجل هذا هو موقف الرسول صلى اللّه عليه وسلم من فئة من المنافقين اجتمعت في بيت رجل يهودي للتآمر على أول دولة إسلامية ، وبعد ثلاثة عشر قرنًا يشاء اللّه ويجتمع المنافقون مرة أُخرى في بيوت اليهود في سلانيك للتآمر على آخر دولة إسلامية ، فليت السلطان عبد الحميد (رحمه اللّه) اقتدى بالرسول صلى اللّه عليه وسلم فبعث إلى المنافقين من أحرق عليهم بيت قراصو Carasso اليهودي ومحفله في سلانيك كما أحرق رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على أسلافهم بيت سويلم اليهودي .

ولكن السلطان عبد الحميد لم يفعل فتطور نشاط هؤلاء الثوار فخرج عن حدود سلانيك ليشمل جميع الولايات المقدونية ولا سيما مناستر حيث مقر قيادة

---

(١) المصدر نفسه : ص ١٨٤ .

(٢) ابن هشام : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٥٧ .

الجيش الثالث[١] ، ومن جانب آخر أخذ بعض الأعضاء البارزين في الجمعية بالتجول في أنحاء مختلفة من البلاد متنكرين بشتى الطرق ليزرعوا التذمر حيثما حلوا وليضموا المزيد من الأنصار إلى صفوفهم[٢] .

واعتباراً من عام ١٣٢٣هـ / ١٩٠٥م شهدت الساحة الدولية بعض الأحداث التي كان لها صدى عميق بين أعضاء الجمعية ، فقد أرجع أولئك الثوار ولا سيما المتأثرون بالأفكار الغربية انتصار اليابان العسكري على روسيا القيصرية في عام ١٣٢٣هـ / ١٩٠٥م إلى كون اليابان دولة دستورية في حين عللوا الهزيمة التي لحقت بروسيا بكونها دولة تعتمد على حكم الفرد واتخذوا من هذا الحدث دليلاً على أنهم يعملون في الاتجاه الصحيح من دون تفهم للظروف الخاصة بكلتا الدولتين وللأسباب الحقيقية المؤدية إلى تلك النتائج العسكرية[٣] .

كما اتخذ الإتحاديون من اللقاء الذي جرى عام ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م بين (أدوارد السابع) ملك بريطانيا وبين (نيقولا الثاني) قيصر روسيا[٤] في ريفال[٥] . وسيلة لإثارة مخاوف الشعب العثماني من احتمال تعرض بلادهم لمزيد من الخسائر حيث روجوا في البلاد أخباراً مفادها أن بريطانيا قد تخلت

---

(١) يوسف آصاف : المصدر السابق ، ص ١٣٦ .

(٢) ارنست . أ . رامزور : المرجع السابق ، ص ١٤٦ .

(٣) محمد سهيل طقوش : المرجع السابق ، ص ص ٥٣٢ - ٥٣٣ .

- مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ١٩٥ .

(٤) هارولد تمبرلي وَ أ . ج . جرانت : المرجع السابق ، ج٢ ، ص ١٣١ .

(٥) ميناء روسي على بحر البلطيق .

- يلماز أوزتونا : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٧٤ .

عن معارضتها التقليدية للأطماع الروسية في الأراضي العثمانية[١] ، وأن المباحثات بين العاهلين تمحورت حول اقتسام مقدونيا ، ويعلق المؤرخ التركي يلماز اوزتونا على هذا الموقف بقوله : « ... كان الموضوع اتفاقًا إنجليزيًا - روسيًا تجاه ألمانيا ... والحقيقة أن استيلاء إنجلترا وروسيا على مقدونيا من العثمانية دون التفاهم مع ألمانيا والنمسا وإعطائها حصة منها شيء غير ممكن لكن العثمانية لم تخل من الكثيرين من ذوي العقليات التي لم تدرك الحقائق المنطقية الواضحة »[٢] .

وعلى أي حال فقد استغل الاتحاديون الانطباع الذي تركته الرؤيا المشوشة لتلك الأحداث للانتقال إلى طور التنفيذ العملي متظاهرين بأن هدفهم هو الحيلولة دون تمزق الدولة[٣] .

وكانت أول مظاهر انتقال الاتحاديين للمرحلة العملية هو تشكيل العصابات ففي عام ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م قام بعض الضباط المنتمين للجمعية بالاختفاء في جبال مقدونيا بعد أن جمعوا حولهم الكثير من الأتباع وجهزوا أنفسهم بالأسلحة والعتاد التي كانوا ينهبونها من مخازن وحداتهم العسكرية وكان أول من قام بهذا العمل هو نيازي بك ثم تبعه زميله أنور بك ثم اقتدى بهم كثير من ضباط الجيش الثالث[٤] .

ثم انفجر الموقف بالشرارة الأولى التي انطلقت من مناستر مقر قيادة

---

(١) عايض الروقي : المرجع السابق ، ص ٤٨ .

(٢) يلماز اوزتونا : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٧٤ .

(٣) محمد أنيس : المرجع السابق ، ص ٢٧٠ .

(٤) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٧٠٧ .

الجيش الثالث حيث قتل قائد الجيش الفريق أول (شمسي باشا الأرناؤوطي) – الذي كان السلطان قد عهد إليه بمهمة إخماد العصيانات في مقدونيا – على يد أحد أعضاء جمعية الاتحاد والترقي وقد أثارت هذه الحادثة الاضطراب في الدولة[١] .

وتلى ذلك سيطرة نيازي بك على مركز البريد في (رسنة)[٢] وإرساله برقية إلى السلطان عبد الحميد يهدده فيها بالزحف على استانبول إذا لم يعلن الدستور دون قيد أو شرط[٣] . ثم أخذت البرقيات الصادرة عن الوحدات العسكرية الموجودة في ولايات مقدونيا المختلفة تنهال على استانبول حاملة المضمون ذاته[٤] .

وأراد السلطان أن يعرف حقيقة الوضع في مقدونيا ومدى قوة هؤلاء الثوار فأرسل برقية إلى المفتش العام هناك للاستفسار عن ذلك فكان جواب المفتش العام هو الآتي : « مولاي جلالة السلطان أود أن أعلمكم أن كل فرد هنا سواي عضو في جمعية الاتحاد والترقي »[٥] .

أدرك السلطان عبد الحميد مدى خطورة الموقف وخشي تفاقم الأزمة فعقد مجلس الوزراء لاستطلاع آرائهم في ذلك الموقف ، ولكن المجلس انقسم إلى فريقين ، فريق يرى إعلان الدستور وآخر طالب بالتصدي لهؤلاء الثوار

---

(١) كارل بروكلمان : المرجع السابق ، ص ٥٩٩ .

(٢) رسنه : مركز ناحية تابع لولاية مناستر في مقدونيا .

– يلماز اوزتونا : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٦٧٣ .

(٣) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ، ص ٥٢ .

(٤) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٧٠٧ .

(٥) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ، ص ٥٣ .

والقضاء عليهم ، فاستشار السلطان من يثق في عدالتهم وحكمتهم مثل شيخ الإسلام وبعض الفقهاء الآخرين فأشاروا عليه بإعادة العمل بالدستور درءًا للفتنة[١] .

ونظرًا للظروف المحيطة بالثورة رأى السلطان ضرورة إعلان إعادة العمل بالدستور . وفي يوم ٢٥ من جمادى الثانية عام ١٣٢٦هـ الموافق ليوم ٢٤ من يوليو عام ١٩٠٨م أصدر مرسومًا سلطانيًا بإعادة الدستور الذي صدر به القانون الأساسي عام ١٢٩٣هـ / ١٨٧٦م [٢].

ونرى أن هناك أكثر من سبب دفع السلطان إلى عدم مواجهة أولئك المتمردين وإصدار الدستور فبالإضافة إلى رضوخه لرأي الأكثرية التي رأت ضرورة إعلان الدستور ، كانت الظروف السياسية الدولية تنذر بالخطر من جراء المؤامرات التي تبنتها الدول الأوربية ضد الدولة العثمانية لا سيما وقد جاءت هذه الأحداث في أعقاب انعقاد مؤتمر كامبل بانرمان الإستعماري عام ١٣٢٥هـ / ١٩٠٧م وكان السلطان عبد الحميد على قدر كبير من الحكمة واليقظة لما يجري حوله فأراد بإعلانه للدستور أن يفوت الفرصة على المتربصين بالدولة ، ويؤكد هذا قول السلطان عبد الحميد : « ... لم يبق لنا إلا وسيلة واحدة لاحباط المؤامرات السياسية الإنجليزية وهي أن أقوم على رأس هؤلاء الثوار فأُعلن الدستور وأتظاهر باتباع الإنجليز فهذا هو الطريق الوحيد لإفشال مؤامراتهم »[٣] .

---

(١) المصدر نفسه : ص ٥٣ .

– يوسف آصاف : المصدر السابق ، ص ١٣٦ .

(٢) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٧٠٧ .

(٣) مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ١٥١ .

وفي الأيام التالية لإعلان موافقة السلطان على إعادة العمل بالدستور تدفقت على استانبول جموع من المنفيين السياسيين ومن بينهم أعضاء جمعية الاتحاد والترقي في الخارج وانضم الكثير من العائدين إلى صفوف الاتحاديين في الداخل ينشدون الظفر بنصيب من الغنيمة ويتآمرون للاستئثار بالحكم [١].

وفي هذه الأجواء المفعمة بالاضطراب جرت الانتخابات النيابية لمجلس المبعوثين وبذل الاتحاديون قصارى جهدهم لضمان فوز مرشحيهم[٢] ، وكانت هذه فرصة جاد بها الزمان لليهودية العالمية ليكون لها ممثلون في الحكومة العثمانية حيث كان معظم الأعضاء البارزين في الجمعية من يهود الدونمة ، وقد أسفرت نتائج الانتخابات عن نجاح خمسة من المرشحين اليهود[٣] . كما انتخب الماسوني أحمد رضا – رئيس مركز الجمعية في باريس سابقًا – رئيسًا لمجلس المبعوثان[٤] ، فكان ذلك مكسبًا عظيمًا لليهود الذين كان لهم فضل كبير عليه شهد به الكاتب اليهودي آورام غالانتي في قوله : « إن أحمد رضا رئيس الجناح المدني في الاتحاد والترقي ورئيس شعبة الجمعية في باريس اتصل أثناء وجوده في مصر عام ١٣٢٥هـ / ١٩٠٧ م بالجمعية الإسرائيلية بمصر وكانت نتيجة هذا الاتصال أن صوتت الجمعية إلى جانب أحمد رضا أثناء انعقاد مؤتمر الاتحاد والترقي في باريس وأدى هذا التصويت إلى فوز أحمد رضا برئاسة جمعية الاتحاد والترقي في ديسمبر ١٩٠٧م » [٥].

وهكذا فمن الطبيعي أن يسعى هذا العميل اليهودي لإرضاء أسياده

---

(١) هـ . س . أرمسترونج : المصدر السابق ، ص ص ٣٤ – ٣٥ .

(٢) محمود صالح منسي : المرجع السابق ، ص ص ١٢٨ – ١٢٩ .

(٣) حسان حلاق : المرجع السابق ، ص ٣٠٧ .

(٤) زين نور الدين زين : نشوء القومية العربية ، ص ٧٩ .

(٥) محمود الشاذلي : المرجع السابق ، ص ١٧٤ نقلاً عن أورام غالانتي : الأتراك واليهود، ص ٤٥ .

اليهود بعد أن أصبح رئيس المجلس الأعلى في الدولة العثمانية .

ولكن يبدو أن كل هذه المكاسب التي حققها اليهود لم تكن كافية لإرضائهم فهم لم يحققوا الهدف الحقيقي من هذه الثورة وهو إزاحة السلطان عبد الحميد عن السلطة نهائيًا ، فعلى الرغم من أن السلطان لم يعد له من السلطة الشيء الكثير فقد كان مجرد وجوده مقلقًا لهم لإدراكهم بأنه سيظل يعمل جاهدًا للحيلولة دون وصولهم لأهدافهم في بلاده ، لذا كان لا بد لهم من مخطط جديد يخلصهم من هذا السلطان نهائيًا(١) .

وقد بدأ تنفيذ المخطط الجديد منذ الأيام الأولى التي أعقبت موافقة السلطان على العمل بالدستور وقد تضمن هذا المخطط عدة خطوات كانت أولاها مطالبة الاتحاديين في المجلس بالعفو العام وإطلاق سراح كافة المسجونين على جميع المستويات بدون قيد أو شرط وذلك باسم الحرية فكانت النتيجة أن انتشر في أنحاء البلاد آلاف من القتلة واللصوص وأفراد العصابات من مختلف الأجناس ممّا خلق كثيرًا من المتاعب وأثار استياءً عامًا لدى أوساط الشعب(٢) .

أما الخطوة الثانية فهي تسريح العديد من كبار الضباط ممن ترقوا بموجب طول مدة خدماتهم وما قدموه من تضحيات في ميادين عديدة بحجة عدم حصولهم على درجات علمية من الكليات العسكرية(٣) ، وقد سرحوا من

---

(١) يلماز اوزتونا : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٨١ .

(٢) مصطفى طوران : أسرار الإنقلاب العثماني ، ص ٥٦ .

(٣) كان الضباط في الدولة العثمانية آنذاك نوعين : النوع الأول خريجو الكلية الحربية ويطلق عليهم (مكتبلي) ، والنوع الثاني هم الضباط الذين وصلوا إلى هذه الرتبة العسكرية بطول الخدمة والتدرج في الرتب العسكرية ويطلق عليهم (آلايلي) وهؤلاء الذين سرحهم الاتحاديون .

– اورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ٣٢٣ .

الخدمة العسكرية دون أن يتقاضوا تعويضات أو رواتب تقاعد عن الخدمة مما أدى إلى نقمتهم وانضمامهم إلى صفوف المعادين للحكم وإحداث انقسام في الجيش[١] .

وتلى ذلك إطلاق العنان للصحافة فتحت شعار الحرية لم يبق في جعبة الصحافة[٢] هراء ولغو لم تكتبه فيما يتضمن مدح الاتحاديين والنيل من مكانة الخلافة العثمانية[٣] .

كما تعمد الإتحاديون إثارة مشاعر المسلمين الدينية وذلك حين أخذوا يبطشون بعلماء الدين ويسجنون العديد منهم[٤] .

ومن ناحية أخرى راحوا يمتهنون كرامة الجنود المسلمين حين أجبروهم على لباس مشابه لزي الجنود الأجانب ، وفي الوقت ذاته راحوا يدسون بينهم جواسيس متنكرين في زي ضباط ليثيروا حماسهم ويطالبوهم بأن يهبوا للدفاع عن دينهم وكرامتهم [٥].

وقد استطاع الاتحاديون من خلال كل هذه الأعمال التي قاموا بها في الشهور التسعة التي أعقبت إعلان الدستور أن يهيئوا الأجواء الملائمة لإنفاذ الجزء الأخير والمهم من مخططهم وهو إحداث عصيان مسلح فقد أثبتت الوثائق المعاصرة لتلك الأحداث أن قادة الجمعية عقدوا اجتماعًا سريًا

---

(١) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ، ص ٦١ .

(٢) سبق أن ذكرنا أنَّ كثيراً من الصحف التركية يسيطر عليها اليهود . انظر ص (٣٤).

(٣) ساطع الحصري : المرجع السابق ، ص ١٣٣ .

– يلماز اوزتونا : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٨٠ .

(٤) حسان حلاق : المرجع السابق ، ص ٣٢١ .

(٥) علي حسون : المرجع السابق ، ص ٢٥٥ .

في (خادم كوي)[1] في يوم ١٥ من ربيع الأول عام ١٣٢٧هـ الموافق ليوم ٥ إبريل عام ١٩٠٩م دعوا إليه أهم العناصر اليهودية في الجمعية[2] ، وقرروا فيه خلع السلطان عبد الحميد واتفقوا على أن أفضل طريقة لتنفيذ ذلك هي إحداث عصيان مسلح وذلك ليتسنى لهم التدخل العسكري بحجة القضاء على ذلك العصيان ومن ثم يتمكنون من الوصول إلى هدفهم وهو خلع السلطان عبد الحميد بقوة السلاح[3] .

وقد تمكنوا من تحقيق ما خططوا له حيث أصبحت البلاد من جراء ما أقدموا عليه من أعمال في حالة سيئة من الفوضى وتصاعدت مشاعر السخط بين المتضررين من تلك الأعمال والغيورين على الإسلام ومن ثم بدا هذا السخط يتبلور في صورة أحزاب وجمعيات أعلنت عن معارضتها لنظام الحكم الذي يسيطر عليه الاتحاديون[4] .

وفي يوم ٢٣ من ربيع الأول عام ١٣٢٧هـ الموافق ١٣ إبريل عام ١٩٠٩م تفجر الموقف بقيام ثورة مضادة شارك فيها بعض العسكريين وطلبة المعاهد الدينية ولقيت استجابة من عامة الشعب ، فقام الجميع بمظاهرة عامة طافوا بها شوارع استانبول وهم ينادون بإلغاء الدستور وتحكيم الشريعة[5]. ولم تقتصر هذه الحركة على استانبول بل سرعان ما امتدت إلى أنحاء

---

(١) خادم كوي : ضاحية من ضواحي استانبول .
- حسان حلاق : المرجع السابق ، ص ٣٢٢ .

(٢) انظر النص الأصلي للبرقية التي تتضمن ضرورة الاتصال بالعناصر اليهودية لحضور الاجتماع ، في الملحق رقم (٤) .

(٣) علي حسون : المرجع السابق ، ص ٢٥٥ .

(٤) مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ١٨٨ .

(٥) يوسف آصاف : المصدر السابق ، ص ص ١٣٧ - ١٣٨ .
- إسماعيل ياغي : الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث ، ص ٢١٠ .

الإناضول وقد قام بعض المتظاهرين بالاشتباك مع بعض أنصار النظام الدستوري[١] .

ولم يكتف يهود الاتحاد والترقي المتسببون في هذه الفتنة بما وصلوا إليه بل عمدوا إلى دفع الموقف للتأزم وذلك حين قام أتباعهم الذين اندسوا في صفوف المتظاهرين بقتل بعض المواطنين ونهب وتخريب المؤسسات العامة[٢] .

ثم شكل المتظاهرون وفداً قابل السلطان وقدم له مطالبهم وهي على النحو التالي :

- إحياء الشريعة الإسلامية .
- عزل الصدر الأعظم وناظري الحربية والبحرية .
- عزل أحمد رضا رئيس مجلس المبعوثان .
- نفي الاتحاديين إلى خارج البلاد .
- إعادة الضباط المسرحين عن الخدمة .
- إصدار قرار بالعفو العام عن الأشخاص الذين اشتركوا في هذه الحركة[٣] .

وعقد مجلس المبعوثان اجتماعًا استثنائيًا – تخلف عن حضوره النواب الاتحاديون – قُرر فيه الاستجابة لمطالب الثوار و وافق السلطان على هذا القرار ، وقام بتشكيل وزارة جديدة رغبة في تهدئة الموقف[٤] .

لكن مفتعلي هذه الحركة لم يكونوا ليسمحوا بانتهاء الموقف بهذا الشكل

---

(١) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مُفترى عليها ، ج ٢ ، ص ١٠٠٦ .

(٢) جواد أتلخان : الإسلام وبنو إسرائيل ، ص ٢٣٤ .

(٣) اورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ٣٢٣ .

(٤) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٧٠٧ .

فهذه هي الفرصة التي خططوا لها وانتظروها طويلاً فرصة التدخل العسكري بحجة حماية الدستور ومجلس المبعوثان والقضاء على الثورة المضادة التي اتهموا السلطان عبد الحميد بتدبيرها ، لذا فقد سارع الاتحاديون بالإيعاز إلى الجيوش الموالية لهم في مقدونيا بالزحف إلى استانبول[١] .

ومما يؤكد ان لليهود دوراً كبيراً في هذه الحركة أن الفرق العسكرية الأربع التي بدأ فيها التمرد في سلانيك كان يرأسها يهودي دونمة اسمه (رمزي بك) وقد شهد بذلك السفير البريطاني لوثر Lowther في رسالته المطولة إلى وزير خارجية بلاده عام ١٣٢٨هـ / ١٩١٠م وذلك في قوله : « ... لم يغيب عن المراقب في ذلك الوقت أن يُلاحظ بأن الأفواج الأربعة التي أرسلت خصيصاً من سلانيك إلى العاصمة... هي التي بدأت التمرد أو ما يُسمى الحركة الرجعية وكانت تحت إمرة اليهودي المتظاهر بالإسلام والماسوني من سلانيك العقيد رمزي بيك الذي بدلاً من أن يحاكم أمام المحكمة العرفية العسكرية بسبب تصرف العساكر الذين كانوا تحت إمرته عُين رئيساً لأركان حرب السلطان محمد الخامس »[٢].

وهكذا تحركت الجيوش الموالية للاتحاديين من المركز الدونمي سلانيك متجهة إلى استانبول وهي الجيوش التي أطلق عليها (حركت أوردسو) أي (جيش الحركة) وكان يقودها (محمود شوكت)[٣] .

---

(١) جورج انطونيوس : المرجع السابق ، ص ١٨٠ .

(٢) F.O.800/193.A .

(٣) محمود شوكت : هو ابن سليمان بك كتخذا أوغلو من أصل شركسي الذي كان قد عُين متصرفاً على البصرة وقد ولد محمود شوكت في بغداد عام ١٢٧٢هـ /١٨٥٦م ، وتلقى تعليمه فيها ثم انتقل إلى استانبول ليدخل الكلية الحربية وبعد تخرجه عمل مدرساً في المدرسة العسكرية ثم أُرسل في مهمات عسكرية إلى ألمانيا وقضى فيها عدة سنوات وبعد ذلك عُين والياً على ولاية قوصوه ، وبعد =

وعندما وصل السلطان عبد الحميد خبر عصيان جيش سلانيك وتقدمه نحو استانبول أمر بعدم مقاومته ، وقد أكد هذا الموقف (زاهد باشا الهبل) -أحد باشوات الدولة العثمانية في دمشق- حيث ذكر أن آمر القوى في القصر استأذن السلطان لضرب العصاة فرفض السلطان ذلك كما ذكر الهبل بأن قيادة الجيش الأول المرابط في استانبول قدموا إلى السلطان وألحوا عليه لإعطائهم الإذن للتصدي لجيش الحركة ولكنه أصر على موقفه وقال لهم : « أعرف جيداً أن كل ما يرومون هو خلعي أو قتلي وأنا شخص واحد فإذا أمرتكم بالمقاومة سقط القتلى منكم ومنهم وأنتم جميعًا أفراد من هذه الأمة والأمة ستحتاج إليكم فيما ينزل بها من شدائد »[1] .

وتتوافق شهادة زاهد الهبل مع ما جاء في مذكرات الأميرة عائشة بنت السلطان عبد الحميد حيث تقول فيها : « ... وراح يتردد عليه الباشوات المخلصون له يعرضون عليه المواجهة بالسلاح إلا أنه كان يرد عليهم بقوله : لا يجب لأجل شخص واحد أن يذهب ألف شخص وأن يضرب الأخ أخاه ويجب جمع الأسلحة من العسكر وعدم إطلاق النيران ولا أريد أن تنزف أنف رجل واحد وليفعل المتمردون ما يشاؤون »[2] .

ونجد الذاكرة تستوقفنا ونحن نستعرض هذه الأحداث لتسترجع صورة حدث قديم يعود بنا إلى الوراء ثلاثة عشر قرنًا ولكنها شديدة الشبه بهذه

= إعلان المشروطية الثانية عُين قائدًا للجيش الثالث وكان على صلة وثيقة بالحاخام اليهودي في استانبول ، وقد توفي مقتولاً عام ١٣٣١ هـ / ١٩١٣م .

– أحمد نوري النعيمي : اليهود والدولة العثمانية ، ص ٢١٥ .

– مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ٢٣٠ ، ٢٨٢ .

(١) حسان حلاق : المرجع السابق ، ص ص ٣٢٣ – ٣٢٤ .

(٢) مذكرات الأميرة عائشة : ص ٢٣٤ .

الأحداث ، أقصد بذلك تلك الفتنة التي دبرها اليهود أيضًا في عهد ثالث الخلفاء الراشدين (عثمان بن عفان) رضي الله عنه بهدف القضاء على الدولة الإسلامية وهي في ريعان شبابها[١] ، فكما يتجلى وجه الشبه بين الحدثين من حيث الجهة المتسببة فيهما ومن حيث الهدف منهما يتجلى أيضًا في موقف كلا الخليفتين اللذين آثرا سلامة المسلمين على سلامة نفسيهما ، ولعلنا نستدل من الفارق الزمني بين الحدثين على مدى إصرار اليهود على القضاء على الدولة الإسلامية .

ونعود إلى الحدث الأخير فنقول : وفي يوم ٤ من ربيع الثاني عام ١٣٢٧هـ ، الموافق ٢٤ إبريل عام ١٩٠٩م احتل جيش الحركة استانبول وحاصر قصر يلدز -مقر السلطان عبد الحميد [٢]- وأرسل قائد الجيش محمود شوكت إلى قائد جنود القصر إنذارًا يطالبه بالاستسلام فاستسلم قائد جنود القصر إنفاذًا لأوامر السلطان عبد الحميد ، ولكن بعض جنود القصر أصروا على المقاومة فوقع بينهم وبين جيش الحركة معركة كبيرة انتهت لصالح جيش الحركة ، أما السلطان عبد الحميد فقد استسلم ونقل إلى قصر (طولمة بغجة)[٣] ريثما يُقرر مصيره[٤] .

وبعد ذلك أُعلنت الأحكام العرفية وطلب من مجلس المبعوثان الاجتماع

---

(١) أكرم ضياء العمري : المرجع السابق ، ص ٨٥ .

(٢) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٧٠٨ .

(٣) طولمة بغجة : قصر أنشأه السلطان عبد المجيد عام ١٢٦٩ هـ / ١٨٥٣م ، وهو يُطل على البسفور ، ولما كانت حديقة هذا القصر تمتلىء بماء البحر أطلق عليه طولمة بغجة أي الحديقة الممتلئة .

- حسين مجيب المصري : المرجع السابق ، ص ٩٠ .

(٤) يوسف آصاف : المصدر السابق ، ١٣٧ .

لتقرير مصير السلطان فكان غالبية من حضروا الاجتماع هم النواب الاتحاديين بما فيهم اليهود وقرروا خلع السلطان عبد الحميد – بعد ما اعتبروه مسؤولاً عن تفجر الحركة المضادة للاتحاديين وللنظام الدستوري – وتنصيب ولي العهد محمد رشاد سلطانًا على الدولة تحت لقب محمد الخامس(١) .

هذا ويؤكد الجنرال التركي جواد آتلخان وهو من معاصري تلك الأحداث بأن اليهود والإنجليز هم الذين افتعلوا تلك الثورة المضادة حتى يصلوا إلى خلع السلطان ويذكر بأن معظم الوثائق التي تثبت ذلك قد ضبطت في بيت أحد رؤساء الاتحاد والترقي(٢) . كما أكد ذلك الضابط التركي مصطفى طوران الذي عاصر تلك الأحداث وشارك فيها(٣) .

بل إن بعض أعضاء جمعية الاتحاد والترقي ذاتهم كانوا قد اعترفوا –بعد مرور زمن على تلك الأحداث– بأن السلطان عبد الحميد ليس له علاقة بتلك الثورة(٤) .

وهكذا فقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك بأنه ليس للسلطان عبد الحميد دور في قيام الثورة المضادة وأن اليهود وحلفاءهم هم الذين افتعلوها لتكون ذريعة لخلعه .

ولكي يعطي المتآمرون قرارهم طابعًا شرعيًا مارسوا الضغوط على شيخ الإسلام (محمد ضياء الدين) فأصدر فتوى بخلعه في يوم الثلاثاء ٧ من

---

(١) المصدر نفسه : ص ١٣٨ .

– أحمد نوري النعيمي : اليهود والدولة العثمانية ، ص ٢١٦ .

(٢) حسان حلاق : المرجع السابق ، ص ٣٢٣ ، نقلاً عن جواد آتلخان : الخطر المحيط بالإسلام ، ص١٣٧ .

(٣) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ، ص ٩٦ .

(٤) يلماز اوزتونا : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٨٤ .

ربيع الثاني عام ١٣٢٧هـ الموافق ٢٧ من إبريل عام ١٩٠٩م[١] .

وبالرجوع إلى نص تلك الفتوى ، يتضح أنها قد صدرت على افتراض ثبوت عدة تهم ادعاها المتآمرون على السلطان عبد الحميد وهي أنه كان يحرف في بعض الكتب الشرعية ويحرق بعضها وأنه يسرف في الأنفاق من بيت مال المسلمين فيما لا يعود بالصالح على المسلمين وأنه كان ينفي أبناء شعبه ويقتلهم ويسجنهم بدون مسوغٍ شرعي . وأنه كان سببًا في حدوث الفتنة الأخيرة التي مزقت صفوف المسلمين[٢] .

ولن نعود إلى تناول هذه التهم وإيضاح براءة السلطان عبد الحميد منها فقد سبق وأن تطرقنا لها في ثنايا هذا البحث[٣] باستثناء التهمة الأولى وهي موضوع حرقه وتحريفه للكتب الشرعية . والواقع أن هذه التهمة توضح إلى أي مدى حاول أعداء السلطان عبد الحميد قلب الحقائق وتشويه كل عمل يقوم به السلطان من أجل إعطاء مبرر لخلعه ، فحقيقة هذا الموضوع هو أن السلطان عبد الحميد أُبلغ بأن بعض الكتب الدينية التي هي في متناول أيدي عامة الشعب كانت تحتوي على بعض الخرافات والأفكار التي تتعارض مع العقيدة الإسلامية الصحيحة فأمر بتشكيل لجنة من كبار علماء الدين قامت بفرز الكتب الدينية وحُصرت الكتب التي تحتوي على هذه الشوائب وللتخلص من آثارها الخطيرة أمر بإحراقها [٤].

وهكذا يتضح لنا مبلغ الظلم والتجني الذي تعرض له السلطان

---

(١) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ص ٧٠٩ – ٧١٠ .

(٢) انظر نص الفتوى في الملحق رقم (٥) .

(٣) سبق أن تناولنا هذه التهم وأوضحنا براءة السلطان منها في المبحث الثاني من الفصل الثاني .

(٤) اورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ٣٣٢ .

عبد الحميد وهو المعروف بسياسته الإسلامية التي رأى فيها علاجًا لدولته من أسقامها .

ولأنها فرصة جاد بها الزمان لليهود لينفسوا عن بعض أحقادهم فقد تعمدوا أن يتقدم الوفد الذي كُلف بابلاغ خليفة المسلمين قرار خلعه أحد زعماء اليهود وهو ايمانوئيل قراصو Emanuel Carasso نائب يهود سلانيك ومؤسس أعرق محافلها الماسونية يرافقه ثلاثة ممن يشهد تاريخهم بخيانتهم للوطن وعمالتهم لأعدائه وهم أسعد طوبطاني الأرناؤوطي[١] وعارف حكمت[٢] وأرام أفندي[٣] ، وعندما دخلوا على السلطان عبد الحميد وجدوه متماسكًا هادئ الأعصاب . ولما قرأ عليه عارف حكمت نص الفتوى أجاب جواب المؤمن الثابت : (ذلك تقدير العزيز العليم)[٤] .

ومما يؤكد أن وجود اليهودي قراصو Carasso ضمن هذا الوفد - الذي ستظل ذكراه تثير وخزًا حادًا في قلب الأمة الإسلامية - لم يأت مصادفة

---

(١) أسعد طوبطاني الأرناؤوطي : وهو الباني نائب في مجلس المبعوثان عن منطقة دراج أدين أثناء حرب البلقان باغتيال أحد القواد العسكريين الأتراك ، كما ثبت أنه كان يتعاون مع الإيطاليين أعداء الدولة طمعًا في أن يتولى رياسة ألبانيا ، وقد مات مقتولاً على يد أحد الشباب الألبان في باريس .

- مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ٢٠٣ حاشية رقم (١) .

(٢) عارف حكمت باشا الآظ : كرجي من العراق فريق بالقوات البحرية وعضو في مجلس الأعيان ، كان من مرافقي السلطان عبد الحميد ومن الذين نالوا الكثير من فضله .

- مذكرات الأميرة عائشة : ص ٢٤٠ ، ٢٤٢ .

(٣) أرام أفندي : أرمني وعضو في مجلس الأعيان ، كان قد تسبب في إراقة دماء كثير من الأتراك المسلمين عند ترأسه عصابات الإرهابيين الأرمن .

- يلماز اوزتونا : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٨٥ .

(٤) مذكرات الأميرة عائشة : ص ٢٤٠ .

وإنما كان رسالة شماتة وانتقام أراد اليهود توجيهها للسلطان عبد الحميد وللأمة الإسلامية عامة ، ما أورده المؤرخ التركي جمال قوطاي في تعليقه على مذكرات طلعت باشا حيث يقول : « بعد المؤتمر الصهيوني الثالث اقترح اليهود على السلطان عبد الحميد أن يبيع لهم المزارع السلطانية الواقعة على ساحل فلسطين أو تأجيرها لهم لمدة ٩٩ سنة مقابل ذهبًا يُعادل ثلاث ميزانيات عثمانية ، ورفض السلطان العثماني الإقتراحين ، وكان المتحدث باسم الوفد الصهيوني المحامي اليهودي السلانيكي ايمانوئيل قراصو . وبعد الرفض السلطاني خرج الوفد فقال هذا المتحدث باسم الوفد اليهودي لتحسين باشا كبير أمناء القصر السلطاني : سآتي هنا مرة أخرى ولكن سيكون دوري في هذه المرة غير دوري الآن »[١] .

والواقع أن السلطان عبد الحميد كان قد أدرك الغاية من وجود قراصو ضمن الوفد الذي جاء يبلغه قرار خلعه لذا فقد أثار ذلك غضبه وألمه كثيرًا وكان تألمه لما في ذلك من إساءة وتطاول على مقام الخلافة الإسلامية يفوق تألمه لما فيه من إهانة لشخصه ، وفي هذا الصدد يقول النقيب (ذو النون دبرلي) الذي كان مكلفًا بحراسة السلطان عبد الحميد بعد خلعه : « قال لي ذات يوم وقد عصره الألم إن الشيء الذي آلمني أكثر من غيره هو أن يبلغني اليهودي قراصو خادم الماسونيين قرار الخلع إني لا أنسى قط ايمانوئيل قراصو هذا وهو أحد أعضاء الوفد الذي حضر إليّ في قصر يلدز ، إذ وجدت في حضوره إهانة لمقام الخلافة »[٢] .

وتبرز في هذا المقام وثيقة في غاية من الأهمية وهي الرسالة التي أرسلها

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ١٤٢ حاشية رقم (١) .

(٢) جواد آتلخان : الإسلام وبنو إسرائيل ، ص ٢٠٨ .

السلطان عبد الحميد إلى الشيخ (محمود أبو الشامات)[(١)] وشرح له فيها أسباب خلعه ومما جاء في هذه الرسالة قوله : « ... ان هؤلاء الاتحاديين قد أصروا وأصروا علي بأن أصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة فلسطين ورغم إصرارهم فلم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف وأخيراً وعدوا بتقديم (١٥٠) مائة وخمسين مليون ليرة انجليزية ذهبًا فرفضت ... وبعد جوابي القطعي اتفقوا على خلعي »[(٢)] .

وإمعانًا من اليهود في إهانة سلطان المسلمين ولكي يكون عبرة لمن يحاول أن يقف في طريقهم قرروا نفيه إلى المركز اليهودي الدونمي سلانيك ليضمنوا حصاره وسط محافلهم الماسونية حيث فرضوا عليه الإقامة في قصر قديم (آلاتيني) يخص أحد أغنيائهم تحت حراسة مشددة[(٣)] .

وبتنفيذ هذا القرار خلت الساحة لرجال الاتحاد والترقي الذين حولوا جمعيتهم من منظمة سرية إلى حزب سياسي علني وصدر ذلك في بيان نشرته الصحف في شهر ربيع الأول عام ١٣٢٧هـ الموافق إبريل عام ١٩٠٩م

---

(١) انظر نص الرسالة بالتركية في الملحق رقم (٦) وهذه الوثيقة كان قد أرسلها السلطان عبد الحميد عام ١٣٢٩هـ / ١٩١١م وهو في منفاه سلانيك إلى الشيخ محمود أبو الشامات شيخ الطريقة الشاذلية في دمشق وقد ظلت هذه الوثيقة محفوظة عند ورثة الشيخ أبو الشامات إلى أن ترجمها إلى العربية مدير الأوقاف السوري السابق الشيخ أحمد القاسمي الذي كان يتقن اللغة التركية ، وللتأكد من صحة نسبة هذه الوثيقة إلى السلطان عبد الحميد قام بعض الباحثين بعرض هذه الرسالة على خبير خطوط وبمقارنتها بمجموعة من كتاباته ثبت أنها مكتوبة بخط السلطان عبد الحميد .

– شيريب سبيريد وفيتش : حكومة العالم الخفية ، تعريب : مأمون سعيد ، الطبعة التاسعة (بيروت: دار النفائس ، ١٤١١ هـ / ١٩٩٠م) ص ٢١ .

– حسان حلاق : المرجع السابق ، ص ٣٢٨ .

(٢) المرجع نفسه : ص ٣٢٨ .

(٣) مذكرات الأميرة عائشة : ص ٢٤٩ .

وانفردوا بالحكم إذ كان السلطان محمد الخامس الطاعن في السن أداة طيعة في أيديهم[١] .

وهكذا طوي عهد السلطان عبد الحميد ورحل الحارس اليقظ الذي ذاد عن حمى الدولة الإسلامية مدة ثلاثة وثلاثين عامًا بكل حرصٍ وأمانة وتخلص اليهود من أعتى خصومهم وزالت العقبة الكؤود التي طالما اعترضت طريقهم لتحقيق آمالهم وأطماعهم [٢] ، ولم يكن باستطاعتهم أن يخفوا ابتهاجهم بذلك فخرجوا في شوارع سلانيك في مسيرات عامة مظهرين سرورًا فائقًا بهذا الحدث ولم يكتفوا بهذا بل طبعوا صورة تلك المسيرات على طوابع بريدية تخليدًا لذكرى ذلك الحدث العزيز على نفوسهم [٣].

كما عبرت الصحف اليهودية عن سعادتها بإزاحة السلطان عبد الحميد وقد أشار إلى هذا السفير البريطاني لوثر في رسالته إلى وزير خارجية بلاده وذلك في قوله : « ... وبعد أن تم خلع السلطان عبد الحميد أخذت الجرائد اليهودية في سلانيك تزف البشائر بالخلاص من مضطهد إسرائيل الذي رفض مرتين أن يستجيب لطلب الزعيم الصهيوني هرتزل ، والذي وضع جواز السفر

---

(١) جورج انطونيوس : المرجع السابق ، ص ١٨٠ .

- عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج ٢ ، ص ١٠٠٧ .

(٢) استمرت إقامة السلطان عبد الحميد في منفاه سلانيك تحت الحراسة المشددة إلى أن اندلعت حرب البلقان فجرى نقله وأفراد عائلته الذين كانوا برفقته إلى استانبول حيث أقام هناك في قصر بكلربكي إلى أن توفي في عام ١٣٣٦ هـ / ١٩١٨م فجرى لجنازته احتفال مهيب ودفن في مقبرة السلطان محمود باستانبول رحمه الله رحمة واسعة وجزاه عن الأمة الإسلامية خير الجزاء .

- مذكرات الأميرة عائشة : ص ص ٣٢٧ - ٣٥٠ .

- مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ، ص ١٠١ .

(٣) أحمد نوري النعيمي : اليهود والدولة العثمانية ، ص ٢٢١ .

الأحمر الذي يقابل عندنا قانون الأجانب »[١] .

وقد أثبتت الأحداث اللاحقة أن ما أبداه اليهود من ابتهاج وغبطة لرحيل السلطان عبد الحميد كان في موضعه فقد تمكنوا في الأشهر القليلة التي أعقبت خلعه من تحقيق الكثير من الأشياء التي عجزوا عن تحقيقها خلال سنين طويلة ، ذلك أن سيطرة الاتحاديين على مقاليد الحكم في البلاد وما كان للدوائر الصهيونية من مساهمة في أحداث الانقلاب والخلع عام ١٣٢٦ - ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٨ - ١٩٠٩ م ثم حاجة الإتحاديين للأموال اليهودية قد مكن بعض الشخصيات اليهودية من الوصول إلى المناصب القيادية في الدولة ومن أولئك على سبيل المثال طلعت باشا الذي شغل منصب وزير الداخلية وجاويد بك وزير المالية وجاهد بك مستشار وزير المالية وجميعهم من الدونمة[٢] .

وقد نجم عن وصول اليهود إلى بعض مراكز القوة في العهد الجديد أن تراخت رقابة الدولة على الهجرة اليهودية إلى فلسطين وأُبعد الموظفين الذين أظهروا حماسة في معارضة الهجرة اليهودية كما أزيلت كثير من القيود التي كانت تعيق الاستيطان اليهودي مثل الجواز الأحمر وقوانين التملك التي تحظر نقل ملكية الأراضي لليهود الأجانب[٣] .

ولأن الحكام الإتحاديين كانوا في حاجة ماسة لأموال اليهود فقد سمحوا للعديد من الشركات اليهودية الاستثمارية والمصرفية بمزاولة نشاطها في استانبول وفلسطين مثل شركة (أنجلوليفانتين Anglo-Levantine) المصرفية

---

(١) F.O.800/193.A .

(٢) محمد كرد علي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٢٨ .

- عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج ٢ ، ص ١٠٢٤ .

(٣) رفيق النتشة : السلطان عبد الحميد وفلسطين ، ص ص ١٢٦ - ١٢٨ .

في استانبول وشركة (تطوير الأراضي الفلسطينية) في فلسطين و (الصندوق الثقافي اليهودي) وغيرها من المؤسسات المالية التي لعبت دوراً هاماً في ترسيخ الغزو الصهيوني لفلسطين[١] .

ولكي نكون موضوعيين فلا بد أن نشير هنا إلى وجود فئة من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي لم تكن على اطلاع بما هو مخبأ لحركتها من توجيه يهودي مرتبط بالاستعمار وقد عارضت هذه الفئة تشجيع النشاط الصهيوني واعتبرت نفسها مغبونة ومُغرّر بها ودخلت في صراع شديد مع أنصار المشروع الصهيوني وهم الفئة صاحبة النفوذ القوي[٢] .

وعلى العموم فإن سيطرة الاتحاديين على مقاليد الحكم في الدولة العثمانية كان له دور كبير في انتعاش الأماني الصهيونية في إقامة الدولة اليهودية في فلسطين ودفع نشاطهم الاستيطاني في فلسطين خطوات واسعة إلى الأمام[٣] .

وهكذا فإنه يمكننا القول إن الإتحاديين كانوا من أهم أسباب ضياع فلسطين تلك الأرض المقدسة الغالية على نفوس المسلمين كما كانوا السبب الرئيس في ضياع أجزاء واسعة من الدولة الإسلامية .

فمن الثابت تاريخياً أنه منذ أن استأثر الاتحاديون بالحكم أخذت النكبات تتوالى على الدولة العثمانية ففي عام ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م اقتطعت النمسا

---

(١) حسان حلاق : المرجع السابق ، ص ٣٣٥ .

(٢) رفيق النتشة : السلطان عبد الحميد وفلسطين ، ص ١٢٧ .

(٣) محمود صالح منسي : المرجع السابق ، ص ص ١٣٦ – ١٣٧ .

– حسان حلاق : المرجع السابق ، ص ٣٣٤ .

والمجر ولايتي البوسنة والهرسك[١] ، مقابل ٥٣ مليون فرنك ذهبت إلى جيوب الدونمة من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي[٢] . كما وقعت ليبيا عام ١٣٣٠هـ / ١٩١٢م في مصيدة الاستعمار الإيطالي بمؤامرة خبيثة دبرها اليهودي مترو سالم[٣] بالتعاون مع اليهود والماسون من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي[٤] . وتلى ذلك هزيمة الدولة العثمانية أمام التحالف البلقاني عام ١٣٣٠هـ / ١٩١٢م وخسارتها لأجزاء واسعة من ممتلكاتها في أوروبا[٥] .

وهكذا كانت الدولة العثمانية إبان حكم الاتحاديين الذي استمرحتى نهاية الحرب العالمية الأولى عام ١٣٣٦هـ / ١٩١٨م تفقد في كل عام أقاليم هامة في أوروبا وافريقيا وآسيا[٦] . وبدا وكأنهم قد جاءوا لتمزيق الدولة الإسلامية والقضاء على معاقل الإسلام معقلاً معقلاً ، وهم الذين كانوا يتهمون السلطان عبد الحميد بالتفريط في صيانة ولايات الدولة ! !

وكما عمل اليهود في جمعية الاتحاد والترقي على تمزيق أقاليم الدولة

---

(١) بيير رنوفان : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٦٦٠ .

(٢) ا . ل . شاتليه : الغارة على العالم الإسلامي ، تعريب : مساعد اليافي ومحب الدين الخطيب ، الطبعة الثانية (جدة : الدار السعودية للنشر ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م) ص ٢٧٣ .

(٣) سبق أن تطرقنا إلى هذا الموضوع في المبحث الأول من الفصل الثالث ص (٢١٩) .

(٤) جواد آتلخان : أسرار الماسونية ، ص ٥٩ .

(٥) عايض الروقي : المرجع السابق ، ص ١٥٥ .

(٦) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مُفترى عليها ، ج ٢ ، ص ١٠١٩ .

العثمانية فقد عملوا أيضًا على تمزيق شعوبها بالسياسة القومية التركية المتطرفة التي انتهجوها ولا سيما بعد اعتمادهم سياسة تتريك الشعوب العثمانية وما ترتب عليها من اجراءات استفزازية بعثت روح العصبية القومية - التي أماتها الإسلام - عند باقي القوميات فأصبحت شعوب الدولة طرائق قددا واشتعلت بينها نار العداوة والبغضاء[١] . وفي هذا الصدد يقول السلطان عبد الحميد : « ... رجح الذين تولوا زمام الحكم من بعدي داعي القومية عند الترك وجعلوه في مرتبة أعلى من الغيرة الدينية ونفروا منهم العرب فبئس ما كانوا يفعلون »[٢] .

وقد تنكر الاتحاديون لكل وعودهم - كما هو ديدن اليهود - فالحكم الدستوري كان اسميًا والوحدة العثمانية أصبحت سرابًا وبدلاً من أن يرى الناس تطبيقًا صادقًا لشعارهم الماسوني (حرية واخاء ومساواة) واجهوا ظلمًا واستبدادًا ليس له مثيل من الذين كانوا بالأمس قد ملأوا الدنيا صراخًا عن الحقوق الضائعة وعن الاستبداد الحميدي[٣] .

هذا وقد طال ظلم واستبداد الاتحاديين كافة عناصر الشعب العثماني باستثناء اليهود فقد كان لهم حصانة خاصة كفلتها لهم صلة العقيدة والدماء بغالبيتهم وفي هذا الصدد يقول شيخ الإسلام مصطفى صبري الذي كان له نصيب وافر من ظلمهم : « ... لن تجد ملة أو قومًا في خارج بلادنا وداخله دامت مودة الاتحاديين والكماليين معهم إلا اليهود بأصليهم وعوديتهم ولا يقاس عليهم في الوثوق بصداقتهم في داخل المملكة غيرهم ... فلهذا لم يسلم من

---

(١) سبق أن تناولنا هذا الموضوع بتوسع في المبحث الثاني من الفصل الثالث .

(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ١٩٥ .

(٣) جورج انطونيوس : المرجع السابق ، ص ١٨٠ .

- ساطع الحصري : المرجع السابق ، ص ص ١٣٤ - ١٣٧ .

اعتـدائهم في تركيـا مـا بين ألبـانهـا وعـربهـا وأكـرادها وأرمنهـا وأروامـهـا وشراكسها وأتراكها إلا اليهود »[1] .

وفي عام ١٣٣٢هـ / ١٩١٤م قامت الحرب العالمية الأولى وزج الاتحاديون بالدولة العثمانية في أتون تلـك الحـرب الأوروبية التي لا ناقة لها فيها ولا جمل فتمزقت جيوشـها تحت القيادات الفاشلة والعميلة على جميع الحدود والجبهات وتبـعـثـرت بين هزيمة وانسـحـاب وانتـهت الحـرب العظمى في عـام ١٣٣٦هـ / ١٩١٨م بهـزيمة الدولة العـثـمـانيـة وتمزيق أطرافـهـا . وسـنتناول تفـصـيل هذا المخطط في الفصل اللاحق إن شاء اللّـه .

---

(١) مصطفى صبري : المصدر السابق ، ص ٢٥٩ .

الفصل الرابع
تزايد النفوذ اليهودي
إبان الحرب العالمية الأولى

المبحث الأول : خـوض الدولـة العثمانية غمار الحـرب العالمية الأولى .

المبحث الثاني : دور اليهود في توجيه الحرب العالمية الأولـى .

المبحث الأول

خوض الدولة العثمانية غمار الحرب العالمية الأولى

أطل القرن الرابع عشر الهجري الموافق العشرين الميلادي والتنافس بين الدول الاستعمارية على أشده للسيطرة على البلاد الخاضعة للدولة العثمانية التي كانت محط أنظار تلك الدول لما لها من أهمية اقتصادية واستراتيجية ، بينما كانت الدوائر الصهيونية ترى ضرورة وحتمية قيام الصراع بين الدول الاستعمارية القديمة من ناحية وبين الاستعمار الألماني والدولة العثمانية من ناحية أخرى وذلك لتحقيق أهدافها في فلسطين وتنفيذ مقررات مخطط كامبل بانرمان الاستعماري Campbell Bannerman [١] الرامية إلى إقامة دولة يهودية في فلسطين تكون رأس جسر وقاعدة استعمارية تفصل بين آسيا وافريقيا وتحول دون اتحاد شعوبهما[٢] .

لذا فقد سعى اليهود جاهدين لإثارة ذلك التنافس الاستعماري وجندوا أدواتهم المعهودة[٣] لتحويله إلى جفاء وعداء بين تلك الدول[٤] .

وسوف نضرب صفحًا عن ذكر الأزمات السياسية العنيفة والمنازعات الاستعمارية الحادة التي توالت بصورة مثيرة للاستغراب يشتم منها رائحة

---

(١) سبق أن تحدثنا عن مؤتمر كامبل بانرمان بالتفصيل في المبحث الأول من الفصل الثاني من هذا البحث . انظر ص (١٣٤) .

(٢) حسن صبري الخولي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١١٦ .

– حسان حلاق : المرجع السابق ، ص ٢٣٠ .

(٣) سبق أن ذكرنا في عدة مواضع من هذا البحث أن من أهم الوسائل التي يستخدمها اليهود للوصول إلى أهدافهم وسائل الإعلام ولا سيما الصحافة التي يسيطرون على معظمها في أوربا وكذلك التجسس إضافة إلى نفوذهم الاقتصادي في أنحاء العالم .

(٤) س . ناجي : المرجع السابق ، ص ص ٤٣٨ – ٤٤٦ .

التنظيم الخفي بين الدول الأوربية في تلك الفترة وأدت إلى تكوين كتلتين دوليتين متحفزتين للقتال[١] . لأن ذلك موضوع خارج عن مجال بحثنا .

أما عن الحدث الأخير الذي أدى إلى تطاير الشرر واندلاع نيران الحرب التي أضرمها اليهود فهو اغتيال الأرشيدوق (فرانز فرديناند Archduke Franz Frdinand) ولي عهد النمسا وزوجته أثناء زيارتهما للبوسنة[٢] ، ففيما كان موكب ولي العهد المذكور يمر بأحد شوارع مدينة سراجيفو Sarajevo عاصمة البوسنة وكان ذلك في الخامس من شعبان عام ١٣٣٢هـ / الموافق ٢٨ يونيو ١٩١٤م انطلق شاب من بين الجموع المحتشدة على جانبي الشارع وفي يده مسدس واخترق الحرس ورجال الشرطة المحيطين بالموكب وعندما أصبح على مقربة من الأرشيدوق أطلق عليه رصاصة أودت بحياته على الفور ثم أتبعها برصاصة أخرى أطلقها على زوجة الأرشيدوق التي كانت تجلس بجانبه فأصابها إصابة خطيرة توفيت على أثرها بعد نقلها إلى المستشفى بزمن قصير[٣] ، وقد ثبت فيما بعد أن الجاني وكان يُدعى (كُفر برنزيب Kofr Branzeeb) يهودي بوسني ينتمي إلى منظمة سرية[٤] .

---

(١) للتعرف على تلك الخلافات والأزمات السياسية التي حدثت قبل الحرب العالمية الأولى والتي ثبت ان لليهود دوراً كبيراً في إثارتها يمكن الرجوع إلى المرجع نفسه : ص ص ٤٤٢ - ٤٤٧ .

(٢) مذكرات لورد غراي وتبعة الحرب العالمية الكبرى : تعريب : علي أحمد شكري (مصر : المطبعة الرحمانية ، ١٣٤٨هـ / ١٩٢٩م) ص ص ١١٤ - ١١٥ .

- محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص ٣٥١ .

(٣) سعيد برجاوي : الامبراطورية العثمانية تاريخها السياسي والعسكري (بيروت : الأهلية للنشر والتوزيع ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م) ص ٢٩٥ .

(٤) وليام غاي كار : الدنيا لعبة إسرائيل ، تعريب : لوسيان دي شريميه (بيروت : كولار فيوز كومباني) ص ١٧٥ .

- س . ناجي : المرجع السابق ، ص ٤٤٦ .

وعلى أثر هذا الحادث تأزم الموقف بين النمسا والصرب إذ حمّلت النمسا حكومة الصرب مسئولية الاعتداء على ولي العهد وزوجته واعتبرت ذلك الحادث تحدياً خطيراً لمركزها الدولي ورأت أنه يجب عليها أن تتخذ تجاهه موقفاً حازماً وإلا تعرضت كرامتها للامتهان[١] .

لذا أرسلت حكومة النمسا إلى حكومة الصرب إنذاراً شديد اللهجة في يوم ١ من رمضان ١٣٣٢هـ / الموافق ٢٣ يوليو عام ١٩١٤م طالبت بأن يكون الرد عليه خلال ٤٨ ساعة وكان من بين المطالب التي تضمنها هذا الإنذار المطالبة بالموافقة على أن ترسل النمسا مسئولين من لديها للتحقيق في هذه الجريمة واكتشاف مدبريها ، وقبل انتهاء مدة الإنذار أعلنت الحكومة الصربية عن موافقتها على جميع بنود الإنذار ما عدا البند الخاص بأن يتولى مسئولون من النمسا التحقيق في الحادث لأنها رأت أن هذا المطلب يمس سيادتها واستقلالها[٢] .

ولدى تلقي النمسا هذا الجواب على إنذارها قامت بقطع علاقاتها الدبلوماسية مع الصرب ثم أعلنت الحرب عليها في ٦ رمضان ١٣٣٢هـ / ٢٨ يوليو ١٩١٤م وعلى أثر ذلك أعلنت روسيا التعبئة العامة مبدية نيتها بالدفاع عن الصرب ضد أي عدوان يمكن أن تتعرض له من قبل النمسا – المجر كما أعلنت فرنسا حليفة روسيا عن وقوفها إلى جانب روسيا في حماية الصرب . وبما أن ألمانيا كانت حليفة للنمسا – المجر فقد أعلنت الحرب على الصرب وروسيا ومن يقف في صفهم وأرسلت إلى بلجيكا المحايدة تطلب منها السماح لقواتها باختراق أراضيها فرفضت بلجيكا هذا الطلب ولكن ألمانيا لم تبال بموقف بلجيكا وتدفقت قواتها لتعبر الأراضي البلجيكية مما دفع بلجيكا

---

(١) مذكرات لورد غراي : المصدر السابق ، ص ١١٦ .

(٢) محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص ص ٣٥٦ – ٣٥٧ .

للاستنجاد ببريطانيا فأعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا[١] ، والواقع أن هذا لم يكن السبب الوحيد الذي دفع بريطانيا لدخول الحرب فقد كان هناك سبب أهم منه وهو أن بريطانيا كانت تخشى أن تتمكن ألمانيا من هزيمة فرنسا وروسيا وتبقى وحيدة أمامها وتزاحمها في البحار والمستعمرات[٢] .

وهكذا تتابع دخول الدول الأوربية الحرب وغدت أوروبا حسب ما اقتضته مصالح دولها الخاصة منقسمة إلى جبهتين متحاربتين هي دول الحلفاء أو دول الوفاق وتتكون من فرنسا وبريطانيا وروسيا ومن سينضم إليهم من جهة ودول المحور أو دول الوسط وتتكون من النمسا - المجر وألمانيا ومن سينضم لهما من الجهة الأخرى[٣] .

وبهذا نرى أن اليهود بعد أن افتعلوا مسببات الحرب وأيقنوا أن الوقت قد حان لاشعالها كلفوا اليهودي (برنزيب) باغتيال الأرشيدوق فرانز فكان هذا الحادث بمثابة شرارة أُلقيت على برميل من البارود ، ولإثبات أن هذا القول ليس اتهامًا دافعه التحامل على اليهود نسوق هنا بعض الأدلة التي جاءت على ألسنة اليهود أنفسهم ومن أهمها ما جاء في تلك الوثيقة التي قدمها جنرال امريكي للقائد والمؤرخ التركي جواد آتلخان وهي عبارة عن نشرة سرية وزعتها جمعية كابالا اليهودية على كبار اليهود في العالم وقد جاء فيها : « ... لا بد أن الملل أدرككم لطول الإنتظار ، ونفذ صبركم وتسرب اليأس إلى نفوسكم ، ولكن ثقوا أيها الأخوة أننا نعمل ليل نهار وبدون كلل لنقود العالم إلى حيث يجب أن

---

(١) هارولد تمبرلي وَ أ . ج . جرانت : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ص ١٧٠ - ١٧٥ .

- بيير رنوفان : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ص ٧٩٧ - ٧٩٩ .

(٢) يلماز اوزتونا : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٣٢ .

(٣) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مُفترى عليها ، ج ١ ، ص ٧٤ ، حاشية (١) .

- سعيد برجاوي : المرجع السابق ، ص ٢٩٦ .

يُقاد ... أنسيتم كيف زججنا بدول العالم في الحرب العالمية الأولى لتتذابح شعوبها مدة أربع أعوام دون أن يكون لها في هذا الصراع غرض إلا تحقيق غايتنا »[١] .

وكذلك يقول اليهودي ماركوس رافاج : « نحن اليهود نقف من وراء جميع حروبكم وإن الحرب الأولى قامت لتحقيق سيطرتنا على العالم »[٢] .

وعلى أي حال فقد قامت الحرب بين الدول الأوربية ، ولكن بعد مرور بضعة أسابيع على ذلك حدث أمر غريب فقد فوجيء العالم الإسلامي بإقدام الدولة العثمانية على قطع علاقاتها الدبلوماسية مع دول الحلفاء والانضمام إلى دول المحور[٣] ، والأغرب من ذلك هو أن الدولة العثمانية دخلت تلك الحرب التي هي أكبر حرب سجلها التاريخ حتى ذلك الوقت دون علم سلطانها - محمد رشاد - ودون علم الصدر الأعظم ودون علم البرلمان فقد تسلمت كل هذه الأجهزة الحكومية هذا القرار من جماعة الاتحاد والترقي التي تركزت بيدها السلطة الفعلية في البلاد آنذاك ولا سيما الثلاثي الماسوني (أنور باشا وجمال باشا وطلعت باشا)[٤] .

لقد أقحم أنصار الحرب من رجال الاتحاد والترقي الدولة العثمانية في حرب أوروبية لا ناقة لها فيها ولا جمل وضربوا عرض الحائط بالمعارضة الشديدة التي أبداها مجلس الوزراء والرأي العام في الدولة ، وكان القرار

---

(١) جواد آتلخان : الإسلام وبنو إسرائيل ، ص ص ١٢٠ - ١٢٥ .

- صابر طعيمة : الماسونية ذلك العالم المجهول ، ص ص ٣٨٩ - ٣٩٢ .

(٢) فؤاد الرفاعي : حقيقة اليهود ، ص ٦٧ .

(٣) هارولد تمبرلي و أ . ج . جرانت : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٠٠ .

- محمود شاكر : المرجع السابق ، ص ٢١٦ .

(٤) يلماز اوزتونا : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ .

الرسمي للدولة الذي أعلنته جمعية الاتحاد والترقي بهذا الخصوص قد تضمن ادعاءً بأن الدولة قد دخلت الحرب مضطرة متذرعين بأن سفينتين عسكريتين المانيتين اجتازتا البسفور والدردنيل ودخلتا إلى البحر الأسود دون علم السلطات العثمانية وقصفتا الموانيء الروسية ، وعلى اثر ذلك أعلنت روسيا وحلفاؤها الحرب على الدولة العثمانية ، مما يعني أن دخول الدولة العثمانية الحرب كان خضوعًا للأمر الواقع[١] .

ولكن ظهر فيما بعد أن أمورًا كانت قد حدثت في الخفاء يمكن أن يستدل منها على أن دخول الدولة العثمانية الحرب إلى جانب دول المحور كان أمرًا مبيتًا وهي كالتالي :

أولاً: بالنسبة لموضوع السفينتين الألمانيتين تبين أن دخولهما إلى الدردنيل كان قد جرى بناءً على اتفاق مسبق بين السلطات الألمانية والماسونيان أنور وطلعت في حين كان يعد السماح بدخولهما دون تجريدهما من السلاح مخالفة للأعراف الدولية على اعتبار أن الدولة العثمانية دولة محايدة حينذاك[٢] .

ثانيًا : تبين أن تاريخ دخول الدولة العثمانية الحرب العالمية في ١٤ من ذي الحجة عام ١٣٣٢هـ / الموافق ٢ نوفمبر عام ١٩١٤م[٣] وذلك

(١) محمد عبد الرحمن برج : المرجع السابق ، ص ١٧١ .

- يلماز اوزتونا : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٣٥ .

- لطيفة محمد سالم : مصر في الحرب العالمية الأولى (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٣٨٤هـ / ١٩٨٤م) ص ١٥ .

(٢) بيير رنوفان : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٤٨ .

- علي حسون : المرجع السابق ، ص ٢٨٦ .

(٣) اختلفت المصادر التاريخية في تحديد يوم دخول الدولة العثمانية الحرب فهناك من يقول انه في يوم ٢ نوفمبر وآخرون يقولون إنه يوم ٥ نوفمبر وقد أخذنا بالقول الأرجح .

بعد مضي ثلاثة أشهر على نشوبها في ٦ رمضان ١٣٣٢هـ / الموافق ٢٨ يوليو ١٩١٤م كان قد حدد في معاهدة تحالف سرية تمت بين الماسوني أنور باشا وزير الحربية في الدولة العثمانية آنذاك والبارون (فون وانجنهايم Von Wangenheim) السفير الألماني في استانبول[١] ، تم التوقيع عليها في ١١ من رمضان عام ١٣٣٢هـ / الموافق ٢ من أغسطس ١٩١٤م أي بعد مضي خمسة أيام فقط على نشوب الحرب ، وفي نفس اليوم الذي أعلنت فيه ألمانيا عن دخولها الحرب ولكن الطرفين اتفقا على أن تظل هذه المعاهدة سرية وعلى أن تتظاهر الدولة العثمانية بالحياد حتى التاريخ المحدد[٢] .

ثالثًا : أنّ ألمانيا دفعت للاتحاديين خمسة ملايين ليرة ذهبية عثمانية مقابل دخول الدولة العثمانية الحرب إلى جانبها[٣] ، وقد أشار إلى ذلكم اللورد كتشنر Kitchener وزير الحربية البريطاني آنذاك في برقية أرسلها إلى عبدالله بن الشريف حسين جاء فيها قوله : « ... لقد نجحت ألمانيا في كسب تركيا إلى جانبها عن طريق الذهب ... والحكومة التركية ، رغمًا عن إرادة السلطان قد قامت بغزو الحدود المصرية »[٤] .

وباستطاعتنا أن نجد تفسيرًا لكل ذلك إذا علمنا بأن كلاً من دول المحور ودول الحلفاء كانت ميدانًا للنشاط الصهيوني قبل قيام الحرب فعلى الرغم من

---

(١) محمد عبد الرحمن برج : المرجع السابق ، ص ١٧٠ .

(٢) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج ١ ، ص ص ٧٤ – ٧٥ ، حاشية رقم (١) .

– لطيفة محمد سالم : المرجع السابق ، ص ١٤ .

– جورج انطونيوس : المرجع السابق ، ص ٢١٦ .

(٣) محمود شاكر : المرجع السابق ، ص ٢١٧ .

(٤) زين نور الدين زين : نشوء القومية العربية ، ص ١١٧ .

أن الصهاينة لمسوا تعاطفًا واضحًا من بريطانيا على آمالهم في فلسطين على اعتبار التقائها مع الاستراتيجية البريطانية في تلك المنطقة إلا أنهم لم يلقوا بكل ثقلهم على بريطانيا بل وزعوا جهودهم ونشاطهم في كل الدول الأوربية محاولين توجيه التيارات السياسية والفكرية والاقتصادية في كل تلك الدول لصالح أهدافهم[١] ، ويؤكد هذا المبدأ في سلوك الصهاينة ما جاء في الخطاب الذي ألقاه اليهودي (موسى جاستير Mussa Gastear) في المؤتمر الصهيوني العالمي الحادي عشر الذي انعقد عام ١٢٣١ هـ / ١٩١٣م وذلك في قوله : « ليست الصهيونية حركة ألمانية ، إننا نقاتل في كل مكان لنوضح إننا نشعر بأننا ألمان أو إنجليز أو فرنسيون أو روس . ولكن شعورنا وأفكارنا يهودية كلها »[٢] .

وانطلاقًا من هذا المبدأ قام الصهاينة عند نشوب الحرب العالمية الأولى بتوزيع نشاطهم بين المعسكرين المتحاربين وفي ألمانيا بالذات أقاموا ما يُعرف بـ (لجنة الشرق) متظاهرين بالعمل على انتصار ألمانيا كما أنشأوا منظمتين مساندتين لهذه اللجنة . الأولى أقاموها في كوبنهاجن عاصمة الدنمرك والأخرى في استانبول[٣] .

ومن جانب آخر فعند قيام الحرب كان كثير من اليهود قد تغلغلوا في المجتمع الألماني وكان منهم من استطاع أن يصل إلى مواقع صنع القرار في الدولة فمثالاً على ذلك كان كلٌ من (هاز Haz) وزير الخارجية و (شفر Shefar) وزير المالية يهوديين[٤] .

---

(١) حسن صبري الخولي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١١٧ .

(٢) صابر طعيمة : التاريخ اليهودي العام ، ج ٢ ، ص ٢٢٠ .

(٣) المرجع نفسه : ج ٢ ، ص ٢٢٠ .

(٤) محمد خليفة التونسي : المرجع السابق ، ص ٦٦ .

هذا وقد سبقت الإشارة إلى أن ألمانيا كانت مركزًا للجان التنفيذية التي شكلتها المؤتمرات الصهيونية العالمية كما أن المنظمة الصهيونية العالمية كانت تضم العديد من الشخصيات الألمانية أو التي عاشت في ألمانيا لفترة طويلة وتأثرت بالثقافة الألمانية[١] .

وإذا أضفنا إلى كل ما سبق أن دخول الدولة العثمانية الحرب وانتصار بريطانيا عليها كان قد غدا الأمل الوحيد لتحقيق آمال الصهيونية لأن ذلك سيؤدي إلى تقسيم أملاك الدولة العثمانية – ومنها فلسطين – بعد الحرب كما جرت عليه العادة في الحروب ، وبالتالي سيصبح بإمكان بريطانيا تنفيذ مقررات مؤتمر كامبل بانرمان الاستعماري وتحقيق المشروع الصهيوني في آن واحد[٢]. مع الأخذ بالاعتبار ما يظهر من تعاطف بريطانيا مع الصهيونية وكذا تصريحات أقطاب الصهيونية المتلاحقة بأنهم سيكونون الحارس الأمين للمعابر البريطانية الحيوية في الأراضي العربية والتي سبق أن ألمنا بشيء منها[٣] .

عند ذلك نستطيع أن نقول إن الزج بالدولة العثمانية في أتون الحرب العالمية كان من تدبير الدوائر الصهيونية ، وأن مما يؤكد صحة هذا التوجه الذي ذهبنا إليه تلك الاعترافات التي وردت على ألسنة بعض أقطاب جمعية الاتحاد والترقي حين اكتشفوا أنهم وقعوا تحت تأثير الماسونية والصهيونية فأضاعوا أنفسهم وبلادهم وذلك في أعقاب هزيمة الدولة العثمانية وتمزيق أشلائها ومن ذلك قول أنور باشا في حديث له مع جمال باشا : « أتعرف يا

---

(١) ديزموند ستيوارت : المرجع السابق ، ص ٣٣ .

– حسن صبري الخولي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١١٧ .

(٢) المرجع نفسه : ج ١ ، ص ١١٨ .

– خيرية قاسمية : المرجع السابق ، ص ٤٠ .

(٣) تطرقنا إلى هذا الموضوع في المبحث الأول من الفصل الثاني ص (١٣٩) .

جمال ما هو ذنبنا ؟ نحن لم نعرف السلطان عبد الحميد فأصبحنا آلة بيد الصهيونية واستثمرتنا الماسونية العالمية نحن بذلنا جهودنا للصهيونية فهذا ذنبنا الحقيقي »[١] .

وفي هذا المعنى أيضًا يقول أيوب صبري أحد قادة الاتحاديين العسكريين : « لقد وقعنا في شرك اليهود عندما نفذنا رغبات اليهود عن طريق الماسونيين لقاء صفيحتين من الليرات الذهبية في الوقت الذي عرض فيه اليهود ثلاثين مليون ليرة ذهبية على السلطان عبد الحميد لتنفيذ مطالبهم إلا أنه لم يقبل بذلك »[٢] .

وإن مما تجدر الإشارة إليه أن هذا التوجه في تحميل الصهيونية مسئولية إقحام الدولة العثمانية في تلك الحرب لا يعني تجاهلنا وجود أطراف أخرى تشاركها المسئولية كان في مصلحتها أيضًا ان تشترك الدولة العثمانية في الحرب ، وفي مقدمتها ألمانيا ممثلة لدول المحور التي رأت أن دخول الدولة العثمانية الحرب إلى جانبهم سيكون له تأثير كبير على ميزان القوى الأوروبية لأن في يد السلطان العثماني باعتباره خليفة المسلمين سلاحًا خطيرًا لا يُستهان به إذا ما دعا المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها إلى الجهاد ضد الدول التي تحارب الدولة العثمانية وأن بإمكانه أن يثير متاعب وأخطارًا جسيمة في وجه الحلفاء وأن يفتح أمامهم جبهات جديدة للقتال إذا ما ثار عليهم عشرات الملايين من المسلمين في الهند ومصر والسودان ومراكش والجزائر وفي بلاد القفقاس وفي غيرها من المناطق الإسلامية التي

---

(١) عبد الرحمن حبنكة الميداني : مكائد يهودية عبر التاريخ (بيروت : دار العلم ، ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٤م) ص٢٧٩ .

(٢) أحمد نوري النعيمي : اليهود والدولة العثمانية ، ص ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .

يسيطر عليها الحلفاء[١] . وبالنسبة لبريطانيا فإن الدعوة إلى الجهاد سيعرضها لأمورٍ أكثر خطورة من ذلك وهي تهديد مصالحها الاستراتيجية في قناة السويس والبحر الأحمر والخليج العربي[٢] .

ولعل من أهم الإحداث التي أسهمت في إقناع رجال السياسة الأوربية بصدى الدعوة الدينية في نفوس الشعوب الإسلامية تلك الانتصارات الشعبية العظيمة التي أحرزتها الحركة المهدية في السودان والسنوسية في ليبيا وغيرهما من الحركات الإسلامية الجهادية التي حدثت قبيل قيام الحرب العالمية الأولى بفترة قصيرة كما أنهم كانوا يتحسبون لآثار ما قام به السلطان عبد الحميد من جهد في سبيل تنمية مشاعر الوحدة الإسلامية .

لذا فعندما أعلن الاتحاديون عن دخول الدولة العثمانية الحرب إلى جانب دول المحور وأُطلقت الدعوة للجهاد على لسان السلطان العثماني[٣] ، كان الخبراء من المستشرقين الألمان هم الذين وضعوا صيغة المنشورات التي تضمنت تلك الدعوة للجهاد وكتبت بجميع لغات العالم الإسلامي ووزعت في جميع أنحائه[٤] .

إلا أنه من الجدير بالذكر أن الدعوة للجهاد التي أُعلنت على لسان السلطان العثماني محمد رشاد لم تأت بنتائجها المرجوة إذ لم يهب على أثرها العالم الإسلامي للجهاد بالشكل المتوقع . ويمكن إرجاع ذلك لأربعة أسباب ،

---

(١) محمود صالح منسي : المرجع السابق ، ص ٢٣٠ .

– بيير رنوفان : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٣٨ .

(٢) جورج انطونيوس : المرجع السابق ، ص ٢١٦ .

– محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص ٣٩٦ .

(٣) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مُفترى عليها ، ج ١ ، ص ٧٥ .

(٤) حسن صبري الخولي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٢٤ .

أولهـا : إدراك زعماء المسلمين في شتى أنحاء العالم الإسلامي بأن السلطان قـد أصبح أداة طيعة في أيدي جماعـة الاتحاد والترقي التي يسيطر عليها يهـود الدونمـة والماسون[١] . والسبب الثـاني : هـو أن الحكومة العثمانيـة - جمعيـة الاتحـاد والترقي - التي نادت بالجهـاد الإسـلامي ضد الحلفاء الصليبيين كانت متحالفـة مع ألمانيا والنمسا وهما دولتان صليبيتان شأنهما في ذلك شأن بريطانيا وفرنسا وروسيا[٢]. أما السبب الثالث : فهو أن أجزاء كبيرة من العالم الإسلامي كانت خاضعة للاستعمار من قبل دول الحلفاء التي بذلت قصارى جهدها لإبطال مفعول هذه الدعوة [٣]. ورابع هذه الأسباب: أن كثيرًا من عقلاء المسلمين كانوا يُعارضون خوض الدولة العثمانية لحرب أوربية ليس لها فيها مأرب أو مغنم سيما وأنها لم تكن مستعدة لخوضها[٤] ، وكانوا يرون أن من الأجدى ترك الدول الأوربية يقاتل بعضها بعض لتضعف وتتمزق قواتها فيما يستغل العالم الإسلامي هذا النزاع لاستجماع قواه وإعداد العدة للإنقضاض عليها إذا ما حانت الفرصة المناسبة لتحرير أجزائه التي تقع تحت سيطرتها[٥].

أما عن الطرف الآخر الذي كان له مصلحة في دخول الدولة العثمانية

---

(١) لوثروب ستودارد : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣١٧ .

(٢) محمود صالح منسي : المرجع السابق ، ص ٢٣٢ .

- جورج انطونيوس : المرجع السابق ، ص ٢١٥ .

(٣) علي حسون : المرجع السابق ، ص ٢٨٩ .

(٤) كانت الدولة العثمانية عند قيام الحرب العالمية الأولى تعاني من آثار حروب البلقان - التي خاضتها طوال السنوات الثلاث السابقة لتاريخ قيام الحرب العالمية - وما ترتب عليها من فقدها لأجزاء كبيرة من أقاليمها في أوروبا .

- محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص ٣٦٦ .

(٥) لوثروب ستودارد : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ص ٣١٦ - ٣١٧ .

الحرب وكان عونًا للصهيونية على تحقيق مآربها فهو جمعية الاتحاد والترقي الذين وجدوا في خوضهم لتلك الحرب – على افتراض كسبها [١] – فرصة أخيرة قد تعيد ثقة المواطنين بهم وتنسيهم نكثهم لوعودهم وإخفاقهم في كل ما أقدموا عليه منذ أن استولوا على مقاليد الحكم في البلاد[٢] .

كما وجدوا في تلك العروض المالية الضخمة التي لوحت لهم بها ألمانيا فرصة للخروج من الضائقات المالية الكبيرة التي أوقعوا الدولة فيها[٣] . مع الأخذ في الاعتبار أن كثيرًا من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي هم من اليهود ذاتهم (دونمة)[٤] .

وهكذا تضافرت جهود اليهود في داخل الدولة العثمانية وخارجها من أجل إقحام الدولة العثمانية في هذه الحرب العالمية الأوربية التي ليس لها فيها مغنم ولا مأرب .

---

(١) كان وزير الحربية أنور باشا قد عمل فترة من الزمن ملحقًا عسكريًا في ألمانيا وكان شديد الإعجاب بالقوات الألمانية ويرى بأنه ليس على وجه الأرض قوة يمكنها أن تتغلب على الجيش الألماني . وقد نجح في نقل هذا الإحساس إلى كثير من رفاقه الاتحاديين .

- بيير رنوفان : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٤٩ .
- يلماز اوزتونا : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٢٦ .

(٢) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مُفترى عليها ، ج ٢ ، ص ١٠١٩ .

(٣) علي حسون : المرجع السابق ، ص ٢٨٨ .

(٤) جواد آتلخان : الإسلام وبنو إسرائيل ، ص ٢٠٩ .

المبحث الثاني
دور اليهود في توجيه الحرب العالمية الأولى

لم يكتف اليهود بالزج بالدولة العثمانية في أتون الحرب العالمية الأولى بل راحوا يديرون دفة تلك الحرب بالشكل الذي يؤمن هزيمتها وانتصار الحلفاء ليتسنى لهم تحقيق مآربهم .

فعندما دخلت الدولة العثمانية الحرب إلى جانب دول المحور كانت بريطانيا أكثر دول المعسكرين المتحاربين تأثرًا بهذا التطور الحربي الذي طرأ على ساحة القتال فقد أثار أمامها الكثير من الأخطار والمخاوف على مصالحها الاستراتيجية في المشرق العربي[١]. إضافة إلى المخاطر التي واجهتها من تأثير دعوة السلطان للجهاد على شعوب مستعمراتها الإسلامية ومسلمي الهند[٢].

لذا فقد رأت بريطانيا أن أفضل طريقة لمواجهة تلك المخاطر هي استمالة زعامة إسلامية قوية للوقوف إلى جانبها[٣] ، وقد وجدت في الشريف حسين بن علي في الحجاز ضالتها المنشودة[٤]، فهو الزعيم المسلم الذي سيكون لموقفه من الحرب تأثير كبير على الأمة الإسلامية عامة والعربية خاصة [٥] . وذلك لما له

---

(١) محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص ٣٩٦ .

(٢) زين نور الدين زين : الصراع الدولي في الشرق الأوسط .. ، ص ٦٤ .
- بيير رنوفان : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٦٨ .

(٣) جورج انطونيوس : المرجع السابق ، ص ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

(٤) تجدر الإشارة هنا إلى أن بريطانيا قبل ذلك حاولت استقطاب الإمام عبد العزيز آل سعود حاكم سلطنة نجد وتوابعها حيث كان يعتبر آنذاك أقوى حاكم في الجزيرة العربية وقد زاد موقفه قوة أهمية موقعه من الناحية الإستراتيجية بعد أن تمكن من ضم الأحساء والوصول إلى سواحل الخليج العربي ، ولكن محاولة بريطانيا باءت بالفشل فقد رفض الإمام عبد العزيز القيام بأي نشاط سياسي أو عسكري ضد الدولة العثمانية ولم يعبأ بعروض بريطانيا وتلويحها له بالخلافة وآثر الحياد ، ومن الواضح أن الإمام عبد العزيز كان له من بعد النظرة السياسية ما جعله يدرك أن ذلك الصراع صراع مصالح ذاتية كما أنه كان يرفض المساومة على مبادئه وعقيدته .
- أمين الريحاني : تاريخ نجد الحديث وملحقاته وسيرة عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل آل سعود ملك الحجاز ونجد وملحقاتهما ، الطبعة الثانية (بيروت : دار الريحاني للطباعة والنشر ، ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م) ص ٢٣٠ .
- عايض الروقي : المرجع السابق ، ص ص ٣٤٩ - ٣٥١ .

(٥) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مُفترى عليها ، ج ١ ، ص ٧٨ .
- خيرية قاسمية : المرجع السابق ، ص ص ٢٤ - ٢٥ .

من مكانة خاصة في نفوس المسلمين وهي المكانة التي تستمد قوتها من كونه ينتمي إلى آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم وكونه القيم على الأماكن المقدسة ، هذا عدا الدعم العسكري الذي يمكن أن يقدمه الشريف حسين لبريطانيا وحلفائها على جبهات القتال والذي يزيد من فاعليته أهمية موقعه من الناحية الحربية والاستراتيجية، لذا فقد حرصت بريطانيا على استقطابه وكسبه إلى صفها[١] .

ومما سهل على بريطانيا مهمتها أنها لمست أن الشريف حسين كان يتطلع إلى زعامة العرب وإقامة خلافة عربية فكان هذا هو الطعم الذي ألقته له بواسطة (هنري ماكماهون Henry McMahon) مندوبها السامي في القاهرة فالتهمه الحسين [٢] .

وقد أشار إلى هذا الدور (لويد جورج Lioyd George)[٣] رئيس الوزراء البريطاني في مذكراته عن الحرب العالمية حيث يقول : « إن عملاءنا لدى العرب ومن بينهم أناس من ذوي الاختبار المشهود لهم بمهارتهم في فنون الدبلوماسية الشرقية راحوا يعملون على إثارة روح الثورة ويتعهدون بتقديم

---

(١) جورج انطونيوس : المرجع السابق ، ص ص ٢٢٠ – ٢٢١ .

(٢) صالح مسعود أبو يصير : المرجع السابق ، ص ص ٤٥ – ٤٧ .

– بيير رنوفان : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٦٩ .

(٣) لويد جورج : سياسي بريطاني لمع اسمه لما تميز به من بلاغة خطابية وشخصية قوية ، عُين وزيراً للتجارة في عام ١٣٢٤ هـ / ١٩٠٦م ثم وزيراً للخزانة عام ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م وأحرزت سياسته المالية نجاحًا كبيراً في وضع حل لكثير من مشاكل بلاده المالية . وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى عُين وزيراً للحرب . وفي عام ١٣٣٤هـ / ١٩١٦م عُين رئيساً للوزراء وألف وزارة ائتلافية جديدة سارت ببريطانيا قدماً نحو النصر ، وفي مؤتمر فرساي عام ١٣٣٩هـ / ١٩٢١م منح إيرلندا استقلالاً ذاتيًا فثار عليه المحافظين وأسقطوا وزارته ولكنه ظل عضواً في مجلس العموم حتى قبيل وفاته .

– الموسوعة العربية الميسرة ، ج ٢ ، ص ١٥٨٢ .

الأسلحة والذخائر »[١] .

ولتهيئة المُناخ المناسب لثورة الحسين على الدولة العثمانية عملت بريطانيا على تغذية التيار القومي التركي المتعصب وعلى تعميق هوة الخلاف الذي طرأ على العلاقات بين العرب والترك نتيجة لسياسة التتريك التي انتهجها الاتحاديون ، وما صاحبها من ممارسات جائرة في حق الشعوب العربية[٢] .

ولالتقاء المصالح البريطانية بالمصالح اليهودية فقد كان لليهود دور كبير في تكريس سياسة الاتحاديين القومية وقد أكد ذلك لوثر Lowther السفير البريطاني في استانبول في الرسالة المطولة التي بعث بها إلى خارجية بلاده في عام ١٣٢٨هـ / ١٩١٠م حيث جاء فيها قوله : « ... لقد قدم اليهود الأموال إلى الأتراك الشبان وبهذا أحكموا سيطرتهم عليهم ولكن حتى يحافظ اليهود على هذه السيطرة لا بد لهم أن يتظاهروا بأنهم يوافقون على تحقيق الأتراك الشبان لأحلامهم القومية » [٣].

وقد سبقت الإشارة إلى إسهامات اليهود الفاعلة في الحركة الأدبية التي أرست قواعد الحركة القومية التركية وساندتها والتي كان من أبرز روادها اليهودي المجري أرمينوس فامبري A. Vambery واليهودي الإنجليزي دافيد لوملي David Lomly واليهودي الفرنسي ليون كوهين Leon Cohein [٤].

وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى كثف اليهود جهودهم في هذا المجال

---

(١) زين نور الدين زين : الصراع الدولي في الشرق الأوسط ... ، ص ٦١ . نقلاً عن لويد جورج : ذكريات الحرب ، ص ١٨١٠ .

(٢) قيس العزاوي : المرجع السابق ، ص ١٤٧ .

- صابر طعيمة : التاريخ اليهودي العام ، ج ٢ ، ص ٢٢٨ .

(٣) F.O.800/193.A .

(٤) سبق أن تناولنا بالتفصيل دور هؤلاء اليهود وغيرهم من اليهود في إثارة المشاعر القومية عند الأتراك في المبحث الثاني من الفصل الثالث من هذا البحث .

وذلك لأن مصالحهم ومصالح حليفتهم بريطانيا كانت تقتضي تمزيق الروابط التي توحد الشعوب العثمانية ، ففي عام ١٣٣٢هـ / ١٩١٤م على وجه التحديد أصدر اليهودي الدونمة موئيز كوهين Moeiz Kohein كتابين الأول تحت عنوان (ماذا يمكن أن يكسب الأتراك من هذه الحرب) وفيه يوحي للشباب التركي بضرورة اعتناق فكرة العنصرية التركية وإيجاد اتحاد تركي يكون بديلاً عن الوحدة الإسلامية وفي هذا الصدد يقول موئيز كوهين في كتابه هذا : « ... من الألزم أن يتحد جميع الأتراك في سبيل سمو الجنس التركي ... إن الحرب الحالية - العالمية الأولى - ستنتهي لا محالة بهزيمة روسيا وبالتالي فإن الأتراك سيطورون وبصورة غير عادية اتحاد أتراك العالم »[1] كما يُرجع موئيز كوهين - في هذا الكتاب - سبب هزيمة الدولة العثمانية في حروب البلقان إلى فقدان الشعور القومي ، أما الكتاب الثاني فكان عنوانه (الطورانية) وفيه يُعرف هذا اليهودي مفهوم القومية التركية الطورانية وأهدافها كما يحاول إثارة الروح القومية عند الأتراك بأسلوب عاطفي ويدعو إلى تحرير الأراضي الطورانية من سيطرة الروس والصينيين[2] .

وقد كان لهذين الكتابين وأمثالهما تأثير واضح على مجريات الأحداث السياسية ومن ذلك أن أنور باشا أهاجته فكرة تحرير طوران فترك ميادين القتال الرئيسة أثناء الحرب العالمية ووجه -وهو وزير الحربية العثمانية آنذاك- الجيوش لتحرير منطقة طوران ، فكانت النتيجة موت ثمانين ألف جندي من خيرة القوات العثمانية بفعل العوامل الطبيعية في شتاء روسيا[3] .

---

(١) أحمد نوري النعيمي : اليهود والدولة العثمانية ، ص ص ١٦٦ - ١٦٧ .

(٢) محمد حرب : المرجع السابق ، ص ١٢٣ .

(٣) المرجع نفسه : ص ١٢٤ .

- ساطع الحصري : المرجع السابق ، ص ١١٤ .

ومن جانب آخر فقد كان لهذه الكتابات اليهودية أثر واضح في زيادة حدة السياسة القومية التي اتبعها الاتحاديون وما صاحبها من أساليب استفزازية لتتريك بقية الشعوب العثمانية[١] ولا سيما مع العرب[٢] . مما كان له أبلغ الأثر في تقبل بعض العرب لفكرة الاستقلال عن الدولة العثمانية كرد فعل لتلك السياسة القومية المتطرفة التي تحدتهم في أعز ما لديهم (الدين والكرامة واللغة)[٣] .

لذا فقد وجدت دعوةالشريف حسين للاستقلال عن الدولة العثمانية تجاوبًا في بعض البلاد العربية – بلاد الشام –[٤] .

وهكذا تمكن اليهود وحليفتهم بريطانيا من تجزئة الولاء في العالم الإسلامي بين زعامتين إسلاميتين ومن تمزيق الوحدة الإسلامية واخزائها ومن قلب حركة الجهاد رأسًا على عقب فبدلاً من توجيهها نحو بريطانيا وحلفائها الطامعين في البلاد الإسلامية وجهت بمكر لتطعن دولة الخلافة في مقتل وذلك باندلاع ما عرف بالثورة العربية الكبرى التي قادها الشريف حسين ضد الدوله العثمانية عام ١٣٣٤هـ / ١٩١٦م [٥] والتي تولى تنفيذ معظم أدوارها كلٌ من ابنه فيصل وعضو المخابرات البريطانية لورانس Laurence الذي صرح بعمالته للصهيونية في قوله : « إني أؤيد الصهيونية إني أعتبر اليهود النقلة الطبيعيين للخميرة الغربية الضرورية جدًا لدول الشرق الأدنى » [٦].

---

(١) قيس جواد العزاوي : المرجع السابق ، ص ١٤٢ .

(٢) سبق أن وضحنا أسباب تركيز القوميين الأتراك على العنصر العربي ، انظر صفحة (٢٤١) .

(٣) زين نور الدين زين : نشوء القومية العربية ، ص ٨٧ .

(٤) جورج انطونيوس : المرجع السابق ، ص ص ٢٢٦ – ٢٣٣ . سبقت الإشارة إلى أن العرب في بلاد الشام قد عانوا كثيرًا من السياسة الجائرة التي انتهجها جمال باشا الذي عين قائدًا عامًا للجيش الرابع في سوريا إبان الحرب العالمية الأولى .

(٥) محمود صالح منسي : المرجع السابق ، ص ٢٦٦ .

(٦) أحمد نوري النعيمي : اليهود والدولة العثمانية ، ص ٢٥١ .

وقد كان تأثير ما عرف بالثورة العربية واضحًا على ميزان القوى المتصارعة حيث رجحت كفة بريطانيا وحلفائها[١] ، فإضافة إلى الأثر المعنوي الذي تركه انضمام الشريف حسين إلى جانب الحلفاء على موقف الدولة العثمانية ، حيث أضعف ذلك مركز الخليفة وحطم وحدة الدولة ، فقد كان لذلك أيضًا أبلغ الأثر على موقفها العسكري فقد تمزقت قواتها بين الجبهات الداخلية والخارجية مما سهل على الحلفاء هزيمتها[٢] .

ولم تمض عدة أشهر على إعلان الثورة العربية التي قام بها الشريف حسين بناءً على الوعد الذي قطعته له بريطانيا حتى أثبتت بريطانيا مدى ما تتسم به سياستها من الغدر والخيانة والنفاق وذلك حين راحت تقطع على نفسها وعدًا آخر لليهود يتعارض تعارضًا جذريًا صريحًا مع وعدها للحسين[٣] ، وذلك حين جادت ظروف الحرب على اليهود بفرصة تمكنوا من انتهازها لتحقيق خطوة عملية لصالح مشروعهم الصهيوني في فلسطين[٤] ، حيث ظهر في عام ١٣٣٤هـ / ١٩١٦م أن كفة الحرب قد مالت لصالح دول المحور وذلك حين تمكن الأسطول الألماني من تحقيق انتصارات كبيرة على الأسطول البريطاني وهزمت الجيوش الإيطالية في إحدى المعارك الهامة فكان لذلك آثار سلبية على معنويات جيوش الحلفاء[٥] .

---

(١) محمد عبد الرحمن برج : المرجع السابق ، ص ص ١٦٥ – ١٦٦ .

(٢) هارولد تمبرلي وَ أ . ج . جرانت : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٧٥ .

– محمود صالح منسي : المرجع السابق ، ص ٣٤٧ ، ٣٦١ .

(٣) خيرية قاسمية : المرجع السابق ، ص ٤١ .

(٤) محمود حسن منسي : تصريح بلفور (القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م) ص ٩٨.

(٥) المرجع نفسه : ص ٩٩ .

– هارولد تمبرلي و أ . ج . جرانت : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ص ٢٠٨ – ٢١٥ .

وفي ذلك الوقت العصيب ساد اعتقاد بين الحلفاء بأن دخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب إلى جانبهم سيكون لـه أثر فاعل في توجيه دفة الحرب لصالحهم[١] ، فسارع زعماء الصهيونية – الذين كانوا يترقبون مثل هذه الفرص – بتقديم عرض إلى الحكومة البريطانية مفاده أنه إذا قطع الحلفاء على أنفسهم وعداً بتسهيل إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين فإنهم سيبذلون قصارى جهدهم لإيقاظ عاطفة اليهود في كافة أنحاء العالم وحشد طاقاتهم لمساندة الحلفاء[٢] .

ولأن الحكومة البريطانية كانت تدرك مدى النفوذ الذي يتمتع به زعماء الصهيونية في أوساط أثرياء اليهود في الولايات المتحدة الأمريكية والذين بمقدورهم الضغط على الحكومة الأمريكية لدخول الحرب إلى جانب الحلفاء وليس هذا فحسب بل ومدهم بالقروض التي يحتاجونها لتمويل مشروعاتهم الحربية[٣] .

لذا فقد وجدا هذا العرض الصهيوني استجابة لدى الحكومة البريطانية ، ويؤكد هذا الموقف لويد جورج Lioyd George رئيس الوزراء البريطاني في قوله : « ... تفكك الجيش الروسي[٤] وعجز الجيش الفرنسي عن القيام بهجوم

---

(١) وليام غاي كار : الدنيا لعبة إسرائيل ، ص ١٨١ .

– بيير رنوفان : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٩٤ .

(٢) حسن صبري الخولي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٩١ .

(٣) عبدالله التل : الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام ، ص ٣١ .

– محمد كمال الدسوقي : السياسة الدولية وفلسطين ، ص ص ١٩٨ – ١٩٩ .

(٤) في عام ١٣٣٥ هـ / ١٩١٧م قامت في روسيا الثورة الشيوعية بزعامة لينين الذي تمكن من إسقاط النظام القيصري وقد كان لهذه الأحداث الداخلية تأثير كبير على موقف الجيوش الروسية في الحرب.

– بيير رنوفان : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٧٨ .

واسع النطاق واندحر الإيطاليون في معركة كابورتو وأغرقت الغواصات الألمانية ألوف الأطنان من حمولة السفن البريطانية ولم تكن الولايات المتحدة قد أرسلت حتى ذلك الوقت فرقة واحدة إلى جبهات القتال ... وأنه في ضوء هذه الظروف رأت الحكومة البريطانية أن موقف اليهود قادر على ترجيح إحدى كفتي الميزان ، وأن التحالف معهم يكسب الوفاق مساعدة يهود أمريكا »(١) .

وقد كانت الحكومة البريطانية حريصة على إتمام هذه الصفقة السياسية في أسرع وقت ممكن لذلك فقد بعثت وزير خارجيتها آرثر جيمس بلفور Arthur James Balfour إلى الولايات المتحدة الأمريكية ليتصل بكبار الشخصيات اليهودية وممثلي المصارف اليهودية هناك ويؤكد لهم بأن الحكومة البريطانية ستتبنى رسمياً مشروعهم الصهيوني مقابل تعهدهم بإدخال الولايات المتحدة الحرب إلى جانب الحلفاء(٢) .

وعند ذلك لم يجد اليهود مشقة في إدخال الولايات المتحدة الحرب فالرئيس الأمريكي ولسن Wilson (٣) الذي كان يتشدق بالحياد والحرص على تجنيب الشعب الأمريكي ويلات الحرب لم يكن بإمكانه أن يقاوم ضغوطهم سيما وهو محاط بعدد كبير من المستشارين اليهود الذين كانوا يوجهون

---

(١) محمود حسن منسي : المرجع السابق ، ص ٩٩ .

(٢) رفعت سيد أحمد : المرجع السابق ، ص ٧٧ .

- وليام غاي كار : أحجار على رقعة الشطرنج ، ص ١٩٠ .

(٣) توماس وودرو ولسن : الرئيس السابع والعشرين للولايات المتحدة الأمريكية ، درس القانون والعلوم السياسية ، وفاز برياسة الجمهورية في عام ١٣٣١هـ / ١٩١٣م ، كان يدعي عداءه لكل ألوان الاستعمار ولكن أعماله كانت تخالف أقواله ، كان له دور كبير في إنشاء عصبة الأمم ، أصيب بالشلل فاضطر إلى اعتزال الحياة السياسية في عام ١٣٣٩ هـ / ١٩٢١م .

- فؤاد الرفاعي : حقيقة اليهود ، ص ٦٩ .

سياسة الدولة لصالح أهداف اليهودية العالمية ومن هؤلاء المستشارين :

- برنارد باروخ Bernard Baroakh مستشار الرئيس للشؤون الاقتصادية .
- هنري مورجانتو Henry Morganto مستشار الرئيس للشؤون المالية .
- كولونيل ماندل Colonel Mandel مستشار الرئيس في الشؤون السياسية.
- ولتر لبمان Walter Lobman مستشار الرئيس في القانون الدولي .
- فليكس فرانكفورت Felix Frankfurter كبير المستشارين السياسيين(١) .

لذا ففي جماد الثاني عام ١٣٣٥هـ / الموافق إبريل عام ١٩١٧م هبطت الجيوش الأمريكية ميادين القتال لمساندة جيوش الحلفاء(٢) .

وقد بلغ من حرص الحكومة البريطانية على كسب رضا أقطاب الصهيونية أنها تركت لهم الحرية في وضع صيغة ذلك الوعد الذي طالبوا به فقد اعترف الزعيم الصهيوني وايزمان Weizmann في مذكراته أنه هو الذي كتب بيده نص ذلك الوعد الذي أعلنه بلفور Balfour وزير الخارجية البريطاني في عام ١٣٣٥ هـ / ١٩١٧م (٣) ، والذي عُرف فيما بعد بـ (وعد بلفور)(٤) وليس ذلك بالأمر الغريب فقد كانت تربط وايزمان علاقات وثيقة بكلٍ من لويد جورج Lioyd George رئيس الوزراء البريطاني وبلفور وزير الخارجية وقد توطدت هذه العلاقات على أثر توصل الدكتور حاييم وايزمان

---

(١) رفيق النتشة : الاستعمار وفلسطين ، ص ٢٠٢ .

- عبدالله التل : الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام ، ص ٣٢ .

(٢) بيير رنوفان : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٧٨ .

(٣) محمود حسن منسي : المرجع السابق ، ص ٨٨ .

- أحمد شلبي : المرجع السابق ، ص ١١٠ . نقلاً عن مذكرات وايزمان ، ص ٢٧ .

(٤) انظر نص وعد بلفور في الملحق رقم (٧) .

الذي كان أستاذًا في الكيمياء في جامعة مانشستر[١] إلى اختراع وسيلة رخيصة لإنتاج مادة الأسيتون في تصنيع المتفجرات فاستخدمتها القوات البريطانية في الحرب وجاءت بنتائج فاعلة فأصدرت الحكومة البريطانية أمرًا بتعيينه مستشارًا فنيًا في القوات العسكرية مما سهل اتصاله بكبار المسئولين في الحكومة البريطانية[٢] .

ويذهب بعض الباحثين إلى أن ذلك الإنجاز العلمي الذي توصل إليه وايزمن هو الباعث الحقيقي لإصدار الحكومة البريطانية لوعد بلفور وذلك تقديرًا منها لتلك الخدمة العظيمة التي قدمها لها الزعيم الصهيوني وايزمان في حين يذهب آخرون إلى القول بأن وايزمان كان قد ساوم الحكومة الإنجليزية على إصدار وعد رسمي تعلن فيه عن تبنيها للمشروع الصهيوني مقابل خدماته العلمية[٣] .

ولكننا نرى أن الرأي الأكثر موضوعية هو ما ذهب إليه فريق ثالث من الباحثين وهو أن هذا التعليل بجملته لا ينهض ليكون السبب الحقيقي لإصدار وعد بلفور وكذلك الأمر بالنسبة للرأي القائل بأن إصدار الوعد كان مكافأة لليهود لدورهم الفاعل في إدخال الولايات المتحدة الأمريكية الحرب إلى جانب الحلفاء وأن الباعث الحقيقي لإصدار هذا الوعد هو المصالح الاستعمارية البريطانية وأن بريطانيا بإصدارها لوعد بلفور لا تعدو كونها قد خطت خطوة عملية في سبيل تنفيذ مشروع كامبل بانرمان الاستعماري الذي كان قد خطط لـه قبل إصدار وعد بلفور بعشر سنوات عام ١٣٢٥هـ / ١٩٠٧م وأن

---

(١) محمد كرد علي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٠٨ .
- خيرية قاسمية : المرجع السابق ، ص ٤٠ .
- محمود حسن منسي : المرجع السابق ، ص ص ٥٤ - ٥٥ .

(٢) حسن صبري الخولي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٠٦ .

(٣) سعد الدين السيد صالح : المرجع السابق ، ص ١٠٦ .
- محمد سيد طنطاوي : المرجع السابق ، ص ٧٣١ .

ظروف الحرب كانت السبب في إصدار بريطانيا لوعد بلفور في ذلك الوقت بالذات في حين كانت المصالح الاستعمارية البريطانية تقتضي ضرورة إصداره في وقت ما [١].

أما بخصوص كتابة الزعيم الصهيوني حاييم وايزمان لصيغة وعد بلفور فنرى أنه لا يتناقض مع الرأي الذي ذهبنا إليه فقد رأت الحكومة البريطانية أن ترضي الزعيم الصهيوني التي هي في حاجة لخدماته العلمية بهذا الأمر الذي لم يجبرها على الخروج عن نطاق مخططاتها السياسية .

وينطبق ذلك أيضًا على كون وعد بلفور قد وجه إلى المليونير اليهودي والتر روتشلد Walter Rothschild عميد الفرع الإنجليزي لأسرة روتشلد اليهودية ذات النفوذ الاقتصادي والسياسي الكبير[٢] .

كما تجدر الإشارة إلى نقطة أغفلها كثير من الباحثين في هذا الموضوع وهي أن الدوائر الصهيونية حين سعت إلى إدخال الولايات المتحدة الأمريكية الحرب إلى جانب الحلفاء كانت ترمي عصفورين بحجر واحد ، ففي الوقت الذي كانت تتقرب بعملها ذلك إلى بريطانيا كانت تعمل بذلك أيضًا على هزيمة الدولة العثمانية سيما وهي تدرك أنه لن يتسنى لها ولا لغيرها تنفيذ المشروع الصهيوني إلا إذا تمت هزيمة الدولة العثمانية في تلك الحرب .

هذا ولم يكن إدخال الولايات المتحدة الحرب هو الوسيلة الوحيدة التي لجأ

---

(١) جورج انطونيوس : المصدر السابق ، ص ص ٣٦٧ - ٣٦٨ .

- خيرية قاسمية : المرجع السابق ، ص ص ٤١ - ٤٢ .
- محمود حسن منسي : المرجع السابق ، ص ص ٩٩ - ١٠٠ .

(٢) سبقت الإشارة إلى انه لولا الدعم المالي الذي قدمه هذا اليهودي للحكومة البريطانية لما تمكنت من شراء أسهم مصر في قناة السويس . انظر المبحث الأول من الفصل الثاني ص (١٢٧).

إليها اليهود لإضعاف موقف الدولة العثمانية في تلك الحرب وتأمين هزيمتها فقد كان التجسس من أهم الوسائل التي اعتمدوا عليها لتحقيق هذه الغاية ومن ذلك أنهم أسسوا في فلسطين تشكيلات سرية كانت تُشعر القوات البريطانية بكل تحركات الوحدات العثمانية[1] . ولم يقتصر الأمر على ذلك بل أن بعض اليهود الذين كانوا يعيشون في فلسطين انضموا إلى صفوف الحلفاء في حملاتهم التي توجهت إلى فلسطين وقاموا بتزويدهم بالمعلومات اللازمة عن البلاد ومواقع القوات العثمانية[2] .

أما عن دور يهود الدونمة في هذا المجال فلعل خير ما نستشهد به على ذلك هو ما ذكره أحد الذين خاضوا غمار تلك الحرب وهو القائد التركي جواد آتلخان - رئيس الشعبة الثانية من الجيش العثماني في الشام إبان الحرب العالمية الأولى - في عرض حديثه عن دور الجاسوسية اليهودية في هزيمة الجيوش العثمانية في فلسطين حيث يقول : « ... كان الصهيونيون الأفاقون الدنسون الذين يعيشون في أحضان الجيش التركي يمدون الأعداء يوميًا بتقارير وخرائط عن الآليات والطوابير والكتائب وعن الحراسة المزدوجة وعن بطاريات رصد حركات العدو وعن مراكز المدفعية حتى أصبح الجندي التركي المسلم بين نارين : نار العدو المتفوق عليه عددًا وعُدة وعتادًا ونار جماعات الخونة الذين كانوا يندسون بين صفوف الجيش التركي ويعملون على خيانته »[3] .

كما ذكر آتلخان بأنه قد تمكن - بصفته قائد لتلك الجيوش - من الإيقاع بعدد من أولئك الجواسيس وأحالهم إلى القضاء وقد ثبت من خلال استجوابهم

---

(١) يلماز اوزتونا : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ص ٢٣٧ - ٢٣٨ .

(٢) محمود حسن منسي : المرجع السابق ، ص ٨٢ .

(٣) جواد آتلخان : الإسلام وبنو إسرائيل ، ص ٢٢١ .

أن معظمهم كانوا أعضاء في جمعية بني بريث الماسونية[١] .

ولم يكن ميدان عمل الجاسوسية اليهودية هو الجيوش العثمانية فقط بل امتد ليشمل جميع قوات دول المحور لأن مصير الدولة العثمانية مرتبط بمصيرها ، ومثالاً على ذلك فقد عزيت هزيمة ألمانيا أمام الأسطول البريطاني في معركة (جاتلاند) البحرية[٢] ، إلى دسائس اليهود وألاعيبهم إذ في الوقت الذي كانت المعركة تسير لصالح ألمانيا انسحب قائد القوات البحرية الألمانية من الموقع إلى قواعده انسحاباً مريبًا أدى إلى انتهاء المعركة لصالح بريطانيا[٣] ، وقد ثبت للقيادة الألمانية فيما بعد أن أعضاء من خلايا (روزا لوكسمبورغ) التي يسيطر عليها اليهود كانوا قد تمكنوا من التغلغل في الأسطول البحري الألماني ونشروا شائعات مفادها أن العلماء البريطانيين استطاعوا تحضير سلاح كيميائي جديد يمكن من حرق السفن المعادية وإحاطتها باللهب وانطلاق غازات سامة تؤدي إلى اختناق وهلاك كل من عليها وأكدوا أن الوسيلة الوحيدة للخلاص هي الانسحاب وإعلان العصيان[٤] .

هذا وقد كان اليهود حريصين على عدم خروج الدولة العثمانية من الحرب قبل أن تهزم نهائيًا وقد اعترف الزعيم الصهيوني وايزمان Weizmann بأنه هو الذي أفشل محاولة الرئيس الأمريكي ولسن Wilson لإخراج الدولة العثمانية من الحرب[٥] . وخلاصة ذلك الحدث أن الحكومة

---

(١) جواد آتلخان : أسرار الماسونية ، ص ١٢ .

(٢) هارولد تمبرلي وَ أ . ج . جرانت : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٠٩ .

(٣) محمد خليفة التونسي : المرجع السابق ، ص ٣٦ .

(٤) وليام غاي كار : أحجار على رقعة الشطرنج ، ص ٢١٢ .

(٥) فؤاد الرفاعي : حقيقة اليهود ، ص ٧٠ . نقلاً عن حاييم وايزمان : التجربة والخطأ .

الأمريكية منذ إعلانها عن دخول الحرب كانت حريصة على أن يكون لها دور فاعل في تسويات ما بعد الحرب وإلغاء التسويات السرية ، التي أبرمها الحلفاء قبل انضمامها إليهم[١] ، ومن هذا المنطلق رأت أنه لو تم عقد صلح منفرد مع الدولة العثمانية وخرجت من الحرب فإن ذلك سيحول دون تنفيذ خطط الحلفاء الأوائل لاقتسام أملاكها[٢] .

كما كشفت الوثائق السرية للحرب العالمية الأولى أن الاتحادي اليهودي جمال باشا كان قد أجرى اتصالات مع بعض دول الحلفاء وعرض عليهم تدبيره أمر خروج الدولة العثمانية من الحرب شريطة أن يسمح له بإنشاء دولة مستقلة تتألف من الولايات العربية الواقعة تحت الحكم العثماني وان يتولى هو – ومن بعده ابناؤه وأحفاده – الحكم فيها[٣] .

لذا فقد قام الرئيس الأمريكي بتكليف مستشاره اليهودي هنري مورجانتو Henry Morganto بعرض الصلح على المسئولين في الحكومة العثمانية لأنه كان سفيراً سابقًا للولايات المتحدة في استانبول وله علاقات شخصية بكثير منهم ، وتم الاتفاق على أن يكون التفاوض في سويسرة لأنها دولة محايدة[٤] ، وعندما علم اليهود بذلك المشروع جن جنونهم لأن في ذلك إضاعة

---

(١) المقصود بذلك هي اتفاقية سايكس بيكو عام ١٣٣٤هـ / ١٩١٦م حيث كان ابرامها قبل دخول الولايات المتحدة الحرب فلم يكن لها نصيب فيها .

(٢) محمود حسن منسي : المرجع السابق ، ص ٧٩ .

(٣) زين نور الدين زين : نشوء القومية العربية ، ص ٢٢٢ نقلاً عن :

Polonsky . J . Documents Diplomatiques 1914 - 1917 .
(Paris , 1928) Section IV , pp. 249 - 331 and particulary document No. 1999 of December 30 .

(٤) عبدالله التل : الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام ، ص ٣٣ .

لكل جهودهم السابقة ونسفاً لآمالهم في الاستيلاء على فلسطين(١) .

كما أثار ذلك الخبر ثائرة الإنجليز لأنه سوف يضيع عليهم فرصة اقتسام أملاك الدولة العثمانية بعد هزيمتها ، وبذلك اتفقت مصالح اليهود والإنجليز على ضرورة إحباط ذلك المشروع ، فسارعت الحكومة البريطانية إلى إيفاد الزعيم الصهيوني وايزمان لمقابلة مورجانتو قبل وصوله إلى سويسرة وقد تمكن وايزمان من اللحاق بالمستشار اليهودي الأمريكي في جبل طارق وأقنعه بضرورة تخليه عن مهمته والسفر إلى البرتغال بدلاً من سويسرة حيث ظل هناك حتى انتهت الحرب(٢) .

وهكذا نجح اليهود وحليفتهم بريطانيا في الإبقاء على الدولة العثمانية داخل دائرة الحرب لتتم هزيمتها ويتمكنوا من تنفيذ مخططاتهم .

وقد تحققت مآربهم بالفعل ففي ١٧ صفر عام ١٣٣٦هـ / ٢ ديسمبر ١٩١٧م تمكنت القوات البريطانية بقيادة الجنرال (اللنبي Allenby) من شن هجومٍ على جنوب فلسطين تعاقب على أثره سقوط المدن الفلسطينية في

---

(١) تذكر بعض المصادر سبباً آخر لاعتراض اليهود على هذا المشروع وهو أنهم كانوا يملكون معظم مصانع الأسلحة والمعدات الحربية في أوروبا والولايات المتحدة الامريكية وان قيام الحرب عاد عليهم بأرباح خيالية من تجارة الأسلحة لذا فقد كانوا حريصين على إطالة زمن الحرب واستمرار جميع أطرافها .

- هنري فورد : المرجع السابق ، ص ١٥٠ .
- وليام غاي كار : الدنيا لعبة إسرائيل ، ص ١٧٣ .
- جواد رفعت آتلخان : الإسلام وبنو إسرائيل ، ص ٣٢٩ .

(٢) رفيق النتشة : الاستعمار وفلسطين ، ص ٢٠٢ .

- محمود حسن منسي : المرجع السابق ، ص ص ٨٠ – ٨١ .

أيديهم ، وفي ٢٤ صفر ١٣٣٦هـ / ٩ ديسمبر ١٩١٧م تمكنوا من احتلال القدس[١] ، وعندما ترجل القائد اللنبي Allenby ماشيًا على أرضها لم يتمكن من إخفاء مكنونات روحه الصليبية فراح لسانه ينفث سموم حقده على الإسلام والمسلمين في مقولته التاريخية : « اليوم انتهت الحروب الصليبية »[٢] .

كما تمكنت القوات البريطانية في ذلك العام من إتمام احتلالها للعراق[٣]، بعد مقاومة طويلة[٤] .

وخلال عام ١٣٣٦هـ / ١٩١٨م تمكنوا من احتلال الأجزاء المتبقية من بلاد الشام – سوريا ولبنان والأردن[٥] – وقد كان لما عُرف بالثورة العربية التي قادها الشريف حسين وابنه فيصل بمعية العميل الصهيوني لورانس Laurence دور كبير في الانتصارات التي حققتها بريطانيا وحلفاؤها في البلاد العربية[٦] .

---

(١) زين نور الدين زين : الصراع الدولي في الشرق الأوسط ... ، ص ٧٦ .

(٢) صالح مسعود أبو يصير : المرجع السابق ، ص ٦٥ .

(٣) محمود صالح منسي : المرجع السابق ، ص ٤٤٣ .

(٤) كانت بريطانيا قد تمكنت من احتلال البصرة في بداية الحرب عام ١٣٣٢هـ / ١٩١٤م .

– جورج انطونيوس : المرجع السابق ، ص ٢٤٧ .

(٥) محمد كرد علي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ص ١٥٢ – ١٥٦ .

– زين نور الدين زين : الصراع الدولي في الشرق الأوسط ... ، ص ٧٦ .

(٦) جورج انطونيوس : المرجع السابق ، ص ص ٣٣١ – ٣٤١ .

– محمد كمال الدسوقي : المرجع السابق ، ص ص ٤٠٠ – ٤٠١ .

وهكذا تم للحلفاء احتلال منطقة الشرق الأدنى[١] ، وانتهى بذلك عهد الحكم العثماني في البلاد العربية الذي استمر لمدة أربعة قرون وبدأت مرحلة جديدة في تاريخ تلك المنطقة فرضتها عليها تسويات ما بعد الحرب .

وإزاء الهزائم التي منيت بها الدولة العثمانية في ميادين عديدة استقال وزراء جماعة الاتحاد والترقي لفشل سياستهم الحربية الداخلية والخارجية وفر كبارهم - طلعت وأنور وجمال - إلى خارج البلاد[٢] ، خوفًا من نقمة أبناء البلاد على اعتبار أنهم المسؤولون عن إقحام الدولة في الحرب وعما أصابها من انهيار من جراء ذلك[٣] .

وفي تلك الظروف العصيبة أراد السلطان محمد وحيد الدين السادس (١٣٣٦ - ١٣٤٠هـ / ١٩١٨ - ١٩٢٢م) الذي كان قد اعتلى عرش البلاد في أعقاب وفاة السلطان محمد رشاد الخامس في ٢٤ رمضان ١٣٣٦ هـ / ٣ يوليو عام ١٩١٨م [٤]- إنقاذ ما يمكن إنقاذه فوقع اختياره على الجنرال أحمد عزت باشا الأرناؤطي وعينه صدراً أعظم وطلب منه الاتصال بالمسئولين في الحكومة البريطانية لعقد هدنة معهم ومع حلفائهم[٥] ، وكانت بلغاريا والنمسا قد سبقت الدولة العثمانية في اتخاذ مثل هذا الإجراء[٦] .

---

(١) سبقت الإشارة في مواضع متفرقة من هذا البحث إلى أن دول شمال افريقيا قد وقعت تحت سيطرة النفوذ الأجنبي قبل الحرب العالمية الأولى .

(٢) لوثروب ستودارد : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣٦٥ .

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٧٢٣ .

(٤) كان السلطان محمد رشاد الخامس قد توفي على أثر إصابته بانفلونزا حادة لم تمهله سوى عدة أيام فكانت وفاته شبه الفجائية قد زادت من تأزم الموقف .

- عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج ١ ، ص ٢٤٢ .

(٥) المرجع نفسه : ج ١ ، ص ٢٤٣ .

(٦) هارولد تمبرلي وَ أ . ج . جرانت : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

وقام أحمد عزت باشا بتشكيل لجنة يرأسها وزير البحرية لعقد الهدنة مع الحلفاء ودارت مفاوضات تلك الهدنة على ظهر سفينة بريطانية كانت ترسو في ميناء مدروس Mudros في جزيرة لمنوس Lemnos في بحر إيجه[١] ، واستغرق إجراؤها أسبوعاً أملت خلاله بريطانيا شروطها وشروط حلفائها على الدولة العثمانية ثم وقعت عليها نيابة عن جميع دول الحلفاء في ٢٥ محرم عام ١٣٣٧هـ / ٣٠ اكتوبر عام ١٩١٨م وفي اليوم التالي لتوقيعها توقفت العمليات الحربية بين الطرفين[٢] .

وهكذا بقيت ألمانيا تحارب الحلفاء وحيدة رغم الخسائر التي حلت بقواتها ولكنها لم تستطع الصمود طويلاً فطلبت الهدنة في ٧ صفر ١٣٣٧هـ / ١١ نوفمبر عام ١٩١٨م وبذلك انقطع قصف المدافع وانتهت الحرب العالمية الأولى لصالح الحلفاء[٣] .

هذا ويلاحظ من خلال الاطلاع على شروط هدنة (مدروس Mudros) أن الحلفاء قد حققوا من خلال هذه الهدنة ما لم يتمكنوا من تحقيقه أثناء الحرب ، إذ تقرر فيها فتح الدردنيل والبسفور وتأمين الدخول إلى البحر الأسود والخروج منه واحتلال الحلفاء للمواقع ذات الأهمية الاستراتيجية في منطقة المضايق ، كما تقرر فيها فتح جميع الموانيء التابعة للدولة العثمانية أمام السفن التابعة للحلفاء وتسليم جميع الحاميات المرابطة في الحجاز وعسير واليمن وسوريا والعراق إلى أقرب قائد عسكري من قوات الحلفاء وتسليم جميع أسرى الحرب التابعين للحلفاء في حين يبقى الأسرى العثمانيون تحت تصرف الحلفاء[٤] .

---

(١) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج ١ ، ص ٢٤٣ .

(٢) حسن صبري الخولي ، ج ١ ، ص ٢٨٩ .

(٣) مذكرات لورد غراي : ص ١٥٤ .

(٤) حسن صبري الخولي : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٢٨٩ - ٢٩٠ .

ولم تمض عدة أيام على إبرام هذه الهدنة إلا وكانت أساطيل الحلفاء الحربية تجتاز مضيق الدردنيل لترسو في ميناء استانبول ، كما أنشأ في إستانبول إدارة عسكرية دولية مكونة من بريطانيا وحليفاتها فرضت رقابتها على قوات الشرطة وقوات الأمن الداخلي العثماني كما خضعت لتلك الرقابة أيضًا معظم المرافق العامة ، ثم ما لبثت هذه القوات أن ساندت القوات اليونانية على احتلال ازمير وذلك في شعبان ١٣٣٧هـ / مايو ١٩١٩م[١] .

وهكذا نرى أن هدنة مدروس Mudros وما ترتب عليها من أحداث كانت قد انتهكت سيادة الدولة العثمانية على منطقة المضايق وانتقصت من استقلالها .

والواقع أن الشروط المذلة التي أملاها الحلفاء على الدولة العثمانية في هدنة مدروس Mudros لم تكن إلا تمهيداً لشروط أكثر إذلالاً أملوها عليها في معاهدة الصلح (معاهدة سيفر Sevres)[٢] التي أقرها المجلس الأعلى للحلفاء الذي انعقد في سان ريمو San Remo [٣] - بحضور زعماء الصهيونية[٤] - في الفترة من ١ - ٧ شعبان ١٣٣٨هـ / ١٩ -٢٥ إبريل ١٩٢٠م ، ووقع عليها الوفد التركي الذي كان يمثل السلطان محمد وحيد الدين مكرهًا في ٢٦ من ذي القعدة عام ١٣٣٨هـ / ١٠ أغسطس ١٩٢٠م فقد كانت

---

(١) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج ١ ، ص ٢٤٤ .

- محمود شاكر : المرجع السابق ، ص ٢٢٧ .

(٢) سميت هذه المعاهدة بمعاهدة سيفر نسبة إلى مدينة سيفر الفرنسية التي تقع على نهر السين لأن الوفد العثماني الذي كان يمثل السلطان محمد وحيد الدين السادس وقع عليها في هذه المدينة .

- إسماعيل ياغي : الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث ، ص ٢٢٦ .

(٣) سان ريمو : بلدة إيطالية تقع على ساحل الريفيرا .

(٤) كان عدد من أقطاب الصهيونية قد حضروا هذا الاجتماع مثل حاييم وايزمان وهربرت صموئيل .

- محمد صالح منسي : المرجع السابق ، ص ٤٧٤ .

تلك المعاهدة بمثابة تصفية للدولة العثمانية ، إذ تقرر فيها أمور كثيرة من أهمها جعل أرمينيا دولة مستقلة ومنح كردستان الحكم الذاتي وفتح الملاحة في مضيق البسفور والدردنيل لجميع السفن التجارية والحربية بدون تمييز بين جنسياتها[١] .

كما تقرر في سان ريمو San Remo مصير البلاد العربية التي احتلها الحلفاء أثناء الحرب حيث قرر المجلس الأعلى للحلفاء تنفيذ اتفاقية سايكس - بيكو Sykes - Pico التي وقعتها بريطانيا وفرنسا أثناء الحرب في قالب استعماري جديد أُطلق عليه (الانتداب) فوضعت سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي بينما وُضعت العراق والأردن وفلسطين تحت الانتداب البريطاني[٢] .

ومما هو جدير بالذكر أن الصهاينة قد بذلوا جهوداً كبيرة ليضمنوا انتداب بريطانيا - صاحبة وعد بلفور - على فلسطين ، ومن ذلك أن النواب اليهود في الأحزاب البريطانية عقدوا اجتماعاً اتفقوا فيه على ضرورة أن تكون بريطانيا هي الدولة التي تتولى الانتداب على فلسطين ، ثم أبرقوا إلى لويد جورج Lioyd George رئيس الوزراء البريطاني الذي كان موجوداً آنذاك في سان ريمو San Remo وطالبوه بالسعي الجاد لكي تتولى بريطانيا الانتداب على فلسطين[٣] . ولكي يضمن اليهود تحقيق مطالبهم أوفدوا زعيمهم وايزمان Weizmann إلى سان ريمو[٤] .

---

(١) هارولد تمبرلي و أ . ج . جرانت : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ص ٢٦٥ - ٢٦٦ .

- محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص ٤١٧ .

(٢) زين نور الدين زين : الصراع الدولي في الشرق الأوسط ... ، ص ص ١٥٨ - ١٥٩ .

- محمد عبد الرحمن برج : المرجع السابق ، ص ٣١٣ .

(٣) صالح مسعود أبو يصير : المرجع السابق ، ص ص ٨٦ - ٨٧ .

(٤) محمود صالح منسي : المرجع السابق ، ص ٤٧٤ .

وكان الصهاينة يخشون وضع فلسطين تحت الانتداب الفرنسي لأن السياسة الفرنسية تهدف دائمًا إلى إدماج الأقاليم الخاضعة لها في المجتمع الفرنسي ، كما كانوا يتخوفون من وضع فلسطين تحت إدارة دولية خاصة بها لأن مثل هذا الإجراء قد يعيق قيام الوطن القومي اليهودي فيها[١] .

والحق ان بريطانيا لم تكن أقل حرصًا من الصهاينة على أن يكون الانتداب على فلسطين من نصيبها لأن ذلك سيتيح لها تنفيذ مخططها الاستعماري – كامبل بانرمان Campell - Bannerman – في فلسطين [٢]، ومما يثبت هذا التوجه في السياسة البريطانية أنها سعت إلى دمج وعد بلفور في صك الانتداب فقد نص ذلك الصك على أن الانتداب على فلسطين يستلزم تنفيذ وعد بلفور بإنشاء وطن قومي لليهود فيها[٣] .

ولعل من أهم المواقف التي توضح أبعاد التقاء المصالح الاستعمارية البريطانية بالمصالح الصهيونية هو اعتراف الزعيم الصهيوني حاييم وايزمان بأن الخبير القانوني الإنجليزي اليهودي (إريك فوربس آدام Eric Forbes Adam) هو الذي صاغ وثيقة الانتداب البريطاني على فلسطين[٤] . وكذلك اتفاق الرأي بين الزعيم الصهيوني حاييم وايزمان وبين أعضاء الوزارة البريطانية على اختيار اليهودي البريطاني (هربرت صمويل Herbert Samuel) ليكون أول مندوب سامي بريطاني في فلسطين ، وهربرت صمويل هذا هو أحد أقطاب الحركة الصهيونية العالمية وعضو المنظمة الصهيونية ووزير في وزارة الحرب البريطانية ، وكان بمثابة همزة الوصل بين

---

(١) حسن صبري الخولي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤٠٩ .

(٢) بيير رنوفان : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٢٧ .

(٣) جورج انطونيوس : المرجع السابق ، ص ٤١٩ .

(٤) حسن صبري الخولي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤٣٢ . نقلاً عن حاييم وايزمان : التجربة والخطأ ، ص ٣٤٧ .

الصهيونية والحكومة البريطانية[١] .

وقد أثبت هربرت صمويل Herbert Samuel أن اختياره لهذا المنصب كان اختياراً موفقاً إذ تمكن بالسياسة التي انتهجها منذ اليوم الأول الذي باشر فيه مهام عمله في وضع اللبنات الأولى لإقامة الدولة اليهودية في فلسطين وبناء الحاجز البشري المعادي لسكان المنطقة والموالي للاستعمار[٢] .

وهكذا نرى ان اليهود قد قاموا بدور مؤثر وفاعل في توجيه مسار الحرب العالمية الأولى و أن الصهيونية وحلفاءها قد استطاعوا أن يحققوا من خلال تلك الحرب والتسويات التي وُضعت في أعقابها جزءاً كبيراً من مخططاتهم الرامية إلى القضاء على الدولة العثمانية .

---

(١) صالح مسعود أبو يصير : المرجع السابق ، ص ص ٩١ - ٩٣ .

(٢) حسن صبري الخولي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ص ٤١٦ - ٤١٨ .

الفصل الخامس
المرحلة الحاسمة في إسقاط الدولة العثمانية

المبحث الأول : الحركة الكمالية والقوى المحركة لها .

المبحث الثاني : الدونمة مصطفى كمال يعلن إلغاء الخلافة العثمانية وقيام الجمهورية التركية العلمانية .

المبحث الأول
الحركة الكمالية والقوى المحركة لها

كان احتلال الحلفاء لاستانبول دار الخلافة الإسلامية في أعقاب إبرام هدنة مدروس Mudros عام ١٣٣٦هـ / ١٩١٨م وما تبع ذلك من احتلال الجيوش اليونانية لأزمير بموافقة الحلفاء ومساندتهم قد أثار حفيظة الشعوب الإسلامية بشكل عام والشعب التركي بشكل خاص فقد هال هذا الشعب أن تستباح حماه وتتمزق بلاده بهذا الشكل المهين وهو الذي خاض أشد الحروب ضراوة وكون إمبراطورية امتدت في ثلاث قارات ، فقرر ألا يستسلم وهبّ للمقاومة واتخذ من الأناضول المنطقة المنيعة المحصنة بهضابها الوعرة مركزًا لحركته الجهادية فقامت هناك جماعات وطنية أخذت على عاتقها تنظيم صفوف المقاومة الشعبية ، كما تألفت في استانبول نفسها عدة منظمات مقاومة وطنية سرية على الرغم من احتلالها(١) .

وقد رأى السلطان محمد وحيدالدين إمكانية تفعيل هذه الثورة والاستفادة منها في استرجاع بعض الحقوق والتخلص من سيطرة الأجانب ، لذا فقد استدعى أحد كبار الضباط الأتراك وعهد إليه سرًا بأن يذهب إلى شرقي الأناضول وينظم صفوف الثوار هناك ويناصرهم ويتولى قيادة حركتهم (٢)، وللتغطية على هذا الدور عن عيون قوات الحلفاء عينه مفتشًا عامًا لجيوش

---

(١) هارولد تمبرلي وَ أ. ج. جرانت : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٦٦ .
- محمود الشاذلي : المرجع السابق ، ص ٢١٥ .

(٢) ضابط تركي سابق : الرجل الصنم كمال أتاتورك ، تعريب عبدالله عبد الرحمن ، الطبعة الرابعة (بيروت: مؤسسة الرسالة ، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م) ، ج ١ ، ص ص ١٣٠ - ١٣٣ .
- مصطفى صبري : المصدر السابق ، ص ١٤٩ .

الأناضول بصلاحيات واسعة وزوده بمبلغ عشرين ألف ليرة عثمانية[١] .

أمّا بالنسبة للحلفاء وبريطانيا بشكل خاص فقد رأت أن تماديهم في استفزاز مشاعر المسلمين قد يضر بمصالحها ولا سيما في شبه القارة الهندية التي يهمها أمرها كثيراً ، وأن التصدي لهذه الثورة ربما يأتي بنتائج عكسية فقد يهب المسلمون في كافة أنحاء البلاد الإسلامية للدفاع عن قاعدة دولتهم الإسلامية ، لذا رأوا أن من الأجدى إلهاء العالم الإسلامي بهذه الثورة التي علقوا عليها آمالاً كبيرة كما رأت بريطانيا وفرنسا أن انشغال العرب بأحداث هذه الثورة وتعليق آمالهم عليها سيتيح لهم الفرصة لتثبيت أقدامهم في البلاد العربية[٢] .

ومن جانب آخر فقد كانت بريطانيا وفرنسا تدركان أن روسيا التي خرجت من الحرب دون أن تحصل على حصتها من الغنائم بسبب قيام الثورة الشيوعية فيها ستعود للمطالبة بنصيبها وكانت بريطانيا بالذات هي الأكثر تحسباً لذلك اليوم لأنها تعلم أن روسيا لن تسكت عن سيطرتها على مضيقي البسفور والدردنيل لأن لها أطماعاً قديمة في هذين المرين الحيويين ، لذا فقد كان الحلفاء عامة وبريطانيا خاصة يفضلون بقاء دولة تركية ضعيفة مشذبة الأطراف سائرة في ركاب الغرب على أن يسيطروا هم على تركيا ويستعمروها لأن تلك الدولة ستكون حاجزاً بينهم وبين روسيا تحول دون احتكاكها بهم[٣] .

ومن هنا فقد وجدت بريطانيا في تلك الثورة التي قامت في الأناضول فرصة سانحة للقضاء نهائيًا على الدولة العثمانية وإلغاء الخلافة الإسلامية

---

(١) محمود شاكر : المرجع السابق ، ص ٢٢٨ .

– محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص ٤١٦ .

(٢) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٧٦٥ .

(٣) المصدر نفسه : ص ٧٥١ .

وإقامة الدولة التي تبتغيها وذلك باصطناعها لبطل قومي يتولى قيادة تلك الثورة ومن ثم تنسج وسائلهم الإعلامية حوله هالة عظيمة وتصوره بصورة المنقذ المنتظر[١] . وفي نشوة المسلمين بالانتصارات الزائفة التي يحققهاهذا البطل المصطنع تقوم بتوجيه الطعنة على يده حيث سيكون بإمكانه تحقيق أهدافهم في القضاء على الخلافة الإسلامية وفرط عقد دولتها[٢] .

ولم يجد الانجليز صعوبة في إيجاد العميل الذي يتولى القيام بدور البطولة في هذه المسرحية الإجرامية فقد وقع اختيارهم على نفس الشخص الذي اختاره السلطان ليتولى قيادة الثورة[٣] ، بل إن بعض المؤرخين يشيرون إلى أن عملاء الإنجليز من أعضاء الحكومة العثمانية هم الذين رشحوا ذلك الضابط عند السلطان محمد وحيد الدين[٤] .

فمن هو يا ترى ذلك الشخص الذي رأى أعداء الدولة الإسلامية أنه مؤهل لنسف الخلافة الإسلامية ؟ وما هي علاقته بالإنجليز ؟

---

(١) زياد أبو غنيمة : المرجع السابق ، ص ٥٣ .

(٢) علي حسون : المرجع السابق ، ص ٣١٥ .

(٣) تنكر بعض المصادر التاريخية بأن الكابتن الإنجليزي هـ . س . أرمسترونج هو الذي رشح مصطفى كمال للاستخبارات الإنجليزية فهو قد عاش في الشرق فترة طويلة وعين ملحقًا عسكريًا في العراق قبيل قيام الحرب العالمية الأولى ، وعندما قامت الحرب وقع في أسر الأتراك فحاول الفرار ولكن محاولته باءت بالفشل ، وقد أتاحت له ظروف عمله وأسره التعرف على عدد من الضباط الأتراك ومنهم مصطفى كمال ، فعرف بحكم خبرته كرجل مخابرات مدرب انه الشخص المناسب للقيام بذلك الدور .

– موفق بني المرجه : المرجع السابق ، ص ٢٦٥ ، ٢٧٦ .

(٤) محمد عزة دروزة : تركيا الحديثة ، ص ١٥ .

– أرمسترونج : المصدر السابق ، ص ١٠٩ .

إنه اليهودي الدونمة مصطفى كمال[١] ، ولد في سلانيك وكر اليهود عام ١٢٩٨هـ / ١٨٨٠م من أبوين ينحدران من أصول ألبانية فأُمه التي تُدعى زبيدة ابنة فلاحٍ بسيط قدم إلى سلانيك من جنوب ألبانيا أما أبوه فيدعى علي رضا[٢] ، وهو من أسرة كانت تعيش في جبال ألبانيا قدم إلى سلانيك منذ صباه وأصبح موظفًا بسيطًا في تلك المدينة ، وقد توفي ومصطفى كمال لم يتجاوز السابعة من عمره فتولت والدته رعايته وألحقته بإحدى المدارس الابتدائية في سلانيك لكنه كان تلميذًا مشاغبًا متمردًا شرسًا مع أساتذته متعاليًا على زملائه فكثرت شكوى أساتذته منه ولشدة مراسه رأت والدته أن من الأجدى إلحاقه بسلك الجندية فألحقته بالمدرسة الحربية الابتدائية في سلانيك فنجح في دراسته لكنه لم يكن محبوبًا من المختلطين به[٣] .

وعندما بلغ السابعة عشر من عمره تخرج من المدرسة العسكرية في سلانيك وأُرسل إلى المدرسة العسكرية العليا في موناستر حيث يوجد المحفل الماسوني الإنجليزي الذي اجتذبه فأصبح من أكثر أعضائه ولاءًا ، كما كانت

---

(١) مصطفى صبري : المصدر السابق ، ص ٤٩ ، ١٥٦ .
- عبد الوهاب المسيري : المرجع السابق ، ص ١٠٣ .
- أحمد النعيمي : يهود الدونمة ، ص ص ٨٧ – ٨٩

(٢) تشكك بعض المصادر في نسب مصطفى كمال لعلي رضا وتشير إلى ان علي رضا لم يكن إلا زوجًا لامه ولكنه تبناه ، أما عن تسميته بمصطفى كمال فتذكر المصادر أن أحد أساتذته في المرحلة الثانوية كان اسمه مصطفى وكان معجبًا به لتفوقه وأنه عهد إليه بالإشراف على فصلٍ صغير وأطلق عليه لقب (كمال) حتى لا يحدث لبس بسبب تشابه اسمي المدرسين فصار يُعرف منذ ذلك التاريخ بمصطفى كمال .
- ضابط تركي سابق : المصدر السابق ، ص ص ٣٦ – ٣٧ .
- هـ . س . أرمسترونج : المصدر السابق ، ص ص ١١ – ١٦ .

(٣) المصدر نفسه : ص ص ١٣ – ١٦ .

موناستر تعج بالأجانب الذين كانوا يبذلون قصارى جهدهم في إثارة الفتن وإشاعة روح السخط ضد السلطان عبد الحميد فتشرّب تلك الأفكار ومن ثم تحول إلى مروجٍ لها(١) .

وبعد تخرجه من المدرسة العسكرية العليا في موناستر بُعث إلى الأكاديمية الحربية في استانبول حيث ازداد اهتمامه بالسياسة واتضحت ميوله الثورية وتأثر بأفكار الأديب القومي نامق كمال ذي الآراء غير الملتزمة وقرأ الكثير عن الثورة الفرنسية كما أخذ يقضي أوقاتًا طويلة في أماكن اللهو والمجون يُقامر ويشرب الخمر ويُمارس كل الموبقات والرذائل حتى أثّر ذلك على صحته(٢) .

وبعد تخرجه من الأكاديمية الحربية دخل كلية الأركان ثم تخرج منها برتبة رائد عام ١٣٢٣هـ / ١٩٠٥م فعين في لواء الفرسان المرابط في دمشق وهناك أنشأ مع بعض زملائه جمعية ثورية أطلقوا عليها اسم (جمعية الوطن) كانت تعارض السلطان عبد الحميد وتتهمه بالطغيان كما كانت تهاجم علماء الدين الذين يعارضون الإصلاح على الطريقة الغربية(٣) .

إلا أننا نرى أن الدافع الحقيقي لإنشاء مصطفى كمال لهذه الجمعية كان نفسيًا أكثر من كونه أي شيء آخر فقد كان الرجل بطبعه ثائرًا متبرمًا من كل ما حوله وفي هذا الصدد نستشهد برأي المدافع عنه وكاتب سيرته أرمسترونج

---

(١) علي حسون : المرجع السابق ، ص ٣٠٨ .

- محمود الشاذلي : المرجع السابق ، ص ص ٢١٦ – ٢١٧ .

(٢) ضابط تركي سابق : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ص ٥٨ – ٦٢ .

(٣) ارنست . أ . رامزور : المرجع السابق ، ص ١١٨ .

حيث يقول : « ... فقد كان بفطرته ثائراً لا يحترم ديناً أو إنساناً أو وضعاً من الأوضاع ولا يقدس شيئاً على الإطلاق »[١] .

وعلى أية حال فقد تبين لمصطفى كمال بعد مضي فترة على إنشاء تلك الجمعية أن دمشق ليست تربة صالحة لأفكاره الثورية وأن جهوده لن تؤتي ثمارها فيها لأن أهلها لم يتقبلوا أفكاره وعارضوها بشدة ، وأدرك أنه لن يتمكن من تحقيق أهدافه إلا في موطنه سلانيك مركز القلاقل والفتن ، لذا فقد سعى جاهداً حتى تمكن من الحصول على أمر نقله إلى سلانيك في عام ١٣٢٥هـ / ١٩٠٧م حيث عين في دائرة الأركان في الجيش الثالث الموجود بها[٢] .

وفيما كان يخطط بعد أن استقر به المقام في سلانيك لإنشاء جمعية ثورية على غرار تلك الجمعية التي أنشأها في دمشق لاحظ بأن هناك منظمة ثورية سرية كبيرة جداً قد انتشر نشاطها بين معظم أفراد وضباط الجيش الثالث في سلانيك وكان قد أطلق على هذه المنظمة اسم جمعية الاتحاد والترقي – وهي الجمعية التي سبق أن تحدثنا عن دورها في إزاحة السلطان عبد الحميد الثاني عن الحكم في عام ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م وعما ترتب على سيطرة كبار أعضائها على مقاليد الحكم في البلاد في أعقاب ذلك من آثار وخيمة على الدولة العثمانية –[٣] .

---

(١) هـ . س . أرمسترونج : المصدر السابق ، ص ٢٥ .

(٢) أرنست . أ . رامزور : المرجع السابق ، ص ١١٨ – ١٢٠ .

– علي حسون : المرجع السابق ، ص ٣٠٨ .

(٣) لقد أفردنا المبحث الثالث من الفصل الثالث من هذا البحث للحديث عن هذه الجمعية وعن علاقتها باليهود وعن دورها في خلع السلطان عبد الحميد الثاني وعن الآثار السيئة التي ترتبت على سيطرة أعضائها على مقاليد الحكم في الدولة العثمانية .

ولأن بعض ضباط الجيش الثالث كانت تربطهم بمصطفى كمال زمالة قديمة ويعلمون بأن لـه ميولاً ثوريـة لذا فقد وجهوا إليه دعوة للإنضمام لتلك الجمعية فلم يتوان عن تلبية الدعوة ، ولكن بحكم كونه حديث عهدٍ بها لم يعهد إليه بشيء سوى تنفيذ أوامر كبار الأعضاء[١] ، في حين كان بطبيعته يحترق للشهرة والظهور وقد شهد بذلك إثنان من أشهر من نذروا أنفسهم لتمجيده والدفاع عنه أحدهما محمد عزة دروزة حيث يقول : « ... كان في كثيرٍ من مواقفه وخطواته متحديًا ومتحرشًا... وما كان يقفه من مواقف الإملاء والفرض والاعتداد بالنفس »[٢] أما الشخص الآخر الذي أكد تلك السمات الشخصية لدى مصطفى كمال فهو أرمسترونج حيث يقول : « ... لازمه شوق دائم إلى أن يكون ملحوظ المكانة مرموق الشخصية من الجميع وأن ينظر إليه الناس على أنه ممتاز متفوق على أقرانه » ويقول في موضع آخر : « ... كانت طبيعته تميل إلى أن يكون هو الآمر الناهي »[٣] .

ويبدو أن زعماء جمعية الإتحاد والترقي قد لمسوا تلك النزعة عند مصطفى كمال لذا فقد حرصوا على تركه خارج نطاق الدائرة الضيقة التي تدير أعمال الجمعية فلم يكن له دور يذكر في الجمعية غير أنه كان واحداً من الضباط الذين شاركوا في جيش الحركة[٤] ، وهو الجيش الذي جرده الاتحاديون عام ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م للتصدي للثورة المضادة – التي قامت في استانبول في

---

(١) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ، ص ٥٢ .

– موفق بني المرجة : المرجع السابق ، ص ٢٦٦ .

(٢) محمد عزة دروزة : تركيا الحديثة ، ص ٦٠ ، ٦٣ .

(٣) هـ . س . أرمسترونج : المصدر السابق ، ص ١٥ ، ٣٠ .

(٤) ارنست . أ . رامزور : المرجع السابق ، ص ١٢١ .

– محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص ٤١٩ .

أعقاب الانقلاب الدستوري عام ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م – فاحتل استانبول وخلع السلطان عبد الحميد الثاني[١] .

إلا أن مشاركة مصطفى كمال في جيش الحركة الانقلابية لم تعد عليه بفائدة حيث عاد في أعقابها إلى سلانيك لمزاولة عمله العسكري كما كان قبل ذلك فامتلأت نفسه غيظاً وحقداً على زعماء الجمعية الذين سيطروا على مقاليد الحكم في البلاد وذاعت شهرتهم ، وقد دفعه هذا الشعور إلى التهجم على الجمعية بين الجنود ، وتنظيم اجتماعات سرية مع بعض الضباط الحانقين على زعماء الثورة للسبب نفسه وعندما علم زعماء الجمعية بتصرفاته تلك وجهوا له اتهاماً بتحريض الجنود على الثورة وجعلوه تحت المراقبة[٢] .

وعندما قامت حرب البلقان الأولى عام ١٣٣٠هـ / ١٩١٢م بين الدولة العثمانية ودول البلقان (بلغاريا والصرب واليونان والجبل الأسود)[٣] عين مصطفى كمال قائداً للفرقة العسكرية التي كلفت بحماية شبه جزيرة غاليبول فدفعه حبه للظهور والشهرة إلى التسبب في هزيمة الدولة العثمانية في إحدى المعارك الهامة أمام الجيش البلغاري حيث كانت الخطة الموضوعة من قبل القائد العام أنور باشا تقضي بهجوم الفرقة التي تحت قيادة مصطفى كمال والفرقة التي تحت قيادة أنور باشا في آن واحد ولكن مصطفى كمال بدأ الهجوم قبل الوقت المحدد ودون أن ينتظر هجوم أنور بفرقته فاستطاع البلغار أن يلحقوا بفرقته أضراراً بليغة فما كان منه إلا أن ولّى الأدبار وهرب من ميدان المعركة بفرقته معرِضّاً بذلك بلاده لخسارة كبيرة وكان دافعه إلى

---

(١) يوسف أصاف : المصدر السابق ، ص ١٣٨ .

– مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ، ص ٨٧ .

(٢) هـ . س . أرمسترونج : المصدر السابق ، ص ص ٣٦ – ٣٩ .

(٣) عايض بن خزام الروقي : المرجع السابق ، ص ١٥٤ .

اقتراف تلك الخيانة هو الحيلولة دون حصول أنور باشا على شرف الانتصار[١].

وفي محاولة من الاتحاديين لإبعاده والتخلص منه عُيّن ملحقًا عسكريًا في العاصمة البلغارية (صوفيا) وهناك بُهر بالحياة الغربية وافتتن بمعايرها الاجتماعية سيما ما يتعلق منها بحرية الاختلاط بين الرجال والنساء فأهمل عمله الذي كُلف به وغرق في اللهو[٢] .

وأثناء إقامته في صوفيا قامت الحرب العالمية الأولى عام ١٣٣٢هـ / ١٩١٤م وعندما دخلتها الدولة العثمانية إلى جانب دول المحور[٣] ، أرسل إلى أنور باشا وزير الحربية يطلب منه أن يسند إليه القيادة في إحدى الجبهات ولكن أنور باشا لم يستجب لطلبه في باديء الأمر لأنه كان يخشى عاقبة طموحاته الشخصية ويدرك أن دافعه إلى ذلك الطلب هو الرغبة في الشهرة والظهور ، ولكنه ألح في طلبه فاضطر أنور للموافقة على قدومه وتكليفه ببعض المهام الحربية[٤] .

وقد كان من ضمن المهام الحربية التي كُلف بها مصطفى كمال في تلك الحرب تعيينه في عام ١٣٣٦هـ / ١٩١٨م قائداً للجيش السابع في الجبهة السورية وكانت الأخبار في تلك الجبهة آنذاك تشير إلى أن الإنجليز يعدون العدة للقيام بهجوم كبير على الجيوش العثمانية[٥] ، فما كان من مصطفى

---

(١) ضابط تركي سابق : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ص ٧٤ – ٧٥ .

– محمود شاكر : المرجع السابق ، ص ٢٢٩ حاشية رقم (١) .

(٢) علي حسون : المرجع السابق ، ص ٣٠٩ .

(٣) هارولد تمبرلي وَ أ. ج. جرانت : المرجع السابق ، ج٢ ، ص ٢٠٠ .

(٤) محمود شاكر : المرجع السابق ، ص ٢٢٩ حاشية رقم (١) .

(٥) سعيد برجاوي : المرجع السابق ، ص ٢٩٨ .

كمال بعد أن وصل إلى تلك الجبهة إلا أن لزم فراشه في مركز القيادة في نابلس مدعيًا المرض إلى أن بدأ الهجوم الإنجليزي وعند ذلك أصدر أمرًا فجائيًا بالانسحاب شمالاً نحو دمشق دون أي محاولة للإصطدام بالإنجليز متيحًا بذلك الفرصة للعدو ليتقدم شمالاً دون عناء وتمكينه من هزيمة بقية قطاعات الجيش في تلك الجبهة لحرمانها من مساندة الجيوش التي تحت إمرته(١) ، وعندما احتج القائد العام الألماني (ليمان فون ساندرز Liman Von Sanders) على تصرفه ادعى بأن غرضه من الانسحاب والتخلي عن الأراضي السورية هو تشكيل خط دفاع جديد وقوي شمالي حلب لمنع العدو من الوصول إلى تركيا ، ولكن القائد الألماني لم يقتنع بذلك التبرير وحمّله كقائد تركي مسئولية ترك جزء كبير من أراضي الدولة العثمانية لقمة سائغة للعدو(٢) .

ومن الطبيعي أن يثير هذا التصرف الذي أقدم عليه مصطفى كمال الريبة والشك في وجود اتفاق مسبق بينه وبين الإنجليز بل إن هناك من القرائن ما يرفع ذلك الشك إلى مستوى اليقين ومن ذلك ما ثبت من اتصاله بضابط المخابرات الإنجليزي لورنس Laurence عندما كان في الشام (٣).

كما أن مما يؤكد اتصاله بالانجليز الرواية التي ذكرها المؤرخ إحسان حقي في قوله : « أخبرني إبراهيم بك صبري بن صبري أفندي شيخ الإسلام بما يلي : اتصل الإنجليز بمصطفى كمال يوم كان قائدًا في فلسطين وطلبوا إليه أن يقوم بثورة على السلطنة ووعدوه أن يساعدوه على ذلك فاتصل

---

(١) ضابط تركي سابق : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ص ٩٨ - ٩٩ .

- موفق بني المرجة : المرجع السابق ، ص ٢٧٩ .

(٢) هـ . س . أرمسترونج : المصدر السابق ، ص ٩٥ .

(٣) علي حسون : المرجع السابق ، ص ٣١٢ .

مصطفى كمال بقائدين عثمانيين من زملائه كانا يتوليان قيادة جيشين قريبين منه وفاتحهما بالأمر – وقد ذكر لي إبراهيم بك اسمي القائدين المذكورين ولكني نسيتهما لأني لم أسجلهما عندي إذ أني لم أكن أتوقع أن أحتاج إلى ذكرهما – فلما سمعا الخبر استعظماه واستنكراه وقالا له : بما أنك لم تحاول العصيان الذي يوجب الإعدام فإننا سنكتم الأمر وننصحك أن تعتبره منسيًا وأنك لم تفاتحنا به ولا سمعناه منك »[١] .

هذا هو إذاً الشخص الذي وقع عليه اختيار الإنجليز وحلفائهم لينفذ مخططهم للإطاحة بالخلافة الإسلامية . والواقع أنه لا يسعنا إلا أن نقول انه اختيار موفق فقد اتضح لنا من خلال العرض المتقدم لسيرة مصطفى كمال أنه كان مؤهلاً فعلاً لتنفيذ المهمة التي أُنيطت به ليس لنزوعه غير السوي للشهرة والرئاسة ، ولا لأن له سجلاً حافلاً بالفحش وتهتك الأخلاق والخيانة فحسب بل – والأهم من ذلك – لأنه منافق دنيء يُظهر الإسلام والولاء العميق للوطن ويُبطن اليهودية والحقد والضغينة للإسلام ودولته .

وهكذا فبعد أن ثبت للإنجليز أهلية ذلك اليهودي للقضاء على الدولة الإسلامية أوعزوا – كما سبق أن أشرنا – إلى عملائهم من أعضاء الحكومة العثمانية لتقريبه من السلطان محمد وحيد الدين وترشيحه لتولي قيادة تلك الثورة الوطنية التي قامت في الأناضول في أعقاب هدنة مدروس Mudros في الوقت الذي كانوا يظهرون الحرص على إخماد تلك الثورة[٢] .

والحق أن مصطفى كمال قد أثبت للإنجليز أنهم قد أحسنوا الاختيار فما

---

(١) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٧٥١ .

(٢) المصدر نفسه : ص ص ٧٥٠ – ٧٥١ .

– محمود الشاذلي : المرجع السابق ، ص ٢١٩ .

أن وصل إلى مقر قيادته في (سامسون)[١] وكان ذلك في ١٩ شعبان ١٣٣٧هـ / ١٩ مايو ١٩١٩م حتى شرع في تنفيذ أول جزء من المهمة الموكلة به حيث راح يتنكر للسلطان ويدعي أمام الجماهير الثائرة بأن السلطان قد أضحى ألعوبة في يد الإنجليز لا حول له ولا طول ويصوره لهم رمزًا للهزيمة والتفريط في حقوق البلاد[٢] .

أما السلطان محمد وحيد الدين الذي لم يكن يعلم بعلاقة مصطفى كمال بالإنجليز فقد ظل يحسن الظن بمصطفى كمال ولم يصدق بخروجه عليه وكان يعتقد أنه يفعل ذلك للتمويه على القوات الأجنبية ، ولعل خير تعليق على هذا الموقف هو ما ورد عن شيخ الإسلام مصطفى صبري – الذي حضر كل فصول هذه المأساة – حيث يقول : « فصفوة الكلام أن السلطان أراد أن يكيد الإنجليز بمصطفى كمال فتحول الحال فكاده الإنجليز بمصطفى كمال »[٣] .

واستمرارًا من مصطفى كمال في تنفيذ الخطة التي رسمها له الإنجليز سعى جاهدًا ليضم إلى صفه كبار قواد الجيش في الأناضول وقد منحته صلاحيات عمله الواسعة كمفتش عام لجيوش الأناضول القوة في هذا المجال فقد كانت له صلاحيات إصدار التعليمات إلى الوحدات العسكرية وإلى الموظفين المدنيين[٤] . كما وضع خطة لإثارة عامة الشعب في تلك المنطقة فطاف

---

(١) سامسون : مدينة تقع على ساحل البحر الأسود شمالي الأناضول . انظر : خريطة الأناضول في الملحق رقم (٨) .

(٢) محمد عزة دروزة : تركيا الحديثة ، ص ١٥ .

– ضابط تركي سابق : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٤٣ .

(٣) مصطفى صبري : المصدر السابق ، ص ١٥٠ .

(٤) محمد عزة دروزة : تركيا الحديثة ، ص ١٥ – ١٦ .

– محمود الشاذلي : المرجع السابق ، ص ٢٢١ .

بالقرى وعقد الاجتماعات وألقى الخطب الحماسية التي كان يردد فيها قوله : « ... لقد قرر العدو أن يدمر تركيا وطننا ... وبات السلطان - خليفتكم - مسلوب الحول والقوة أسيراً فى أيدي الإنجليز ... يجب أن تنقذوا أنفسكم بأنفسكم » كما كان يُردد : « ... ينبغي أن نكون مخلصين ولكن إخلاصنا وولاءنا يجب أن يكون لتركيا أما السلطان وحكومته فهما ألعوبة في أيدي العدو الأجنبي ومن ثم فالأوامر الصادرة من العاصمة ليست في الواقع صادرة من السلطان بل من الإنجليز ، وإذن فهي غير شرعية »[١] .

وبعد أن قضى مصطفى كمال بضعة أسابيع في ممارسة هذا النوع من النشاط وتمكن من خداع الجماهير الثائرة ومن خلق جو من الحماس القومي عم جميع أقاليم الأناضول بدأ يرتب للانتقال إلى المرحلة التالية من مخططه فقرر عقد مؤتمر عام في مدينة (سيواس)[٢] التي تعتبر مركزاً للأناضول ووجه الدعوة لحضوره إلى جميع منظمات المقاومة في أنحاء البلاد عن طريق برقيات هذا نصها : « ان الوطن مهدد والحكومة المركزية لم تعد قادرة على القيام بوظيفتها وتأدية واجبها واستقلال بلادنا لن يتيسر الاحتفاظ به إلا بإرادة الشعب ومجهوده لذلك تقرر عقد مؤتمر وطني عام في سيواس للمناقشة في الوسائل والأساليب الكفيلة ببلوغ هذه الغاية وفي وسع كل إقليم أن يرسل عنه ثلاثة من المندوبين وليحرصوا على السرية التامة »[٣] .

ونرى هنا أن مصطفى كمال بعد أن تمكن من خداع الجموع الثائرة في الأناضول بجدوى حركته الثورية أراد أن يوجد فرصة إعلامية لتوسيع نطاق حركته وكسب المزيد من المؤيدين لها عن طريق عقد هذا المؤتمر .

---

(١) هـ . س . أرمسترونج : المصدر السابق ، ص ١١٥ ، ١٢٠ .

(٢) سيواس : مدينة شمال شرق الأناضول ، انظر : خريطة الأناضول في الملحق رقم (٩) .

(٣) المصدر نفسه : ص ١١٨ .

ولكن عندما وصلت أنباء تلك التحركات إلى استانبول أرسلت وزارة الحربية إلى مصطفى كمال استدعاءً للحضور إلى العاصمة ، ولكنه لم يجب وتكرر استدعاؤه واستمر هو في عدم الإجابة ، كما أن الحلفاء في استانبول وفي مقدمتهم الإنجليز أظهروا احتجاجهم على ما يحدث في الأناضول وهددوا بالتدخل العسكري إذا لم تضع الحكومة العثمانية حداً لنشاط مصطفى كمال كما طالبوا بإقالته من وظيفته(١) .

وقد يبدو لنا موقف الإنجليز هنا غريباً للوهلة الأولى إذ كيف يتواطؤن مع مصطفى كمال على الثورة على حكومة بلاده ثم يضغطون على تلك الحكومة لتتصدى لثورته ولتقيله من عمله ولكن إذا ما أمعنا النظر في الموقف وجدنا أن للإنجليز عدة أهداف من ذلك التصرف أولها أن موقفهم هذا لن يدع مجالاً للشك في وجود علاقة بينهم وبين مصطفى كمال ، أما الهدف الثاني فهو ضمان انقطاع صلة مصطفى كمال بالحكومة العثمانية وإتمام خروجه على السلطة بشكل رسمي ، والهدف الثالث هو أن مصطفى كمال سيزداد تشبثه بالثورة بعد إقالته من عمله لأنه لن يتحمل أن يصبح مواطناً عادياً مجرداً من السلطة سيما وأن الإنجليز قد عرفوا من تحرياتهم السابقة عن شخصية مصطفى كمال نزوعه الشديد للسلطة والزعامة .

وقد تحققت أهداف الإنجليز بالفعل إذ عندما تمادى مصطفى كمال في تمرده ورفضه لتنفيذ الأوامر قررت وزارة الداخلية إقالته من منصبه ، ولكن السلطان محمد وحيد الدين رفض التوقيع على ذلك القرار لأنه لم يكن بعد قد اقتنع بخروج مصطفى كمال عن الطاعة وطلب من وزارة الداخلية أن تتريث

---

(١) مصطفى صبري : المصدر السابق ، ص ١٤٩ .

- محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٧٤٩ .

- محمود شاكر : المرجع السابق ، ص ٢٣٠ .

بعض الوقت ، لأنه كان قد بعث له ببرقية يطلب فيها منه الحضور لإعطائه تقريراً واضحًا عن نشاطه[١] ، ولكن جاء رد مصطفى كمال مخيبًا لآمال السلطان فقد تضمن رفضه للاستدعاء مجدداً وإعلانه عن استقالته من الجيش بعبارات تنم عن التمرد ، وهنا لم يكن أمام السلطان إلا أن يوقع على قرار إقالته في ١٠ شوال ١٣٣٧هـ / ٨ يوليو ١٩١٩م[٢] .

وبهذا لم يعد لمصطفى كمال أية صفة رسمية فقد أصبح بعد إقالته – أو استقالته – شخصًا عاديًا مجرداً من السلطة بل وخارج عن طاعة السلطة الشرعية في البلاد لذلك فقد شعر بالحاجة الماسة لشيء من الدعم من أي جهة رسمية ، سيما وهو كما سبق وأن أشرنا قد وجه دعوة لمنظمات المقاومة في جميع أنحاء البلاد لحضور المؤتمر الذي سيعقده في سيواس .

لذا فقد دعا كبار القواد العسكريين وممثلي منظمات المقاومة في أقاليم الأناضول إلى عقد مؤتمر محلي في مدينة (أرضروم)[٣] حيث تمكن في هذا المؤتمر الذي انعقد في ٢٥ شوال ١٣٣٧هـ / ٢٣ من يوليو ١٩١٩م[٤] ، من إقناع الحضور بضرورة تأليف حكومة مؤقتة تُنتخب في مؤتمر قومي عام – يقصد به مؤتمر سيواس المنتظر – لتتولى تصريف شئون البلاد ومقاومة الاحتلال بدعوى أن الحكومة الشرعية واقعة تحت سيطرة الأعداء ، كما

---

(١) مصطفى صبري : المصدر السابق ، ص ١٤٩ .

(٢) هـ . س . أرمسترونج : المصدر السابق ، ص ١١٧ .

– عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج ١ ، ص ٢٥٩ .

(٣) ارضروم : مدينة تقع في شرقي الأناضول ، انظر : الخريطة في الملحق رقم (٩) .

(٤) تحتفل تركيا سنويًا منذ قيام العهد الجمهوري في يوم ٢٣ يوليو حيث اعتبر هذا التاريخ اليوم الوطني للبلاد .

– محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص ٤٢٠ .

استطاع الحصول على موافقتهم على انتخابه رئيسًا للجنة التي ستتولى تنفيذ قرارات هذا المؤتمر وتمثيلهم في مؤتمر سيواس ، بعد أن اشترطوا عليه ألا يقدم على شيءٍ فيه إساءة للسلطان[1] .

وبهذه الطريقة تمكن مصطفى كمال من الحصول على الصبغة الرسمية والزعامة التي كان قد افتقدها بعد إقالته .

وفي ٩ ذي الحجة ١٣٣٧هـ / ٤ سبتمبر ١٩١٩م عُقد مؤتمر سيواس العام وباءت بالفشل الجهود التي بذلتها الحكومة العثمانية لمنع انعقاده ، وحضره مندوبون من جميع أنحاء البلاد وانتُخب مصطفى كمال رئيسًا له لكونه رئيس اللجنة التمثيلية لمؤتمر أرضروم واستطاع اقناع المؤتمرين بالموافقة على قرارات مؤتمر أرضروم . وتشكيل لجنة تنفيذية لتتولى عمل الحكومة المؤقتة وانتخابه رئيسًا لها ، ولكنهم اشترطوا عليه أيضًا عدم مواجهة الحكومة الشرعية بالعداء وعدم تعريض البلاد لحرب أهلية ، كما اتفق المؤتمرون على اطلاق اسم (الميثاق الوطني) على القرارات التي خرج بها مؤتمر سيواس[2] .

ونلاحظ هنا أن مصطفى كمال قد تمكن من استغلال الوضع النفسي لهذه الجموع من المسلمين الأتراك الذين كبر عليهم احتلال بلادهم وطغى عليهم الحماس للخلاص من المحتل الغاصب ، وكانوا في أمس الحاجة إلى من يوجه طاقاتهم وينظم صفوفهم فاستطاع بزيفه وخداعه أن يقنعهم بأهليته لقيادتهم .

---

(١) هـ . س . أرمسترونج : المصدر السابق ، ص ١١٤ ، ١٢٠ .

– عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مُفترى عليها ، ج ١ ، ص ٢٥٨ .

(٢) محمد عزة دروزة : تركيا الحديثة ، ص ٢٢ .

– كارل بروكلمان : المرجع السابق ، ص ٦٨٩ .

كما نلاحظ أن حماس هؤلاء المسلمين لم ينسيهم ولاءهم وطاعتهم لحكومتهم الشرعية حيث اشترطوا عليه عدم الإقدام على أمر من شأنه أن يسيء إليها ولكنه استطاع خداعهم بوعوده الكاذبة التي كانت كما وصفها نصيره الأول أرمسترونج « وسيلة إلى غاية وسلمًا إلى هدف »[١] وليس ذلك منه بغريب فتلك طبيعة اليهود وديدنهم .

وبعد انتهاء مؤتمر سيواس سارع مصطفى كمال إلى جني ثماره حيث أشعر جميع الدوائر الرسمية العسكرية والمدنية في الأناضول بأنها ستكون مرتبطة به ، وقطع وسائل الاتصال بين الأناضول واستانبول وأمر بتحويل جميع الإيرادات والمراسلات الحكومية إليه[٢] .

أما الخطوة التالية فهي أنه أرسل إلى السلطان باسم اللجنة التنفيذية للمؤتمر يطلب إقالة الصدر الأعظم وجميع أعضاء البرلمان وإجراء انتخابات لبرلمان جديد ، ثم أوعز إلى مؤيدي حركته في أنحاء البلاد ليبعثوا إلى السلطان مؤيدين طلبه ، فاضطر السلطان للموافقة[٣] . فعزل الصدر الأعظم وحل البرلمان وأمر بإجراء انتخابات جديدة[٤] .

ويبدو واضحًا أن غرض مصطفى كمال من إجراء هذا التغيير هو أتاحة الفرصة لأنصار حركته للتسلل إلى داخل الحكومة الشرعية ، وقد تحقق له

---

(١) هـ . س . أرمسترونج : المصدر السابق ، ص ١١٨ .

(٢) محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص ص ٤٢٠ – ٤٢١ .

(٣) يذكرنا موقف السلطان محمد وحيد الدين هذا بموقف السلطان عبد الحميد الثاني عندما ثار عليه جماعة الاتحاد والترقي وطالبوه بإعادة العمل بالدستور فاضطر إلى إجابة مطلبهم – رغم عدم اقتناعه بصلاحية النظام الدستوري لبلاده – فكلاهما كان مضطرًا للموافقة على ما طُلب منه درءًا للفتنة واحتواءً للثوار وحتى لا يدع فرصة لتدخل العدو الأجنبي .

(٤) سعيد برجاوي : المرجع السابق ، ص ٣٠٣ .

مراده حيث أسفرت نتائج الانتخابات الجديدة عن وصول عدد كبير من أنصاره والمتعاطفين مع حركته إلى البرلمان[١] . ولم ينكر المؤرخ محمد عزة دروزة –رغم أنه من أكثر المؤرخين حماساً للدفاع عن مصطفى كمال– بأن مصطفى كمال قد بذل جهداً للوصول إلى هذه النتائج الانتخابية حيث يقول : « ... من جهة أُخرى فإنه أخذ يصرف همه إلى انتخاب نواب مخلصين يماشون الحركة الوطنية وتشكيلاتها غير مبال باحتجاج الحكومة وتذمرها »[٢] .

ويبدو أن مصطفى كمال كان يتصور أنه إذا ما تمكن من إيصال أنصار حركته إلى المجلس النيابي فإنه سوف يكون من السهل عليه أن يملي عليهم رغباته وأن يسخرهم لتنفيذ مخططاته ومن ذلك نقل مقر البرلمان إلى الأناضول انفاذاً لخطته الرامية إلى الإقلال من مكانة استانبول والسلطة الموجودة بها (السلطان) وكان يعتقد أنه سوف يتمكن من إقناع النواب الجدد بذلك ولكن الله رد كيده إلى نحره فقد رفض النواب الانصياع إلى رغبته في عقد المجلس النيابي – البرلمان – في أنقرة التي كان قد اتخذها مقراً جديداً للهيئة التنفيذية للمؤتمر ورأوا ضرورة الذهاب إلى استانبول حيث كانوا مغتبطين بكونهم قد انتخبوا انتخاباً شرعياً وبأنهم لم يعودوا ثواراً واعتزموا أن يذهبوا إلى العاصمة ليكونوا في ظل الحاكم الشرعي للبلاد (السلطان محمد وحيد الدين)[٣] بل إن بعضهم طالبه بحل اللجنة التنفيذية للمؤتمر وبالتوقف عن أنشطته المعارضة للحكومة الشرعية ، والكف عن التدخل في شئون

---

(١) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مُفترى عليها ، ج ١ ، ص ٢٦٠ .

(٢) محمد عزة دروزة : تركيا الحديثة ، ص ٢٥ .

(٣) كارل بروكلمان : المرجع السابق ، ص ٦٩٠ .

– محمود الشاذلي : المرجع السابق ، ص ٢٢٢ .

الدولـة ودوائرها الرسمية حيث لم يعد هناك مبرر لكل ذلك بعد أن استجاب السلطان لطلباتهم وأصبحوا أعضاء في الحكومة ، كما عبروا عن رغبتهم في تجنب كل ما من شأنه أن يحدث الفرقة بين أبناء البلاد ، وفي الظهور بمظهر الشعب المتحد في جبهة واحدة تحت زعامة الحاكم الشرعي السلطان محمد وحيد الدين(١) .

وبالفعل ذهب جميع النواب إلى العاصمة وفي يوم ٢١ ربيع الأول ١٣٣٨هـ / ١٢ يناير ١٩٢٠م افتتح المجلس النيابي الجديد في جو من الغبطة والتفاؤل وبعثوا إلى السلطان برقية أعربوا فيها عن ولائهم له(٢) .

وهكذا انقلب السحر على الساحر وبدا أن الأمر سيفلت من يد مصطفى كمال ولكن الإنجليز لم يكونوا ليسمحوا بذلك فقد هبوا لدعمه واتخذوا عدة إجراءات كانت كفيلة بإعادة أنصاره الذين تخلوا عنه ليلتفوا حوله من جديد وتصعيد مكانته عما كانت عليه كما كانت كفيلة بإضعاف موقف السلطان وإظهار عجزه(٣) .

ففي ٢٦ جمادى الثانية ١٣٣٨هـ / ١٦ مارس ١٩٢٠م أي بعد قرابة شهرين من افتتاح المجلس النيابي الجديد قام الإنجليز بإعلان احتلال استانبول رسميًا بحجة عدم وضع حدٍ لنشاط قوى المقاومة المناوئة لهم ، وألقوا القبض على عدد من النواب وأغلقوا مقر البرلمان ، في حين تمكن بعض النواب من الفرار إلى الأناضول ، كما أطلق الجيش الإنجليزي النار

---

(١) محمد عزة دروزة : تركيا الحديثة ، ص ٢٨ .

(٢) هـ . س . أرمسترونج : المصدر السابق ، ص ١٢٥ .

– إسماعيل ياغي : الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث ، ص ٢٢٨ .

(٣) علي حسون : المرجع السابق ، ص ٣١٨ .

على جماهير الشعب التركي وأصيب المئات منهم وأُعلنت حالة الطوارئ في العاصمة[١] .

ومن جانبٍ آخر فقد تعمد الإنجليز إمداد مصطفى كمال بالسلاح الذي يلزمه ولذا فقد تظاهروا بالعجز عن صد غارات أتباعه على مخازن السلاح التي كانت تحت حراستهم في استانبول وشبه جزيرة غليبولي مما أدى إلى تدفق السلاح على مصطفى كمال[٢] .

وسارع مصطفى كمال لاغتنام الفرصة التي هيأها له صناعه (الإنجليز) فأرسل إلى جميع الولاة والمتصرفين وقواد الجيش في إنحاء البلاد يستثير حماسهم لإنقاذ دار الخلافة من الاحتلال وتخليص السلطان من الاعتقال ويخبرهم بأن الأناضول سوف تكون مركزًا لانطلاق حركة الجهاد والمقاومة ، كما أبرق إلى النواب الذين نجوا من الاعتقال يطلب منهم القدوم إلى أنقرة لتشكيل مجلس نيابي جديد بعد انفراط عقد المجلس السابق وأجاب النواب الناجون الدعوة وتوافدوا على أنقرة[٣] ، ثم أمر مصطفى كمال بانتخاب نواب جدد من أقاليم الأناضول ليحلوا محل النواب الذين تم اعتقالهم فكان من الطبيعي بعد أن تمكن مصطفى كمال من استيفاء نصاب المجلس النيابي بأنصاره أن يحظى بانتخابهم إياه لرئاسة المجلس[٤] .

---

(١) محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص ٤٢١ .

- سعيد برجاوي : المرجع السابق ، ص ٣١٩ .

(٢) علي حسون : المرجع السابق ، ص ٣١٩ .

(٣) ضابط تركي سابق : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٦٠ ، ١٦٣ .

- زكريا بيومي : المرجع السابق ، ص ٢٨٠ .

(٤) محمود الشاذلي : المرجع السابق ، ص ٢٢٤ .

ولمزيد من الخداع والتحايل وليضفي مصطفى كمال الصبغة الشرعية على ما قام به دشن افتتاح المجلس في احتفال ديني مهيب عقب صلاة الجمعة يوم ٥ شعبان ١٣٣٨هـ / ٢٣ إبريل ١٩٢٠م تحت اسم (المجلس الوطني الكبير) ثم أصدر الأمر لجميع الولاة والقواد بأن المجلس سيكون المرجع الوحيد لجميع شئون الدولة المدنية والعسكرية[١] .

وكان من الطبيعي عندما وصلت أنباء هذه الأحداث إلى استانبول أن يتحرك السلطان لوضع حد لهذا المارق الذي استطال شره وكان قد تجنب الاصطدام به طويلاً خشية قيام حربٍ أهلية تزيد من تمزق بلاده ، ولكن لم يعد هناك مجال للصبر لذا فقد كلف وزير الحربية بإرسال قوات عسكرية لتعقب الثوار والقضاء عليهم [٢]. كما طلب من شيخ الإسلام أن يُصدر حكم الإسلام فيهم فصدر الحكم بخروج مصطفى كمال وأنصاره عن الطاعة واستباحة دمائهم ، فأعلن السلطان نداءً إلى الشعب يطلب مؤازرته للتصدي لهؤلاء المتمردين وقد كان لتلك الإجراءات التي اتخذها السلطان صدى بعيداً عند الشعب التركي المسلم فقد قامت الجماهير التركية المسلمة في مختلف أنحاء البلاد بمهاجمة الثوار ، كما تمكنت القوات العسكرية التي بعثها وزير الحربية والتي أطلق عليها (جيش الخليفة) من إحراز انتصارات كبيرة حيث تمكنوا من استعادة جميع المدن التي كان الثوار قد استولوا عليها[٣] .

---

(١) محمد عزة دروزة : تركيا الحديثة ، ص ٣٠ .

- فتحي شهاب الدين : المرجع السابق ، ص ٥٠ .

(٢) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج ١ ، ص ٢٦٢ .

- علي حسون : المرجع السابق ، ص ٣٢٠ .

(٣) مصطفى صبري : المصدر السابق ، ص ١٥٠ .

- سعيد برجاوي : المرجع السابق ، ص ٣٠٥ .

ولكن عندما أصبح جيش الخليفة على قيد أميال من أنقرة ذاتها وكانت كل الدلائل تشير إلى أن السلطان على وشك القضاء على مصطفى كمال وأتباعه تحرك الإنجليز وحلفاؤهم مجدداً لإنقاذ عميلهم اليهودي ، ففي ذلك الوقت بالذات راحوا يذيعون شروط معاهدة الصلح المعروفة بمعاهدة سيفر Sevres [١] - التي وافق عليها السلطان مرغمًا [٢]- بأسلوب إعلامي واسع بغرض إثارة نقمة الشعب على السلطان لما في تلك الشروط الجائرة من إجحاف بحق الدولة العثمانية وانتقاص من استقلالها[٣] .

وكما توقع ساسة الاستعمار كان لإعلان شروط تلك المعاهدة تأثير قوي فقد تحاملت الشعوب العثمانية عامة والتركية خاصة على السلطان ورئيس وزرائه لموافقتهم على هذه الشروط المذلة ، وأصبحت شروط هذه المعاهدة سلاحًا قويًا في يد مصطفى كمال وأنصاره للحملة على السلطان ووزرائه ، واتهامهم بالعجز والعمالة والتفريط في حقوق البلاد ، وهكذا تبدل الموقف وبدأت كفة أنقرة ترجح مرة أخرى[٤] .

ومن جانبٍ آخر فقد رأى الإنجليز أنه لا بد من إضفاء ثوب البطولة على هذا الزعيم المصطنع وأن أفضل مجال لذلك هو المعارك العسكرية التي تظهره بصورة المنقذ وتصبح المكوك الذي تنسج منه خيوط بطولته فيسطع نجمه ويعمي البصائر عن حقيقته .

---

(١) سبق أن تحدثنا عن هذه المعاهدة في المبحث الثاني من الفصل الرابع . ص (٣٤٠) .

(٢) حسن صبري الخولي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤٢٧ .

(٣) محمود شاكر : المرجع السابق ، ص ص ٢٣١ - ٢٣٢ .

(٤) محمد عزة دروزة : تركيا الحديثة ، ص ص ٣٧ - ٤٠ .

- محمود الشاذلي : المرجع السابق ، ص ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

لـذا فقـد راحـوا يستغلون طمـوح رئيـس الـوزراء اليوناني (فنزيلوس Venizelos) الذي كان يحلم بأن يجعل من بلاده امبراطورية عظيمة تمتلك سواحل الأناضول الغنية وتكون عاصمتها استانبول فأغروه بالتوغل داخل الأراضي التركية[١] ، واحتـلال أهم مـدن الأناضول وزودوا جيشـه المرابط في أزمير بالسلاح والذخيرة ، فزحف الجيش اليوناني من ازمير وهاجم العديد من مدن الأناضول وتمكن من احتلال مدينة (أفيون قره حصـار)[٢] وسط مذابح جماعية للمدنيين الأتراك المسلمين واعتداء على أموالهم وأعراضهم[٣] .

وأظهر اليهود والأرمـن فـي أنحـاء الأناضول ابتهاجهم بقدوم الغزاة وصبوا أحقادهم على المسلمين الأتـراك صبًا عنيفًا وتفننـوا فـي ايذائهـم وإهانتهم[٤].

وهب الشـعب التركي المسلم للجهـاد وتحرير بلاده من براثن الاحتـلال وسارع مصطفى كمال لتقمص دور البطل المحرر الذي رُسم له فدعا المجاهدين

---

(١) لم يكن الإنجليز في حقيقة الأمر يريدون أن يمكنوا اليونان من الاستيلاء على الأراضي العثمانية لأنهم يعلمون بأن استيلاءهم عليها يعني استيلاء روسيا عليها على اعتبار أن اليونان يدينون بالارثوذكسية وروسيا هي حامية الأرثوذكسية في العالم .

- محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٧٥٠ .

(٢) أفيون قره حصـار : مدينة تقع في جنوب غرب الأناضول شمـال أسكي شـهر ، وقد أوضحنا على خريطة الأناضول في الملحق رقم (٨) جميع مواقع المدن التي تعرضنا لذكرها في أحداث ثورة مصطفى كمال وحروبه مع اليونانيين .

(٣) هارولد تمبرلي وَ أ . ج . جرانت : المرجع السابق ، ص ص ٢٦٥ – ٢٦٦ .

- لوثروب ستودارد : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٤٨ .

- كارل بروكلمان : المرجع السابق ، ص ٦٩٢ .

(٤) محمد عزة دروزة : تركيا الحديثة ، ص ١١ .

إلى توحيد الجهود وتنظيم الصفوف وإلى دمج الكتائب والفرق المسلحة لتكون جيشًا نظاميًا تحت قيادته[١] ، ولأن الشعب التركي لم يكن يهمه إلا الجهاد لتحرير بلاده ومقاومة أعدائه ولأنه حتى ذلك الوقت لم يعرف حقيقة هذا القائد الذي كان يتلبس لباس الدين لذا فقد أجابه إلى ما أراد[٢] .

وفي شعبان ١٣٣٩هـ / ابريل ١٩٢١م تمكن الشعب التركي المسلم الأبي بقيادة (عصمت باشا)[٣] صديق مصطفى كمال وصفيه من تحقيق النصر على الجيش اليوناني في واد قريب من مدينة (اينونو) في غرب الأناضول وإجباره على التراجع وكان لهذا الحدث دويه في أنقرة فانتشى مصطفى كمال فخرًا بهذا النصر الذي سُجل لصالح حركته ، ولكن لم يلبث اليونانيون إلا وعاودوا الزحف من جديد واحتلوا مدينة افيون قره حصار مرة أخرى ومدينة (كوتاهية)[٤] وأحاطت قواتهم بمدينة (أسكي شهر) مركز التقاء الخطوط

---

(١) أحمد الزغيبي : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٢٥٤ .

- محمود الشاذلي : المرجع السابق ، ص ٢٢٧

(٢) عبدالله التل : الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام ، ص ٩٠ .

(٣) عصمت اينونو : من مواليد ازمير عام ١٣٠٢هـ / ١٨٨٥م بدأ حياته العسكرية بالخدمة في الجيش العثماني المرابط في اليمن ثم اشترك في الجيش الرابع في سوريا أثناء الحرب العالمية الأولى ، وانضم إلى حركة مصطفى كمال بعد الحرب وذاع صيته بعد انتصاره على اليونانيين في المعركة التي جرت في اينونو لذلك أطلق عليه عصمت اينونو، وأصبح رئيسًا للوزراء بعد إعلان الجمهورية التركية ، وبعد وفاة مصطفى كمال في عام ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م انتخب رئيسًا للجمهورية فأصبح زعيم حزب الشعب الجمهوري ، وسار على خطى سلفه إلا أنه سمح بإنشاء حزب معارض هو الحزب الديموقراطي ، وفي عام ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م فاز هذا الحزب بالانتخابات الرئاسية فحل جلال بايار محله في رئاسة الجمهورية .

- الموسوعة العربية الميسرة : ج ١ ، ص ٢٩٢ .

- موفق بني المرجة : المرجع السابق ، ص ٣٩١ .

(٤) كوتاهية : مدينة في غرب الأناضول جنوب اسكي شهر .

الحديدية ومفتاح الأناضول كله[١] .

وبينما كان عصمت باشا يحاول التصدي للهجوم اليوناني وافته الأوامر من مصطفى كمال بوقف العمليات العسكرية والتراجع إلى الشرق ثم التوقف قرب نهر (سقاريا)[٢] وقد كانت تلك الأوامر المريبة تعني ترك مساحة كبيرة من أراضي الأناضول ومواقع في غاية الأهمية لقمة سائغة للعدو بل وترك سكان تلك المناطق تحت رحمة اليونانيين القساة الغلاظ ليبطشوا بهم وينتهكوا حرماتهم ، لذا فقد أثارت تلك الأوامر فزع أعضاء المجلس الوطني ونقمتهم ، ولكن مصطفى كمال استطاع إقناعهم بأن الهدف من التراجع هو إيجاد خط دفاع عن أنقرة واطالة خطوط مواصلات وإمدادات العدو ومنح الفرصة للجنود الأتراك لإعادة تنظيم صفوفهم [٣].

ونلاحظ هنا أن موقف مصطفى كمال هذا قريب الشبه من موقفه في الجبهة السورية أثناء الحرب العالمية الأولى الذي سبقت الإشارة إليه مما يؤكد أن التقهقر والتنازل عن أرض الوطن بمن عليها كان أمرًا سهلاً على مصطفى كمال ، وهو في كلا الموقفين كان ينفذ تعاليم أربابه الإنجليز وإن كان في هذه المرة أكثر حماسًا لتنفيذ التعليمات لأنه يعلم أنها تمهيد لنصر مزيف سوف ينسب إليه .

وكما هو المتوقع فقد تقدم اليونانيون وتجمعوا غربي نهر سقاريا ، وفي

---

(١) ضابط تركي سابق : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢١٢ .

- كارل بروكلمان : المرجع السابق ، ص ٦٩٢ .

(٢) نهر سقاريا : ينبع من وسط الأناضول شمال أفيون حصار ثم يتجه شرقًا ويلتف شمالاً ويصب أخيرًا في البحر الأسود .

- علي حسون : المرجع السابق ، ص ٣٢٢ .

(٣) هـ . س . أرمسترونج : المصدر السابق ، ص ١٥٦ .

٢٠ ذي الحجة ١٣٣٨هـ / ٢٤ أغسطس ١٩٢١م التحم الفريقان في معركة حامية الوطيس وكان موقف الأتراك في غاية الحرج لأن هزيمتهم في هذه المعركة تعني سقوط أنقرة في أيدي اليونانيين وبالتالي سيطرتهم على كافة الأناضول[١] .

وقد استغل مصطفى كمال هذا الظرف الحرج فطالب المجلس الوطني بالموافقة على تكليفه رسمياً بالقيادة العامة للجيش ومنحه صلاحيات المجلس التشريعية والتنفيذية لمدة ثلاثة أشهر وعلى الرغم من أن هذه المطالب قد أثارت مخاوف وقلق الأعضاء من نوايا مصطفى كمال وأطماعه إلا أنه استطاع انتزاع موافقتهم عليها[٢] .

وفيما كان يُنتظر من مصطفى كمال - بعد منحه كل تلك الصلاحيات - أن يهرع إلى جبهة القتال ليشرف على سير المعركة نجده يتظاهر بالمرض ويلزم فراشه عدة أيام فيما كان الأتراك المسلمون يبذلون أرواحهم في ساحة المعركة فداءً للوطن[٣] .

وفي اليوم الثاني والعشرين من تاريخ بداية المعركة وفجأةً وبدون مقدمات توقف الجيش اليوناني عن الهجوم ثم أخذ يتقهقر عائداً من حيث أتى[٤] ، وأثناء هذا التراجع كان الجنود اليونانيون يعمدون إلى إحراق القرى وتهديم

---

(١) المصدر نفسه : ص ١٥٨ .

- أحمد الزغيبي : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٢٥٤ .

(٢) محمد عزة دروزة : تركيا الحديثة ، ص ٥٠ .

(٣) فتحي شهاب الدين : المرجع السابق ، ص ٥٢ .

(٤) علي حسون : المرجع السابق ، ص ٣٢٣ .

- محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص ٤٢٥ .

المنازل وقتل الأهالي . وهنا يظهر مصطفى كمال ليقوم بملاحقة الجيش اليوناني الذي استمر في التراجع حتى وصل موقعه السابق الذي بدأ منه هجومه ناحية أسكي شهر فعاد إلى التمركز فيه فما كان من مصطفى كمال إلا أن أمر جنده بأن يتخذوا لهم موقعًا في مواجهة الجيش اليوناني وعاد هو إلى أنقرة[١] .

وفي ذلك الوقت قامت وسائل الإعلام اليهودية داخل تركيا وخارجها بتسخير كافة إمكانياتها لإظهار مصطفى كمال في صورة البطل والمنقذ الذي استطاع دحر الأعداء وتحرير البلاد ، فاستقبل في أنقرة استقبال الفاتحين ومنحه الأتراك البسطاء لقب (الغازي) وهو اللقب الذي كان يُمنح للمجاهدين من الخلفاء العظام ، وتوالت عليه برقيات التهنئة بالنصر من روسيا وفرنسا وإيطاليا[٢] .

والتساؤل المطروح هنا ما الذي فعله مصطفى كمال حتى يرفع إلى مقام الأبطال والمجاهدين ويلقى كل هذا التكريم ؟ !

الواقع أن من يحاول أن يُقيّم العمل الذي قام به مصطفى كمال بفكرٍ متحررٍ من تأثير الدعاية اليهودية يجد أنه كان قد ارتكب جريمة في حق الوطن والمواطنين أولاً حين أمر الجيش التركي بالتراجع وترك مساحة شاسعة من أرض الوطن بمن عليها من المواطنين غنيمة سهلة للأعداء ، وثانيًا بتكبيده الجيش التركي المسلم ويلات القتال في معركة دامت قرابة الشهر من أجل تحرير تلك الأرض التي فرط بها !! إضافة إلى ما تعرض له سكان تلك المنطقة

---

(١) سعيد برجاوي : المرجع السابق ، ص ٣١٠ .

(٢) زياد أبو غنيمة : المرجع السابق ، ص ٥٣ .

- محمود الشاذلي : المرجع السابق ، ص ٢٢٨ .

- عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج ١ ، ص ٢٦٨ .

من أذى على يد الجيش اليوناني أثناء تقدمه وأثناء تراجعه .

ثم هل يعتبر اقتفاؤه لآثار الجيش اليوناني الذي كان قد انسحب وفق خطة رسمها الإنجليز انتصارًا ؟

أما عن صحة كونه انسحابًا مرسومًا فإن خير من يستشهد بقوله في هذا المجال أرمسترونج فإضافة إلى كونه من المدافعين عن مصطفى كمال فهو عسكري انجليزي معاصر للحدث ويقول فيه : « ... وفي اليوم الثاني والعشرين عبر اليونانيون نهر سقاريا عائدين من حيث أتوا حارقين ومدمرين كل ما وراءهم طبقًا لخطة مرسومة »[1] .

والحقّ أن هناك أطرافًا أُخرى غير الإنجليز كان لها دور فاعل في نجاح حركة مصطفى كمال واصطناع بطولته ومن أولئك روسيا التي فهمت مخطط الإنجليز فأرادت هي الأخرى أن تكسب مصطفى كمال إلى صفها أملاً في تحقيق أطماعها في أراضي الدولة العثمانية[2] ، لذا فقد عملت الحكومة الاشتراكية في موسكو على إنشاء علاقات دبلوماسية مع حكومة أنقرة المؤقتة وفي ٧ رجب ١٣٣٩هـ / ١٦ مارس ١٩٢١م أُبرمت معاهدة موسكو بين الحكومتين وهي المعاهدة التي أُطلق عليها معاهدة الصداقة بين تركيا وروسيا[3] . وقد تضمنت ست عشرة مادة اشتملت المادة الأولى منها على عدة مبادىء استهدفت دعم ثورة مصطفى كمال في مواجهة بريطانيا وحليفاتها وفي مواجهة حكومة إستانبول واشتملت أيضًا على اعتراف موسكو بالميثاق الوطني

---

(١) هـ . س . أرمسترونج : المصدر السابق ، ص ١٥٩ .

(٢) محمد عزة دروزة : تركيا الحديثة ، ص ٣٦ .

(٣) زكريا بيومي : المرجع السابق ، ص ص ٢٨٠ – ٢٨١ .

– محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص ٤٢٣ .

التركي ، كما نصت المادة الثانية من هذه المعاهدة على تنازل تركيا عن حق السيادة على ثغر باطوم على البحر الأسود [١].

ولترسيخ هذه الصداقة أصدر مصطفى كمال أوامره بتأسيس تنظيم شيوعي في تركيا كما أمر أتباعه بوضع الأشرطة الحمراء -شارة الشيوعيين- على قبعاتهم ، وعلى إثر هذا التقارب تدفقت الأسلحة والأموال من روسيا لدعم حركة مصطفى كمال[٢] .

أما فرنسا فقد أعادت النظر في موقفها الحربي والسياسي في منطقة الشرق الأوسط بعد أن عرفت الحدود الجغرافية لطموح مصطفى كمال من خلال تصريح أدلى به إلى أحد ممثليها الرسميين جاء فيه قوله : « ... تستطيعون أن تنالوا سوريا وبلاد العرب ولكن كفوا أيديكم عن تركيا نحن نطالب بحق كل شعب في الحرية داخل حدود بلادنا الطبيعية ولا نبغي شبراً واحداً أكثر من ذلك ولا أقل »[٣] .

ومن ثم أعلنت فرنسا في رجب ١٣٣٩هـ / مارس ١٩٢١م اعترافها بحكومة أنقرة ، وفي صفر ١٣٤٠هـ / اكتوبر ١٩٢١م عُقدت معاهدة سرية بين الحكومة الفرنسية وحكومة أنقرة عرفت باسم (معاهدة فرانكلين بويلون Franklin Bouillon) وهو اسم المندوب الفرنسي الذي وقع المعاهدة ، وقد تضمنت هذه المعاهدة مسائل في غاية الأهمية منها إنهاء حالة الحرب بين

(١) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج ١ ، ص ص ٢٧٠ - ٢٧١ .

- هارولد تمبرلي وَ أ . ج . جرانت : المرجع السابق ، ج ٢، ص ٢٧١ .

(٢) ضابط تركي سابق : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٨٢ .

- لوثروب ستودارد : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٥١ .

(٣) هـ . س . أرمسترونج : المصدر السابق ، ص ١٤٢ .

حكومة أنقرة وحكومة فرنسا وجلاء القوات الفرنسية من منطقة كيليكيا[١] ، وتخطيط الحدود بين تركيا وسوريا ، كما حصلت فرنسا بموجبها على امتياز لاستثمار مناجم الحديد والكروم والفضة في وادي نهر خرشوط الذي يصب في البحر الأسود ، وعندما جلى الفرنسيون عن منطقة كيليكيا تنازلوا لحكومة أنقرة عن مستودعات الأسلحة والذخيرة الموجودة بها كما سلموها ثمانين ألف جندي كانوا في أسرهم[٢] .

وكذلك إيطاليا كانت قد اتبعت نهج السياسة الفرنسية مع حكومة أنقرة فانسحبت في ذي القعدة ١٣٣٩هـ / يوليو ١٩٢١م من أنطاليا جنوب غرب الأناضول[٣] ، في مقابل احتفاظها بجزر الدوديكانيز في جنوب بحر إيجه كما أسهمت في تزويد حكومة أنقرة بالسلاح والذخيرة[٤] .

ونلاحظ من خلال العرض السابق أن جميع دول الحلفاء قد اعتمدت سياسة دعم الحركة الكمالية تجاه المشكلات الخاصة بتصفية ممتلكات الدولة العثمانية في منطقة الشرق الأدنى ، إلا إن الإنجليز كانوا أكثر حرصًا على سرية هذه السياسة .

وقد كان لهذه السياسة أثر واضح في تعزيز قوات الكماليين وبالتالي أصبح بإمكانهم مواجهة الجيش اليوناني الذي كان قد اعتراه الضعف على أثر الهزات العنيفة التي تعرض لها العرش اليوناني في تلك الفترة ، فقد توفي

---

(١) كيليكيا : منطقة جبلية تقع في إقليم طوروس في جنوب شرق الأناضول وشمال سوريا .

– عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج ١ ، ص ٢٧٣ .

(٢) لوثروب ستودارد : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٥٥ .

– محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص ص ٤٢٢ – ٤٢٣ .

(٣) بيير رنوفان : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٣٢٩ .

(٤) سعيد برجاوي : المرجع السابق ، ص ص ٣٠٧ – ٣٠٨ .

فجأة الملك إسكندر وأسفرت الانتخابات العامة التي أجريت في أعقاب وفاته عن تنحية رئيس الوزراء فنزيلوس Venizelos ، ثم أُعيد إلى العرش الملك الأسبق قسطنطين الذي كان قد أُقصي عن الحكم أثناء الحرب العالمية الأولى[١] ، فقام هذا الملك بإبعاد عدد كبير من ضباط الجيش عن الخدمة بحجة أنهم من أنصار الحكومة السابقة مما أدى إلى حرمان الجيش اليوناني من كفاءات عالية في وقت كان يتطلب حشد جميع الجهود لمواجهة القوات الكمالية[٢] .

ومن جانبٍ آخر فقد وجدت بريطانيا في تنحية فنزيلوس Venizelos الذي كان يتمتع بتقدير عميق من رجال السياسة في أوروبا للخدمات الجليلة التي أسداها للمعسكر الغربي ، وفي عودة الملك قسطنطين – المعروف بميوله القوية لألمانيا – إلى الحكم ذريعة للتخلي عن اليونان وحرمانه من دعمها العسكري[٣] ، وترك الجيش اليوناني الضعيف يواجه جيش الكماليين الذي كان قد أُعد أحسن إعدادٍ بمفرده[٤] .

وبعد أن استكمل الإنجليز جميع الترتيبات لضمان انتصار قوات الكماليين على الجيش اليوناني قام مصطفى كمال في ٤ محرم ١٣٤١هـ / ٢٦ أغسطس ١٩٢٢م بإصدار أمرٍ بشن هجومٍ على المواقع التي كان الجيش

---

(١) لوثروب ستودارد : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ص ١٤٨ – ١٤٩ .

– هارولد تمبرلي وَ أ. ج. جرانت : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٦٦ .

(٢) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج ١ ، ص ١٦٨ .

(٣) المرجع نفسه : ج ١ ، ص ١٦٧ .

(٤) أحمد الزغيبي : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٢٥٥ .

– محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص ٤٢٤ .

اليوناني قد تحصن فيها[١] ، وعلى الرغم من أن الجيش اليوناني كان يُعاني من نقص في المؤن الغذائية والأسلحة والذخيرة فقد حاول الصمود أمام جيش الكماليين الذي كان يفوقه في العدد والعدة ولكن أخذت صفوفه تنهار شيئًا فشيئًا ممّا أشاع الذعر في نفوس الجنود اليونانيين فعمدوا إلى الفرار صوب البحر تجاه أزمير[٢] ، وتعقبهم جيش الكماليين الذي تمكن من دخول إزمير في ١٨ محرم ١٣٤١هـ / ٩ سبتمبر ١٩٢٢م دون أن يلقى أي مقاومة لأن الجنود اليونانيين كانوا قد استقلوا سفنهم وعادوا إلى بلادهم[٣] .

ولكن في الوقت الذي كان مصطفى كمال يحتفل بانتصاره معتقداً أنه قد خلّص البلاد من خطر اليونانيين نهائيًا بعد انسحابهم من الأناضول ، كان اليونانيون يقومون بحشد قواتهم في تراقيا استعداداً للهجوم على استانبول . وهنا وجد مصطفى كمال نفسه مضطراً لمواجهة التحركات اليونانية لكي تكتمل أسطورة بطولته[٤] .

ولكي تصل قوات مصطفى كمال إلى اليونانيين كان عليها أن تعبر الدردنيل الذي كانت تحتله قوات الإنجليز الذين تظاهروا بالوقوف ضد مصطفى كمال وبمنع قواته من العبور[٥] . كما تظاهر هو أيضًا بعدم الانصياع لإجراءات المنع وأمر قواته بالتقدم واختراق القوات الإنجليزية ، وبدأ الموقف وكأن صداماً مسلحاً بين الطرفين على وشك الوقوع ولكن الاشتباك لم

(١) عبدالله التل : الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام ، ص ٨٩ .

(٢) مصطفى صبري : المصدر السابق ، ص ٢٦٩ .

(٣) كارل بروكلمان : المرجع السابق ، ص ٦٩٤ .

– بيير رنوفان : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٣٢٩ .

(٤) محمود الشاذلي : المرجع السابق ، ص ٢٢٨ .

(٥) بيير رنوفان : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٣٢٩ .

يحدث ولتبرير عدم حدوثه ادعت القوات الإنجليزية بأن الأوامر التي وصلتها كانت (مائعة) تقتضي منع مرور القوات الكمالية وفي الوقت نفسه عدم إطلاق النار أو استخدام العنف ! [١]. وفي المقابل ادعى مصطفى كمال أنه طبق خطة حربية أحرجت القوات الإنجليزية وذلك حين أمر جنوده بالتقدم وبنادقهم معكوسة مع الحرص على إظهار الاحترام للسلطات الإنجليزية ![٢] وفي هذا الصدد يقول أرمسترونج : « ... وكان طريقها يخترق الدردنيل وهناك التقى بجيش الاحتلال الإنجليزي ... بحيث لو أزمع الإنجليز مقاتلتهم حقًا لمنعهم من اللحاق باليونانيين لهزموهم شر هزيمة على الأقل بفضل خبرة ضباطهم واسطولهم العظيم وطائراتهم ولكن هل الإنجليز يعتزمون الاشتباك معهم حقًا ؟ »[٣] .

ونلاحظ هنا أن موقف الإنجليز هذا كان مفتضحًا إلى درجة أن أرمسترونج لم يجرؤ على إنكاره وهو الذي درج على إنكار وجود علاقة بين مصطفى كمال والإنجليز .

وعلى أي حال ففي اللحظات الحاسمة عندما كانت قوات مصطفى كمال تخترق الأسلاك الشائكة لتصل إلى القوات اليونانية جاءتها فجأة أوامر من مركز قيادتها بالتوقف لأن هناك مفاوضات لعقد هدنة[٤] .

وفي مدينة (مودانيا) على بحر مرمرة اجتمع مندوبون عن كل من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا بممثل تركيا عصمت باشا وبعد مباحثات انتهى هذا

---

(١) علي حسون : المرجع السابق ، ص ٣٢٤ .

(٢) هـ . س . أرمسترونج : المصدر السابق ، ص ١٧٤ .

(٣) المصدر نفسه : ص ١٧٣ .

(٤) محمود الشاذلي : المرجع السابق ، ص ٢٢٩ .

الاجتماع في ٢٠ صفر ١٣٤١هـ / ١١ أكتوبر ١٩٢٢م بعقد هدنة أُطلق عليها (هدنة مودانيا) تقرر فيها موافقة بريطانيا وحليفاتها على أن تسترد تركيا سيادتها على استانبول والمضائق وجلاء الحلفاء عن تركيا وجلاء اليونانيين عن تراقيا الشرقية[١] .

وقد برر الحلفاء هذه الإجراءات المثيرة للدهشة بتخوفهم من اندلاع حرب عالمية جديدة تنضم فيها روسيا الشيوعية إلى جانب تركيا[٢] .

إلا أننا نرى أن التبرير المقنع هو ما أورده المؤرخ الفرنسي بيير رنوفان Pierre Renouvin حيث يقول في هذا الصدد : « ... لكن هدنة مودانيا في ١١ أكتوبر ١٩٢٢م أعطت مصطفى كمال حق أخذ إدارة القسطنطينية وطرد السلطان ... لم يكن التأييد الدبلوماسي الذي أعطته روسيا السوفيتية للحكومة الكمالية بالتأكيد عنصراً كافياً للتفسير » [٣].

أجل هذا هو التفسير المنطقي لما حدث فقد أراد الحلفاء وفي مقدمتهم بريطانيا أن يظهروا مصطفى كمال في صورة البطل الذي دحر المحتلين وأجبرهم على الإنسحاب وحقق ما عجز السلطان عن تحقيقه ، وإن لم يكن الأمر كذلك فلماذا لم تعقد هدنة مودانيا مع الحاكم الشرعي – السلطان محمد وحيد الدين – وهو المتهم بموالاة الإنجليز وحلفائهم .

وقد انسحب اليونانيون من تراقيا في أعقاب توقيع هدنة مودانيا[٤] ، مما

---

(١) هارولد تمبرلي وَ أ . ج . جرانت : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٦٨ .
– سعيد برجاوي : المرجع السابق ، ص ٣١٢ .

(٢) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج ١ ، ص ٢٧٦ .

(٣) بيير رنوفان : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ص ٣٢٩ – ٣٣٠ .

(٤) هارولد تمبرلي و أ . ج . جرانت : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٦٨ .

يدل على حصول ضغط دولي لتحقيق ذلك[١] . بينما عُلق جلاء الحلفاء عن تركيا حتى يتم التوقيع على معاهدة الصلح الجديدة ، فلم يتم الجلاء إلا في صفر ١٣٤٢هـ / اكتوبر ١٩٢٣م [٢].

ويبدو واضحًا أن الهدف من تأجيل جلاء الحلفاء عن تركيا هو تحفيز مصطفى كمال لإتمام الخطوات الانقلابية المتفق عليها بينهم .

وقد استغلت وسائل الإعلام اليهودية انسحاب اليونانيين عن تراقيا ووعود الحلفاء بالجلاء عن تركيا لشن حملة دعائية ضخمة جندت فيها كل طاقاتها للترويج لانتصارات مصطفى كمال وتضخيمها واضفاء صفات البطولة والإقدام عليه وإظهاره في صورة المناضل الشجاع الذي حرر البلاد من براثن الاحتلال[٣] .

وقد نجحت للأسف الشديد الدعاية اليهودية المتمرسة في التضليل والخداع في إقناع المسلمين عامة والأتراك خاصة ببطولات مصطفى كمال وساعدها على ذلك أنه حتى ذلك الحين كان ما يزال يتستر بالإسلام فنشرت الصحف اليهودية[٤] ، صوره الفوتوغرافية وهو يتوسط الفقهاء ويصلي في مقدمة الجنود[٥] . فتعلقت به قلوب المسلمين على أنه المسلم المجاهد الذي تصدى للأعداء وعما قريب سيعيد للدولة الإسلامية مجدها وعظمتها[٦] ، وهيج

---

(١) علي حسون : المرجع السابق ، ص ٣٢٣ .

(٢) محمد عزة دروزة : تركيا الحديثة ، ص ٥٩ .

(٣) زياد أبو غنيمة : المرجع السابق ، ص ص ٥٣ – ٥٤ .

(٤) سبقت الإشارة إلى أن اليهود في تركيا كانوا يسيطرون سيطرة شبه تامة على وسائل الإعلام ولا سيما الصحافة ، انظر ص (٣٤) .

(٥) انظر الملحق رقم (١٠)

(٦) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٧٦٥ .

– عبدالله التل : الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام ، ص ٩٠ .

الحماس قريحة الشعراء المسلمين فتغنت حناجرهم ببطولة مصطفى كمال حتى أن أمير الشعراء أحمد شوقي شبهه بخالد بن الوليد وشبه انتصاره على اليونانيين بانتصار المسلمين في بدر وذلك حين يقول :

اللّه أكبر كمْ في الفتح من عَجَب

يا خالدَ التُّركِ جدد خالدَ العرب

يومٌ كبدرٍ فخيلُ الحق راقصةٌ

على الصعيد وخيل اللّه في السُّحْب

تحيةً أيُّها الغازي وتهنئةً

بآية الفتح تبقى آيةَ الحقب[1] .

وفي غمرة هذا الحماس وفيما الشعور قد تخدر من نشوة الانتصارات الزائفة رأى اليهودي مصطفى كمال أن الوقت مناسب لتنفيذ الجزء الأخير من الخطة الإجرامية التي رسمت لمحاربة الإسلام والقضاء على الدولة العثمانية ، فأعلن عن قيام الجمهورية التركية وألغى الخلافة الإسلامية وتنكر لكل القيم الإسلامية على النحو الذي سنوضحه في المبحث التالي إن شاء اللّه .

---

(١) أحمد شوقي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ص ٤٤ – ٤٧ .

المبحث الثاني

الدونمة مصطفى كمال يعلن إلغاء الخلافة العثمانية وقيام الجمهورية التركية العلمانية

ساد اعتقاد لدى الرأي العام في تركيا في أعقاب هدنة مودانيا Mudanya وما ترتب عليها من نتائج بأن النصر العسكري قد تم وأن الأمور قد دخلت في طور المفاوضات السياسية التي هي مسئولية الإدارة المدنية المرتبطة بالسلطان في استانبول ، ورأى أعضاء المجلس الوطني الكبير - الذي تشكل على يدي مصطفى كمال نفسه - أنه لم يعد هناك داع للثنائية حكومة مؤقتة في أنقرة وأخرى رسمية في العاصمة واقترح بعضهم أن تدمج الحكومتان في حكومة واحدة يصبح فيها مصطفى كمال رئيسًا للوزراء[١] . وقد أبدت الحكومة الشرعية في استانبول استعدادها للتوفيق بين الحكومتين[٢] .

ولكن مصطفى كمال الذي كان قد تعهد عند تعيينه قائدًا عامًا بأنه سيعود مواطنًا عاديًا في صفوف الشعب حالما يتحقق النصر لم يكن ليقنع حتى برئاسة الوزراء[٣] ، فقد كان يطمع بأن يكون حاكمًا مطلقًا على البلاد ولكنه كان ما يزال يخفي نواياه الحقيقية ويتحين الفرصة الملائمة لتحقيق أطماعه ، لذا فقد حاول في هذا الوقت التهرب من مواجهة أعضاء المجلس الوطني الذين كانوا يتساءلون عن وضع الحكومة المؤقتة وعن إمكانية دمجها مع الحكومة الشرعية في استانبول[٤] .

---

(١) هـ . س . أرمسترونج : المصدر السابق ، ص ١٨١ .

(٢) محمد عزة دروزة : تركيا الحديثة ، ص ٥٥ .

- محمود الشاذلي : المرجع السابق ، ص ٢٢٧ .

(٣) ضبط تركي سابق : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٥٦ .

(٤) هـ . س . أرمسترونج : المصدر السابق ، ص ١٨١ .

ولم يترك الإنجليز عميلهم في هذا الموقف المحرج طويلاً إذ سرعان ما أسعفوه بالفرصة التي كان يرتقبها ففي ٧ ربيع الأول ١٣٤١هـ / ٢٧ اكتوبر ١٩٢٢م وجهت بريطانيا وحليفاتها الدعوة إلى كل من الحكومة الشرعية في استانبول والحكومة المؤقتة في أنقرة لحضور المؤتمر الذي سوف يعقد في العاصمة السويسرية لوزان لوضع معاهدة الصلح الجديدة التي ستحل محل معاهدة سيفر Sevres [(١)].

فمن الواضح أن توجيه الدعوة بهذه الكيفية كان ينطوي على مكرٍ شديد وهو تحفيز مصطفى كمال لاتخاذ إجراء سريع يحسم الموقف بين الحكومتين.

وقد فهم مصطفى كمال الإشارة التي بعثها إليه الإنجليز من خلال توجيه تلك الدعوة المزدوجة ، وأدرك أن الوقت قد حان لتسديد ضربته الأولى نحو الهدف ، فدعا المجلس الوطني للاجتماع ، فاجتمع المجلس ، وفي وسط الضجيج الذي ساده بشأن دعوة الحلفاء للحكومتين صعد مصطفى كمال على المنبر وطلب من الحضور الإصغاء إليه ثم اقترح فصل السلطنة عن الخلافة وأن تُلغى السلطنة ويُخلع السلطان محمد وحيد الدين ، فصعق النواب من هول المفاجأة بهذا الاقتراح وأعرب غالبيتهم عن رفضهم له[(٢)] .

ولكن أمام إصرار مصطفى كمال على رأيه طالب النواب بإحالة الاقتراح على لجنة الشؤون القانونية للنظر فيه ، فاجتمعت تلك اللجنة التي كانت مؤلفة من علماء في الشؤون الدينية وخبراء في القانون في ١٢ ربيع الأول ١٣٤١هـ/

---

(١) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج ١ ، ص ٢٧٨ .

- فتحي شهاب الدين : المرجع السابق ، ص ٥٣ .

(٢) محمد عزة دروزة : تركيا الحديثة ، ص ٥٦ .

١ نوفمبر ١٩٢٢م ، وبعد أن أمضت ساعات طويلة في مناقشة موضوع فصل السلطنة عن الخلافة انتهت إلى رفض هذا الاقتراح مدعمة رفضها بالعديد من نصوص القرآن الكريم والسنة المشرفة التي تثبت أن الخلافة والسلطنة وحدة لا يمكن تجزئتها[١] .

ولكن اليهودي الدونمة مصطفى كمال الذي أُثر عنه قوله : « نحن الآن في القرن العشرين لا نستطيع أن نسير وراء كتاب تشريع يبحث عن التين والزيتون »[٢] لم يكن ليقيم وزنًا لا لرأي اللجنة ولا لحكم الشريعة الإسلامية فقد عقد العزم على أن يضع العالم الإسلامي أمام الأمر الواقع واتخذ لهذا القرارعدته .

فبعد أن أدلت اللجنة برأيها وقف مصطفى كمال يحيط به أنصاره المسلحون وصاح بأعلى صوته قائلاً : « ... إنني أرى أن من المستحسن أن يوافق المجتمعون هنا وأعضاء المجلس على اعتبار هذه قضية طبيعية ولكن إذا حدث العكس فإن هذا الأمر سينفذ أيضًا وفي إطار المجرى الطبيعي ، ولكن من المحتمل أن بعض الرؤوس ستقطع »[٣] .

وفي هذا الجو المفعم بالديموقراطية على الطريقة الكمالية طُرح الاقتراح

---

(١) علي حسون : المرجع السابق ، ص ٣٢٥ .

- محمود الشاذلي : المرجع السابق ، ص ٢٣١ .

(٢) ظل مصطفى كمال يتلبس لباس الدين ويخفي حقيقة مشاعره الدينية إلى أن استتبت له الأمور بعد الإعلان عن قيام الجمهورية التركية حيث بدأ يتنكر للقيم الإسلامية وبلغت به الوقاحة أن أصبح يتهجم على القرآن الكريم علانية في مجلس الشعب .

- محمد علي الزعبي : الماسونية في العراء ، ص ٢٢١ .

(٣) ضابط تركي سابق : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٥٩ نقلاً عن :

- مصطفى كمال : الخطابة ، ص ٤٢٢ .

للتصويت فلم ترتفع سوى أيدٍ قليلة - ممن آثروا النجاة بأرواحهم - ومع ذلك فقد أعلن رئيس الجلسة - الذي لم تفارق عيناه أنصار مصطفى كمال الذين وضعوا أيديهم على مسدساتهم - النتيجة بأن المجلس أقر الاقتراح بالإجماع فساد الهياج وتعالت الأصوات ورفعت الجلسة وغادر مصطفى كمال قاعة المجلس[١] .

وبعد مرور خمسة أيام على اتخاذ هذا القرار تم تنفيذه عمليًا حين قام الكماليون بهجوم مفاجيء على العاصمة واستولوا على الدوائر الحكومية فيها وعزلوا حكومة السلطان بالقوة على مرأى ومسمع القائد العام الإنجليزي[٢] ، وفي ٢٨ ربيع الأول ١٣٤١هـ / ١٧ نوفمبر ١٩٢٢م رُحّل السلطان محمد وحيد الدين على متن بارجة حربية إنجليزية إلى جزيرة مالطة[٣] ونودي بالأمير العثماني عبد المجيد ابن السلطان عبد العزيز (١٣٤١ - ١٣٤٢هـ / ١٩٢٢ - ١٩٢٤م) خليفة للمسلمين لا سلطانًا بانتخاب من المجلس الوطني الكبير[٤].

وهكذا فصل مصطفى كمال السلطنة عن الخلافة وأحدث حدثًا هو الأول من نوعه في التاريخ الإسلامي ، فلم يحدث قط في تاريخ المسلمين وحكوماتهم من قبل أن تجرأت حكومة على المجاهرة بالخروج عن رقابة الإسلام فحاولت فصل الدين وعزله عن السياسة ، بل لم نسمع بأن الفكرة قد راودت أي حاكم

---

(١) حسن جيلان : الصراع بين الإسلام والعلمانية ، تعريب : كمال خوجه ، الطبعة الأولى (جدة : دار القبلة للثقافة الإسلامية ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م) ، ص ٦٣ .

- إسماعيل ياغي : الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث ، ص ٢٣٠ .

(٢) علي حسون : المرجع السابق ، ص ٣٢٥ .

(٣) محمود شاكر : المرجع السابق ، ص ٢٣٣ .

- يلماز أوزتونا : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٦١ .

(٤) مصطفى صبري : المصدر السابق ، ص ١٢٠ .

من حكام المسلمين مهما بلغ بـه الفسـق والاستهتار ، ذلـك لأن فصل الدين عن السياسة هو في حقيقته تجريد الحكومـة من الدين وتحللها من تعاليمه وأحكامـه ، كـمـا تكمن خطورة هذا الأمـر في العـلاقـة المعكوسـة بين الدين والحكومـة التي يتمـخض عنها ذلك الفصل بينهما فـفـيـمـا كانت الحكومـة الإسلامـية منذ نشأتها تخضع لأحكام الدين وإذا خالفت حكمًا من أحكامه اعتبرت مذنبة وتعرضت لمحاسبة المسلمين ، سيقضي الفصل بينهما إلى وضع الدين تحت تصـرف الحكومـة ، وهو أمـرٌ ينافي عـزة الإسـلام ويتـعـارض مع أهدافه كما انه سبيل إلى تنحيته .

وفي أعقاب هذه الخطوة الانقلابية الخطيرة ذهب الوفد التركي إلى لوزان ممثلاً لحكومة أنقرة وحدها بعد أن خلى لها الميدان ، وكان رئيس الوفد عصمت باشا اينونو الذي كـان مصطفى كمال قـد عيـنه وزيرًا للخارجية وكان برفقته (رضـا نور)[١] وزيـر الصحـة و (حـاييـم نـاحـوم)[٢] كبير الحاخامين اليهود

---

(١) رضـا نور : طبيب ومؤرخ وسياسي تركي شغل منصب نائب وزير الخارجية في عهد مصطفى كمال ، كتب مذكراته وأودعها فرنسا مشترطًا عدم نشرها قبل عام ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م وقد نشرت في تركيا عام ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م فـأحدثت ضجـة كبيرة لما حوته من فضـائح كمالية فقامت الحكومة التركية آنذاك بمصادرتها .

– موفق بني الموجة : المرجع السابق ، ص ٢٦٨ .

(٢) حاييم ناحوم : ولد عام ١٢٩٠هـ / ١٨٧٣م في أسرة يهودية كانت تعيش في قرية بالقرب من ازمير وتعلم في مدرسـة القرية ثم ذهب إلى استانبول حيث التحق بكلية الحقوق وبعد تخرجه سافر إلى باريس ودرس علوم الدين في جامعة السوربون وعندما عاد إلى تركيا عُين أستاذًا لفقه التلمود في المدرسة الإسرائيلية العليا وكان يُتقن اللغة الفرنسية والإنجليزية والإسبانية والعربية إضافة إلى التركية والعبرية ، عمل أثناء الحرب العالمية الأولى في المخابرات في تركيا وفي جميع الدول العربية، ثم عُين كبير الحاخامين اليهود في تركيا ، وأصبح من المقربين لمصطفى كمال وعصمت اينونو . وبعد إلغاء الخلافة الإسلامية انتقل حاييم ناحوم إلى القاهرة حيث أصبح كبير للحاخامين هناك .

– موفق بني المرجة : المرجع السابق ، ص ٢٦٩ .

– الموسوعة العربية الميسرة : ج ٢ ، ص ١٨١٤ .

في الدولة العثمانية[١] .

وقد جرى عقد المؤتمر على فترتين بدأت الفترة الأولى في ١ ربيع الثاني ١٣٤١هـ / ٢٠ نوفمبر ١٩٢٢م واستمرت جلسات المؤتمر والمفاوضات بين عصمت باشا واللورد (كرزون Curzon) ممثل الحلفاء ورئيس الوفد الإنجليزي حتى ١٨ جمادى الثانية ١٣٤١هـ / ٤ فبراير ١٩٢٣م حيث انفض المؤتمر وعاد عصمت باشا والوفد المرافق له إلى أنقرة دون أن يتم التوقيع على معاهدة الصلح ، وفي ٨ رمضان ١٣٤١هـ / ٢٣ ابريل ١٩٢٣م بدأت الفترة الثانية من المؤتمر حيث استأنف عقد جلساته[٢] ، وتم التوقيع على معاهدة الصلح في ١١ ذي الحجة ١٣٤١هـ / ٢٤ يوليو ١٩٢٣م واعترف الحلفاء باستقلال تركيا[٣] .

وفيما يلتزم المؤرخون الغربيون[٤] الصمت تجاه تفسير أسباب انقطاع المفاوضات وتفرق الوفود دون أن يتم التوقيع على معاهدة الصلح في الفترة الأولى للمؤتمر ، كما التزموا نفس الموقف تجاه تفسير سبب التغير المفاجيء في موقف المتفاوضين في الفترة الثانية من المؤتمر حيث تم الاتفاق والتوقيع على معاهدة الصلح والاعتراف باستقلال تركيا . نجد أن المصادر التاريخية

---

(١) مصطفى صبري : المصدر السابق ، ص ٢٦٥ .

- أحمد نوري النعيمي : يهود الدونمة ، ص ص ٩٥ - ٩٦ .
- عبدالله التل : الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام ، ص ٩٤ .

(٢) حسن صبري الخولي : المرجع السابق ، ج ١، ص ٤٣٠ .

(٣) هارولد تمبرلي وَ أ. ج. جرانت : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٦٨ .

(٤) التزم بهذا الموقف كل من :

- هـ . س . أرمسترونج : المصدر السابق ، ص ١٩٠ .
- كارل بروكلمان : المرجع السابق ، ص ٦٩٤ .

الإسلامية تذكر بأن سبب انقطاع المفاوضات هو أن كرزون Curzon ممثل الحلفاء ورئيس الوفد الإنجليزي وضع أربعة شروط لاتمام معاهدة السلام والإعتراف باستقلال تركيا وهي :

أولاً : أن تقطع تركيا صلتها بالإسلام .

ثانيًا : أن تُلغى الخلافة الإسلامية نهائيًا .

ثالثًا : أن تضمن حكومة تركيا إخماد أي حركة يقوم بها أنصار الخلافة .

رابعًا : أن يُستبدل بالدستور العثماني المستمد من الشريعة الإسلامية دستور مدني بحت .

كما تذكر تلك المصادر بأن الوفد التركي عندما عاد إلى تركيا وأخبر مصطفى كمال بأمر تلك الشروط التي أملتها بريطانيا وحليفاتها ، قبل بتنفيذها فتم التوقيع على معاهدة الصلح واعترف الحلفاء باستقلال تركيا[1] .

ولكي نثبت أن صفقة بيع الخلافة الإسلامية قد تمت فعلاً في لوزان بين ممثلي اليهودي الدونمة مصطفى كمال وممثلي القوى الصليبية الاستعمارية قمنا بتتبع القرائن التي وجدناها متفرقة في كتب المؤرخين المسلمين فوجدنا أن جمع هذه القرائن في إطار واحد يكسبها قوة الإثبات القاطع .

ومن ذلك أنه في أعقاب توقف مؤتمر لوزان وعودة الوفد التركي قام مصطفى كمال بجولة على عدد من المدن التركية في محاولة لتهيئة الشعب لتقبل الخطوات التي اعتزم القيام بها إنفاذًا للشروط التي أملتها بريطانيا

---

(١) مصطفى صبري : المصدر السابق ، ص ص ٢٦٥ – ٢٦٦ .

– ضابط تركي سابق : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٨٧ – ٢٨٩ .

– فتحي شهاب الدين : المرجع السابق ، ص ٥٤ .

وحليفاتها ويكاد مصطفى كمال نفسه أن يقر بأن هذا هو الهدف الحقيقي لجولته حين يبرر أسباب تلك السياحة في كتابه الخطابة قائلاً : « ... لمعرفة رأيهم في مؤتمر لوزان ، وفي سلطة الأمة ومقام الخلافة وأوضاعها وعلاقاتها ... ولكي أزيل تردد وقلق الأمة حول مسألة الخلافة فإنني قمت في كل مكان بإعطاء إيضاحات وبيانات كافية قد قلت بشكل قطعي بأنه لن يسمح لكائن من كان مهما كان عنوانه بأن يتدخل في مقدرات الدولة الجديدة التي أنشأتها أمتنا أو في صلاتها أو في استقلالها ... لقد أوضحت للأمة كيف أن دولة تركيا وشعبها القليل النفوس لا تستطيع أن تكون رهن إشارة خليفة يفترض فيه أنه مكلف بتأسيس دولة إسلامية شاملة »[١] .

فلو لم يكن هناك علاقة بين مؤتمر لوزان وبين الخلافة فما الداعي إلى إثارة مسألة الخلافة في هذا الوقت بالذات .

كما لوحظ في أعقاب توقف المؤتمر أن عضو الوفد التركي حاييم ناحوم كبير حاخامين اليهود في الدولة العثمانية كان يتردد كثيراً على الدوائر الحكومية في تركيا وكذلك لوحظ تكرار سفره إلى بريطانيا في تلك الفترة مما يدل على أنه كان يقوم بدور الوسيط أو السمسار بين الطرفين[٢] . وتأتي شهادة المؤرخ اليهودي إيلي ليفي أبو عسل خير دليل على اضطلاع حاييم ناحوم بهذا الدور حيث يقول : « ... من غريب الإتفاق أن انتخاب ناحوم أفندي كان في وقت هبوب العاصفة العنيفة التي اضطربت لها أعصاب تركيا وهزت أركان النظم التي كانت سائدة فيها ... فكانت نتيجة ما أظهره من الترفع عن التعصب ومن صدق العاطفة الوطنية أن سمت مكانته وارتفعت منزلته في أعين

---

(١) ضابط تركي سابق : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ص ٢٨٤ – ٢٨٦ نقلاً عن :

مصطفى كمال : الخطابة، ص ص ٤٢٩ – ٤٣٣ .

(٢) موفق بني المرجة : المرجع السابق ، ص ٢٦٩ .

مصطفى كمال والوزراء وغيرهم من ذوي الحل والعقد ... وقد ناطت به معالجة القضية التركية ليتولى الدفاع عن مصالحها الحيوية ... فأفرغ ما كان في جعبة قريحته من حذق ومهارة وروية وإقناع للوصول إلى تضييق هوة الخلاف والتشاد ووقاية تركيا وحفظها من الوقوع بين مخالب الحلفاء وكان من جراء ذلك أن أزال سوء التفاهم ومهد الطريق لتسهيل المفاوضات التي قامت عليها دعائم السلام »[١] .

ومن جانبٍ آخر فقد عمد مصطفى كمال في الفترة التي أعقبت انقطاع المؤتمر إلى استخدام طريقة الإرهاب وتدبير عمليات اغتيال لبعض النواب المعارضين لسياسته ، كما أصدر مرسومًا يقضي بإلغاء حصانة النواب من الاعتقال والمحاكمة[٢] .

ومن الواضح أن مصطفى كمال قد اتخذ هذه الإجراءات ليضمن تمرير شروط الصلح على المجلس دون معارضة .

ومما يمكن الاستشهاد به أيضًا ما رواه الحاج محمد أمين الحسيني مفتي فلسطين في مذكراته من أنه لقي في ألمانيا كمال بك أوخري من رئاسة أركان مصطفى كمال فأكد له أن اللورد كرزون Curzon وقف موقفًا صلبًا حينما تباحث مع عصمت باشا اينونو حول مصير الخلافة وأبدى مخاوفه من تجمع المسلمين حول (النواة) وعودة المسألة الشرقية ، وعندما رجع عصمت إلى مصطفى كمال قبل بشروط كرزون[٣] .

---

(١) عبدالله التل : الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام ، ص ٩٤ ، نقلاً عن :

– إيلي ليفي أبو عسل : يقظة العالم اليهودي ، ج١ ، ص ص ٢٥٨ – ٢٥٩ .

(٢) محمود الشاذلي : المرجع السابق ، ص ٢٣٤ .

(٣) موفق بني المرجة : المرجع السابق ، ص ٢٦٨ .

وأخيراً نورد هذا الدليل الذي يقوم مقام الوثيقة حيث يعترف الدكتور رضا نور وهو الرجل الثاني في الوفد التركي إلى مؤتمر لوزان في كتابه (حياتي وذكرياتي) بحقيقة ما تم في ذلك المؤتمر حين يقول : « ... لقد كنت أول من تلفظ بهذه الكلمة في جلسات مؤتمر لوزان إذ قلت : إن تركيا أصبحت علمانية وقد انفصل الدين عن الدولة ، وإذا ما تم الصلح فإننا سنقوم بوضع القوانين المدنية ... كانت هذه أهم نقاط الارتكاز التي اعتمدنا عليها في لوزان ... أن صفقة بيع وشراء الخلافة ، والتنازل عن الموصل[١] قد تم بين لندن وأنقرة وما حضور وفد تركي إلى لوزان إلا للتمويه والتوقيع » وعن دور الحاخام اليهودي حاييم ناحوم في إتمام هذه الصفقة يقول رضا نور في موضع آخر من كتابه : « ... كان هناك تنسيق بين حاييم ناحوم واللور كرزون رئيس الوفد البريطاني ، وهما يؤكدان أن إلغاء الخلافة يساعد على تحقيق الصلح . وفي حقيقة الأمر إن حاييم ناحوم ومنذ مدة ليست بالقصيرة مهتم كل الاهتمام بمصير الخلافة في الدولة العثمانية وكان حلقة وصل بين اينونو واللورد كرزون في هذا المجال »[٢] .

وهكذا أصبح واضحاً أنه قد كان هناك اتفاق مسبق بين اليهودي الدونمة مصطفى كمال وبين الإنجليز على أن يتكفل مصطفى كمال بهدم الخلافة

---

(١) أبدى الإنجليز اهتماماً خاصاً بالموصل للسيطرة على منابع النفط الموجودة بها .

- زين نور الدين زين : نشوء القومية العربية ، ص ١١٤ .
- محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص ٤٣٢ .

(٢) داود عبد الغفور سنقرط : القوى الخفية لليهودية العالمية الماسونية ، ص ١٣٧ .

- أحمد نوري النعيمي : يهود الدونمة ، ص ٩٦ .
- جميل المصري : المرجع السابق ، ص ١٢٧ .

نقلاً عن رضا نور : حياتي وذكرياتي ، ج ٣ ، ص ٩٦٩ ، ١١٨٨ .

الإسلامية ومحاربة الإسلام مقابل أن يتنازل له الإنجليز عن تركيا الوطن الذي قلمت أظافره وقصت أجنحته ، وأن الإنجليز قبل أن يمنحوا مصطفى كمال المكافأة التي وعدوه بها أرادوا أن يستوثقوا من التزامه بإتمام بقية الخطوات التي تضمن قطع دابر الإسلام والخلافة الإسلامية في تركيا نهائيًا ، وهنا قام الحاخام اليهودي حاييم ناحوم بدور الوسيط بين الطرفين ويظهر جليًا أن وساطته كانت موفقة وأنه نقل إلى الإنجليز وعد مصطفى كمال بالالتزام باتمام المهام المنوطة به ، إذا تم الصلح ومنحه الإنجليز المكافأة التي وعدوه بها ، فما كان من الإنجليز إلا أن أتموا الصلح ومنحوه استقلال تركيا وسحبوا جيوشهم منها .

والحق أن مصطفى كمال كان حريصًا على الوفاء بوعده للإنجليز رغم أن الوفاء ليس من شيم اليهود ولعل السبب في ذلك هو ما ينطوي عليه ذلك الوعد من كيد للإسلام والمسلمين وإرضاء لنزعاته الشخصية ، فما أن تم صلح لوزان حتى لجأ إلى تدبير المكائد ضد الجمعية الوطنية ووضع المآزق والعراقيل أمامها[1] ، ثم نجح في تحريض الوزراء على الاستقالة بحجة كثرة تدخل النواب في اختصاصاتهم ومحاسبتهم لهم في كل صغيرة وكبيرة[2] ، وعندما اجتمعت الجمعية الوطنية لتشكيل حكومة جديدة كثر بين أعضائها الجدل والشجار وسادت الفوضى ، وبإيعاز من مصطفى كمال اقترح أحد أنصاره من أعضاء الجمعية الوطنية استدعاء مصطفى كمال لإخراج الجمعية من ذلك المأزق ، وفي غمرة تلك الفوضى وافق النواب على الإقتراح فلما استدعته الجمعية الوطنية لحل تلك الأزمة ، اشترط قبول رأيه بلا مراجعة فوافقوا على ذلك[3] .

---

(١) محمود شاكر : المرجع السابق ، ص ٢٣٣ .

(٢) محمد عزة دروزة : تركيا الحديثة ، ص ٦٥ .

(٣) محمود الشاذلي : المرجع السابق ، ص ٢٣٦ .

وفي يوم ١٩ ربيع الأول ١٣٤٢هـ / ٢٩ اكتوبر ١٩٢٣م حضر مصطفى كمال إلى مقر الجمعية وصعد المنبر وقال : « لقد أرسلتم في طلبي كي أنقذ الموقف في لحظة الحرج لكن هذا الحرج من صنعكم أنتم ، فليس منشأ هذه الأزمة أمر عابر بل خطأ أساسي في نظام حكومتنا ... لذلك أقرر أن تصير تركيا جمهورية لها رئيس يختار بطريق الانتخاب »[١] وذهل النواب لهذا القرار المفاجيء وعلى الرغم من امتناع أربعين في المائة من النواب عن التصويت لهذا القرار فقد أُقر الأمر وانتخب مصطفى كمال رئيساً للجمهورية التركية[٢] .

وهكذا تحققت لمصطفى كمال السلطة المطلقة التي كان يسعى إليها فقد أصبح الحاكم الرسمي للبلاد علاوة على كونه رئيس مجلس الوزراء ورئيس الجمعية الوطنية والقائد العام للقوات العسكرية .

ولكن مصطفى كمال لم يف بعد بأهم الوعود التي قطعها على نفسه ولم يؤد أهم الواجبات المناطة به وهي القضاء على الخلافة الإسلامية وقطع صلة تركيا بالدين الإسلامي[٣] . وفي هذا الصدد يقول أرمسترونج في صراحة فاضحة : « ... لكن كفاحه الأكبر كان ما يزال ينتظره ولقد طالما أوضح لأصدقائه أنه يرى وجوب اقتلاع الدين من تركيا »[٤] .

فلأن الخلافة الإسلامية هي الحارس والذائد عن حمى الدين الإسلامي والعقد الذي ينتظم الشعوب الإسلامية فقد كان بقاؤها ولو بذلك الشكل

---

(١) هـ . س . أرمسترونج : المصدر السابق ، ص ٩٤ .

(٢) علي حسون : المرجع السابق ، ص ٣٢٦ .

- حسن جيلان : المرجع السابق ، ص ١٣٦ .

(٣) مصطفى صبري : المصدر السابق ، ص ٢٦٦ .

(٤) هـ . س . أرمسترونج : المصدر السابق ، ص ١٩٥ .

الرمزي ما يزال يشكل خطراً على المخططات الصهيونية والاستعمارية ومنها مصطفى كمال نفسه .

لذا فلم تكد قبضة مصطفى كمال تهيمن على زمام حكم البلاد حتى وجه اهتمامه لإلغاء الخلافة[١] ، سيما وقد لاحظ أن الكثير من المعارضين له من السياسيين وعلماء الدين قد أخذوا يلتفون حول الخليفة عبد المجيد في استانبول وأصبحوا بمثابة حزب معارضة يشكل خطورة كبيرة عليه خاصة بعد افتضاح ميوله ونواياه على إثر الخطوات الانقلابية الخطيرة التي أقدم عليها[٢].

وقد اتخذ مصطفى كمال عدة إجراءات تمهيداً لتنفيذ الأمر الذي اعتزمه ومن ذلك أنه أمر بإلغاء المظاهر الرسمية التي كانت تحيط بموكب الخليفة أثناء ذهابه لتأدية الصلاة وأثناء استقباله للشخصيات الإسلامية وخفض المخصصات المالية التي كانت تصرف للخليفة وأُسرته[٣] .

كما أصدر في ٣ ربيع الأول ١٣٤٢هـ / ١٣ اكتوبر ١٩٢٣م قراراً بنقل العاصمة من استانبول إلى أنقرة [٤]، وقد كانت هذه الخطوة - علاوة على

---

(١) عبد الحليم عويس : دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية ، الطبعة الثالثة (جدة : دار الشروق ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م) ، ص ١٩٨ .

(٢) محمد عزة دروزة : تركيا الحديثة ، ص ٦٧ .

(٣) المصدر نفسه : ص ٦٧ .

(٤) يركز بعض المؤرخين في مناقشتهم لدوافع مصطفى كمال لاتخاذ هذه الخطوة على المبررات المتعلقة بالموقع الجغرافي والعسكري لهذه المدينة فيرجعون ذلك إلى كون استانبول مدينة مكشوفة ومعرضة لهجوم الأعداء من ناحية البر والبحر فيما أنقرة مدينة منيعة محصنة بالجبال .

- هارولد تمبرلي وَ أ . ج . جرانت : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٦٩ .

كونها ضربة كبيرة لاستانبول حيث حرمت من مركز ظلت تشغله قرابة الخمسة قرون كعاصمة للدولة الإسلامية - محاولة لطمس كل ما يرتبط بهذه المدينة في أذهان المسلمين من ماض حافل بالأمجاد ، هذا عدا كونها مقر علماء الدين وأنصار الخلافة الإسلامية في تركيا[١] .

ومن جانبٍ آخر فقد لجأ مصطفى كمال إلى استخدام الأساليب الإرهابية ليزرع الرعب في قلب من قد تسول له نفسه أن يعترض على ما قرر القيام به ، ومن ذلك أن أحد النواب أظهر اعتراضاً في إحدى جلسات الجمعية على بعض الإجراءات التي كان مصطفى كمال قد قام بها فما كان منه إلا أن كلف شخصاً باغتياله في نفس الليلة أثناء عودته إلى منزله[٢] .

وعندما استكمل مصطفى كمال بناء خطته وأصبح على أتم الاستعداد لمواجهة الموقف قام بتوجيه الضربة القاضية نحو الخلافة الإسلامية وذلك حين قدم للجمعية الوطنية في ٢٧ رجب ١٣٤٢هـ / ٣ مارس ١٩٢٤م مرسوماً يقضي بإلغاء الخلافة ونفي الخليفة وجميع أبناء البيت العثماني إلى خارج البلاد وفصل الدين عن الدولة ، فوافقت الجمعية على هذا القرار من غير مناقشة[٣] .

وفي الليلة ذاتها هاجمت قوة من رجال الجيش قصر الخليفة وأجبرته على أن يستقل عربة نقلته إلى محطة السكة الحديدية في استانبول حيث تم وضعه في قطار أقله إلى منفاه في مدينة نيس الفرنسية ، كما أجبر جميع الأمراء

---

(١) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج ١ ، ص ص ٣٠٧ - ٣٠٩ .

(٢) هـ . س . أرمسترونج : المصدر السابق ، ص ١٩٩ .

(٣) ضابط تركي سابق : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٩٦ .

- عبد الحليم عويس : المرجع السابق ، ص ١٩٨ .

والأميرات وزوجات السلاطين وأصهار الأسرة العثمانية على مغادرة البلاد خلال أسبوع[١] .

وهكذا استيقظ العالم الإسلامي في صباح اليوم التالي على هذا الكابوس المرعب الذي انطوى على أكبر فاجعة نزلت به منذ بزوغ فجر الإسلام وهي زوال الخلافة الإسلامية وسقوط دولتها وانفراط عقد المسلمين الذي كان ينتظم شعوبهم ويلم شتاتهم وتجريدهم من سلاحهم الماضي الذي طالما أرعب المتربصين بهم ومن درعهم الواقي الذي كان يحمي صدورهم من سهام أعدائهم .

وقد كانت صفعة قاسية وأليمة جداً لأنها لم تكن مرتقبة فعلى الرغم من أن الخطوات السابقة التي أقدم عليها مصطفى كمال كانت تفصح عن نواياه تجاه الخلافة الإسلامية وتنم عن تنكره للدين والأخلاق ولكل ما هو مقدس فقد ظل الكثير من المسلمين يعتقدون أنه لن يجرؤ على أن يمس الخليفة بسوء[٢] ، لذا فقد قصمت ظهورهم المصيبة المفاجئة وكبلتهم بحبال الخيبة والخسران ، وعم العالم الإسلامي موجة شديدة من الأسى والحزن وبكى المسلمون عزهم الذي ضاع ووحدتهم التي مزقت وكرامتهم التي أُهدرت[٣] ، وتعالت أصوات الشعراء بالعويل والنواح على الخلافة ، فأميرهم شوقي الذي كان من جملة المخدوعين بمصطفى كمال حتى أنه رفعه إلى منزلة خالد بن الوليد راح يرثي الخلافة بحزن شديد ويهاجم مصطفى كمال في عنف لا يعدله إلا تحمسه له

---

(١) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٧١٨ .

- يلماز أوزتونا : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٦٣ .

(٢) حسن جيلان : المرجع السابق ، ص ١٤٤ .

(٣) محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص ٤٢٨ .

بالأمس وذلك حين يقول[1] :

ضجَّتْ عليكِ مآذنٌ ومنابرٌ
وبكت عليك ممالكٌ ونواح
الهندُ والهةٌ ومصرُ حزينةٌ
تبكي عليك بمدمعٍ سَحّاحِ
والشامُ تسألُ والعراق وفارسٌ
أمَحا من الأرض الخلافة ماح ؟
نزعوا عن الأعناق خير قلادة
ونَضَوْا عن الأعطاف خير وشاح
بكت الصلاةُ وتلك فتنةٌ عابثٍ
بالشرع عِرْبيدِ القضاءِ وقاح
أفتى خُزَعْبَلَةً وقال ضلالةً
وأتى بكفر في البلاد بواح [2]

وفي الوقت الذي استيقظ فيه المسلمون على هذا الكابوس المرعب استيقظ اليهود وحلفاؤهم على أجمل حلم حلموا به وأعظم أمنية تمنوها وأهم غاية سعوا إليها وبذلوا في سبيلها كل غالٍ وثمين قرونًا طويلة وهي زوال الخلافة الإسلامية العقبة الكؤود التي طالما حالت دون تنفيذ مخططاتهم في ديار الإسلام ، ولم يسع تلك القوى المتربصة أن تخفي فرحتها بذلك الحدث الذي

(١) أحمد شوقي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ص ٩٠ - ٩١ .

(٢) يثبت هذا النعي الحار للخلافة من قبل الشاعر العربي الكبير أحمد شوقي مدى إخلاص العرب للدولة العثمانية وارتباطهم بها حتى آخر أيامها رغم المحاولات اليهودية والاستعمارية الجادة لتمزيق كل ما يربطهم بها .

طالما ترقبته فقد أعرب أقطاب الماسونية عن افتخارهم بابنهم البار مصطفى كمال الذي حقق لهم أهم أهدافهم في قولهم : « إن الانقلاب التركي الذي قام به الأخ العظيم مصطفى كمال أتاتورك أفاد الأمة فقد أبطل السلطنة وألغى الخلافة وأبطل المحاكم الشرعية وألغى دين الدولة الإسلام وألغى وزارة الأوقاف إليس هذا الإصلاح هو ما تبتغيه الماسونية في كل أمة ناهضة ؟ فمن يماثل أتاتورك من رجالات الماسونية سابقًا ولاحقًا ؟ »[1] .

ولم ينته دور مصطفى كمال عند هذا الحد فقد كان عليه أن ينفذ بقية بنود المخطط الصهيوني الذي يستهدف استئصال جذور الشعب التركي وقطع كل صلة له بالإسلام والعمل على تغريبه وصبغ جميع شئونه بالصبغة اللادينية[2] . لذا فقد مضى في اتخاذ الاجراءات الكفيلة بالوصول إلى هذه الغاية فقام بإلغاء المشيخة الإسلامية[3] ، والمحاكم الشرعية والعمل بالشريعة الإسلامية واعتمد العمل بالقانون المدني السويسري والقانون الجنائي الإيطالي والقانون التجاري الألماني[4] ، وألغى وزارة الأوقاف وقلص عدد المساجد وأغلق أشهر مسجد في استانبول وهو مسجد (أيا صوفيا)[5] وحوله إلى متحف ،

---

(١) إسماعيل كيلاني : المرجع السابق ، ص ١٩٥ ، نقلاً عن دائرة المعارف الماسونية ، ص ١٦٢ .

(٢) لوثروب ستودارد : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٥٦ .

– عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج ٢ ، ص ١٠٢٠ .

(٣) سبقت الإشارة إلى أن آخر من تقلد منصب شيخ الإسلام في الدولة العثمانية هو الشيخ (مصطفى صبري) الذي اضطره بطش الكماليين بعلماء الدين إلى الفرار إلى مصر في عام ١٣٤١هـ / ١٩٢٣م وظل يجاهد هناك بقلمه ولسانه محذرًا المسلمين من نوايا مصطفى كمال وأعوانه .

– محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٧٤٨ .

– مصطفى صبري : المصدر السابق ، ص ٦ ، ٢٣ .

(٤) المصدر نفسه : ص ١٧٨ .

(٥) مسجد أيا صوفيا : كان هذا المسجد كنيسة رومية عريقة وعندما فتح السلطان محمد الثاني الفاتح القسطنطينية عام ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م أمر بأن يؤذن فيها للصلاة إعلانًا بتحويلها إلى مسجد جامع =

وجعل العطلة الأسبوعية الرسمية يوم الأحد بدلاً عن يوم الجمعة وغير نص القسم الذي يقسمه رجال الدولة عند توليهم لمناصبهم فأصبحوا يقسمون بشرفهم على تأدية الواجب بدلاً عن أن يحلفوا بالله كما كان عليه الأمر من قبل[(١)] ، وقضى على التعليم الديني في المدارس والجامعة بل ووجه التعليم توجيهًا مضادًا للإسلام فأصبح أهم درس يلقن للطلاب هو أن الإسلام سبب تأخر الأتراك وما أصابهم من كوارث وسبب ضعف بنيتهم القومية والثقافية[(٢)]، وأجبر النساء على نبذ الحجاب وأمر بإزالة الحواجز الفاصلة بين مقاعد النساء والرجال في وسائل المواصلات وفي الأماكن العامة ، وخرجت زوجته[(٣)] سافرة تحرض النساء على المطالبة بمساواتهن بالرجال[(٤)] .

وتدخل مصطفى كمال حتى في لباس المسلمين الأتراك وزيهم الذي

= للمسلمين وقد استمرت كذلك قرابة خمسة قرون إلى أن حولها اليهودي الدونمة مصطفى كمال إلى متحف .

- إبراهيم بك حليم : المصدر السابق ، ص ٦٥ .

(١) محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص ص ٤٢٩ – ٤٣٠ .

- جميل المصري : المرجع السابق ، ص ١٢٩ .

(٢) محمد عزة دروزة : تركيا الحديثة ، ص ٧٣ .

(٣) تزوج مصطفى كمال من (لطيفة هانم) ابنة أحد أغنياء ازمير الذين كانوا على صلة وثيقة بسكان إزمير اليهود ، وكانت هذه الفتاة قد تلقت تعليمها في الغرب وأشربت الأفكار الغربية ، وقد جرت مراسم الزواج على الطريقة الغربية ، وأصبح مصطفى كمال يصطحب زوجته إلى كل مكان يذهب إليه فكانت تخالط الرجال وهي بادية المفاتن ، ولكن هذا الزواج لم يعمر طويلاً فقد ضاق الرجل ذرعًا بالحياة الزوجية الطبيعية لأنه اعتاد على العلاقة الرخيصة بالنساء .

- هـ . س . أرمسترونج : المصدر السابق ، ص ١٦٩ ، ١٧٧ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ .

- علي حسون : المرجع السابق ، ص ٣١٠ .

(٤) مصطفى صبري : المصدر السابق ، ص ١٧٠ .

- إسماعيل ياغي : الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث ، ص ٢٣٢ .

اعتادوا عليه وأجبرهم على التشبه بالغربيين وأصدر قانونًا يقضي بمنع استخدام غطاء الرأس الذي اعتادوا عليه (الطربوش) وينص على وجوب اكتساء جميع موظفي الجمهورية غطاء الرأس الغربي (القبعة) كما أصدر قانونًا حرم على علماء الدين وأئمة المساجد ارتداء الزي الإسلامي (الجبة والعمامة) خارج المساجد ، وقد تعرض الذين امتنعوا عن تنفيذ هذه القرارات لعقوبات صارمة[١] .

وتوثيقًا لعرى الاتصال بالغرب ومحاكاة له أصدر مصطفى كمال قانونًا يقضي باستخدام الحروف اللاتينية في كتابة اللغة التركية بدلاً من الحروف العربية – التي اعتاد الأتراك الكتابة بها منذ عدة قرون[٢] – ومنع استخدام الحروف العربية في طبع المؤلفات التركية أما الكتب التي كانت قد طُبعت من قبل ذلك فقد صُدرت إلى مصر وفارس والهند ، وقد كان هذا القرار من أخطر القرارات لأنه فصل بين الشعب التركي وبين تراثه في شتى مجالات المعرفة التي كتبت بالحروف العربية وأصبح الجيل التركي الجديد جاهلاً بكل تراثه الثقافي ولا سيما الإسلامي منه[٣] .

وعلى سبيل التعويض عن القيم الروحية التي انطوت تلك الاجراءات على التخلي عنها وإمعانًا من مصطفى كمال في تمزيق كل ما يربط الشعب التركي بسائر الشعوب الإسلامية ، عمل على تغذية تيار القومية الطورانية التي ابتدعها أسلافه من اليهود[٤] ، ومن ذلك أنه أمر بترجمة القرآن إلى اللغة

---

(١) محمد حرب : المرجع السابق ، ص ١٧٤ .

– حسن جيلان : المرجع السابق ، ص ص ١٣ – ١٥ .

(٢) ساطع الحصري : المرجع السابق ، ص ١٠٠ .

(٣) كارل بروكلمان : المرجع السابق ، ص ٧٠٠ .

(٤) ساطع الحصري : المرجع السابق ، ص ١٠٠ .

التركية وأن ينادى للصلاة وأن يتلى القرآن فيها بالتركية[١] .

وانطلاقًا من تلك السياسة أيضًا ولأن خمسة وتسعين في المئة من أسماء الشعب التركي المسلم رجالاً ونساء هي أسماء عربية – لأن للأسماء العربية معنىً روحيًا في نفوس الأتراك – لذا فقد أصدر مصطفى كمال قانونًا يقضي بأن تتخذ كل أسرة تركية لقبًا تركيًا وأن يحمل كل فرد اسم أسرته وألا يتعامل رسميًا إلا بذلك الاسم وهو أمر لم يكن معروفًا قبل ذلك في تركيا[٢] ، وبعد أن صادقت الجمعية الوطنية على القانون الخاص بألقاب الأسر خلع مصطفى كمال على نفسه لقب (أتاتورك) وكلمة (أتا) بالتركية بمعنى الأب أو المربي ومنها لقب (أتابك) المعروف في التاريخ الإسلامي ، وكلمة (تورك) تعني الأتراك ، ومعنى الكلمة كاملاً أبو الأتراك أو مربي الأتراك[٣] .

كما أصدر قانونًا يقضي بإزالة العلامات والنقوش الإسلامية والمدائح السلطانية عن كل مباني الدولة وأحل محلها صورة الذئب الأغبر[٤] رمز الأتراك القدماء الوثنيين[٥] .

---

(١) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج ٢ ، ص ١٠٢٢ .

(٢) كان القليل جداً من الأتراك من له لقب عائلي متداول فأكثرهم كانوا يكتفون بأسمائهم الشخصية واسم اضافي آخر يعرف بـ (المخلص) أو بذكر اسم الأب مثل حسن فهمي ورضا نور ... الخ .

– محمد عزة دروزة : تركيا الحديثة ، ص ١٥٦ .

(٣) المصدر نفسه : ص ١٥٧ .

– هارولد تمبرلي وَ أ . ج . جرانت : المرجع السابق ، ص ٢٦٩ .

(٤) سبق أن أوضحنا قصة هذا الشعار ، انظر ص (٢٦٣) .

(٥) مصطفى صبري : المصدر السابق ، ص ١٩٦ .

وأخـيـرًا منحت السلطة المطلقـة ذلك اليـهـودي الجـرأة على أن يزيل من دستور الدولة العبارة التي تنص على أن الإسلام هو دين الدولة وأن يستبدل بها عبارة تقول : إن دولة تركيا جمهورية وطنية علمانية[1] ، مع أن خمسة وتسعين في المئة من سكانها آنذاك كانوا يدينون بالإسلام [2].

وكان من الطبيعي أن لا تتم تلك الخطوات الانقلابية الخطيرة دون أن يهب الشعب المسلم ليعبر عن رفضه لتلك الردة السافرة واعتراضه على هدم الكيان السياسي الإسلامي لدولته فسارت المظاهرات وعقدت الاجتماعات وشكلت الجمعيات السرية والعلنية التي تدعو للتصدي لتلك الفتنة وتعمل على مقاومة الحكومة الفاسقة ، وواصلت الثورة الإسلامية نضالها ولكن كانت كلما أوشكت أن تؤتي ثمارها انقض عليها مصطفى كمال وقضى عليها في وحشية دونها وحشية الذئاب التي اتخذها له شعارًا[3] .

ولمواجهة رد الفعل الإسلامي الذي أخذ يتصاعد مع استمراره في تنفيذ سياسته العلمانية ، ولقمع حركات المعارضة التي كان يتزعمها خصومه السياسيون أصدر مصطفى كمال في شعبان ١٣٤٣هـ / مارس ١٩٢٥م قانونًا

---

(١) محمد عزة دروزة : تركيا الحديثة ، ص ٢٠١ .

– محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص ٤٣٠ .

(٢) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٧٥٢ .

– عبدالله التل : الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام ، ص ٩٧ .

(٣) فتحي شهاب الدين : المرجع السابق ، ص ٥٦ .

أطلق عليه (قانون إقرار الأمن والسكون) كان يقضي بمنع أي منشورات تتضمن نقداً لسياسة الدولة الداخلية أو الخارجية كما نص فيه على منع إنشاء الجمعيات السياسية التي يكون الدين والمقدسات الدينية أساساً أو وسيلة أو مظهراً لها ووصف منشئيها والمشتركين فيها بالخيانة الوطنية[١] ، ثم أقام محاكم عسكرية خاصة أطلق عليها (محاكم الاستقلال) كانت تحكم بدون مراعاة لقواعد المرافعات والإثبات المقررة في القانون ، وساق إليها كل من بدرت منه بارقة معارضة ، فحكم على مئات الآلاف بالشنق أو الموت رمياً بالرصاص ، كان جرم بعضهم لا يعدو النقد الشفوي للحكومة[٢] .

وقد كان للإعلام اليهودي دور كبير في الترويج لتلك الردة وإفرازاتها حيث أظهرت دعوات التشبه بالغرب على انها مساعي للتقدم ، وصورت ألوان الانحلال الخلقي على أنه مظاهر للتحضر والتمدن، كما شجعت مصطفى كمال على البطش بمعارضيه وأبرزت ما يقوم به من مذابح وحشية ضد المسلمين في صورة معارك بطولية[٣] .

ومضيّاً في تنفيذ المخطط اليهودي الاستعماري الرامي إلى اجتثاث جذور الإسلام من تركيا وتحويلها إلى أداة صغيرة في الجهاز اليهودي الاستعماري العالمي راح مصطفى كمال يشرع أبواب تركيا لليهود الذين نبذتهم الدول الغربية ويتيح لهم فرصة تقلد المناصب الحساسة في الدولة ، سيما ما يتعلق

---

(١) حسن جيلان : المرجع السابق ، ص ٣١٤ .

– محمود الشاذلي : المرجع السابق ، ص ٢٣٨ .

(٢) هـ . س . أرمسترونج : المصدر السابق ، ص ص ٢٠٦ – ٢٠٩ .

(٣) فؤاد الرفاعي : حقيقة اليهود ، ص ٨٦ .

– زياد أبو غنيمة : المرجع السابق ، ص ٥٦ .

منها بمجال التربية والتعليم ليضمن نشأة جيل جديد من أبناء تركيا متوافق مع متطلبات المخطط اليهودي الاستعماري ، وقد أشاد المؤرخ اليهودي إيلي ليفي أبو عسل بهذا الفضل لمصطفى كمال في قوله : « ... فتح باب تركيا على مصراعيه ليدخل منه علماء اليهود الذين نبذتهم ألمانيا واستقبلهم بكل ما أوتي من حسن الكياسة ونبل الغرائز ... واستعان بهم لتنظيم الجامعة التركية على الأساليب العلمية العصرية واستدعى ما يزيد على أربعين أستاذاً من اليهود لتوسيع أقسام تلك الجامعة »(١) .

وهكذا استمر اليهودي الدونمة مصطفى كمال في تنفيذ المخطط اليهودي الاستعماري بكل حرص حتى آخر يومٍ في حياته ، بل وكان حريصاً على تأمين الشخص المناسب الذي يخلفه في تنفيذ هذه السياسة بعد وفاته ، فقد ثبت أنه عندما كان يرقد على فراش الموت استدعى السفير البريطاني في تركيا آنذاك (برسي لورين Persy Lorein) وعرض عليه أن يخلفه في رئاسة الجمهورية التركية ! وقد نشرت صحيفة (السنداي تايمز The Sunday Times) البريطانية البرقية التي بعثها السفير البريطاني إلى حكومته في هذا الصدد(٢).

هذا وقد توفي مصطفى كمال في ١٨ رمضان عام ١٣٥٧هـ / ١٠ نوفمبر ١٩٣٨م(٣) بعد أن تحقق على يديه أكبر انتصارٍ لليهودية العالمية وتسلم دفة

---

(١) عبدالله التل : الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام ، ص ٩٥ ، نقلاً عن :

- إيلي ليفي أبو عسل : يقظة العالم اليهودي ، ج ٢ ، ص ٣ .

(٢) أوردت صحيفة الأهرام المصرية نص هذه البرقية في عددها الصادر في ١٩٦٨/٢/١٥م .

- مصطفى صبري : المصدر السابق ، ص ١٧ .

(٣) كانت وفاته على أثر إصابته بتليف في الكبد لافراطه في شرب الخمر .

- ضابط تركي سابق : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥١٤ .

الحكم من بعده ساعده الأيمن عصمت باشا اينونو[١] الذي تابع تنفيذ سياسته التي نزعت عن تركيا ثوب الإسلام الذي أوصلها إلى ذروة المجد والسؤدد فغدت بعده دولة علمانية هزيلة ومقداراً مهملاً في الميزان الدولي[٢] .

والواقع أن من يحاول تقييم الثورة التي قام بها مصطفى كمال يجد أنها كانت انتكاسة كبيرة لتركيا لأنها أتت على كل ثرواتها وطاقاتها المعنوية والمادية فكما سلبتها مجدها وهيبتها القائمين على الإسلام فقد سببت لها فشلاً ذريعًا وتراجعًا في شتى ميادين حياتها[٣] ، ففي مجال الاقتصاد أصبحت تركيا تعاني من الفقر إلى حد لم يمر بها من قبل وأثقل كاهل شعبها بالضرائب وتراكمت عليها الديون وذلك نتيجة للفساد الذي استشرى في الهيئات الاقتصادية ولسيطرة الرأسماليين اليهود على تجارة البلاد ، وفي المجال الثقافي والاجتماعي قامت المؤسسات الإعلامية اليهودية بحجة حرية النشر وتبادل المنتجات الثقافية بنشر الكتب والمجلات والأفلام التي تروج الرذيلة والانحلال مما كان له أسوأ الأثر على المجتمع التركي[٤] .

ولعل خير ما يستدل به على أن تلك الثورة كانت وبالاً على العالم الإسلامي عامة وتركيا خاصة وأنها كانت انتصاراً للقوى الاستعمارية مقولة كرزون Curzon وزير خارجية بريطانيا في الرد على بعض النواب الإنجليز الذين اعترضوا على نتائج مؤتمر لوزان واعتبروها انهزامًا سياسيًا للحلفاء

---

(١) محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص ٤٣٧ .

– أحمد الزغيبي : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٢٥٨ .

(٢) عبد الحليم عويس : المرجع السابق ، ص ص ١٩٨ – ١٩٩ .

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٧٥٨ .

(٤) عبدالله التل : الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام ، ص ص ٩٦ – ٩٧ .

تجاه تركيا فأجابهم قائلا : « عليك بوزن المسألة من حيث الفرق بين دولتي الترك القديمة والجديدة »[١] .

ومن جانبٍ آخر فقد أثبتت الثورة الكمالية فشلها في قضية الأقليات غير المسلمة التي كانت من أهم القضايا التي استند إليها الكماليون وأشياعهم في إلغاء الخلافة الإسلامية العثمانية حيث ادعوا أن أنسب أنواع الحكومات لأمة مسلمة تعيش فيها أقليات غير مسلمة هي الحكومة العلمانية لأنها ستكون أكثر انصافًا من الحكومة الإسلامية [٢] ، فجاءت النتائج على خِلاف ما كانوا يدعون ، وفي هذا يقول الأمير شكيب ارسلان : « ولقد كانت في السلطنة العثمانية عشرات ملايين من المسيحيين يعيشون وافرين مترفهين كاسبين متمتعين بامتيازات كثيرة مدة عمل الأتراك بالشرع الإسلامي فلما جاءت الجمهورية التركية الحاضرة وبطل العمل بالشرع ... لم يبق في جميع الأناضول إلا فئة قليلة من المسيحيين ... وهذا برهان ساطع على سماحة الشرع الإسلامي »[٣] .

وعلى الرغم من الفشل الذريع الذي مُنيت به التجربة العلمانية في تركيا فقد نجحت الدوائر اليهودية بالتنسيق مع الدوائر الاستعمارية في تصدير تلك التجربة إلى الكثير من البلدان الإسلامية التي كانت تابعة للدولة العثمانية سيما ومعظمها كان يخضع لسيطرة النفوذ الغربي[٤] .

---

(١) مصطفى صبري : المصدر السابق ، ص ٢٦٦ .

(٢) سبق أن تحدثنا بتوسع عن تسامح الحكومة العثمانية الديني في المبحث الأول من الفصل الأول .

(٣) لوثروب ستودارد : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٢٨ .

(٤) أنور الجندي : المرجع السابق ، ص ٢١٥ .

- جميل المصري : المرجع السابق ، ١٣١ .

ويبدو أن حرص تلك الدوائر على نقل التجربة العلمانية إلى بقية الأقطار الإسلامية لتحل محل أنظمتها الإسلامية راجع إلى أنها كانت تدرك من خلال تتبعها للتاريخ الإسلامي بأن الخلافة رابطة دينية سياسية مقدسة لا يستغني عنها المسلمون وأنها ظلت تتنقل بين ديار المسلمين تبعًا لتنوع الدول الإسلامية التي رفعت رايتها فمرة في المدينة ومرة في الكوفة وأُخرى في دمشق أو في بغداد ، وبالتالي فهي تدرك أيضًا بأنها وإن كانت قد تمكنت من إسقاط الخلافة في عرينها الأخير (استانبول) فهي ليست في مأمن من قيامها في عرين آخر ، فسقوط الخلافة العباسية في بغداد على أيدي المغول أعقبه قيام خلافة عباسية في مصر تحت رعاية المماليك وأنه مع كونها خلافة رمزية فقد ظل المسلمون يحافظون على ذلك الوجود الرمزي للخلافة إلى أن استعادت قوتها مرة أخرى على أيدي العثمانيين .

لذا فقد رأت الدوائر اليهودية والاستعمارية أن أفضل طريقة لضمان إخماد أنفاس الخلافة الإسلامية مرة واحدة هي تسريب التجربة الكمالية العلمانية إلى بقية أقطار العالم الإسلامي لتحل محل أنظمتها الإسلامية .

وإنفاذًا لتلك الخطة شن الإعلام اليهودي حملة إعلامية كبيرة للترويج لما قام به مصطفى كمال في تركيا (١) .

ومن ثم تلاقت جهود الدوائر الصهيونية مع جهود القوى السياسية الاستعمارية التي كانت تسيطر على معظم الأقطار الاسلامية آنذاك للإجهاز على نظام الحكم الإسلامي في تلك البلدان وتمزيق عرى الترابط بينها عن طريق أتاحة الفرصة لدعاة التغريب وأنصار القومية والوطنية للوصول إلى مراكز صنع القرار فيها ، والتواطؤ معهم بعد ذلك على إدخال النظم الغربية

---

(١) مصطفى صبري : المصدر السابق ، ص ١٦٣ .

تدريجيًا إلى أن تم التحول عن العمل بالتشريع الإسلامي في كافة شئون تلك الدول ، وعلى افساح المجال لانطلاق الثورات القومية والوطنية التي امتصت المشاعر الإسلامية ومزقت الروابط الدينية[1] .

وهكذا اختفت أصوات الجماهير الإسلامية المطالبة بإحياء مجد الخلافة الإسلامية وسط غوغائية الشعارات القومية والوطنية وتحطمت إرادتهم بفعل هيمنة الأنظمة السياسية العلمانية وفقد العالم الإسلامي قوى المقاومة الفاعلة ضد أعدائه المتربصين فتمكنت اليهودية العالمية وقوى الاستعمار من تحقيق ما أبته عليهم دولة الخلافة حتى وهي في نزعها الأخير كان هذا حين تمكنوا من زرع ذلك الكيان الخبيث في قلب العالم الإسلامي .

---

(١) محمد قطب : المرجع السابق ، ص ٣٢٤ ، ٣٥٢ .

- إسماعيل الكيلاني : المرجع السابق ، ص ٢١٨ .

الخاتمة والنتائج

في خاتمة هذه الدراسة أود الاشارة إلى أبرز النتائج التي تحققت من خلال مجموعة المباحث التي احتوتها فصول الرسالة .

ففي التمهيد تمت معالجة العلاقة بين المسلمين واليهود منذ ظهور فجر الإسلام حتى ظهور الحركة الصهيونية كمنظمة سياسية تهدف إلى إيجاد وطن قومي لليهود في فلسطين . واتضح من دراسة طبيعة تلك العلاقة انه لو قُدر لأبناء الأمة الإسلامية أن يستلهموا الوقائع والشواهد التي يقدمها التاريخ الإسلامي القديم والحديث لعلاقة المسلمين باليهود لتمكنوا من تجنب الكثير من الخسائر ولكان سهُل عليهم حسم الصراع مع هذا العدو . فالرسول صلى الله عليه وسلم كان قد نبه إلى خطورة اليهود على الدولة الإسلامية على ضوء التجربة العملية التي عايشها بنفسه حينما حالفهم في المدينة المنورة اقراراً لمبدأ الحرية الدينية وعملاً على نشر روح التسامح والتعاون بين سكان المدينة المنورة ورغبة في استمالتهم للدخول في الإسلام ، إلا أن اليهود لم يرعوا عهدهم ولم يفوا بوعودهم ومواثيقهم بل حاولوا مراراً الغدر بالرسول صلى الله عليه وسلم وانتهاك حرمات المسلمين وتأليب أعدائهم عليهم مما اضطره عليه السلام إلى اتخاذ القرار تلو القرار بإبعاد قبائل اليهود واحدة تلو الأُخرى حيث أجلاهم عن المدينة المنورة عاصمة الدولة الإسلامية .

وقد التزم الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم بهذه السياسة حيث منعوا غير المسلمين من السكن في الديار المقدسة ، وإزاء إصرار اليهود على مواقفهم العدائية تجاه المسلمين نفذ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما كان قد اعتزمه رسول الله صلى الله عليه وسلم من إخراج اليهود من الجزيرة العربية .

إلا أن هذه السياسة الحكيمة التي رسمها الرسول الكريم بما يتناسب مع الحدود التي بلغتها الدولة الإسلامية في عصره لم تتطور بما يضمن سلامة هذه الدولة التي اتسعت حدودها بالفتوحات ، وعاد المسلمون للتساهل في التعامل مع اليهود ، ولكن تسامح المسلمين لم ينجح في كسب اليهود فقد دلت الأحداث

التاريخية عبر العصور الإسلامية المتتالية بأن اليهود كانوا على الدوام يقومون بدور حصان طروادة داخل أسوار الدولة الإسلامية ، فقد لعبوا أدوارًا خطيرة في قيام الحركات الفكرية الهدامة وإشعال الفتن الطائفية وإثارة العصبيات الإقليمية والقومية ، كما كانوا عونًا لخصوم المسلمين في غمرة اشتداد الحروب .

وقد لاحظنا في الفصل الأول ان التاريخ قد سجل للعثمانيين صورة ناصعة في التسامح مع اليهود سيما حين فتحوا أبوابهم وصدورهم لاستقبال ضحايا الاضطهاد الديني في أوروبا حيث نبذتهم محاكم التفتيش النصرانية خارج حدود اسبانيا في عام ٨٩٧هـ / ١٤٩٢م ولم يكتف العثمانيون بالسماح لليهود بالإقامة في بلادهم بل ومنحوهم الحرية الدينية وأتاحوا لهم المشاركة في كثير من مجالات الحياة ، وفي المقابل كان التاريخ قد سجل لليهود في موقفهم من الدولة العثمانية صورة من أبشع صور الجحود ونكران الجميل حين راحوا خلف ستار الإسلام يُعملون معاول الهدم لتقويض أركان الدولة التي احتضنتهم حيث استطاعوا عندما أصبحوا دونمة أن يتغلغلوا في جميع أُطر الدولة السياسية والعسكرية والاجتماعية والثقافية ، كما أكسبهم ذلك ثقة الأتراك فأصبح منهم الوزراء والصدور العظام والنواب مما سهل عليهم تنفيذ أهدافهم العدوانية .

والحق أن جزءًا من المسؤولية عن ما أحدثه الدونمة في الدولة العثمانية يقع على عاتق رجالاتها فالسلاطين يتحملون جزءًا من هذه المسؤولية لأنهم سمحوا باستقرار تلك الجموع الغفيرة من اليهود في الدولة العثمانية انطلاقًا من مبدأ السماحة الاسلامية دون إدراك وعي لمفهوم وحدود هذه السماحة ، وكان من الجدير بهم أن يستلهموا السياسة التي ارتسمها الرسول صلى الله عليه وسلم تجاه هذا العنصر البشري الخطير ، كما يتحمل علماء الاسلام في الدولة العثمانية الجزء الأكبر من هذه المسؤولية لعدم تنبيه ولاة الأمر لخطورة اليهود وهم يعرفون أنهم ألد أعداء الإسلام ولعدم تذكيرهم أياهم بمواقفهم المزرية تجاه الدولة الاسلامية منذ نشأتها وكيف تصدى لهم سلفنا الصالح .

وكان حرياً بالحكومة العثمانية أن تتنبه لخطورة ونفاق الدونمة على الأقل بعد أن قُبض على زعيمهم سباتاي زفي متلبساً بالنفاق يؤدي الطقوس الدينية اليهودية في معبد يهودي مع مجموعة من أتباعه إضافة إلى ما كان قد بلغهم من كونه يخطط لإنشاء دولة يهودية داخل الدولة العثمانية ولكنهم اكتفوا بنفي سباتاي ، وغاب عنهم أن سباتاي قد خلّف وراءه عشرات الآلاف من الدونمة المنافقين .

وظاهرة الازدواجية الدينية ليست بغريبة على اليهود بل هي وسيلة دأبوا عليها تجاه العديد من الديانات ولا سيما الدين الاسلامي . وتاريخهم يشهد أنه طالما كان ذلك سبيلهم لتنفيذ مخططاتهم والدور الذي لعبه اليهودي سباتاي زفي في الدولة العثمانية كان قد قام به اليهودي عبدالله بن سبأ قبل ذلك بعشرة قرون ونيف .

لقد غفل أولو الأمر وعلماء الاسلام في الدولة العثمانية عن كل ذلك فاستغل يهود الدونمة هذه الغفلة وتسللوا إلى جميع مجالات الحياة السياسية والعسكرية والاقتصادية والتربوية والاجتماعية في الدولة وزرعوا فيروساتهم الفتاكة فيها ، ولم يقتصر الأمر على ذلك فبعد أن أحكموا قبضتهم عليها بمضي الوقت ، أظهروا استعدادهم لتقديم العون لكافة القوى الداخلية والخارجية المناوئة للدولةالعثمانية .

لذا فإن الصهيونية التي ظهرت في أوروبا في أوائل القرن الرابع عشر الهجري الموافق أواخر القرن التاسع عشر الميلادي - كمنظمة سياسية استعمارية ترمي إلى اقامة وطن قومي لليهود في فلسطين عندما تبين لها موقف الدولة العثمانية من أطماعها في فلسطين والذي قرأته من خلال السياسة الحازمة التي انتهجها الحكام العثمانيون في التصدي لمحاولات اليهود التسلل إلى فلسطين منذ أن أصبحت فلسطين جزءاً من أراضيهم ، كما أكد لها هذا الموقف السلطان عبد الحميد الثاني - الذي اتصل تقييم موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية اتصالاً وثيقاً بفترة حكمه - حين باءت بالفشل كل الجهود التي بذلها الزعيم الصهيوني تيودور هرتزل Theodor Herzel لإقناعه بالموافقة على إقامة الدولة

اليهودية في فلسطين وأبى أن يخضع لأية وسيلة من الوسائل التي بذلها لإغرائه لتغيير موقفه، عند ذلك وجدت الصهيونية ضالتها في الدونمة فهم بحكم وضعهم في الدولة العثمانية كان بإمكانهم أن يختصروا عليها الطريق للوصول إلى أهدافها ومن هنا ارتبطت حبال يهود الدونمة في داخل الدولة العثمانية بشبكة الصهيونية العالمية .

وحين انتقلنا إلى الفصل الثاني لاحظنا أن الصهيونية بعد أن يئست من استجابة الدولة العثمانية لمطالبها استبدلت سياسة الوعد بالوعيد فسارعت إلى تنسيق مخططاتها مع مطامح الدول الاستعمارية حيث عرضت الدولة اليهودية المزمع انشاؤها كأداة لخدمة مصالحها الاستعمارية في الدولة العثمانية وفي منطقة المشرق العربي منها بوجه خاص .

وقد كان للأحداث والتطورات السياسية التي شهدها هذا الميدان الاستعماري المهم قبيل ظهور الصهيونية كمنظمة سياسية دور كبير في اصغاء الدول الاستعمارية ولا سيما بريطانيا لصوت الصهيونية .

وفي مقدمة تلك الأحداث المحاولة الفاشلة التي قام بها محمد علي باشا عام ١٢٤٧ هـ / ١٨٣١م لضم بلاد الشام مع مصر ، حيث نبهت تلك المحاولة الدول الاستعمارية إلى ضرورة إيجاد قوة حليفة لها في المنطقة التي تفصل بين مصر وبلاد الشام لضمان إحباط أية محاولة مستقبلية مماثلة .

كما كان افتتاح قناة السويس في عام ١٢٨٦هـ / ١٨٦٩م قد صعّد من حدة التنافس بين الدول الاستعمارية للسيطرة على منطقة المشرق العربي حيث أصبح ذلك الممر الحيوي أقصر الطرق المائية التي تصل بين تلك الدول ومستعمراتها فيما وراء البحار ، وعلى الرغم من أن بريطانيا قد تمكنت من احراز قصب السبق في هذا الميدان حين تمكنت من شراء أسهم مصر في قناة السويس عام ١٢٩٢هـ / ١٨٧٥م ثم حققت المزيد من السيطرة على هذه القناة باحتلالها لمصر عام

١٢٩٩هـ / ١٨٨٢م ، فقد كانت تشعر بالحاجة إلى توفير المزيد من الحماية لهذا الشريان الحيوي المؤدي إلى درة التاج البريطاني (الهند) .

وكان من أخطرالتطورات السياسيةالتي شهدها ميدان التنافس الاستعماري في الدولة العثمانية في تلك الفترة اقتحام ألمانيا لذلك الميدان كمنافس قوي للدول الاستعمارية القديمة وفي مقدمتها بريطانيا وفرنسا والذي تمثل في سياسة التقرب من الدولة العثمانية التي اعتمدتها المانيا منذ مطلع القرن الرابع عشر الهجري الموافق أواخر القرن التاسع عشر الميلادي . فكانت تلك السياسة الألمانية الجديدة قد أثارت مخاوف الدول الاستعمارية حيث رأت فيها تهديداً لمصالحها الاستعمارية في الدولة العثمانية . وبالتالي فقد رأت تلك الدول وفي مقدمتها بريطانيا أنها إذا ما كرست جهودها من أجل تحقيق المشروع الصهيوني في فلسطين فإن اليهود سيقومون بدور كلب الحراسة لمصالحها في الدولة العثمانية .

ثم جاء التطابق شبه التام بين أهداف الصهيونية في الدولة العثمانية وبين التوصيات التي خرج بها مؤتمر كامبل بانرمان Campbell - Bannerman الاستعماري خاصة تلك التي أشارت بضرورة إقامة حاجز بشري قوي وغريب على الجسر البري الذي يربط آسيا بأفريقيا بحيث يشكل قوة صديقة للإستعمار وعدوة لسكان المنطقة مؤكداً حتمية العلاقة بين الصهيونية والاستعمار ومحققاً للحركة الصهيونية نقلة كبيرة ومهمة تمثلت بانخراط المنظمة الصهيونية في صميم المخطط الاستعماري الأوربي .

وكان من الطبيعي بعد أن ربطت وحدة الهدف بين تلك القوتين العالميتين (الصهيونية والإستعمار) وبين يهود الدونمة في داخل الدولة العثمانية أن تتضافر جهود تلك القوى الثلاث لتحقيق ذلك الهدف المشترك .

وقد ترتب على قناعة تلك القوى المتآمرة بعدم امكانية تحقيق أهدافها إلا إذا تم القضاء على الدولة العثمانية أن وجهت مخططاتها في هذا الاتجاه ، إلا انها

كانت تدرك بأن هجومها على الدولة العثمانية إذا ما كان مباشراً فإنه سوف يثير عليها غضب المسلمين في كافة أنحاء العالم باعتباره تهجمًا على دولة الخلافة الاسلامية . لذا فقد سارت نحو هذه الغاية بخطى وئيدة وسياسة تدريجية جندت لها كل طاقاتها وامكانياتها .

وكان أسلوب تشويه سمعة الحكام العثمانيين من أهم الأساليب التي لجأت إليها الصهيونية وحلفاؤها وذلك بغرض التمهيد وتهيئة الرأي العام في الدولة العثمانية لتقبل فكرة التخلص من أولئك الحكام لأن ذلك بطبيعة الحال سيسهل عليهم الانتقال إلى الخطوة التالية وهي القضاء على الدولة العثمانية .

ولم يكن أمراً غريبًا أن كان السلطان عبد الحميد الثاني - الذي لم تلن له قناة أمام محاولات اليهودالمكرورة لاغرائه بالسماح لهم باستيطان فلسطين - هو صاحب النصيب الأوفر من تلك الحملة الإعلامية المغرضة التي شنتها الابواق اليهودية ضد الحكام العثمانيين . كما لم يكن غريبًا أن كان من رواد حملة التشهير بالسلطان عبد الحميد مسيحي متطرف مثل جلادستون Gladstone زعيم حزب الأحرار البريطاني ، ولا أن يكون قد أقدم على ذلك بتشجيع من وزارة المستعمرات البريطانية . وليس بغريب أيضًا أن كانت الجمعيات اليهودية وسفارات الدول الاستعمارية في داخل الدولة العثمانية - التي منحتها الامتيازات الاجنبية حصانة من رقابة الحكومة العثمانية - هي المعبر الآمن لدخول الصحف والكتب والمنشورات التي تحمل في طياتها تلك الافتراءات .

ولكن الغريب حقًا أن نجحت تلك الحملة اليهودية المغرضة في أن تجرف في تيارها بعض السذج من ابناء الدولة العثمانية الذين تلقفوا تلك الشبهات والأغاليط التي لم تقم على بينة ولم تستند على واقع - كما أكد البحث - وراحوا يرددونها

كما تفعل الببغاءات دون تمحيص ولا تدقيق غير مدركين أنهم بعملهم ذلك قد أدوا أكبر خدمة لأعداء دولتهم . إذ إن موقفهم أكسب تلك الحملة المزيد من الثقة وجعلها أكثر فاعلية .

وإن مما يدمي القلب أن يوجد من ابناء الإسلام من لا يزال حتى يومنا هذا يردد تلك الافتراءات اليهودية ، والأشد إيلامًا للنفس المسلمة أنه ما زالت أجيالنا في بعض أنحاء وطننا الإسلامي تتلقى على مقاعد الدراسة تلك المعلومات المغلوطة عن الدولة العثمانية بشكل عام والسلطان عبد الحميد بشكل خاص .

ولم يغفل الصهيانة وحلفاؤهم أيضًا عن استخدام المال كوسيلة للضغط على الدولة العثمانية ظنًا منهم أنهم إذا ما نجحوا في إيقاعها في أزمات مادية ومن ثم في اثقال كاهلها بالديون لبيوت المال الأوروبية التي يسيطرون على معظمها فإنهم سيتمكنون من اخضاع حكامها لرغباتهم . إلا أن نجاحهم في تنفيذ الجزء الأول من هذا المخطط – وهو ايقاع الدولة العثمانية في ازمات مادية وتكبيلها بالديون ، وذلك من جراء النفقات الباهظة التي تطلَّبها تصديها للعديد من الفتن وخوضها للكثير من الحروب التي كانوا قد تعمدوا اثارتها ، وبسبب حرمان الدولة من مشاركة شريحة كبيرة من أبنائها في خططها التنموية بسبب تجنيدهم في تلك الحروب – لم يترتب عليه نجاحهم في تنفيذ الجزء الثاني من ذلك المخطط وهو إخضاع الحكام العثمانيين لرغباتهم وليس أدل على فشلهم من موقف السلطان عبد الحميد الثاني (رحمه الله) من الزعيم الصهيوني هرتزل Herzel حين راح يعرض عليه الملايين من أموال اليهود وتسديد ديون دولته وإصلاح ماليتها ثمنًا لفلسطين فرد عليه قائلاً : « ... ليحتفظ اليهود ببلاينهم فإذا قسمت الإمبراطورية فقد يحصل اليهود على فلسطين بدون مقابل ، إنما لن تقسم إلا جثثنا ولن أقبل بتشريحنا لأي غرض كان »[١] .

---

(١) يوميات هرتزل : ص ٣٥ .

ولكنَّ ما فشل اليهود في تنفيذه في عهد السلطان عبد الحميد وأسلافه نجحوا في تنفيذه حين تمكنوا من اقصائه عن الحكم حيث ثبت أن يهود الدونمة في جمعية الاتحاد والترقي – التي سيطرت على زمام الأمور في اعقاب ذلك وأغرقت الدولة في مزيد من الديون – قد تسلموا مبالغ كبيرة من الوكالة اليهودية ومن عدد من بيوت الأموال اليهودية في أوروبا مقابل غض الطرف عن تسلل مئات الآلاف من اليهود إلى فلسطين .

وفي الفصل الثالث حيث عالجت الدراسة أهم الوسائل التي أسهمت في تنفيذ المخططات الصهيونية في الدولة العثمانية برز دور الماسونية في هذا المجال وذلك من خلال نجاح هذه المؤسسة اليهودية في الايقاع بعدد كبير من الأتراك -كان من بينهم بعض الوزراء والقادة العسكريين وكبار موظفي الدولة – في شباك خلاياها واستغلالهم في خدمة أهداف الصهيونية . ومن خلال دور محافلها – التي حظيت بالحماية الأجنبية – في احتضان أخطر المنظمات الثورية المناوئة للحكومة العثمانية . وفي تأهيل وإعداد الشخصيات التي لعبت دوراً كبيراً في رسم النهاية المأساوية للدولة العثمانية .

وقد ركزت الدراسة على الدور الذي قامت به الماسونية في احتضان جمعية الاتحاد والترقي حيث استغلت هذه المؤسسة اليهودية فرصة الخلاف الذي وقع بين أعضاء هذه الجمعية وبين السلطان عبد الحميد الثاني حول مبادئ الحكم فقد كانوا يطالبون بالحكم الدستوري اسوة بالنظم الغربية فيما كان السلطان عبد الحميد يرى أن الحكم المركزي هو الأنسب للدولة العثمانية وكان له في هذا الرأي الذي ذهب إليه حججه وأسانيده -التي أثبتت تطورات الأحداث صحتها- وتمكنت من خلال نجاحها في استقطاب معظم أعضاء هذه الجمعية من توفير المُناخ المناسب لنشأة هذه المنظمة الثورية حتى برزت كقوة مؤثرة في المحيط العثماني كما سهلت بذلك على اليهود التسلل إلى صفوفها وفرض سيطرتهم عليها وتوجيهها لخدمة أهداف الصهيونية .

وليس أدل على نجاح مساعي الماسونية في هذا المجال من مجيئ أحد زعماء اليهود في مقدمة الوفد الاتحادي الذي أبلغ السلطان عبد الحميد الثاني بقرار خلعه وهو ايمانوئيل قراصو Emanuel Carasso نائب يهود سلانيك ومؤسس أعرق محافلها الماسونية .

وقد أكدت الأحداث التاريخية اللاحقة بأن سيطرة جمعية الاتحاد والترقي على مقاليد الحكم في الدولة العثمانية كان لها دور كبير في انتعاش أماني الصهيونية في إقامة الدولة اليهودية في فلسطين ودفع نشاطها الإستيطاني فيها خطوات واسعة إلى الأمام . وأن سياستهم التي اتسمت بالرعونة وعدم الاتزان كانت من أهم عوامل تقويض أركان الدولة العثمانية .

كما أبرزت الدراسة النجاح الذي حققته سياسة إثارة العصبيات الجنسية داخل الدولة العثمانية في مجال تنفيذ المخططات الصهيونية حيث نجحت هذه السياسة اليهودية في تمزيق وحدة الدولة العثمانية وخلخلة بنائها المتماسك وذلك من خلال نبش الماضي البائد وبعث الأفكار التي أماتها الإسلام وابتداع فكرة القومية التركية والنفخ في كيرها حتى تحولت بمرور الوقت وبروز جمعية الاتحاد والترقي كقوة مؤثرة في الأحداث السياسية والمواقف الرسمية في الدولة العثمانية إلى سياسة متطرفة نجحت في تمزيق وحدة الشعب العثماني واحداث الفرقة والخصومة بين أهم عناصره .

فقد أثبتت تطورات الأحداث في الدولة العثمانية أن سياسة التتريك التي تبنتها جمعية الاتحاد والترقي – التي يمثل اليهود العقل المدبر فيها – ومقاومة العرب لها بالقومية العربية كانت من أهم عوامل انهيار الدولة العثمانية .

وفي الفصل الرابع حيث ركزت الدراسة على تزايد النفوذ اليهودي إبان الحرب العالمية الأولى وذلك من خلال ابراز دور اليهود داخل الدولة العثمانية وخارجها في اقحامها في تلك الحرب الأوروبية التي ليس لها فيها مأرب ولا مغنم

والذي تمثل في استغلال الصهيونية تغلغل اليهود في المجتمع الألماني للعمل على استقطاب الدولة العثمانية إلى جانب المانيا وباقي دول المحور . كما تمثل في استجابة جمعية الاتحاد والترقي للعروض الألمانية واختلاقها المبررات لخوض الدولة العثمانية تلك الحرب .

وظهر تصاعد النفوذ اليهودي في تلك الفترة أيضًا في دورهم في توجيه الحرب بالشكل الذي يؤمِّن هزيمة الدولة العثمانية والذي برز في تكثيف جهودهم في مجال تغذية تيار القومية التركية وتعميق هوة الخلاف بين العرب والترك وهو الأمر الذي أفضى إلى نجاح عملائهم الذين تم نشرهم في الأوساط العربية في تهيئة الأجواء لاندلاع ما عرف بالثورة العربية التي كان لها دور كبير في إضعاف موقف الدولة العثمانية في تلك الحرب ، وترجيح كفة الحلفاء .

كما تجلى هذا الدور لليهود في استغلال ثقلهم في المؤسسات المالية والسياسية في الولايات المتحدة الامريكية في إقناع الحكومة الأمريكية بضرورة دخول الولايات المتحدة الحرب إلى جانب الحلفاء .

ولتأمين هزيمة الدولة العثمانية بشكل يضمن تقسيم أملاكها بين الحلفاء أحبط اليهود المحاولات التي بذلت لاخراجها من تلك الحرب وحرصوا على إبقائها داخل دائرتها حتى استكملت هزيمتها .

وقد جاءت التسويات التي وضعت في أعقاب الحرب محققة لجزء كبير من المخطط اليهودي الرامي للقضاء على الدولة العثمانية وإقامة الدولة اليهودية في فلسطين حيث مزقت أشلاء الدولة العثمانية بين الحلفاء وكانت فلسطين من نصيب بريطانيا صاحبة وعد بلفور .

وفي الفصل الخامس والأخير عالجت الدراسة المرحلة الحاسمة في اسقاط الدولة العثمانية حيث استغلت الدوائر الاستعمارية تداعيات الحرب العالمية الأولى لابراز شخصية اليهودي الدونمة مصطفى كمال الذي رشحته المخابرات

البريطانية لتنفيذ الجزء الأخير من المخطط الاستعماري الصهيوني .

وقد أثبتت تطورات الأحداث أن المخابرات البريطانية قد أحسنت الاختيار فقد استطاع ذلك اليهودي بزيفه وخداعه أن يقنع الشعب التركي المسلم – الذي كبر عليه احتلال بلاده وطغى عليه الحماس للخلاص من المحتل وكان في أمسّ الحاجة إلى من يوجه طاقاته وينظم صفوفه – بأنه أهلٌ لقيادته واستغل ثقتهم به لإضفاء طابع الشرعية علي الدور الذي كان يقوم به .

ولتهيئة الفرصة لذلك اليهودي لتقمّص دور البطل المناضل تراجعت أمامه الجيوش اليونانية وفق خطة انجليزية ، ومن ثم شنت وسائل الإعلام اليهودية المتمرسة في التضليل والخداع حملة إعلامية ضخمة للترويج لتلك البطولة الزائفة .

ثم جاء تظاهر الحلفاء بالعجز عن مقاومته والاضطرار لمفاوضته في مودانيا في ٢٠ صفر ١٣٤١هـ / ١١ أكتوبر ١٩٢٢م لاظهار عجز السلطة الشرعية واتاحة الفرصة له لتسلم السلطة .

وفي مؤتمر الصلح في لوزان في ١١ ذي الحجة ١٣٤١هـ /٢٤ يوليو ١٩٢٣م تمت صفقة بيع دولة الخلافة الإسلامية ، فمقابل أن يعترف الحلفاء باستقلال تركيا تلقى كرزون Curzon ممثل الحلفاء وعداً من السمسار اليهودي حاييم ناحوم بأن يتعهد مصطفى كمال بالغاء الخلافة الإسلامية وقطع كل صلة لتركيا بالإسلام .

ولم يتوانَ مصطفى كمال عن البر بعهده للحلفاء ومنحته السلطات العديدة التي اجتمعت في يده الجرأة على تنفيذ ما التزم به دون اعتبار لأية معارضة . فأعلن عن قيام الجمهورية التركية العلمانية وألغى الخلافة الإسلامية وطرد الخليفة العثماني عبد المجيد الثاني وجميع آل عثمان خارج البلاد .

ولكسر إرادة الجماهير التركية المسلمة المطالبة بالخلافة الإسلامية اتخذ

مصطفى كمال كافة التدابير والاجراءات الكفيلة بتغريب الشعب التركي واستئصال جذوره الإسلامية .

كما كان تسريب التجربة الكمالية العلمانية إلى تلك الأجزاء الواسعة من العالم الإسلامي التي كانت ترزح تحت وطأة الاستعمار كفيلاً بإخماد أنفاس الخلافة الإسلامية في المحيط الإسلامي ، فقد خفتت أصوات الشعوب الإسلامية المطالبة بإحياء مجد الخلافة الإسلامية وضاعت في غياهب التغريب وهيمنة الحضارة الغربية التي غزت العقلية المسلمة آنذاك .

وحين فقد العالم الإسلامي قوى المقاومة الفاعلة ضد أعدائه المتربصين به تمكنت اليهودية العالمية من تحقيق ما عجزت عن تحقيقه طوال العصر العثماني حيث زرعت ذلك الكيان الخبيث في قلب العالم الإسلامي .

وإن مما يؤسف له أن شخصية مصطفى كمال ما تزال في مخيلة كثير من المسلمين المخدوعين انموذجًا ومثالاً للتحضر ، وأن معظم أجيالنا المسلمة المعاصرة تعرفه بصفته الزعيم الوطني صاحب النهضة التركية الحديثة ، ولا يكاد يعرف حقيقة الدور الذي قام به إلا القلة من أبناء الإسلام .

وما ذلك إلا واحد من الأخطاء الناتجة عن تشويه كثير من جوانب التاريخ العثماني وقلب العديد من الحقائق المرتبطة به ، لذا فإنني أجد أن من واجبي أن آتوجه بالنداء إلى كل مسلم غيور على الحق والحقيقة أن يبادر إلى إعادة تقييم معلوماته عن الدولة العثمانية وأن يلفظ من أفكاره أي معلومات خاطئة تسربت إليه من قنوات حاقدة على الإسلام .

كما يتوجب على المؤرخين من أصحاب المنظور الإسلامي إعادة النظر في العديد من جوانب التاريخ العثماني وأن يحرصوا على تصحيح كثير من الأخطاء التي وقع فيها بعض المؤرخين المسلمين من جراء التبعية البحثية لمدارس التاريخ الغربي وترديد آراء المستشرقين من اليهود والنصارى ، لأنّه من العار أن تستمر

أجيالنا المسلمة في كثير من الأقطار الإسلامية في تلقي تلك الافتراءات على مقاعد المدارس والجامعات وكأنها يقين لا يرقى إليه الشك . كما أنه من العار أن تظل أجيالنا تجهل حقيقة الموقف الشامخ الذي وقفته الدولة العثمانية دفاعًا عن فلسطين . ومن الإجحاف أن لا تميز بين فترة حكم العثمانيين وبين فترة حكم الاتحاديين فتحكم على علاقة الترك بالعرب التي استمرت انموذجًا للأخوة الإسلامية لمدة ثلاثة قرون ونصف من خلال ممارسات دونمة الإتحاد والترقي الجائرة في حق العرب في السنوات الأخيرة من عمر الدولة العثمانية . ومن حق أجيالنا المسلمة أيضًا أن تعرف حقيقة شخصية مصطفى كمال ودوره في اسقاط الدولة العثمانية .

وهنا لا بد من كلمة أخيرة وهي أن كيد اليهود للمسلمين بكل ضراوته التي أشرنا إليها وكل خبثه ودنسه ليس ابن اليوم ولا ابن الأمس القريب إنما عمره أربعة عشر قرنًا ونيفًا أي منذ أن بزغ فجر الإسلام لا يكف إلا ريثما يشتعل من جديد ، وأن سماحة المسلمين وتساهلهم مع اليهود لم تنجح في القضاء على ما تضمره نفوسهم من عداوة لهم لأنها عداوة عميقة متغلغلة ليست مما يمكن تسويتها واجتثاث آثارها .

لذا فإنه قد آن للمسلمين أن يدركوا أن سياسة التسامح لا تجدي مع اليهود وأن تدعوهم التجارب المريرة إلى رسم استراتيجية جديدة تجاههم تستلهم سياسة الرسول صلى اللّـه عليه وسلم مع يهود يثرب وتستوعب قوله تعالى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ﴾ [(١)].

(١) المائدة : آية (٨٢) .

الملاحق

الملحق الأول :

[شعار جمعية الاتحاد والترقي] .

الملحق الثاني :

[صورة توضح مدى حرص الدونمة مصطفى كمال على قطع صلة الشعب التركي باللغة العربية حيث يعطي بنفسه دروس في طريقة كتابة اللغة التركية باللاتينية] .

الملحق الثالث :

[خريطة توضح موقع سلانيك]

الملحق الرابع :

[نص البرقية الداعية إلى عقد مؤتمر في خادم كوي لخلع السلطان عبد الحميد الثاني] .

الملحق الخامس :

[نص فتوى خلع السلطان عبد الحميد الثاني]

الملحق السادس :

[صورة الرسالة التي وجهها السلطان المخلوع (عبد الحميد) إلى الشيخ أبي الشامات] .

الملحق السابع :

[رسالة وزير الخارجية البريطاني بلفور إلى البارون اليهودي الانجليزي والتر روتشلد التي تضمنت وعده بانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين] .

الملحق الثامن والتاسع :

[خريطة توضح أهم مدن الأناضول] .

الملحق العاشر :

[صورة توضح خداع ونفاق الدونمة مصطفى كمال حيث يتوسط مجموعة من علماء الاسلام في تركيا قبل تسلمه الحكم] .

الملحق رقم (١)

[الشكل الأول شعار جمعية الاتحاد والترقي ويظهر من خلال مقارنته بالشكل الثاني انه هو نفسه شعار الماسونية].





UNIVERSI TERRARUM ORBIS ARCHITECTONIS AD GLORIAM INGENTIS

RITE ÉCOSSAIS
ANCIEN ACCEPTÉ

J

B

FŒDERATUM summæ gallicæ cellæ concilium testatur Fratrem, cujus nomen hic inscriptum est, quique his præsentibus litteris nomen suum subscripsit architectonicæ societatis mysteriis initiatum esse in justâ perfectâque ☐, iis temporibus quorum alibi mentio facta est.

Inde sequitur ut omnes Frat∴ M∴, ne unoquidem excepto, amicissimè jubeantur Frat∴, qui illo Magistri diplomate ornatur, bene accipere et ergà eum eâdem benevolentiâ uti qu'à inter sese Viduæ liberos uti decet.

LE CONSEIL FÉDÉRAL
de
La Grande Loge de France

certifie que le T∴ C∴ F∴
[illegible]

Donné à l'O∴ de Paris, le [illegible]

Le Grand Secrétaire Général,

Le Grand Maître,

THE Federal Council of the Grand Loge of France certifies that the undersigned was regulary initiated in a just, perfect and regular Lodge of Freemasons, and raised to the sublime degree of a Master Mason, on the dates stated hereon, and that he is duly registered in the books of this Grand Lodge accordingly.

This certificate shall not entitle any brother to admission in any Lodge without examination.

Signature du Titulaire :

• LIBERTÉ •

• ÉGALITÉ •

• FRATERNITÉ •

[صورة شهادة ماسونية ظهرت عليها شعارات الماسونية]

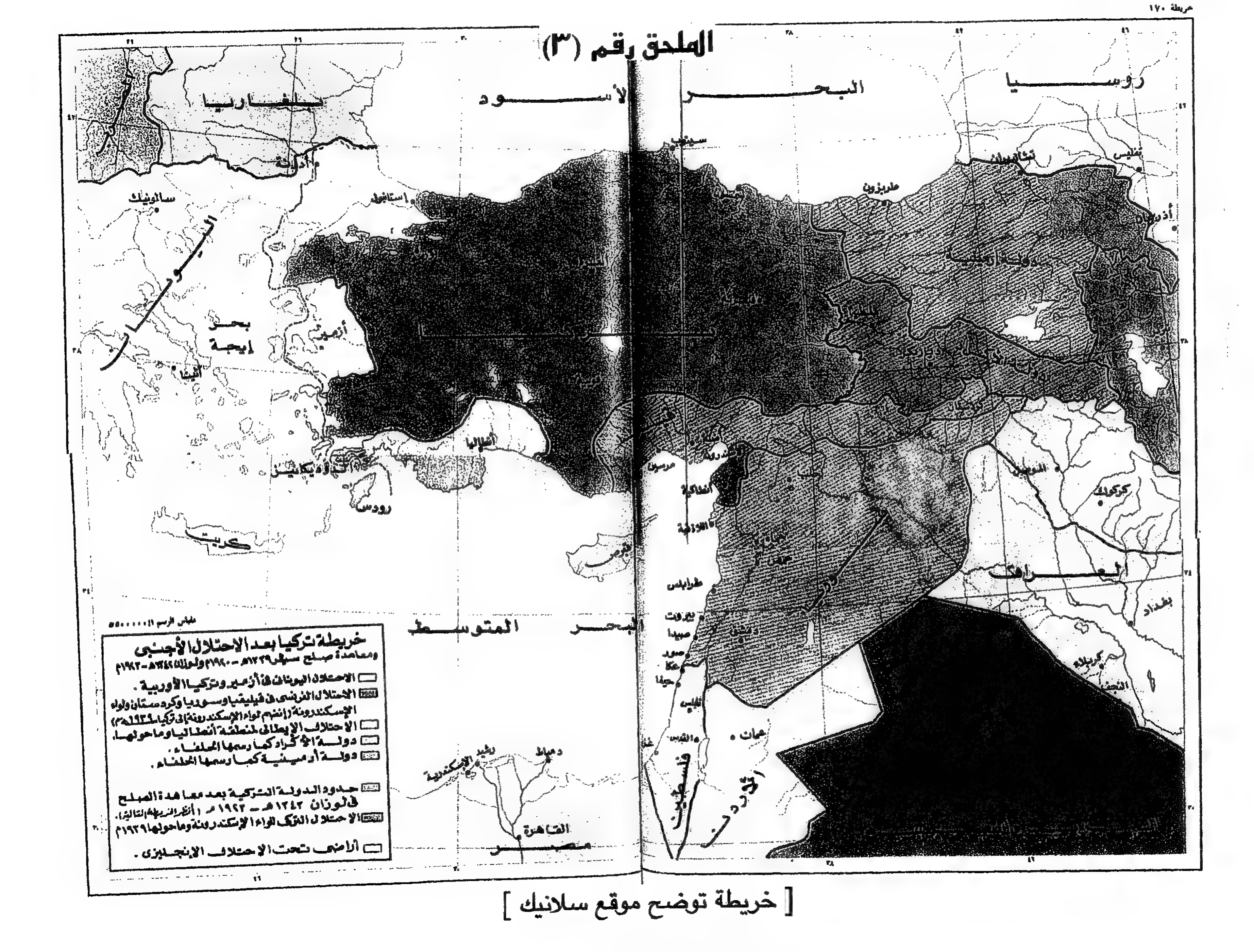
نقلاً عن حسان حلاق : موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ، ص ٣٧٠.

الملحق رقم (٢)



[صورة توضح مدى حرص الدونمة مصطفى كمال على قطع صلة الشعب التركي باللغة العربية حيث يعطي بنفسه دروس في طريقة كتابة اللغة التركية باللاتينية] .

نقلاً عن محمد عزة دروزه : تركيا الحديثة ، ص ١٢١ .



[خريطة توضح موقع سلانيك]

حسين مؤنس : أطلس تاريخ الإسلام .

الملحق رقم (٤)

نص البرقية الداعية إلى عقد مؤتمر في خادم كوي لخلع السلطان عبد الحميد الثاني . وهي موجهة إلى الشخصيات اليهودية والدونمة .

No du dépôt	Nombre de mots	Groupe	Date du dépôt	Heure	Minutes	Valeur	Voie	Indications non taxées

تعريب الملحق رقم (٤)

الرجا إبلاغ البكوات حسين جاهد وجاويد ورحمي وقره صو افندي الذين علمنا وجودهم لديكم والنواب الآخرين ، بضرورة القدوم إلى خادم كوي في أول قطار .

٥ نيسان ١٣٢٥

القائمقام
جمال

القائمقام
صلاح الدين

اميرالاي اركان حرب
حسن عزت

نقلاً عن حسان حلاق : موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ، ص ٣٦٤ .

الملحق رقم (٥)

[نص فتوى خلع السلطان عبد الحميد الثاني]

« إذا قام إمام المسلمين زيد فجعل ديدنه طي وإخراج المسائل الشرعية المهمة من الكتب الشرعية ، وجمع الكتب المذكورة وإحراقها والتبذير والإسراف من بيت المال وإنفاقه خلاف المسوغات الشرعية ، وبقتل وحبس وتغريب الرعية بلا سبب شرعي وسائر المظالم الأخرى ثم أقسم على الرجوع عن غيه ، ثم عاد فحنث وأصر على إحداث فتنة ليخل بها وضع المسلمين كافة فورد من المسلمين من كافة الأقطار الإسلامية بالتكرار ما يشعر باعتبار زيد هذا مخلوعاً ، فلوحظ أن في بقائه ضرراً محققاً وفي زواله صلاحاً فهل يجب على أهل الحل والعقد وأولياء الأمور أن يعرضوا على زيد المذكور التنازل عن الخلافة والسلطنة أو خلعه من قبلهم . الجواب : نعم . يجب .

التوقيع

كتبه الفقير السيد محمد ضياء الدين
عفا الله عنه

نقلاً عن مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ، ص ٩٨ .

الملحق رقم (٦)

صورة الصفحة الأولى من الرسالة التي وجهها السلطان المخلوع « عبدالحميد » إلى الشيخ أبي الشامات باللغة التركية وبخط السلطان نفسه.

صورة الصفحة الثانية من رسالة السلطان إلى الشيخ أبي الشامات وقد ظهر في أسفلها توقيع السلطان عبدالحميد وتاريخ الرسالة.

نقلاً عن شيريب سبيريدوفيتش ، ص ٢٢ ، ٢٣ .

الملحق رقم (٧)

Foreign Office.
November 2nd, 1917

Dear Lord Rothschild.

I have much pleasure in conveying to you, on behalf of His Majesty's Government, the following declaration of sympathy with Jewish Zionist aspirations which has been submitted to, and approved by, the Cabinet

"His Majesty's Government view with favour the establishment in Palestine of a national home for the Jewish people, and will use their best endeavours to facilitate the achievement of this object, it being clearly understood that nothing shall be done which may prejudice the civil and religious rights of existing non-Jewish communities in Palestine, or the rights and political status enjoyed by Jews in any other country".

I should be grateful if you would bring this declaration to the knowledge of the Zionist Federation

Yours sincerely

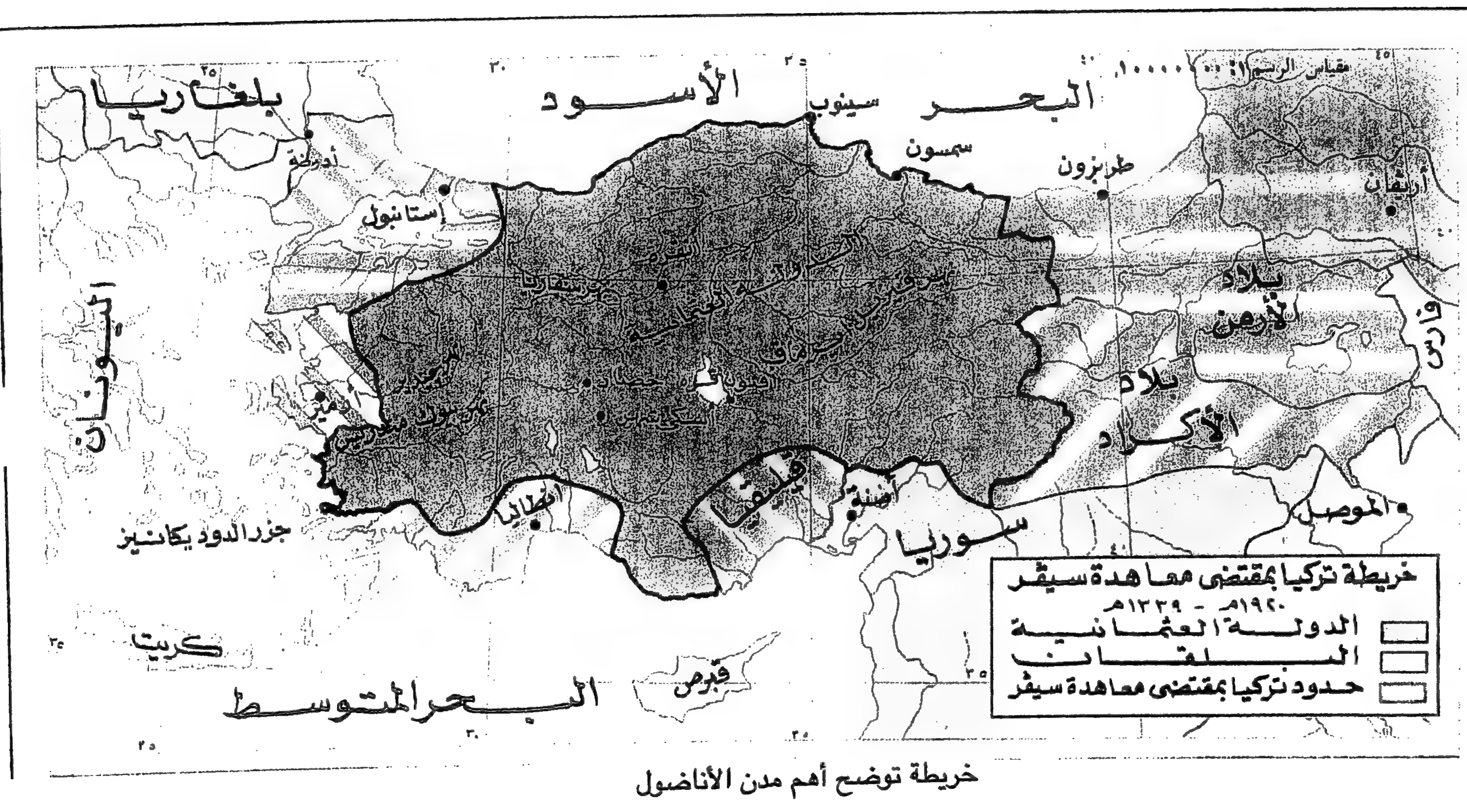
Arthur James Balfour

Facsimile reproduction of the Balfour Declaration.

[رسالة وزير الخارجية البريطاني بلفور إلى البارون اليهودي الانجليزي والتر روتشلد التي تضمنت وعده بانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين] .

نقلاً عن حسن صبري الخولي : سياسة الاستعمار الصهيونية ، ج ١ ، ص ٢٠٥ .

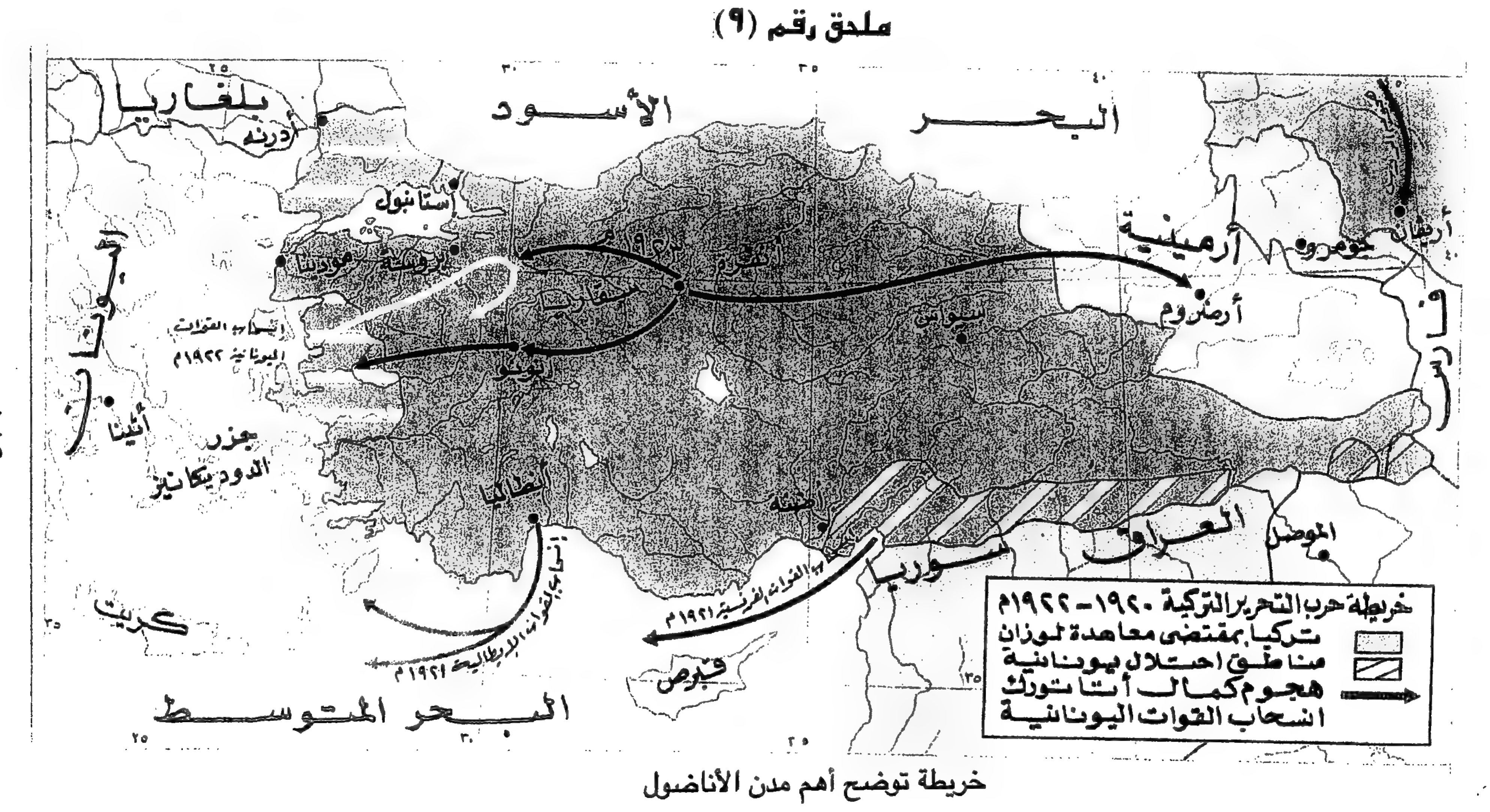
ملحق رقم (٨)



خريطة توضح أهم مدن الأناضول

نقلاً عن حسين مؤنس : أطلس تاريخ الإسلام .

ملحق رقم (٩)



خريطة توضح أهم مدن الأناضول

نقلاً عن حسين مؤنس : أطلس تاريخ الإسلام .

الملحق رقم (١٠)



[صورة توضح خداع ونفاق الدونمة مصطفى كمال حيث يتوسط مجموعة من علماء الاسلام في تركيا قبل تسلمه الحكم] .

نقلاً عن عبدالله التل : الأفعى اليهودية في معاقل الاسلام ، ص ٩١ .

فهرس المصادر والمراجع

فهـــرس المصادر والمراجع

أولاً : الوثائـــق :

-Foreign Office Papers (Public Record Office London) .

F.O.800/193.A .

F.O.371/1014, No.635 .

ثانيًا : المصادر العربية :

١ – القرآن الكريم .

٢ – إبراهيم بك حليم : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية، الطبعة لأولى، بيروت : مؤسسة الكتب الثقافية ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .

٣ – أحمد بن محمد المقري التلمساني : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق : إحسان عباس ، ٨ أجزاء ، بيروت : دار صادر ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م .

٤ – إسماعيل سرهنك : تاريخ الدولة العثمانية ، بيروت : دار الفكر الحديث، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .

٥ – إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، جزءان ، الطبعة الأولى ، القاهرة : المطبعة الأميرية ، ١٣١٢هـ / ١٨٩٥م .

٦ – أمين الريحاني : تاريخ نجد الحديث وملحقاته وسيرة عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل آل سعود ملك الحجاز ونجد وملحقاتهما ، الطبعة الثانية ، بيروت : دار الريحاني للطباعة والنشر ، ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م .

٧ – تقي الدين أحمد بن علي المقريزي : الموعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ٣ أجزاء ، القاهرة : دار التحرير للطبع والنشر، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م .

٨ - جمال الدين ابن منظور : لسان العرب ، ١٥ جزء ، الطبعة الأولى ، بيروت : دار صادر .

٩ - سليمان بن الأشعث السجستاني : سنن أبي داود ، تعليق : عزت عبيد الدعاس ، ٥ أجزاء ، حمص : دار الحديث .

١٠ - شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموي : معجم البلدان ، ٥ أجزاء ، الطبعة الثانية ، بيروت : دار صادر ، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م .

١١ - عبدالرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، ٤ أجزاء ، بيروت : دار النفائس للطباعة والنشر .

١٢ - عبد الملك بن هشام الحميري : السيرة النبوية ، تعليق : عمر عبدالسلام تدمري ، ٤ أجزاء ، الطبعة الأولى ، القاهرة : دار الريان للتراث ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م .

١٣ - محمد بن الحجاج القشيري : صحيح مسلم . تحقيق : محمد فؤاد عبدالباقي ، ٥ أجزاء ، الطبعة الأولى ، بيروت : دار إحياء التراث العربي ، ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م .

١٤ - محمد بن جرير الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ٦ أجزاء ، الطبعة الثانية ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .

١٥ - محمد بن عبد الكريم الشهرستاني : الملل والنحل ، جزءان ، الطبعة الأولى ، بيروت : مؤسسة الكتب الثقافية ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م .

١٦ - محمد عزة دروزة : القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها ، جزءان ، الطبعة الثانية ، منظمة التحرير الفلسطينية ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

١٧ - محمد عزة دروزه : تركيا الحديثة ، بيروت : مطبعة الكشاف، ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م .

١٨ – محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق : إحسان حقي ، الطبعة الخامسة ، بيروت : دار النفائس ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .

١٩ – محمد كرد علي : خطط الشام ، ٦ أجزاء ، الطبعة الثانية ، بيروت : دار القلم ، ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م .

٢٠ – مصطفى صبري : النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة ، تقديم ودراسة : مصطفى حلمي ، الطبعة الأولى ، الإسكندرية : دار الدعوة ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

٢١ – يوسف بك آصاف: تاريخ سلاطين بني عثمان من أول نشأتهم حتى الآن، الطبعة الأولى ، القاهرة : مكتبة مدبولي ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م .

ثالثًا : المصادر الأجنبية المعربة :

١ – الكتاب المقدس . دار الكتاب المقدس في العالم العربي . بيروت .

٢ – جواد رفعت آتلخان : أسرار الماسونية ، تعريب : نور الدين الواعظ وَ سليمان القابلي ، بغداد : ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م .

٣ – جواد رفعت آتلخان : الإسلام وبنو إسرائيل ، تعريب : يوسف وليشاه أورالكيراي، الرياض : مطبعة سفير ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

٤ – ضابط تركي سابق : الرجل الصنم كمال أتاتورك ، تعريب : عبدالله عبدالرحمن ، جزءان ، الطبعة الرابعة ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م .

٥ – لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامي ، تعريب : عجاج نويهض ، تعليق : شكيب ارسلان ، ٤ أجزاء ، الطبعة الرابعة ، بيروت : دار الفكر ، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٣م .

٦ - لورانس : الثورة العربية ، تعريب : شعبان بركات ، الطبعة الثانية ، عمان : المطبعة الأهلية للنشر والتوزيع ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .

٧ - مذكرات الأميرة عائشة عثمان أوغلي : والدي السلطان عبد الحميد الثاني ، تعريب : صالح سعداوي صالح ، الطبعة الأولى ، عمان : دار البشير للنشر والتوزيع ، ١٤١١هـ / ١٩٩١م .

٨ - مذكرات السلطان عبد الحميد : تعريب وتقدم : محمد حرب ، الطبعة الثالثة ، دمشق : دار القلم ، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م .

٩ - مذكرات لورد غراي وتبعة الحرب العالمية الكبرى . تعريب : علي أحمد شكري ، مصر : المطبعة الرحمانية ، ١٣٤٨هـ / ١٩٢٩م .

١٠ - مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ، تعريب : كمال خوجه ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ، حلب ، بيروت : دار السلام للطباعة والنشر ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

١١ - مصطفى طوران : يهود الدونمة ، تعريب : كمال خوجه ، الطبعة الأولى، بيروت : دار السلام للطباعة والنشر ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .

١٢ - هـ . س . أرمسترونج : الذئب الأغبر مصطفى كمال ، القاهرة : دار الهلال ، ١٣٧١هـ / ١٩٥٢م .

١٣ - يوميات هرتزل : تعريب : هلدا صايغ ، الطبعة الأولى ، بيروت : مركز الأبحاث ، منظمة التحرير الفلسطينية ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م .

رابعًا : المراجع العربية :

١ - اتحاد الجامعات العربية:القضية الفلسطينية والصراع العربي الصهيوني، جزءان ، الموصل : الأمانة العامة لاتحاد الجامعات العربية ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

٢ - أحمد أمين : زعماء الصلاح في العصر الحديث ، بيروت : دار الكتاب العربي .

٣ - أحمد السعيد سليمان : التيارات القومية والدينية في تركيا المعاصرة ، القاهرة : دار المعرفة ، ١٣٨١هـ / ١٩٦١م .

٤ - أحمد شلبي : مقارنة الأديان (١) اليهودية ، الطبعة العاشرة ، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية ، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م .

٥ - أحمد شوقي : الشوقيات ، ٤ أجزاء ، بيروت : دار مكتبة التربية ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م .

٦ - أحمد عبدالله الزغيبي: العنصرية اليهودية وآثارها في المجتمع الإسلامي والموقف منها ، ٤ أجزاء ، الطبعة الأولى ، الرياض : مكتبة العبيكان ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م .

٧ - أحمد فهد الشوابكة : فكرة الجامعة الإسلامية ، الأردن : مكتبة المنار، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

٨ - أحمد نوري النعيمي : اليهود والدولة العثمانية ، الطبعة الأولى ، بيروت: مؤسسة الرسالة ، عمان : دار البشير ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م .

٩ - أحمد نوري النعيمي : يهود الدونمة ، الطبعة الأولى ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، عمان : دار البشير ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م .

١٠ – أسعد السحمراني : الماسونية نشأتها وأهدافها ، الطبعة الثانية ، بيروت : دار النفائس ، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م .

١١ – إسماعيل أحمد ياغي : الجذور التاريخية للقضية الفلسطينية ، الرياض: دار المريخ ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

١٢ – إسماعيل أحمد ياغي : الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، الطبعة الثانية ، الرياض : مكتبة العبيكان ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م .

١٣ – إسماعيل الكيلاني : فصل الدين عن الدولة ، الطبعة الأولى ، بيروت : المكتب الإسلامي ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .

١٤ – أكرم ضياء العمري : عصر الخلافة الراشدة ، محاولة لنقد الرواية التاريخية وفق منهج المحدثين ، الطبعة الأولى ، الرياض : مكتبة العبيكان ، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م .

١٥ – السيد رجب حراز : صفحات من تاريخ الصهيونية وإسرائيل ، القاهرة: ١٣٩٥هـ / ١٩٧٤م .

١٦ – المعجم الوسيط : إعداد مجمع اللغة العربية بمصر ، جزءان ، الطبعة الثانية ، استانبول : دار الدعوة للطباعة والنشر ، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م .

١٧ – الندوة العالمية للشباب الإسلامي: الموسوعة الميسره في الأديان والمذاهب المعاصرة ، الطبعة الثانية ، الرياض : مطبعة سفير ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م .

١٨ – أنور الجندي : اليقظة الإسلامية في مواجهة الإستعمار ، القاهرة : دار الاعتصام .

١٩ - أنيس المقدسي : الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية ، الطبعة الثالثة ، بيروت : دار العلم للملايين ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .

٢٠ - اورخان محمد علي : السلطان عبد الحميد الثاني، حياته وأحداث عهده، الطبعة الأولى ، الكويت : دار الوثائق ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م .

٢١ - بشير موسى نافع : الامبريالية والصهيونية والقضية الفلسطينية ، الطبعة الأولى ، القاهرة : دار الشروق ، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م م .

٢٢ - جلال يحيى : المغرب الكبير ، ٤ أجزاء ، بيروت : دار النهضة العربية ، ١٤٠١هـ /١٩٨١م .

٢٣ - جميل عبدالله المصري : حاضر العالم الإسلامي وقضاياه المعاصرة ، جزءان ، الطبعة الثانية ، عمان : دار أم القرى ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م .

٢٤ - جهاد صالح : الطورانية التركية بين الأصولية والفاشية، الطبعة الأولى، بيروت : دار الصداقة للطباعة والنشر ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

٢٥ - حبيب قهوجي : استراتيجية الاستيطان الصهيوني في فلسطين المحتلة، دمشق : مؤسسة الأرض المحتلة للدراسات الفلسطينية ، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م .

٢٦ - حسان حلاق : موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ، الطبعة الثانية ، بيروت: الدار الجامعية للطباعة والنشر ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

٢٧ - حسن صبري الخولي : سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين ، جزءان ، القاهرة : دار المعارف للطباعة والنشر ، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٣م .

٢٨ – حسن ظاظا : الفكر الديني اليهودي ، الطبعة الثالثة ، دمشق : دار القلم ، بيروت : الدار الشامية ، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م .

٢٩ – حسين مجيب المصري : معجم الدولة العثمانية ، القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

٣٠ – خلف بن دبلان الوذيناني : الدولة العثمانية والغزو الفكري ، حتى عام ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م ، الطبعة الأولى ، مكة المكرمة : مطابع جامعة أم القرى ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م .

٣١ – خير الدين الزركلي : الأعلام ، ٨ أجزاء ، الطبعة السابعة ، بيروت : دار العلم للملايين ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .

٣٢ – خيرية قاسمية : الحكومة العربية في دمشق بين ١٩١٨ – ١٩٢٠م ، الطبعة الأولى ، القاهرة : دار المعارف ، ١٣٩٠هـ / ١٩٧١م .

٣٣ – داود عبد الغفور سنقرط : أبناء يهود في الخفاء . اليهود في الوطن العربي ، الطبعة الأولى، عمان : دار الفرقان ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

٣٤ – داود عبد الغفور سنقرط : القوى الخفية لليهودية العالمية الماسونية ، الطبعة الأولى ، عمان : دار الفرقان ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

٣٥ – داود عبد الغفور سنقرط : جذور الفكر اليهودي ، الطبعة الأولى ، عمان: دار الفرقان ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

٣٦ – رفعت سيد أحمد : وثائق حرب فلسطين ، الملفات السرية للجنرالات العرب ، القاهرة : مكتبة مدبولي ، ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م .

٣٧ – رفيق النتشة : الاستعمار وفلسطين . إسرائيل مشروع استعماري ، عمان : دار الجليل للنشر ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

٣٨ - رفيق النتشة : السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين . السلطان الذي خسر عرشه من أجل فلسطين ، الطبعة الخامسة ، القاهرة : مكتبة مدبولي ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .

٣٩ - زكريا بيومي : قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ، التحالف الصليبي الماسوني الاستعماري وضرب الاتجاه الإسلامي ، الطبعة الأولى ، جده : عالم المعرفة للنشر والتوزيع ، ١٤١١هـ / ١٩٩١م .

٤٠ - زهدي الفاتح : لورنس العرب على خطى هرتزل ، الطبعة الرابعة ، بيروت : دار النفائس ، ١٤١١هـ / ١٩٩١م . .

٤١ - زياد أبو غنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، الطبعة الثانية ، عمان : دار الفرقان ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .

٤٢ - زين نور الدين زين : الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان ، الطبعة الثانية ، بيروت : دار النهار للنشر ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .

٤٣ - زين نور الدين زين : نشوء القومية العربية ، الطبعة الثانية ، بيروت : دار النهار للنشر ، ١٣٩٣هـ / ٩٧٢م .

٤٤ - ساطع الحصري : محاضرات في نشوء الفكرة القومية ، الطبعة الثانية، بيروت : منشورات مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

٤٥ - سعد الدين السيد صالح : العقيدة الصهيونية وخطرها على الانسانية ، الطبعة الثانية ، القاهرة : دار التابعين للنشر والتوزيع ، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م .

٤٦ – سعيد برجاوي : الامبراطورية العثمانية، تاريخها السياسي والعسكري، بيروت : الأهلية للنشر والتوزيع ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م .

٤٧ – سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، جزءان ، الطبعة الثانية، القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .

٤٨ – س . ناجي : المفسدون في الأرض ... جرائم اليهود السياسية والاجتماعية عبر التاريخ ، الطبعة الثانية ، دمشق : العربي للإعلان والنشر ، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٣م .

٤٩ – شاهين مكاريوس : الأسرار الخفية في الجمعية الماسونية ، الطبعة الثانية ، بيروت : دار مارون عبود ، ١٤٠٣هـ / ٩٨٣م .

٥٠ – شوقي أبو خليل : حركات التحرر العربية ، الطبعة الرابعة ، دمشق : دار الفكر ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

٥١ – صابر طعيمة : التاريخ اليهودي العام ، جزءان ، الطبعة الثالثة ، بيروت: دار الجيل ، ١٤١١هـ / ١٩٩١م .

٥٢ – صابر طعيمة : الماسونية ذلك العالم المجهول ، الطبعة الثانية ، بيروت : دار الجيل ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .

٥٣ – صادق جلال العظم : الصهيونية والصراع الطبقي ، الطبعة الأولى ، بيروت : دار العودة ، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م .

٥٤ – صالح مسعود أبو يصير : جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن ، الطبعة الثانية ، بيروت : دار الفتح للطباعة والنشر ، ١٣٨٩هـ / ١٩٧٠م .

٥٥ - صبري جريس : تاريخ الصهيونية ، بيروت : مركز الأبحاث الفلسطينية، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

٥٦ - طاهر شاش : التطرف الإسرائيلي جذوره وحصاده ، الطبعة الأولى ، القاهرة : دار الشروق ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م .

٥٧ - عايض بن خزَّام الروقي : حروب البلقان والحركة العربية في المشرق العربي العثماني ١٣٣٠ - ١٣٣٢هـ / ١٩١٢-١٩١٣م ، الطبعة الأولى ، مكة المكرمة : جامعة أم القرى، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م .

٥٨ - عبدالرحمن حبنكة الميداني : مكائد يهودية عبر التاريخ ، بيروت : دار العلم ، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٤م .

٥٩ - عبد الحليم عويس : دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية ، الطبعة الثالثة، جدة : دار الشروق ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م .

٦٠ - عبدالرؤف أحمد عمرو : قناة السويس في العلاقات الدولية ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .

٦١ - عبد السميع سالم الهراوي : الصهيونية بين الدين والسياسة ، القاهرة: مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .

٦٢ - عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، أربعة أجزاء ، القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٤٠٠، ١٤٠٣ ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٠ ، ١٩٨٣ ، ١٩٨٦م .

٦٣ - عبد العزيز الشناوي : قناة السويس والتيارات السياسية التي أحاطت بانشائها ، جزءان ، القاهرة : مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية : ١٣٩١هـ / ١٩٧١م .

٦٤ – عبد العزيزالمحمد السلمان : الأسئلة والأجوبة الفقهية ، سبعة أجزاء ، الطبعة الحادية عشر ، الرياض : ١٤١٣هـ / ٩٩٣م .

٦٥ – عبد العزيز نوار : الشعوب الإسلامية ، بيروت : دار النهضة العربية ، ١٤١١هـ / ١٩٩١م .

٦٦ – عبدالله التل : الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام ، الطبعة الثانية ، بيروت : المكتب الإسلامي .

٦٧ – عبدالله التل : خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية ، الطبعة الأولى ، دمشق : دار القلم ، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م .

٦٨ – عبدالله عنان : تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة ، الطبعة الثالثة ، القاهرة : مؤسسة المختار ، ١٤١١هـ / ١٩٩١م .

٦٩ – عبد الوهاب المسيري : اليد الخفية دراسة في الحركات اليهودية الهدامة والسرية ، الطبعة الأولى ، القاهرة : دار الشروق ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م .

٧٠ – عجاج نويهض : بروتوكولات حكماء صهيون ، جزءان ، مصر : دار التعاون للطبع والنشر ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م .

٧١ – علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، الطبعة الثالثة ، بيروت : المكتب الإسلامي ، ١٤٠٥هـ / ١٩٩٤م .

٧٢ – غازي محمد فريج : النشاط السري اليهودي في الفكر والممارسة ، الطبعة الأولى ، بيروت : دار النفائس للطباعة والنشر ، ١٤١١هـ / ١٩٩٠م .

٧٣ – فتحي شهاب الدين : كيف سقطت الخلافة الإسلامية ، الطبعة الأولى ، طنطا : دار البشير للثقافة والعلوم ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م .

٧٤ – فؤاد الرفاعي : النفوذ اليهودي في الأجهزة الإعلامية والمؤسسات الدولية ، الكويت : دار صلاح الدين ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

٧٥ – فؤاد الرفاعي : حقيقة اليهود ، الكويت : دار صلاح الدين ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .

٧٦ – قيس جواد العزاوي : الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، الطبعة الأولى ، بيروت : الدار العربية للعلوم ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.

٧٧ – لطيفة محمد سالم : مصر في الحرب العالمية الأولى ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٣٨٤هـ / ١٩٨٤م .

٧٨ – ماجد الكيلاني : الخطر الصهيوني على العالم الإسلامي ، الطبعة الثالثة ، جدة : الدار السعودية للنشر ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م .

٧٩ – محمد أبو زهرة : خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ، ٣ أجزاء ، القاهرة : دار الفكر العربي .

٨٠ – محمد الغزالي : فقه السيرة ، الطبعة السابعة ، القاهرة : دار الكتاب الحديث ، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م .

٨١ – محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي ، القاهرة : مكتبة سعيد رأفت ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .

٨٢ – محمد ثابت الشاذلي : المسألة الشرقية ، الطبعة الأولى ، القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩ م .

٨٣ – محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، الطبعة الأولى ، دمشق : دار القلم ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م .

٨٤ – محمد خليفة التونسي : الخطر اليهودي بروتوكولات حكماء صهيون ، الطبعة السابعة، بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

٨٥ – محمد سعيد البوطي: فقه السيرة ، الطبعة الثامنة ، دمشق : دار الفكر، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .

٨٦ – محمد سيد طنطاوي : بنو إسرائيل في القرآن والسنة ، الطبعة الأولى ، القاهرة : دار الشروق ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م .

٨٧ – محمد سهيل طقوش : العثمانيون من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة ، الطبعة الأولى ، بيروت : دار بيروت المحروسة ، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م .

٨٨ – محمد شفيق غربال وآخرون : الموسوعة العربية الميسرة ، جزءان ، بيروت : دار نهضة لبنان ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

٨٩ – محمد عبد الرحمن برج : دراسة في التاريخ العربي الحديث والمعاصر، القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م .

٩٠ – محمد عبدالطيف البحراوي : حركة الإصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني ، الطبعة الأولى ، القاهرة : دار التراث ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .

٩١ – محمد علي الزعبي : الماسونية في العراء ، بيروت : دار الجيل .

٩٢ – محمد علي الزعبي : الماسونية منشئة ملك إسرائيل ، بيروت : المكتبة الثقافية ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .

٩٣ - محمد علي خرم آبادي : الصهيونية وواجب المسلمين تجاهها ، الطبعة الأولى ، بغداد : منشورات المكتبة العلمية ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م .

٩٤ - محمد عمر : يهود الدونمة ، الطبعة الثالثة ، الكويت : دار الوثائق ، ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م .

٩٥ - محمد قربان نياز ملا : السلطان عبد الحميد الثاني وأثره في نشر الدعوة الإسلامية ، الطبعة الأولى ، بيروت : دار البشائر الإسلامية، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .

٩٦ - محمد قطب : واقعنا المعاصر ، الطبعة الثانية ، جدة : مؤسسة المدينة للطباعة والنشر ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .

٩٧ - محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، القاهرة : دار الثقافة للطباعة والنشر ، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م .

٩٨ - محمد كمال الدسوقي : السياسة الدولية وفلسطين ، القاهرة : دار الثقافة للطباعة والنشر ، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م .

٩٩ - محمد ناصر الدين الألباني : صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) ، جزءان ، الطبعة الثانية ، بيروت : المكتب الإسلامي ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .

١٠٠ - محمود حسن منسي : تصريح بلفور ، القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م .

١٠١ - محمود شاكر : التاريخ الإسلامي ، العهد العثماني ، الطبعة الثالثة ، بيروت ، دمشق ، عمان : المكتب الإسلامي ، ١٤١١هـ / ١٩٩١م .

١٠٢ - محمود صالح منسي : حركة اليقظة العربية في الشرق الآسيوي ، القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .

١٠٣ - مؤسسة الدراسات الفلسطينية : فلسطين تاريخها وقضيتها ، الطبعة الأولى ، قبرص : شركة الخدمات النشرية المستقلة ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

١٠٤ - موفق بني المرجة : صحوة الرجل المريض ، الطبعة الأولى ، بيروت : دار البيارق ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

١٠٥ - نادية محمود مصطفى وآخرون : العلاقات الدولية في التاريخ الإسلامي (العصر العثماني) ، الطبعة الأولى ، القاهرة : المعهد العالي للفكر الإسلامي ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م .

١٠٦ - يوسف بن علي الثقفي : الهدف الأرعن لمعاهدة فيصل - وايزمن لعام ١٣٣٨هـ / ١٩١٩م ، الطبعة الأولى ، الطائف : دار الحارثي ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م .

١٠٧ - يوسف بن علي الثقفي : دراسات متميزة في العلاقات بين الشرق والغرب على مر العصور ، الطبعة الثانية ، مكة المكرمة : دار الثقة للنشر والتوزيع ، ١٤١١هـ / ١٩٩٠م .

١٠٨ - يوسف بن علي الثقفي : موقف أوربا من الدولة العثمانية ، الطبعة الأولى ، الطائف : دار الحارثي للطباعة والنشر ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م .

خامسًا : المراجع الأجنبية المعربة :

١ - ارنست . أ. رامزور : تركية الفتاة وثورة ١٩٠٨م، تعريب : صالح العلي، بيروت : دار مكتبة الحياة ، ١٣٧٩هـ / ١٩٦٠م .

٢ - أكمل الدين إحسان اوغلي وآخرون : الدولة العثمانية تاريخ وحضارة ، تعريب : صالح سعداوي ، جزءان ، الطبعة الأولى ، استانبول : مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية ، ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩م .

٣ - ا . ل . شاتليه : الغارة على العالم الإسلامي ، تعريب : مساعد اليافي وَ محب الدين الخطيب ، الطبعة الثانية، جدة : الدار السعودية للنشر، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م .

٤ - أوغست روهلنج : الكنز المرصود في قواعد التلمود ، تعريب : يوسف نصرالله ، الطبعة الأولى ، دمشق : دار القلم للطباعة والنشر ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م .

٥ - إيلان هاليفي : المسألة الصهيونية، تعريف : فؤاد جديد ، الطبعة الأولى، دمشق : مكتب الخدمات الطباعية ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .

٦ - برنارد لويس : استانبول وحضارة الخلافة الإسلامية ، تعريب : سيد رضوان علي ، الطبعة الثانية ، الرياض : الدار السعودية للنشر ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .

٧ - بولاك : إسرائيل أمة وتاريخها ، تعريب : رسمي بيادسة ، تل أبيب ، ١٣٩١هـ / ١٩٧١م .

٨ - بيير رنوفان : تاريخ العلاقات الدولية ، تعريب : جلال يحيى ، جزءان ، القاهرة : دار المعارف ، ١٣٩٨ - ١٤٠٠هـ / ١٩٧٨ - ١٩٨٠م .

٩ - ج . ل . ن . جفريز : فلسطين إليكم الحقيقة ، تعريب : أحمد خليل الحاج ، ٤ أجزاء ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٣٩٠هـ / ١٩٧١م .

١٠ - جورج انطونيوس : يقظة العرب ، تعريب : ناصر الدين الأسد وإحسان عباس ، الطبعة الثانية ، بيروت : دار العلم للملايين ، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م .

١١ - حسن جيلان : الصراع بين الإسلام والعلمانية ، تعريب : كمال خوجه ، الطبعة الأولى ، جدة : دار القبلة للثقافة الإسلامية ، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢م .

١٢ - ديزموند ستيوارت : تيودور هرتزل مؤسس الحركة الصهيونية، تعريب : فوزي وفاء وَ إبراهيم منصور ، الطبعة الثانية ، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م .

١٣ - روجيه غارودي : إسرائيل بين اليهودية والصهيونية ، تعريب : حسين حيدر ، الطبعة الأولى ، بيروت : دار التضامن ، ١٤١١ هـ / ١٩٩٠م .

١٤ - شيريب سبيريد وفيتش : حكومة العالم الخفية ، تعريب : مأمون سعيد، الطبعة التاسعة ، بيروت : دار النفائس ، ١٤١١هـ / ١٩٩٠م .

١٥ - كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، تعريب : نبيه أمين فارس وَ منير البعلبكي ، الطبعة الثانية عشر ، بيروت : دار العلم للملايين ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م .

١٦ - ميم كامل أوكي : السلطان عبد الحميد بين الصهيونية العالمية والمشكلة الفلسطينية ، تعريب : إسماعيل صادق ، الطبعة الأولى ، القاهرة : الزهراء للإعلام العربي ، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م .

١٧ - وليام غاي كار : أحجار على رقعة الشطرنج ، تعريب : سعيد جزائرلي، الطبعة الثالثة عشر ، بيروت : دار النفائس ، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م .

١٨ - وليام غاي كار : الدنيا لعبة إسرائيل ، تعريب : لوسيان دي شريميه ، بيروت : كولار فيوز كومباني .

١٩ - هارولد تمبرلي وَ أ . ج . جرانت : أوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين ، تعريب : محمد أبو درة وَ لويس اسكندر ، جزءان ، القاهرة : مؤسسة سجل العرب ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .

٢٠ - هنري فورد : اليهودي العالمي . المشكلة الأولى التي تواجه العالم ، تعريب : خيري حماد ، بيروت : المكتب التجاري للطباعة والنشر ، ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م .

٢١ - يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، تعريب : عدنان محمود سلمان، الطبعة الأولى ، استانبول : مؤسسة فيصل للتمويل ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م .

٢٢ - يوري إيفانوف : الصهيونية ... حذار ، تعريب : ماهر عسل ، الهيئة العامة للتأليف والنشر ، دار الكتاب العربي ، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات